تل جنديرس في سهل العمق (دراسة تاريخية- أثرية)

الدكتور نائل حنون
قسم الآثار
جامعة دمشق

الدكتور عمار عبد الرحمن
المديرية العامة للآثار والمتاحف

يقع تل جنديرس في شمال-غرب سورية عند خط العرض ٢٢ ٣٦ ْشمالاً وخط الطول ٤٠ َ٣٦ ْشرقاً في (شكل ١). ويتوسط هذا التل سهل العمق الذي يمثل معلماً جغرافياً أساسياً في هذا الجزء من سورية. يمتد سهل العمق من الشمال- الشرقي إلى الجنوب- الغربي فيما بين جبل سمعان في الشرق وجبال الأمانوس في الغرب. ويبتدئ هذا السهل من شمال منطقة الحدود السورية- التركية وينتهي في الجنوب الغربي عند ساحل البحر المتوسط حيث مصب نهر العاصي. وفي وسط القسم الشمالي من السهل تمتد مرتفعات جبلية متفرعة من جبال طوروس لتشكل ما يعرف باسم جبل حلب، وتنتهي في منطقة الحمام على بعد ٩كم إلى الجنوب الغربي من تل جنديرس. تعطي هذه المرتفعات الجبلية لسهل العمق شكل الحرف اللاتيني Y، إذ أنها تشطر القسم الشمالي منه إلى شطرين يلتقيان في منطقة الحمام. الشطر الشرقي هو سهل عفرين الذي يجري فيه نهر عفرين، والشطر الغربي هو سهل انطاكية ويجري فيه النهر الأسود. وتلتقي مياه النهرين في بحيرة العمق قبل أن تصب في نهر العاصي قبل وصوله إلى مدينة انطاكية. ونهر العاصي يدخل إلى سهل العمق من الجنوب بعد مروره بسهل الغاب، ثم يستدير إلى الغرب في انحناءة كبيرة ليجد منفذاً له في أسفل السهل، بين جبلي الأمانوس والأقرع، متجهاً إلى مصبه في البحر المتوسط.

تمثل جبال الأمانوس معلماً جغرافياً بارزاً في شمال-غربي سورية مطلاً على سهل العمق في الشرق وعلى خليج الاسكندرونة في الغرب حيث لا يفصلها عن ساحل البحر المتوسط، سوى سهل ساحلي ضيق تقوم في وسطه مدينة الاسكندرونة. ومن الجدير بالذكر إن خليج الاسكندرونة هو الخليج الوحيد في الساحل الشرقي للبحر المتوسط. فهذا الساحل يتصف بخلوه من الخلجان واستقامته تقريباً مع بروز بعض الرؤوس البرية بين مسافة وأخرى. وقد عرفت جبال الأمانوس في المصادر العربية باسم اللُكّام، المشتق من الاسم السرياني اوكاما بمعنى "الأسود"[١]. أما الاسم الحالي أمانوس فهو صيغة أغريقية مشتقة من الاسم الذي كان يطلق على هذا الجبال في النصوص المسمارية الآشورية، وهو "خمَانُ" (khamanu) ، مع تحول حرف الخاء إلى همزة. يبلغ ارتفاع هذه الجبال في الشمال ٢٢٦٢م فوق مستوى سطح البحر، وفي الوسط ١٧٩٦م وفي الجنوب، عند ساحل البحر، ١٧٠٠م. ويمكن عبور هذه الجبال من سهل العمق إلى خليج الاسكندرونة عن طريق مجاز بيلان المعروف باسم "الابواب السورية"[٢]. تنمو على هذه الجبال اشجار الأرز مما جعلها مقصداً للملوك الآشوريين في الألف الأول قبل الميلاد للحصول على خشب الأرز والأخشاب الصنوبرية الفاخرة الأخرى. وإلى الجنوب من مصب نهر العاصي يقوم جبل الأقرع الذي عرف في النصوص المسمارية البابلية باسم صَبُون (sapunu)[٣]، وكتب صَفُن (spn) في النصوص الأوغاريتية الأبجدية، أما المصادر الكلاسيكية فتذكره باسم كاسيوس (Casius). يبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ١٧٢٩م فوق مستوى البحر. ويتصل جبل الأقرع في الجنوب بسلسلة جبال الساحل التي يصل أعلى ارتفاع لها إلى ١٤٣٦م فوق مستوى سطح البحر وذلك في شرقي مدنية جبلة الساحلية.

يعد سهل العمق منطقة زراعية خصبة ويتمتع بكمية مناسبة من المياه السطحية التي توفرها الأنهار الجارية فيه. وأهم هذه الأنهار نهر العاصي الذي ورد ذكره في النصوص المسمارية الآشورية باسم أرانتو (Arantu)[٤]، ومنه اشتقت التسمية

الكلاسيكية أورونتيس (Orontes). وتصب في جانبه الأيمن، في سهل العمق، الأنهار الجارية في هذا السهل مثل نهر عفرين والروافد الصغيرة النابعة في جبال الأمانوس. وقد ورد اسم نهر عفرين في النصوص الكلاسيكية بصيغة أبري (Aprê)[٥]. ويجري في سهل العمق أيضاً نهر الأسود الذي ينبع من الأراضي التركية، فضلاً عن هذه الأنهار يتمتع السهل بنسبة هطول أمطار موسمية تتراوح ما بين ٤٠٠-٦٠٠ ملم سنوياً.

لقد ساعدت طبوغرافية المنطقة ومزايا الموقع على أن يكون لسهل العمق دور مهم في ربط مناطق وسط سورية وشرقيها، ولاسيّما منطقة الجزيرة، مع خليج الاسكندرونة ووسط بلاد الأناضول. وكذلك ربط سهل العمق ما بين مناطق الفرات والخابور، ومن ورائها بلاد الرافدين، مع الساحل السوري. وتوفر طرق المواصلات التي يمكن تتبعها في العصور الكلاسيكية[٦] الفرصة للتعرف على أهمية سهل العمق في هذا المجال وتكوين فكرة عن طرق المواصلات التي كانت تمر فيه خلال العصور الأقدم. فقد كان تل جنديرس ملتقى للطريق القادم من منطقة الفرات وكركميش باتجاه أنطاكية مع الطريق القادم من سميساط عبر سيرخوس على الجهة الغربية من نهر عفرين. وبعد جنديرس يلتقي الطريق نفسه، قبل وصوله إلى انطاكية، وبالتحديد في منطقة تل عطشانة (ألالاخ القديمة) مع الطريق القادم من أتارب، في الجنوب- الشرقي، وقبلها من قنسرين. ويصل إلى انطاكية الطريق القادم من الشمال حيث توجد نكوبليس Nicoplis (إصلاحية). ويخرج من انطاكية طريقان يتجه أحدهما إلى الشمال- الغربي، ليصل إلى ارسوز على الساحل، ويتجه الآخر إلى الجنوب- الغربي نحو سلوقية بيريا عند مصب نهر العاصي.

سهل العمق في العصور القديمة:

يعود اسم سهل العمق إلى العصور التاريخية القديمة، إذ يرد في النصوص المسمارية من العصر الآشوري الحديث بصيغة أُنقِ (unqi)، ويكتب بالآرامية عمق (Amq)،

ويرادفه في نصوص ذلك العصر المصطلح السياسي خَتّينا (Khattina)[٧]. ويعود تأريخ السكنى في هذا الجزء من سورية إلى العصور الحجرية القديمة. فقد وجدت بقايا إنسان النياندرتال (يعود تأريخه إلى نحو ٨٠٠٠٠ سنة قبل الآن) في موقع الديدريه، على السفوح الغربية لجبل سمعان المطلة على وادي نهر عفرين، وذلك في أثناء تنقيبات البعثة الآثارية السورية-اليابانية المشتركة هناك في تسعينيات القرن العشرين[٨]. من جهة أخرى دلت أعمال التحريات والتنقيبات الآثارية التي قامت بها بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو على إن سهل العمق شهد استيطاناً متواصلاً منذ العصر الحجري الحديث، وقدرت البعثة عدد المواقع الآثارية في سهل العمق بحدود ١٧٨ موقعاً[٩] فضلاً عن مواقع سهل عفرين. وكانت تلك البعثة قد انجزت أعمالها بإدارة كل من مكيوان C.W.McEwan وبريدوود R.J.Braidwood بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٧م، وشملت أعمالها التنقيب في المواقع الآثارية: تل جديدة، تل طعينات وتل جطل حيوك(Gatal Hüyük) [١٠]. والأخير هو موقع آخر لا صلة له بالموقع الأثري المعروف (Catalhüyük) في سهل قونية في تركيا الذي يعود إلى عصور ما قبل التاريخ. وقد أدت الدراسات التي قامت بها البعثة للفخار والأدوات الحجرية التي اكتشفتها إلى وضع التقسيم المتبع حالياً للأدوار التأريخية في شمال سورية وجنوبي بلاد الأناضول. وبحسب هذا التقسيم سميت الأدوار بالحروف اللاتينية ابتداءً من أقدمها في العصر الحجري الحديث الذي قسم إلى ثلاثة أدوار (A-B-C)، وحددت الأدوار G-J ضمن العصر البرونزي المبكر. ومن الجدير بالذكر إن المواد التي عثر عليها في تلك التنقيبات محفوظة إما في متحف أنطاكية أو في متحف جامعة شيكاغو.

أن ورود ذكر ألالاخ في محفوظات أيبلا بصفتها إمارة تابعة يدل على إن سهل العمق كله كان تابعاً لأيبلا في العصر البرونزي المبكر، إذ إنّ هذه المدينة كانت المركز الرئيس لسهل العمق في ذلك العصر، واستمرت تؤدي هذا الدور حتى تخريبها في نحو عام ١٢٠٠ق.م. وفي العصرالبرونزي الوسيط أصبحت يمخد الدولة الرئيسة في

سورية، وكانت بحدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد تسيطر، من عاصمتها حلب، على مناطق واسعة شملت سهل العمق وعاصمته ألالاخ، وامتد نفوذها حتى أوغاريت(١١). وحينما قام الملك الحثي مورسيليس الأول بمهاجمة حلب واسقاط مملكة يمخد، في نحو ١٦٠٠ق.م، كان سهل العمق في قبضة الحثيين الذين هاجموه في عهد حاتوسيليس الأول سلف مورسيليس الأول، وهو الهجوم الذي يعزى إليه تدمير السوية السابعة في موقع مدينة ألالاخ(١٢). وقد اعقبت ذلك فترة من الفراغ السياسي في سهل العمق تقترن بالسويتين السادسة والخامسة في تل عطشانة اللتين لا تقدمان أية وثائق كتابية تلقي ضوءاً على تأريخ المنطقة آنذاك.

مع حلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد تعود الحالة في سهل العمق إلى الوضوح. وتوفر السوية الرابعة في تل عطشانة دليلاً كتابياً موثوقاً عن المنطقة من خلال النصوص المسمارية الأكادية المكتشفة في تلك السوية. ففي ذلك الوقت يتضح بصورة جلية دور مدينة ألالاخ باعتبارها عاصمة لحكام يديرون شؤون منطقتهم بدرجة من الاستقلال الذاتي. وتذكر النصوص المصرية القديمة من عهدي الملكين تحتمس الثالث وأمنحوتب الثاني وقوع منطقة العمق تحت النفوذ المصري لفترة من الوقت في عهديهما(١٣). ولكن مع ازدياد قوة دولة ميتاني الحورية، التي قامت آنذاك في شمال-شرقي سورية، أصبحت منطقة العمق تحت نفوذ تلك الدولة مع المحافظة على درجة عالية من الاستقلال الذاتي. وقد تمتعت بمثل هذا الاستقلال كل المناطق التابعة لدولة ميتاني التي امتد نفوذها من البحر المتوسط غرباً حتى منطقة كركوك الحالية في العراق شرقاً. وفي ذلك العصر انتشر في سهل العمق الفخار الحوري المعروف باسم "فخار نوزي"، ويتصف هذ الفخار بدقة صنعه ويتميز بزخارفه الهندسية باللون الأبيض على خلفية داكنة، وكانت سلطة ألالاخ آنذاك تشمل سهل العمق وأعالي وادي نهر العاصي. وقد شكلت تلك المناطق مملكة موكيش المحلية التي قامت فيما بين إمارة كِزّوادنا Kizzuwadna، على ساحل البحر المتوسط الأعلى (في كيليكيا)،

وإمارة تونب Tunib في منطقة وادي العاصي السفلى[١٤]. وكان من أوائل حكام ذلك العصر الملك إدريمي الذي اشتهر بتمثاله المنقوش بالنص المسماري المتضمن سيرة حياته.

ونحو عام ١٣٦٦ق.م عادت السيطرة الحثية على سهل العمق حينما استولى الملك الحثي سوبّيلوليوما الأول على مدينة ألالاخ. وتشهد على هذه الفترة نقوش الأختام والمسلات الحثية المكتشفة. واستمر ذلك حتى جاءت نهاية هذه المدينة بتخريبها النهائي على أيدي أقوام البحر على ما يرجح، ولم تسكن ثانية. وفي العصر الحديدي شهد شمال سورية وجنوب بلاد الأناضول قيام ممالك آرامية محلية مثل بيت-عدين، بيت-بحيان، بيت-خلوفي وبيت- زمان. وكانت أقرب تلك الممالك إلى سهل العمق بيت عجوش التي كان مركزها في مدينة أرفاد[١٥]. وقد سبق أن حدد موقع مدينة أرفاد في تل رفعت[١٦]، على بعد نحو ٣٠كم إلى الشمال من حلب، ولا يزال هذا التحديد مرجحاً حتى الآن، ويعتمد تأكيده على إجراء تنقيبات آثارية في هذا الموقع المهم. أما سهل العمق نفسه فقد قامت فيه المملكة المحلية التي عرفت باسم خَتّينا أو أُنق (العمق) كما ورد آنفاً. وذكرت النصوص الملكية الآشورية، من القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، عاصمة هذه المملكة باسم كينالوا (Kinalua) ، كيناليا (Kinalia)، أو كونولوا (Kunulua) ، ووصفتها حيناً بأنها عاصمة خَتّينا وفي حين آخر عاصمة أُنق[١٧]. ويدل مضمون تلك النصوص على أن موقع كينالوا ينبغي أن يكون في تل جنديرس. وقبل أن نأتي على عرض تلك النصوص وتوضيح الأدلة التي تقدمها على موقع هذه المدينة وتأريخها في ذلك الوقت نورد هنا عرضاً للتنقيبات الآثارية التي أجريت في سهل العمق وما قدمته هذه التنقيبات من معلومات عن تأريخ المنطقة في الألف الأول قبل الميلاد.

التنقيبات الآثارية في مواقع الألف الأول قبل الميلاد:

لقد شملت تنقيبات ليونارد وولي L. Woolley التي قام بها في تل عطشانه موقع الميناء. وشملت تنقيبات المعهد الشرقي في شيكاغو مواقع طعينات، تل جديدة وجطل

حيوك. وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب في تل عين دارا في سهل عفرين بإشراف الدكتور علي أبو عساف. يطل موقع المينا على ساحل البحر ويعود تأريخ السكنى فيه إلى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد واستمر حتى العصر الهلنستي المبكر. وقد عثر في هذا الموقع على مستودعات للفخار القبرصي والإيجي. واعتبر المينا الموقع الذي انتقلت من خلاله الأبحدية الكنعانية إلى الأغريق، وأسهم مع تل سوكاس ورأس البسيط في نقل التأثيرات الثقافية السورية إلى بلاد الأغريق(١٨).

يقع تل طعينات على نهر العاصي ويبعد قليلاً إلى الغرب من تل عطشانه، وهو تل كبير تبلغ أبعاده ٢٦٠x ٥٠٠م، ويصل ارتفاعه إلى ١٥م. أجري التنقيب فيه خلال الأعوام ١٩٣٥ –١٩٣٨م ونسبت السوية الرئيسة فيه إلى الدور O مع سوية من الدور N لم توصف بقاياها. وقد كشف في هذا الموقع عن قصرمن طراز مخطط بيت حيلاني(١٩) مزين بمنحوتات بارزة على الطراز الآشوري. وكشف أيضاً عن بقايا معبد تتضمن عمودين منصوبين على زوجين من تماثيل الأسود مع غرفة مركزية واسعة ونقوش تذكارية بالهيروغليفية الحثية(٢٠).

تل الجديدة، يقع في أسفل سهل العمق إلى الشرق من تل عطشانه وذلك على الضفة الشرقية لنهر الجديدة. أبعاد هذا التل ٣٧٠X٢٥٠م وارتفاعه يصل إلى ٣٠٠٥م. وقد استمر التنقيب فيه من ربيع عام ١٩٣٤م إلى ربيع عام ١٩٣٦م. أدت تلك التنقيبات إلى الكشف عن ١٦ طبقة تعود الطبقات الخمس السفلى منها (١٦–١٢) إلى الدورين L و M العائدين إلى الألف الأول قبل الميلاد، وقد وجدت فيها بقايا بيوت شيدت جدرانها من اللبن (الآجر غير المشوي) على أسس من الحجر.

موقع جطل حيوك، عبارة عن تل بيضوي كبير على الضفة الغربية لنهر عفرين، في منتصف المسافة بين تل جنديرس وتل عطشانه، وتبلغ أبعاده ٤٣٠ X ٢٦٥م. أعلى نقطة في هذا التل ترتفع ٢٧م فوق مستوى السهل المحيط به. بدأ التنقيب في هذا الموقع في عام ١٩٣٣م واستمر حتى ربيع عام ١٩٣٦م، وكشف فيه عن سور المدينة

المشيد باللبن بعرض يزيد على ثلاثة أمتار ويقوم فوق أساس يتمثل بطبقة واحدة من الحجر. ووجدت في الموقع بقايا بيوت وقبور بسيطة.

يقوم موقع عين دارا، على الضفةالشرقية لنهر عفرين ويبعد نحو ٢٠كم إلى الشمال- الشرقي عن تل جنديرس. تبلغ أبعاد الموقع نحو ٦٠٠X ٤٠٠م، وقد تركزت أعمال التنقيب التي أجريت فيه بمواسم متقطعة (من عام ١٩٦٤ إلى ١٩٨٥م) في المرتفع الذي يحتل الزاوية الجنوبية- الغربية من الموقع. كشف في هذا المرتفع عن ست سويات يمتد تأريخها من القرن العاشر قبل الميلاد إلى القرن السادس عشر الميلادي. وفي الطبقة السادسة، كشف عن بناية معبد شيدت بحسب - مخطط بيت حيلاني، وقد شيد جدارها الخارجي مزيناً بتماثيل لأسود وحيوانات مركبة(٢١).

منطقة العمق في نصوص العصر الآشوري الحديث:

بعد أن قامت مدينة ألالاخ، بدور عاصمة العمق في الألف الثاني قبل الميلاد انتقل هذا الدور إلى مدينة كينالوا في الألف الأول قبل الميلاد. ويرد ذكر هذه المدينة بصفتها عاصمةللعمق، أو مملكة ختّينا، في النصوص الملكية الآشورية التي تقدم لنا الدليل أيضاً على أرجحية كون تل جنديرس هوموقع تلك العاصمة. ويظهر اسم كينالوا في نصوص ثلاثة من الملوك الآشوريين أولهم آشور-ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م). يصف هذا الملك في نص حولياته المنقوش على جدران معبد ننورتا في كَلَخ (نمرود حالياً) حملته إلى منطقة العمق وجبل لبنان. ويرد في النص ان الملك الآشوري عبر مع جيشه نهر الفرات في طريقه من بيت- أدين إلى كركميش، وبعد كركميش يصل إلى مدينة خَزاز (إعزاز حالياً في شمال سهل عفرين) وكانت تابعة للوبارنا، حاكم العمق. ثم إن آشور-ناصر بال يغادر مدينة خَزاز، ويذكر بالنص: "تحركت وعبرت نهر أبري Aprê (عفرين)، أقمت مخيماً وأمضيت الليل. تحركت من نهر أبري ووصلت إلى مدينة كونلوا، عاصمة لوبارنا الباتيني. أخذه الخوف من أسلحتي الفتاكة وقتالي العنيف فخضع لي من أجل انقاذ حياته. تسلمت هدايا الولاء

منه: ٢٠ رطلاً من الفضة، رطلاً واحداً من الذهب، ١٠٠ رطل من القصدير، ١٠٠ رطل من الحديد، ١٠٠٠ ثور ، ١٠٠٠٠خروف، ١٠٠٠رداء من الكتان بأهداب ملونة، أرائك من خشب البقس مزينة الأطر ، أسرّة من خشب البقس، أسرّة مزينةالأطر، آنية كثيرة من العاج وخشب البقس، حلي كثيرة من قصره لا يمكن حساب وزنها، ١٠ مغنيات، ابنة أخيه مع مهرها الثمين، قردة كبيرة وطيور كبيرة. أخذني العطف عليه"(٢٢). وحين يغادر آشور–ناصر بال الثاني العاصمة يتجه صوب نهر العاصي فيعبره في طريقه إلى جبل لبنان.

إن هذا النص مهم جداً في تحديد موقع مدينة كينالوا، فمسيرة نهار واحد من مدينة خَزاز أوصلت الجيش الآشوري إلى نهر ليعبره إلى الضفة الغربية ويمضي الليل ليصل في اليوم التالي إلى تلك المدينة، وهذا ما يجعل نقطة عبور النهر عند بلدة عفرين الحالية التي تبعد مسافة ١٧كم عن إعزاز (خَزاز القديمة) ومسافة ٢٢كم عن تل جنديرس في بلدة جنديرس الحالية. وهذه المسافة تجعل من تل جنديرس الموقع الملائم لمدينة كينالوا، عاصمة العمق آنذاك ومقر حاكمه لوبارنا. فضلاً عن ذلك يكشف هذا النص عن أن موقع كينالوا يجب أن يكون على الجهة المقابلة لمدينة إعزاز من نهر عفرين، أي الجهة الغربية. ذلك أنه توجب على آشور–ناصر بال الثاني عبور نهر عفرين، بعد مغادرته خَزاز، لكي يصل إلى كينالوا. وأول موقع كبير مناسب للعاصمة يمكن أن يصادفه على ذلك الجانب من النهر هو تل جنديرس على بعد مسيرة أقل من يوم عن موضع عبور نهر عفرين عند بلدة عفرين الحالية. وقد افترضنا هذه النقطة للعبور لأنها تبعد، بدورها، مسيرة يوام واحد أو أقل عن بلدة إعزاز، حيث موقع خَزاز القديمة، وهذا هو الوقت الذي أمضاه آشور– ناصر بال الثاني للوصول إلى معبر النهر وعبوره وإقامة مخيمه للمبيت ليلاً. حتى في الوقت الحاضر يعبر نهر عفرين عند بلدة عفرين نفسها.

إن الإشارة الواردة في نص آشور–ناصر بال الثاني المتصلة بعبوره نهر عفرين من الجهة الشرقية، حيث توجد مدينة خَـزاز، إلى الضفة الغربية، من أجل الوصول إلى مدينة كينالوا، تنفي نفياً قاطعاً إمكانية أن يكون تل عين دارا موقعاً لهذه المدينة، وهو الافتراض الذي ذهب إليه م.دوناند M.Dunand وف. صيرفي F.Seirafi (٢٣). ذلك إن عين دارا يقوم على الضفة الشرقية لنهر عفرين، كما سبقت الإشارة وإن الوصول إليه من مدينة خزاز لا يتطلب عبور نهر عفرين كما فعل آشور–ناصر بال الثاني في منتصف المسافة بين خَـزاز وكينالوا.

ويقدم نص آشور–ناصر بال الثاني نفسه معلومات مهمة عن الامتداد الجنوبي لمملكة ختّينا وعاصمتها كينالوا التي حددنا موقعها في تل جنديرس. فبعد أن حقق ذلك الملك سيطرته على العاصمةوضمن ولاء ملكها لوبارنا له قرر أن يواصل مسيرته في الأرجاء الجنوبية التابعة لها. ويرد في بقية النص: "تحركت من كونولوا، عاصمة لوبارنا الپاتيني، وعبرت نهر أرانتوي Arantue (العاصي). سلكت الطريق بين جبلي يراق Iaraqu ويختور Iakhturu. عبرت جبل{ ...كو} وأقمت مخيماً عند نهر سنجورّو Sangurru . تحركت من نهر سَنجورّو وسلكت الطريق بين جبلي سَرتّين Saratinu وقَلبان Qalpanu وأقمت مخيماً عند نهر {....باميش} . دخلت مدينة أريبوا Aribua ، قلعة لوبارنا الپاتيني، واستوليت عليها. حصدت غلة اقليم لوخوت Lukhutu ومحاصيلها وخزنتها في المدينة. أقمت وليمة في قصره. وطنت أناساً من بلاد آشور فيها. وحينما كنت في مدينة أريبوا استوليت على مدن اقليم لوخوت وقتلت العديد من سكانها. لقد اكتسحت، دمرت، وأحرقت. أمسكت المحاربين (المعادين) أحياءً ووضعتهم على الخوازيق أمام مدنهم. في ذلك الوقت تابعت طريقي إلى جبل لبنان وصعدت إلى البحر العظيم لبلاد أمورّو. طهرت أسلحتي في البحر العظيم وقدمت الأضاحي للآلهة"(٢٤).

يتضح من هذا النص أن حدود مملكة ختّينا كانت تمتد جنوباً لتشمل مدينة أريبوا. ويمكن تحديد موقع هذه المدينة إذا تتبعنا مسيرة آشور –ناصر بال الثاني بحسب مضمون النص. فقد أخذ هذا الملك اتجاهاً جنوبياً –غربياً بعد مغادرته كينالوا ليصل إلى نهر العاصي ويعبره إلى الضفة الغربية. ومن الواضح هنا أنه لم يتجه إلى ساحل البحر المتوسط في الغرب، إذ لم يرد ذكر البحر إلا بعد أن وصل الملك الآشوري إلى جبل لبنان وعبره متجهاً إلى الساحل. ولذلك يكون الملك الآشوري قد اتجه جنوباً بعد عبوره نهر العاصي. وهذا يعني أنه سار على الضفةالغربية لذلك النهر باتجاه سهل الغاب. وهنا يذكر النص أن الطريق كان بين جبلي يراق ويختتور. والجبلان الموجودان على جانبي وادي العاصي هناك هما الامتداد الشمالي لجبل الأقرع في الغرب وجبل حارم في الشرق. وهذا الاتجاه جلب الملك الآشوري إلى نهر سَنجورّو الذي يجب أن يكون رافداً غربياً لنهر العاصي، ويمكن ملاحظة وجود مثل هذا الرافد حالياً وهو يصب في نهر العاصي من جهة الغرب فيما بين حمام الشيخ عيسى وجسر الشغور. وبعد أن يترك آشور –ناصر بال نهر سَنجورّو يسير بين جبلي سَرَتين وقَلپان اللذين يمكن مطابقتهما مع جبلي الساحل في الغرب والزاوية في الشرق، أي أن مسيرة الجيش الآشوري كانت على الضفة الغربية لنهر العاصي مع امتداد جبال الساحل. ثم يرد ذكر نهر آخر قبل دخول مدينة أريبوا، وهو النهر الذي فُقد الجزء الأول من اسمه وبقي الجزء الأخير بصيغة ....باميش. ولعل هذا النهر أحد فروع نهر العاصي في الجهة الغربية من سهل الغاب. وفي اليوم التالي يدخل الملك الآشوري إلى مدينة أريبوا. إن مسيرة يوم واحد من نهر سَنجورّو إلى المخيم الذي يسبق مدينة أريبوا تعني مسافة تقل عن ثلاثين كيلومتراً، ومثل هذه المسافة تأتي بالجيش الآشوري إلى مقربة من مدينة شطحا التحتا الحالية عند السفح الشرقي لجبال الساحل على خط العرض ٣٠َ ٣٥ْ. ولذلك فإن موقع مدينة أريبوا ينبغي أن يكون على مقربة من شطحا التحتا، فهي تتوسط سهل الغاب وتسيطر عليه. كما أن الموقع

هناك يعطي للمدينة القديمة صفة التحصين الجبلي وهو ما ينطبق على وصف النص لمدينة أريبوا بصفتها قلعة· ويلاحظ اليوم وجود موقع أثري على سفح الجبل إلى الجنوب من شطحا التحتا بمسافة ٥كم، وهو تل مكسور (ويدعى أيضاً تل زيري) الذي يحتمل أن يكون موقع مدينة أريبوا· أما إقليم لوخوت الذي يبدو من النص أنه أرض زراعية فيتوافق مع سهل الغاب أو الجزء الأوسط الغربي منه على أقل تقدير· ويبدو واضحاً من النص أن آشور–ناصر بال الثاني واصل حملته من هناك باتجاه مصياف الحالية للوصول إلى جبل لبنان· ومما يؤيد خط التحرك الذي رسمناه هنا عدم ورود أي إشارة في النص للساحل السوري أو لمنطقة حماة، وهذا الخط هو الوحيد للتحرك جنوباً بعيداً عن المنطقتين·

ويرد في نص حوليات الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨–٨٢٤ ق·م) أسماء أربع مدن تابعة لخَتّينا استطاع هذا الملك أن يستولي عليها ويتسلم فيها هدايا الولاء من ملك بيت–أجوس Bit-Agusi (٢٥)· ولما كانت مدينة خزاز (إعزاز الحالية) من بين تلك المدن الأربع فإنها ينبغي أن تكون جميعها في القسم الشمالي من سهل عفرين في المنطقة المحيطة بمدينةإعزاز· والمدن الثلاث الأخرى هي: تايّا Taiia ، نوليا Nulia وبُتام Butamu ·

أما الملك الآشوري تجلات–بلاصر الثالث (٧٤٤–٧٢٧ق·م) فقد هاجم منطقة العمق في عهد ملكها الأخير توتَمّو Tutammû واستولى على عاصمتها كينالوا وأقام عرشه في قصر توتَمّو· وقد أعاد هذا الملك الأشوري بناء العاصمة بعد ما حل بها من خراب، وبسط سيطرته على كل منطقة العمق جاعلاً منها محافظة تابعة لبلاد آشور تدار من قبل محافظين يعينهم الملك الآشوري بحسب ما يرد في نص حوليات هذا الملك(٢٦)· وقد استمر ذلك إلى السنين الأخيرة من تأريخ الدولة الآشورية· ففي عهد السلالة السرجونية الآشورية ذكرت منطقة العمق باعتبارها محافظة آشورية تحمل اسم المدينة المركزية فيها، وهو كولّنيا Kullania · وقد اكتشف نصان مسماريان

مؤرخان في السنة الثانية والعشرين من عهد الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م)، وهي السنة التي أطلق عليها اسم مَنـزَرين Manzarinê محافظ كولّنيا[٢٧]. وكذلك ورد اسم هذه المحافظة في نص رسالة آشورية موجهة إلى الملك آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) مع اسماء محافظات أخرى من بينها محافظتي أرباد (تل رفعت حالياً) ورصَابا (الرصافة حالياً)[٢٨].

لقد افترض أن كولّنيا مدينة في سهل العمق وأن موقعها في تل طعينات[٢٩] ولكن من دون تقديم دليل يؤيد صحة هذا الافتراض، كما إن التنقيبات التي أجريت في تل طعينات، وسبقت الإشارة إليها في هذا البحث، لم تؤدِ إلى التوصل للإسم القديم لهذا التل. من جهة أخرى يلاحظ أن اسم كولّنيا لم يرد في النصوص الآشورية التي تعود إلى ما قبل عهد الملك سنحاريب. وفي الوقت نفسه انقطع ذكر اسم مدينة كينالوا بعد عهد الملك الآشوري تجلات بلاصر الثالث الذي أشرنا إلى أنه جعل من العمق وعاصمته كينالوا محافظة آشورية. ولذلك فإن تقارب الاسمين للمدينة التي كانت عاصمة للمحافظة نفسها، وتعاقب هذين الاسمين، يجعلنا نفترض أن كلا الاسمين كينالوا وكولّينا يعودان للمدينة نفسها التي حددنا موقعها في تل جنديرس. ويمكن للتنقيبات المقبلة في هذا الموقع أن تقدم الدليل الحاسم على هذا الموضوع.

قبل أن نأتي على عرض التنقيبات التي أجريت في تل جنديرس لا بد أن نتطرق إلى الاسم المحتمل لمدينة كينالوا في الألف الثاني قبل الميلاد. فهذا الاسم للمدينة لم يظهر في نصوص الألف الثاني على الرغم من قرب موقعها من مدينة ألالاخ (تل عطشانة) الذي يبعد مسافة تقل عن ٤٠كم إلى الجنوب -الغربي من تل جنديرس. إن نصوص السوية الرابعة في تل عطشانة تتضمن أسماء مدن عديدة في سهل العمق ولكن عدم ذكر كينالوا من بينها يشير إلى أنها كانت تحمل اسماً آخر في ذلك الوقت. مما يثير الإنتباه في تلك النصوص أن المدينة الثانية في عدد المرات التي تذكر فيها بعد ألالاخ هي مدينة أنِقا (Uniqa)، وقد كتبت أيضاً بصيغة أنِكا (Unika) وأُنجا (Uniga)، وقد

ورد ذكرها في ١٤ نصاً من السوية الرابعة ونص واحد من السوية السابعة[٣٠]. وعلى الرغم من عدم تحديد موقع هذه المدينة إلا أنه من الواضح أن اسمها هو الذي أطلق على سهل العمق في الألف الأول قبل الميلاد، وحينها أصبحت كينالوا عاصمة المنطقة من بعد ألالاخ. ومن المتوقع أن تصبح المدينة الثانية في الأهمية هي العاصمة للمنطقة بعد هجران العاصمة الأولى. وهذا يتفق مع تعميم اسم تلك المدينة على المنطقة كلها ليكون اسمها أُنق الذي عرفناه من خلال النصوص القديمة في الألف الأول قبل الميلاد. ولذلك نرجح هنا أن يكون موقع مدينة أُنقا، في الألف الثاني قبل الميلاد، هو موقع مدينة كينالوا نفسه في الألف الأول قبل الميلاد، أي تل جنديرس. ومما يسند هذا الرأي أن اسم أُنقا لم يرد في الألف الأول قبل الميلاد بصفة اسم لمدينة، وإنما اقتصر ذكره بصفته اسماً للمنطقة كلها.

أما اسم المدينة في الفترة الكلاسيكية كما هو وارد في النصوص والنقوش الهلنستية ومن ثم الرومانية فهو جنداروس Gandaros، وهو أصل الاسم الحالي لبلدة جنديرس حتى التل نفسه[٣١].

نتائج التنقيب الأثري لموسم ٢٠٠٦م:

يعتبر التنقيب في تل جنديرس وسيلة مهمة للتوصل إلى معلومات مهمة عن سهل العمق، وشمال غربي سورية عموماً في العصور القديمة وهي معلومات لم تزل محدودة في الوقت الحاضر. لقد بدأت أعمال التنقيب في الموقع منذ عام ١٩٩٢م، وذلك ضمن إطار أعمال مشتركة بين الجهات الآثارية السورية والألمانية، استمرت أعمال التنقيب حتى عام ٢٠٠١م، وأسفرت عن اكتشاف بقايا معمارية ومعبد في الجهة الشرقية من التل، لكن هذه البقايا تعرضت للكثير من التخريب بسبب التحصينات الدفاعية الكلاسيكية المشيدة لاحقاً[٣٢]، ثم توقفت أعمال التنقيب لغرض إنجاز الدراسات الخاصة بنتائج تلك التنقيبات. وفي عام ٢٠٠٦م باشرت البعثة الوطنية أعمالها في الموقع بإدارة الدكتور عمار عبد الرحمن وشارك في التنقيب من

جامعة دمشق كل من الدكتور نائل حنون والسادة جمال تموم، وحسام غازي، وحسين يوسف. وسنورد هنا عرضاً للنتائج التي حققها عمل البعثة في هذا الموسم.

يقوم التل الأثري في الطرف الجنوب- الغربي من بلدة جنديرس الحالية، وقد امتدت بيوت هذه البلدة على الحافة الشمالية للتل: يأخذ تل جنديرس شكلاً شبه دائري (الشكل رقم -٢-) ويبلغ معدل طول قطر ما تبقى منه ٤٥٠م. يقع التل في سهل يرتفع نحو ٢٠٠م فوق مستوى سطح البحر. ويصل أعلى ارتفاع للتل، في الركن الشمالي- الشرقي إلى ٣١م فوق مستوى السهل المحيط به. ويليه في الارتفاع الركن الشمالي- الغربي الذي يصل ارتفاعه إلى ٢٧٫٥م. ويلاحظ وجود ثلاثة مواضع فقط يتدرج فيها ارتفاع التل مما يدل على وجود بوابات للمدينة فيها. وأوضح هذه النقاط الثلاثة تكون في الطرف الجنوبي قرب الركن الجنوبي-الغربي من التل. وهناك نقطة تدرج أقل وضوحاً في الطرف الشرقي قرب الزاوية الشمالية- الشرقية من التل. وتوجد على سطح التل منطقة منخفضة تمتد في وسطه من الشمال إلى الجنوب، فيما بين الموضعين المفترضين للبوابتين الرئيستين.

ابتدأ العمل لهذا الموسم في موقع جنديرس في بداية شهر حزيران لمدة شهر تقريباً، ثم تمت متابعة العمل في الموقع في بداية شهر أيلول. وقد حدد موضع التنقيب في المنطقة (أ) وفتح فيها المربع رقم (١). ويحتل هذا الموضع المربعات الشبكية ٧٠ /٩٠ X ٨٠/٩٠ و ٨٠/٨٠ X ٧٠/٩٠ (يراجع الشكل رقم -٢-).

على عمق أقل من نصف متر بدأت معالم متبقية من جران حجرية بالظهور لتشكل السوية الأولى التي يعود تأريخها إلى العصور الهلنستية. وكانت التنقيبات الألمانية- السورية السابقة قد كشفت في موضع التنقيب I، في المرتفع الأعلى الشمالي- الشرقي، عن بقايا جدران من العصر الروماني المتأخر والبيزنطي المبكر ولاسيّما في المربعات ٩٤-١٠٠ /٩٩-١٠٠ [٣٣]. ومن الجدير بالذكر إن تلك التنقيبات أدت إلى الكشف عن بضعة نقوش كتابية وكمية من المسكوكات البرونزية والفضية التي يعود

أقدمها إلى مؤسس الدولة السلوقية سلوقس الأول، في ثمانينيات القرن الثالث ق.م وبعض الدمى الهلنستية والمسارج الفخارية فضلاً عن الأواني والجرار الفخارية والزجاجيات[٣٤]. أما في هذا الموسم فتتمثل بقايا السوية الأولى المكتشفة في منطقة التنقيب (أ) بثلاثة جدران حجرية (الصورتان ١، ٢)، ولكنها تعرضت للتخريب مما جعل من الصعب رسم تكوينها الأصلي. وقد لوحظ وجود أربع كتل اسطوانية جصية على مقربة من تلك الجدران. ويبلغ قطر كل كتلة ٢٥سم وارتفاعها ٤٠سم (الصورتان ٣ و٤). ومن المحتمل أن تكون هذه الكتل بقايا قواعد كانت تحمل أعمدة خشبية تسند سقيفة متصلة بالجدران. وفي الجزء الشمالي من المربع، عثر على بقايا موقدين دائريين محفورين في أرضية السوية إلى عمق ٤سم، ويبلغ قطر كل منهما ٦٠سم. ووجد في أحد هذين الموقدين ما يزيد على خمسين صدفة حلزونية من النوع الذي يعيش في الماء العذب. ومن الواضح إن هذه الحلزونات قد جمعت للتغذي على محتوياتها. ومن المكتشفات في هذه السوية قطعة من الرصاص المصنع، ولكن من الصعب تحديد الغرض من تصنيعها بسبب تشوهها.

تتمثل أهم المعالم في السوية الثانية بقناة مشيدة بالحجر في أرضية السوية وهي تقطع المربع ١/أ من الشمال- الغربي إلى الجنوب- الشرقي (الصورة رقم -٥-). يبلغ عرض هذه القناة ٣٣سم وعمقها ٢٢سم، وتبعد بدايتها مسافة ٥م إلى الغرب من المربع حيث كشف عنها من خلال حفر سبر بأبعاد ١X١م في المنحدر الغربي للتل. وقد أمكن تتبع مسار هذه القناة لمسافة عشرة أمتار إلى الشرق من المربع ١/أ، وهذا يجعل طول الجزء المكتشف منها ٢٥م، وترك أمر الكشف عن الجزء المتبقي منها إلى المواسم اللاحقة. ويبدو إن هذه القناة كانت مخصصة لنقل الماء من الطرف الغربي للمستوطن إلى وسطه، وإن الماء كان يرفع إليها من نهر كان يجري بموازاة الجانب الغربي للتل.

وفي الركن الجنوبي- الشرقي من المربع ١/أ تم النزول إلى عمق مترين تحت سطح التل (بأبعاد ٥X٥م)· وبهذا العمق اكتشفت بقايا جدار من الحجر وصنارة حجرية في موضعها الأصلي تدل على وجود مدخل فيه· تعود هذه البقايا إلى السوية الثالثة التي وجدت فيها كسر فخارية من العصر الهلنستي· وقد توسعت أعمال التنقيب لتشمل المربع ٦ في المنطقة أ حيث قصد تتبع مسار القناة التي اكتشفت في المربع ١· وفي هذا المربع ظهرت معالم جدران مقترنة بكسر فخارية تعود إلى العصور الكلاسيكية مع بعض القطع الزجاجية وقطع الفسيفساء· وكان جزء من الأرضية مرصوفاً بأحجار صغيرة يتوسطها حجر كبير يبلغ قطره ٣٠سم (الصورة رقم -٦-)· الجدران نفسها لم تكن واضحة في بعض المواضع ولكن الأساس الذي يحملها يمكن تتبعه إذ إنه يتكون من أحجار ضخمة تنزل إلى عمق نحو ٥٠سم تحت مستوى الأرضية (الصورة رقم -٧-)· ويبلغ عرض هذه الجدران ٦٠سم والزوايا التي تكونها مطابقة للاتجاهات الصحيحة، وبناؤها يدل على عدم الإتقان والتشييد السريع·

وتحت بقايا جدران السوية الأولى ظهرت جدران شيدت بطريقة متقنة مشيدة بأحجار مختلفة الحجوم مع مونة جصية· إن امتداد هذه الجدران يوازي امتداد جدران السوية الأحدث، وتأريخها يعود إلى العصر الروماني· ويظهر من الصورة رقم -٥- ، أن تعديلاً قد أجري في العصر البيزنطي على البناء الروماني لتوسيعه· وقد أدى هذا إلى إزالة الجدران الأقدم إلى مستوى أرضية السوية الأحدث (الصورة رقم -٨-) ، وإلى وجود كسر من الفخار الروماني والبيزنطي في السوية نفسها· ولوحظ وجود طبقة من الرماد تكثر فيها الأحجار وبعض العظام في الجزء الذي يبدو أنه كان يعود إلى ساحة خارجية رميت فيها الفضلات·

القطع الأثرية المكتشفة:

تشمل القطع الأثرية المكتشفة في هذا الموسم ما يأتي:

١: حجر بيضوي الشكل بقطر ٤٫٦سم ووزنها ١٥٠غ. تعود إلى العصر الروماني (الصورة رقم -٩-).

٢: شاقول بناء من الفخار بمقطع مستطيل الشكل. الثقب الموجود فيه يبد ١٫٨سم عن القمة، ووزنه ٨٠غ (يعود إلى العصر الروماني (الصورة رقم -١٠-).

٣: سراج فخاري من العصور الكلاسيكية، قطر البدن ٥٫٩سم وقطر الفوهة ١٫٧سم ، وارتفاعه ٢٫٦سم.

٤: حجر طحن بازلتي بارتفاع ٥٫٩سم ووزنه ١٥٠غ (الصورة رقم -١١-).

٥: حجر بيضوي الشكل بقطر ٤٫٦سم ووزنه ١٥٠غ.

٦: قطعة مصنعة من الرصاص لها شكل مقشط مثلث الشكل تقريباً تعود إلى السوية الأولى الكلاسيكية.

٧: مغزل فخاري أسود اللون اكتشف في السوية العليا في المربع ٦/أ.

٨: دمية فخارية غير كاملة لفارس يمتطي حصاناً تعود إلى العصر البارثي (الصورة رقم -١٣ ، ١٥-).

فضلاً على ذلك اكتشفت بعض مقابض الجرار الفخارية التي تحمل طبعات أختام بأسماء اصحاب الجرار، وقد تميزت بها العصور الكلاسيكية (الصورتان ١٤و١٥). واكتشفت أيضاً كسرة من دمية فخارية مصنوعة بالقالب وتعود إلى العصور الكلاسيكية. وتمثل هذه الكسرة وجهاً لأحد الاشخص المهمين على ما يبدو (الشكل رقم -١٦-).

وفي هذا الموسم اكتشفت مجموعة من المسكوكات البرونزية التي امكن دراستها بعد معالجتها وتنزيفها في المعمل الفني، ويمكن عرضها على النحو الآتي[٣٥]:

آ ـ نقود الإسكندر:

هذه المجموعة من النقود صادرة بعد وفاة الإسكندر، وهي من النوع البرونزي، تؤرخ على القرن الثالث قبل الميلاد، وقد صنفت وفق الشكل التالي:

١ـ نقد الإسكندر يظهر على مركز الوجه بنقش رأس جانبي يميني ، وقد اعتمر رأس أسد فاغر فاه·

المربع ٦/(A) الوزن ٣،٨٧غ

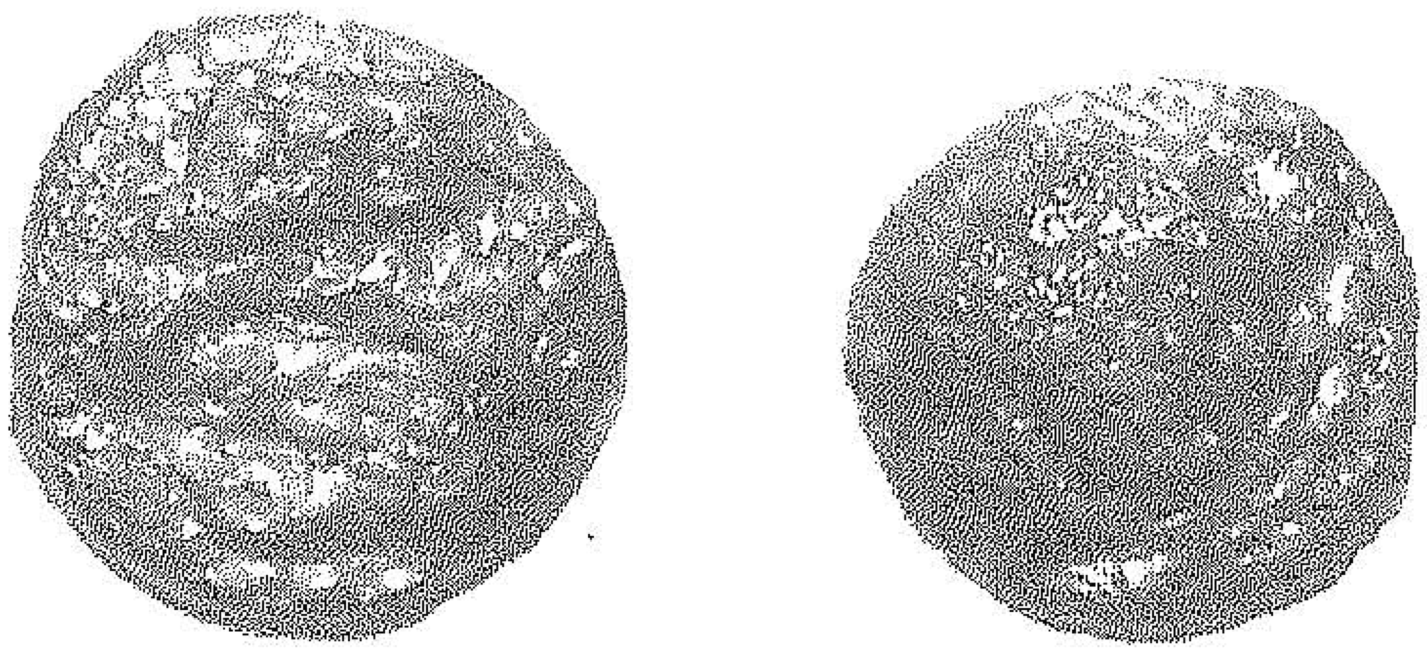

٢ـ النموذج نفسه: المربع ٦/(A) الوزن ٢،٤٠غ

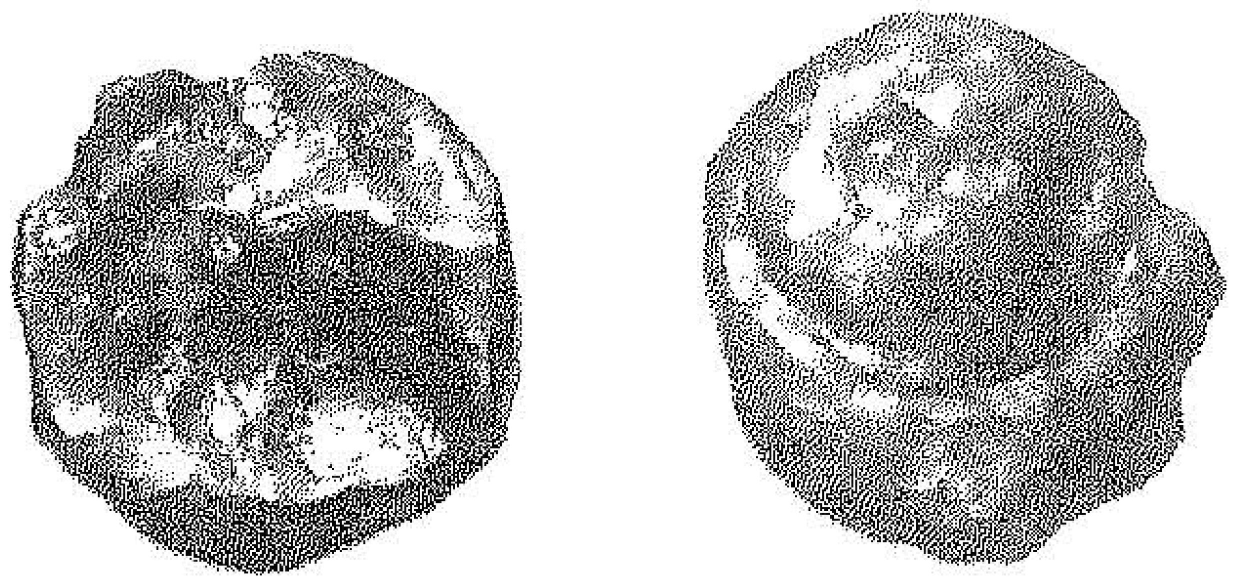

ب ـ النقود السلوقية:

٣ـ رأس جانبي يميني للملك أنطيوخوس السابع إيفريجيت ١٣٨ ـ ١٢٩ ق·م

ـ مركز الظهر: نقش نباتي ؟ مع كتابة أفقية تذكر اسم الملك أنطيوخوس إيفريجيت:

B....IΛE... ANTIOXO... EYEPΓEITO

المربع ٦/(A) سوية **I** / الوزن ٥،١٦غ

٤ـ نقود سلوقية حملت على مركز الظهر نقش الإله أبولو جالساً على صخرة، كما يبدو أن هذه النقود من إصدارات مدن فينيقيا الشمالية، كمدينة ماراثوس، كارنه، بالتوس...... ويمكن تأريخها من نهاية القرن الثالث ق.م وامتداد القرن الثاني ق.م.

المربع ٦/(A) سوية I / الوزن ما بين ٤،٠١ ـ ٣،٤٨غ

ـ النقود الرومانية:

٥ـ نقش رأس جانبي يميني للإمبراطور تراجان ٩٨ ـ ١١٧م

حمل مركز الظهر نقشاً للحرفين اللاتينيين (SC) اللذين يشيران إلى سلطة مجلس الشيوخ. إصدار أنطاكية. وحدة الدوبونديوس. الوزن (١٢.٢٦غ). المربع ٦/(A) سوية آ

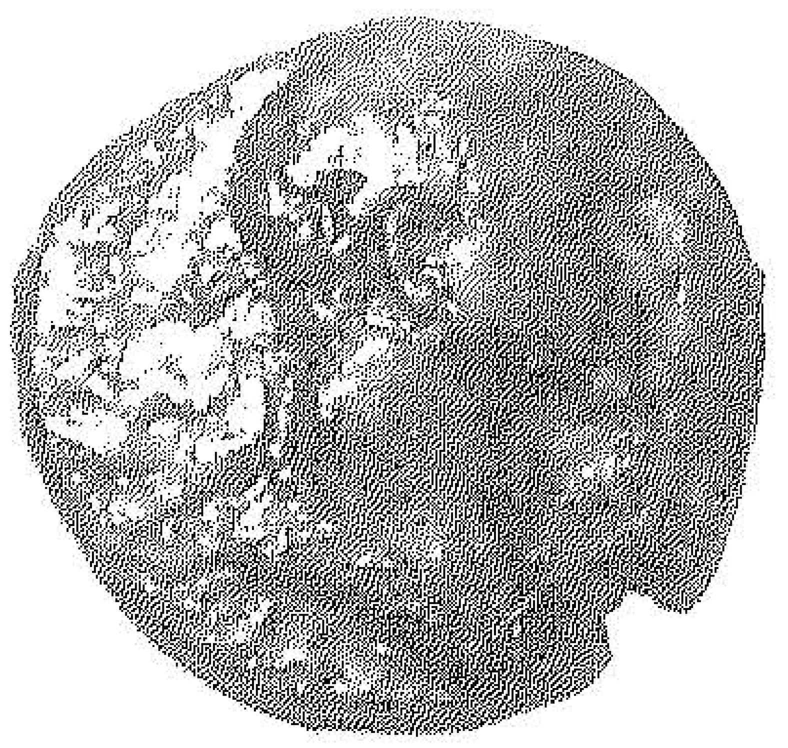

٦ــ نقش رأس جانبي يميني للإمبراطور جورديان الأول أو الثاني ٢٣٨م. أحيط النقش المركزي بكتابة لاتينية تذكر اسم الإمبراطور:

AYT.KAI.M.ANT. ΓΟΡΔΙΑΝΟC

حمل مركز الظهر نقش سلة بداخلها باقة من سنابل القمح، وأحيط بعبارة تذكر اسم دار الضرب (قيصرية كبادوسية KA...RNEN) الواقعة بآسية الصغرى.

لائحة بأسماء الأشكال والصور

الشكل رقم(١): موقع تل جنديرس.

الشكل رقم(٢): الخارطة الكنتورية لتل جنديرس.

الصورة (١-٢): بقايا السوية الأولى المكتشفة في منطقة التنقيب (أ) ويظهر ثلاثة جدران حجرية

الصورة(٣ -٤): أربع كتل اسطوانية جصية على مقربة من تلك الجدران. ويبلغ قطر كل كتلة ٢٥سم وارتفاعها ٤٠سم.

الصورة (رقم-٥): القناة الحجرية في أرضية السوية الثانية.

الصورة (رقم- ٦): جزء من الأرضية مرصوفة بأحجار صغيرة يتوسطها حجركبير.

الصورة (رقم-٧): أحجار ضخمة تنزل الى عمق حوالي(٥٠سم)تحت مستوى الأرضية.

الصورة(رقم-٨): جدران من الفترة البيزنطية في السوية الثانية.

الصورة (رقم-٩): حجر بيضوي الشكل بقطر ٤،٦سم ووزن ١٥٠غ. تعود إلى العصر الروماني.

الصورة (رقم-١٠) : شاقول بناء من الفخار بمقطع هرمي الشكل.

الصورة(رقم-١١): حجر طحن بازلتي.

الصورة(رقم١٢):قطعة مصنعة من الرصاص.

الصورة(رقم١٣-١٥): دمية فخارية غير كاملة لفارس يمتطي حصاناً تعود إلى العصر البارثي.

الصورة(رقم١٤-١٥): مقابض الجرار الفخارية التي تحمل طبعات اختام.

الصورة (رقم-١٦):). كسرة دمية فخارية مصنوعة بالقالب وتمثل وجه أحد النبلاء من الفترة الكلاسيكية.

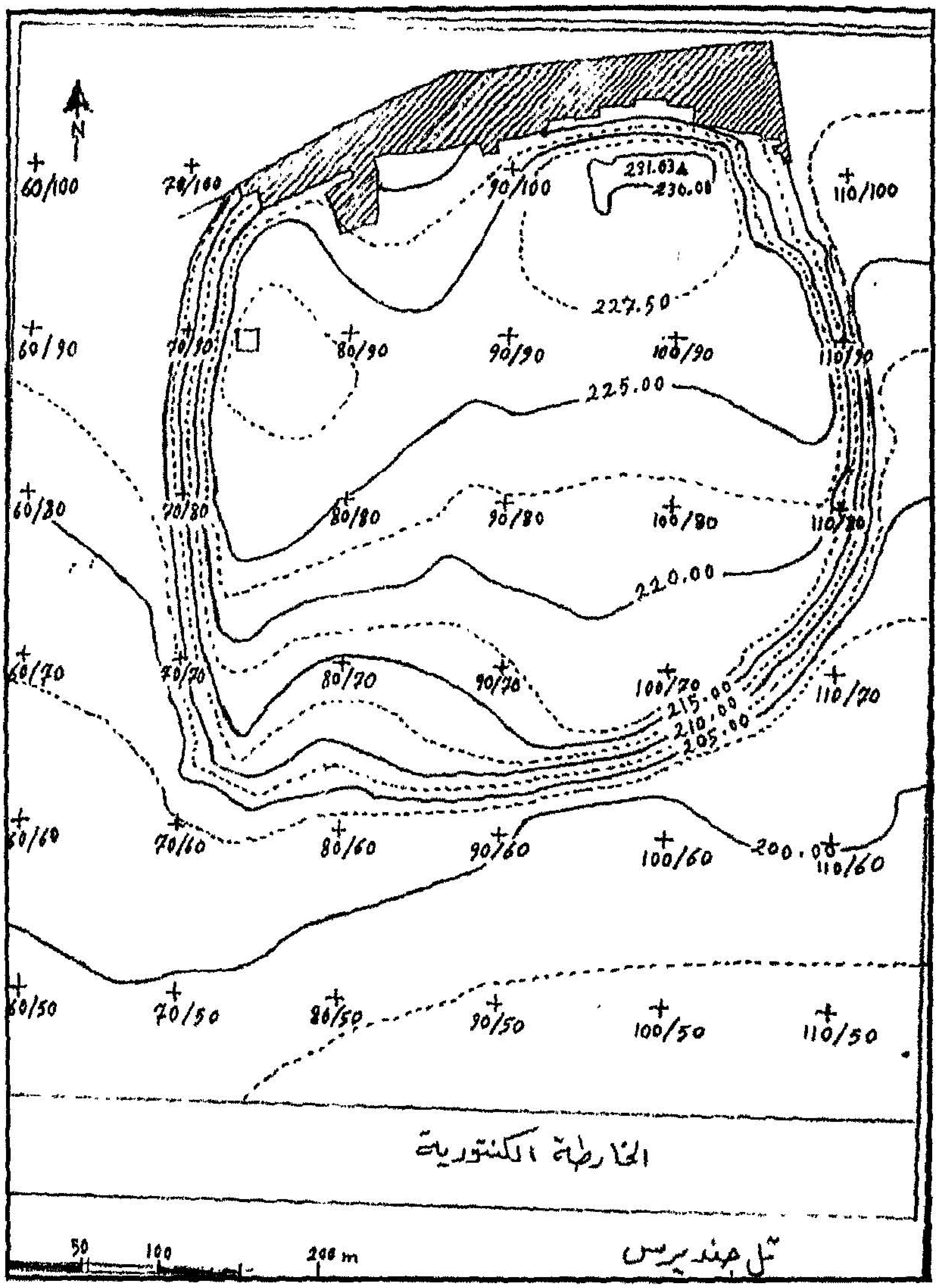
N
60/100
70/100
90/100
110/100
231.63
230.00
227.50
60/90
70/90
80/90
90/90
100/90
110/90
225.00
60/80
70/80
80/80
90/80
100/80
110/80
220.00
60/70
70/70
80/70
90/70
100/70
110/70
215.00
210.00
205.00
60/60
70/60
80/60
90/60
100/60
200.00
110/60
60/50
70/50
80/50
90/50
100/50
110/50
الخارطة الكنتورية
50
100
200 m
تل جنديرس

الشكل رقم ١

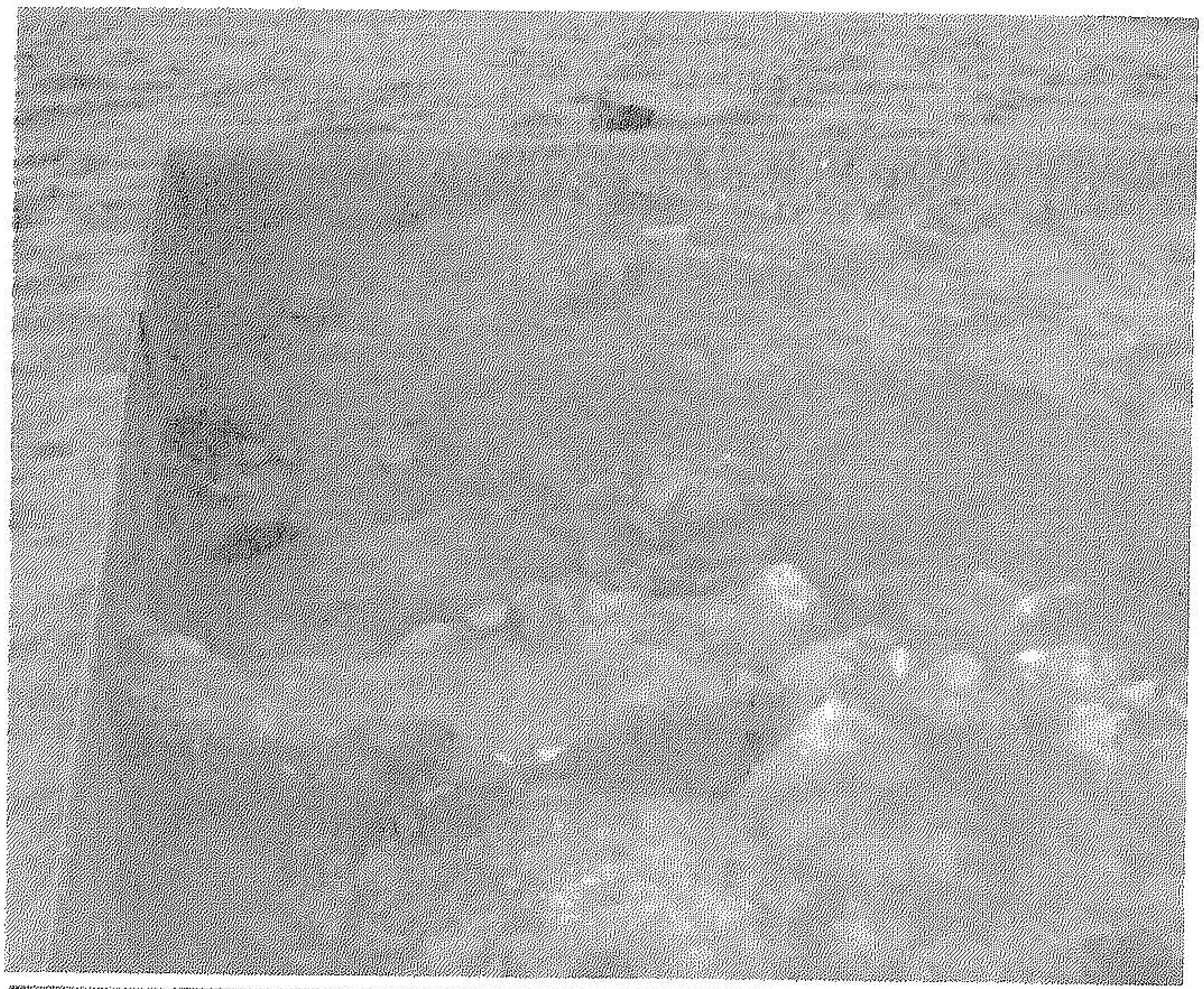

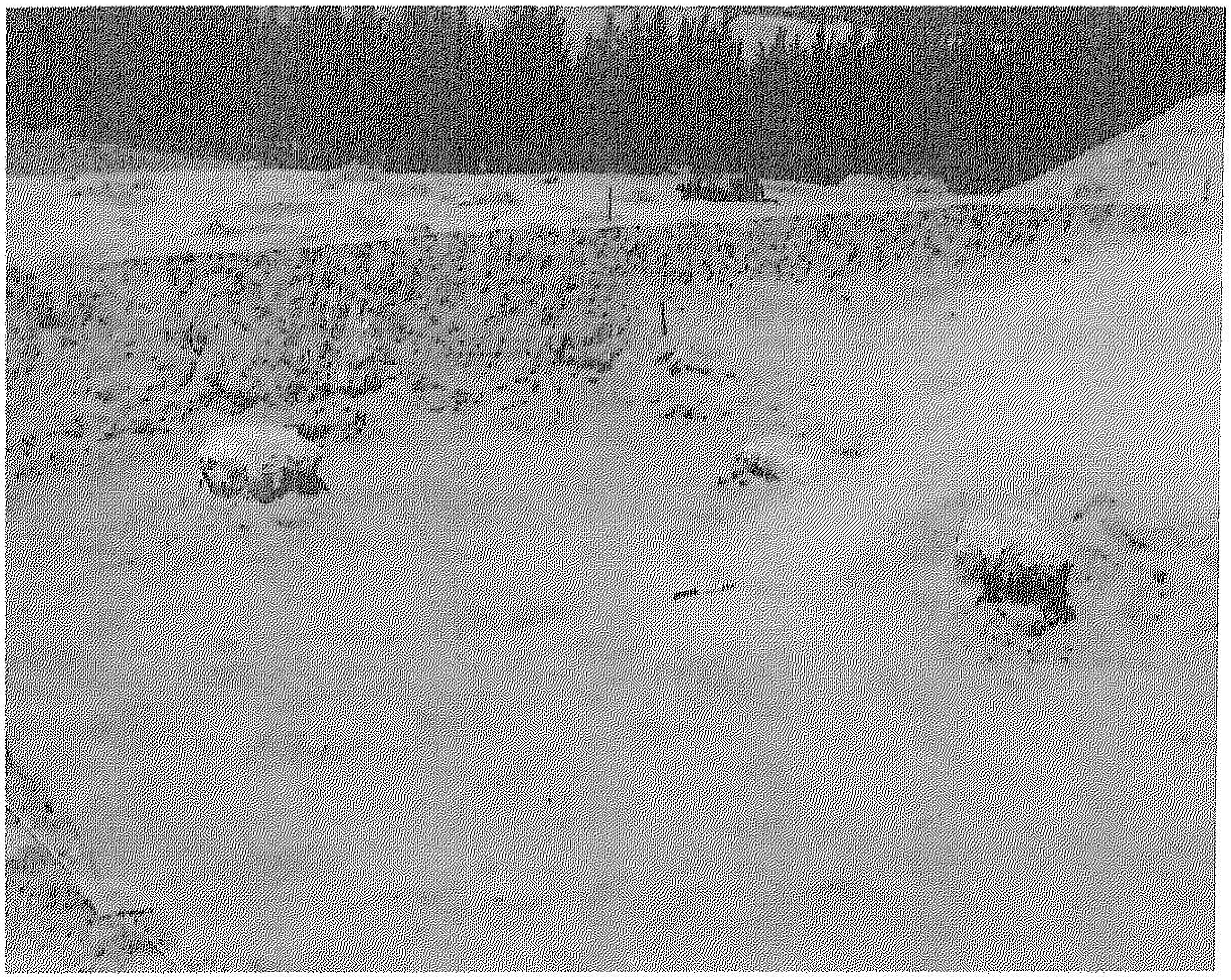

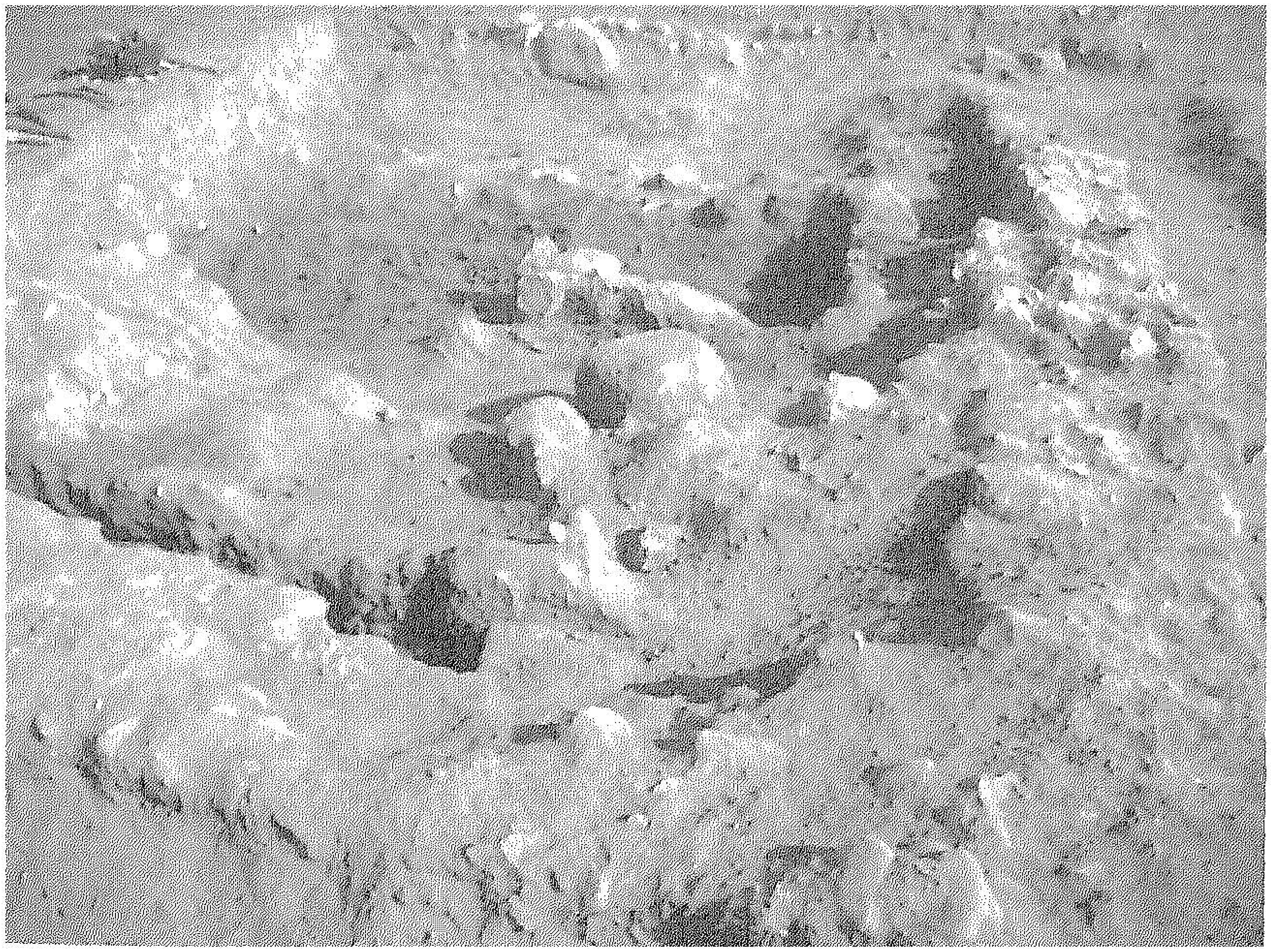

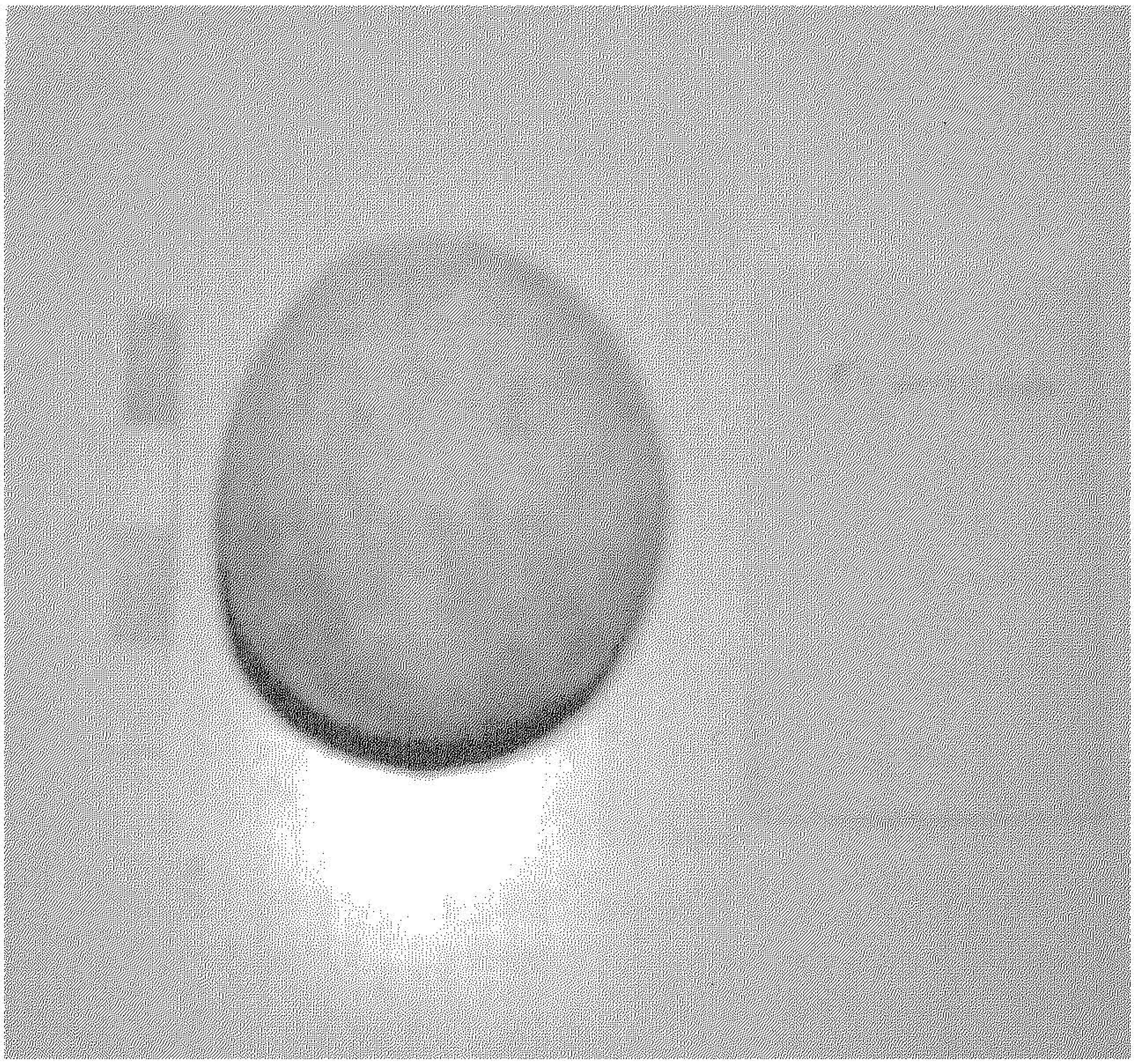

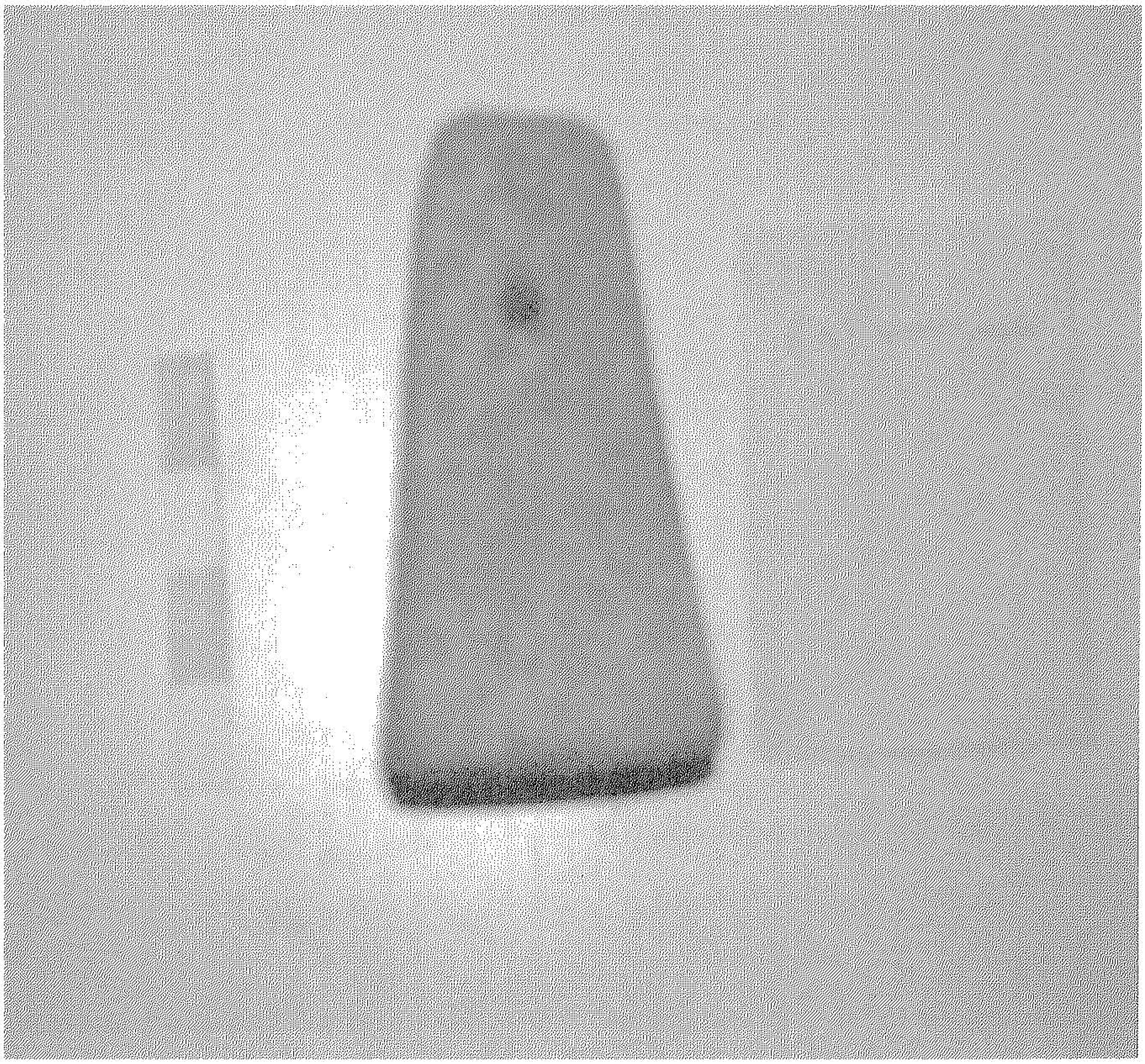

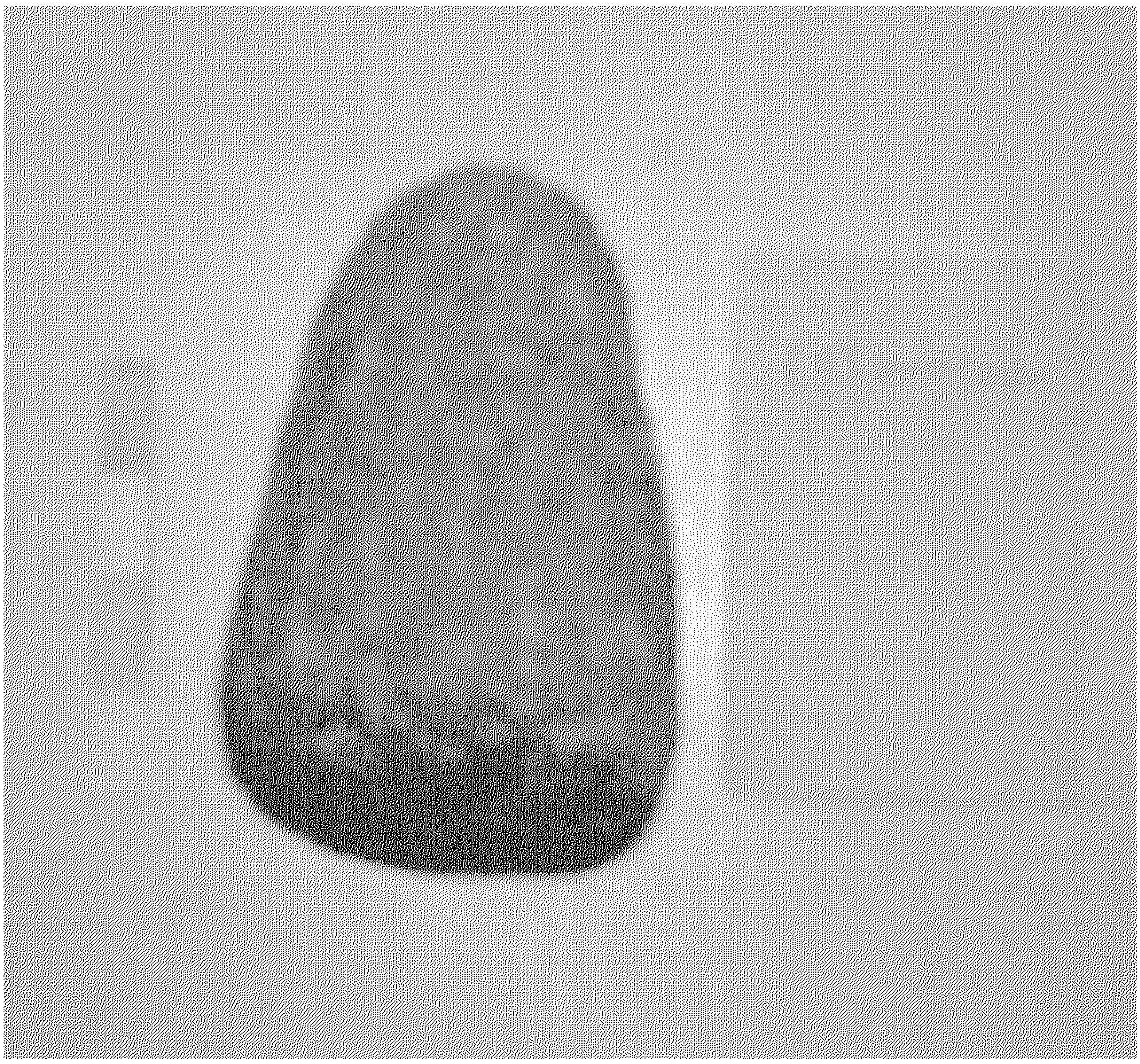

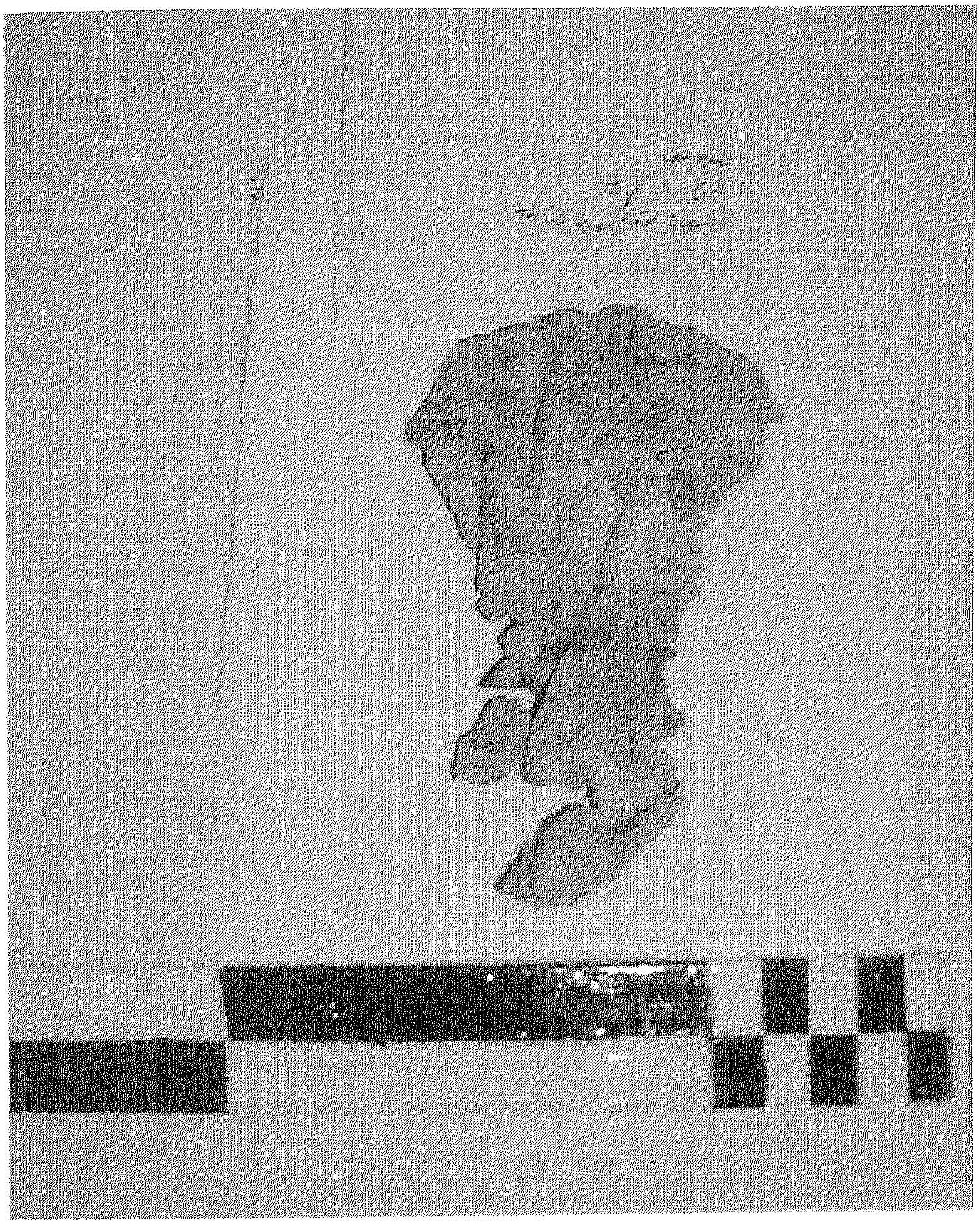

٤/١٢ قبضة جرة يليها طية فم

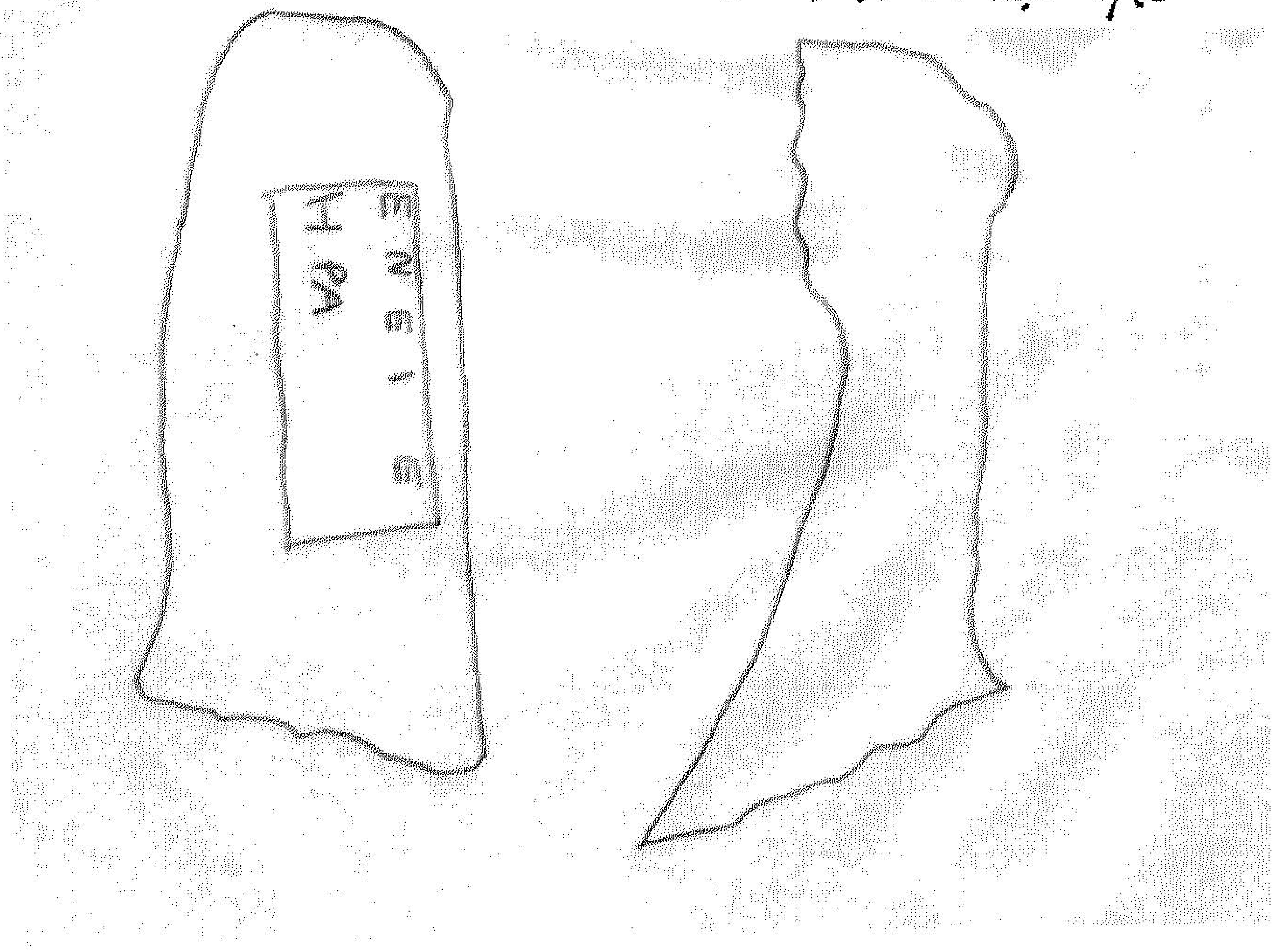

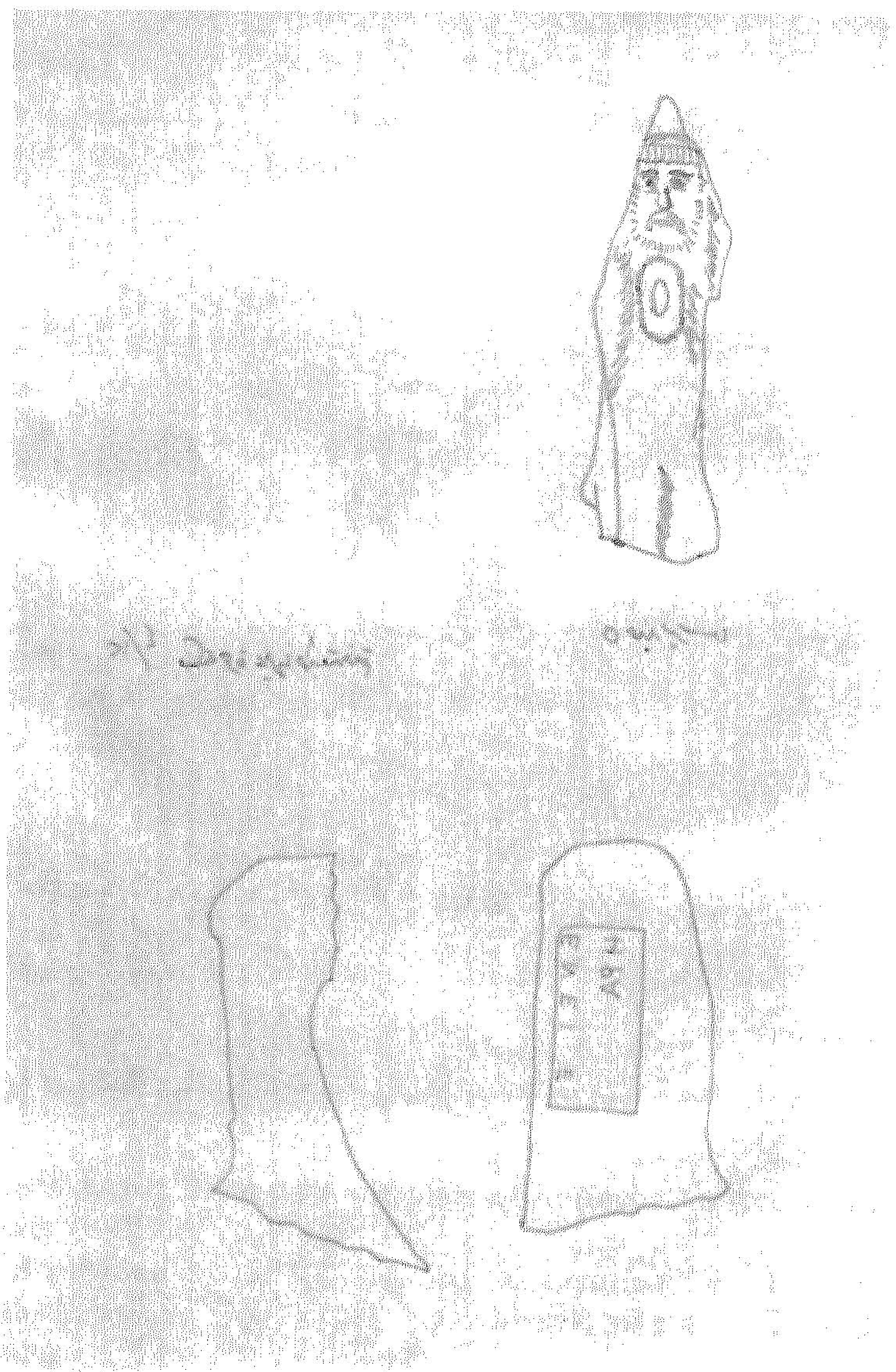

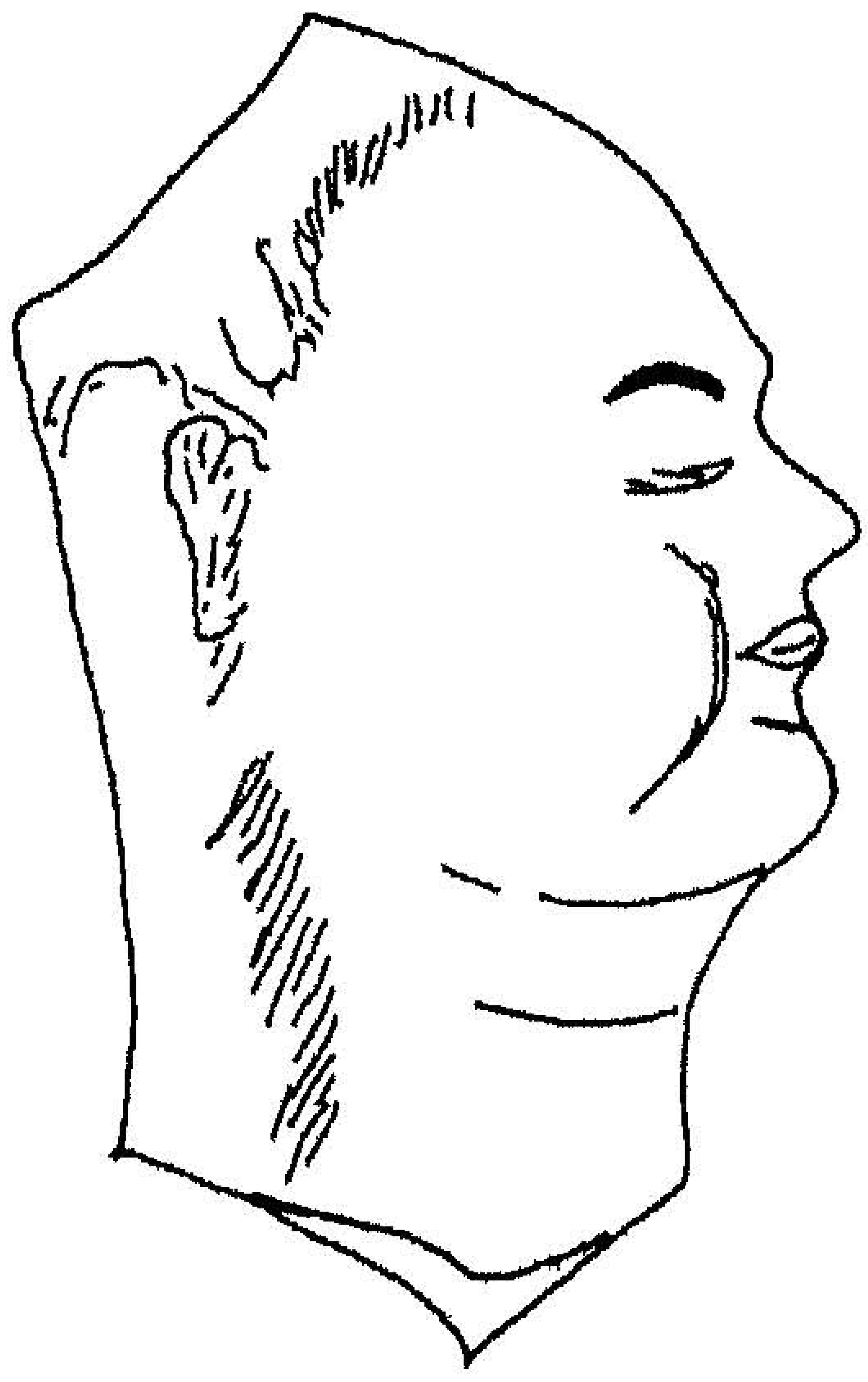

الحواشي

(١) طه باقر، **مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة** جـ٢، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ٢٢١؛ هـ ١

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٢

(٣) Ran Zadok, **Répertoir Géogrphique des Textes Cunéiformes VIII**, (Wiesbaden, 1985), p.278.

(٤) Simo Parpola, **Neo-Assyrian Toponyms**, (Neukirchen-Vlun, 1970), p.22.

(٥) Ibid., p.21

(٦) تراجع الخريطة الآتية:

محمد علي مادون (تحقيق واضافات)، **الخريطة التاريخية للبوادي العربية التدمرية وأثر روما في بادية الشام**، (دمشق ، ٢٠٠٥).

(٧) Simo Parpola, Op.Cit., p.368.

(٨) عمار عبد الرحمن، **مملكة ألالاخ، دراسة اقتصادية، اجتماعية، سياسية**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠١، ص٤٠.

(٩) المرجع نفسه، ص٥٠.

(١٠) حول أعمال البعثة الآثارية للمعهد الشرقي في شيكاغو التي قامت بها في سهل العمق يراجع:

1- R.J.Braidwood, **Mounds in the plain of Antioch: An Archaeological Survey** (= OIP 48), (Chicago, 1937).

2- R.J.Braidwwod and L.S.Braidwood, **Excavations in the Plain of Antioch, vol. I: The Earlier Assemblages, phases A-J.**(=OIP 61), (Chicago, 1960).

(١١) H. Klengel, **Syria: 3000 to 300 B.C., A Handbook of political History**, (Berlin, 1992), pp. 44 ff.

(١٢) Piotr Bienkowski, "Alalakh", in **Dictionary of the Ancient Near East,** (London, 2000), p.10.

(١٣) John A. Wilson, "Egyptian Historical Texts", in **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** ed.James B. Prtichard, (Princeton, 1969), pp.243, 246.

(١٤) D.J. Wiseman, **The Alalakh Tablets**, (London, 1953), p. 5.

(١٥) Alan Millard, "Aramaens ", in **Dictionaryof the Ancient Near East,** p.28.

(١٦) Emil Forrer, **Die Provinzeinteilung des assyrische Reiches,** (Leipzig, 1920), pp. 56f.

(١٧) Simo Parpola, Op.Cit., p.206; Kinalua.

(١٨) James D. Muhly, 'End of the Bronze Age ", in **Ebla to Damascus, Art and Archaeology of Ancient Syria,** ed. Harvy Weiss,(Washington, 1985), pp. 269f.

(١٩) يطلق اسم بيت- خيلاني في النصوص المسمارية الآشورية على طراز عمارة سوري شمالي في الألف الأول قبل الميلاد. ويتضمن هذا الطراز سقيفة بواجهة مفتوحة تنصب فيها ثلاثة أعمدة أو أقل، وغالباً ما تكون بشكل تماثيل بشرية أو حيوانية. وتؤدي هذه السقيفة إلى غرفة عريضة، كما أنها تتوسط غرف أو سلالم. وقد أعيد تركيب مثل هذه الواجهة التي وجدت في تل حلف في مدخل بناية متحف حلب الحالية.

(٢٠) Piotr Bienkowski, Op.Cit., p,17.

(٢١) Ali Abu Assaf, " Ain Dara " , ", in **Ebla to Damascus, Art and Archaeology of Ancient Syria**, pp.349 f.

(٢٢) A. Kirk Grayson, **Assyrian Rulers of the Early First Millennium B.C, I (1114-859 BC),** (Toronto, 1991), pp. 217f.; III: 71-76.

(٢٣) حول هذا الإفتراض يراجع:

Ali Abu Assaf, " Ain Dara " , ", in **Ebla to Damascus, Art and Archaeology of Ancient Syria**, p. 350.

(٢٤) A. Kirk Grayson, Op.Cit., pp.217f.; III: 79-92a.

(٢٥) A. Kirk Grayson, **Assyrian Rulers of the Early First Millennium B.C., II(858-745),** (Toronto, 1996), p.17; II: 10b-13a.

(٢٦) Daniel David Luckenbill, **Ancient Records of Assyria and Babylonia I,** (New York, 1975), pp. 273f.; nos. 769-770.

(٢٧) Theodor Kwasman and Simo Parpola, **Legal Trnsactions of the Royal Court of Nineveh, Prt I**(= SAA XI), (Helsinki, 1991), pp.56 f.; No.59 and pp.145f.; No. 177.

(٢٨) Simo Parpola, **Letters from Assyrian and Babylonian Scholars** (=SAAX), (Helsinki, 1993), p. 73; No.96.

(٢٩) Theodor Kwasman and Simo Parpola, Op.Cit., p.341.

(٣٠) D.J. Wiseman, Op.Cit., pp. 46 ff.

(٣١) نوربرت كرامر، **جنداروس في شمال غربي سورية، أبحاث تاريخية وأثرية حول تاريخ الاستيطان في العصور الهلينيستية والرومانية والبيزنطية**، (دمشق، ٢٠٠٧)، ترجمة محمد سالم قدور، ص ٣٧، هـ٢.

(٣٢) Dietrich Sürenhagen, **Prelimuary Scientific reports from Tell Djãndaris (93-2001)**, Dierectorate general of Antiquities and Muesums in Syria.

(٣٣) نوربرت كرامر، مرجع سابق، ص ص ٤٣ وما بعدها، اللوح ٤.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ص ٦٢-٢٦٩، الألواح: ٢٠-١٤٥.

(٣٥) خالد كيوان، **مسكوكات مكتشفة في موقع جنديرس ٢٠٠٦** (تقرير أولي)، متحف دمشق الوطني.

الرسائل السياسية في بلاد الشام أضواء جديدة على الصراع السياسي في شمال سورية/الشام في عصر ماري من خلال نصوص أصلية (١)!

الدكتور فيصل عبد الله
قسم التاريخ
جامعة دمشق

سيكتشف القارئ من خلال (بعض النصوص السياسية الأصلية(٢)) التي نشر بعضها للمرة الأولى بالعربية مدى عمق الصلة بيننا عرباً وحضارةً عربية، متعددة العقائد والأديان، وبين سكان ماري وسكان الشام في عصر ماري، هذه الصلة لا تتمثل في اللغة ذات الأصول العائلية الواحدة بل في نمط العيش والاجتماع، والأخلاق، والحلم، وفلسفة الدين والعقيدة، ونظام الحكم المطلق، والتبعية العائلية والقبلية، وسيادة القانون المطلق الذي يوظف من قبل الملوك والحكام لإقامة الدولة القوية، والإمبراطورية المتعددة الولاءات والثقافات.

ولابد قبل تقديم بعض هذه النصوص من استعراض تاريخي وحضاري موجز لنتائج الدراسات حول مخطوطات ماري وآثارها:

فمنذ اكتشاف مدينة ماري عام ١٩٣٣، فإن النصوص المسمارية الأكادية لم تتوقف عن الظهور في كل موسم للحفريات، وإذا كان اكتشاف الآثار من بناء وتماثيل ومنحوتات ورسوم مختلفة، يطغى بشهرته على النصوص على المستوى الإعلامي فإن النصوص الكتابية هذه هي التي تمثل تاريخ سورية وبلاد الشام عامة في هذه المرحلة أي زمن كتابة النصوص في عصر ماري قبل أربعة آلاف سنة من الآن.

إلا أن العمل على ترجمة النصوص من قبل العلماء الفرنسيين آنذاك ونشر أبحاث في مجلة Syria قد سمح للمهتمين بالتاريخ القديم للمشرق العربي، أن يبدلوا الكثير من المفاهيم والنظريات المتعلقة بتاريخ المنطقة في العصور القديمة. إلا أن طبيعة العمل العلمي وتصنيف النصوص وترجمتها لم يكن ليتبع منهجية علمية حديثة كما يصنف الأستاذ جان ماري ديوران J. Durand في نقده العمل العلمي في نصوص ماري. ويكفي أن نشير إلى تعليقه على تسمية مجمل المحفوظات الكتابية بالغنيمة (butin) من قبل المختصين الأوائل وهما أندريه بارور A. Parrot وجورج دوسان G. Dossin مما يعني الاهتمام بشهرة الاكتشاف والفرح المرتبط به أكثر مما يعني العمل العلمي والأثري(٣). وبمعنى آخر أن النصوص ترجمت وصنفت وفق أماكن وجودها في قاعات قصر ماري ولم ينشر أي تصنيف عام إلا في وقت متأخر، أضف إلى ذلك غياب أي طرف علمي سوري يستطيع المشاركة بترجمة النصوص للعربية وتصنيفها بصورة مزدوجة مع الترجمة الفرنسية.

لن ندخل هنا في هذا المجال الضيق بما يمس مشكلات النشر العلمي لنصوص ماري ونحيل القارئ للمزيد عن ذلك إلى المرجع J.M. Durand المذكور أعلاه، أو إلى كتابنا "تاريخ بلاد الشام القديم" جامعة دمشق، ٢٠٠٤، وكذلك "مدخل إلى علم الأكاديات" دمشق ١٩٨٦ (دار الأبجدية).

إن لغة النصوص آنذاك هي لغة أكادية غربية (شامية) والكتابة هي النظام الكتابي المسماري الذي ابتدعه السومريون في العراق في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. أما

أن تكون لغة نصوص ماري أكادية أو أمورية/عمورية، فهي ولاشك أكادية بلهجة غربية. ولكن هذا لا يعني مطابقتها للغة العمورية المحلية آنذاك. بدليل أن كان هناك حاجة لوجود مترجم بين الأكادية / والعمورية / الأمورية (ن: JMD, ibid, mappallum xxvii 116: 34).

الأدلة والعوامل الحضارية والتاريخية:

١ – المعطيات والدلائل التاريخية:

يظهر اسم مدينة ماري في أقدم وثائق العراق القديم على أنها مدينة عريقة وتظهر في الملاحم الأدبية. ويبقى اسمها يتردد فيها حتى الألف الأول قبل الميلاد رغم تدميرها من قبل حمورابي في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ق.م. إن معنى اسم ماري غير مؤكد على المستوى اللغوي. فقد حاول جورج دوسان ربطه بالسومرية القديمة (ما – ري má-ri) أي (مكان وصول المراكب على الفرات).

وهي لم تكن ميناء للتحميل كما يقول جان ماري (ibid. p. 41). كما أن الجذر اللغوي الأكادي marûm/ماروم قد يخدعنا لأنه لم يستخدم فعلاً يدل على أرض أو خصوبة.

كما أن ظهوره بصيغة ماريم marim لا يتلوه استخدام صيغة فعلية منه تدل على اسم جغرافي. كما هناك إمكانية ربط ماري باسم إله الرعد مير Měr وهذا خطأ آخر لأن الصيغة الأقدم لهذا الإله هي: وير/Wěr(٤).

ولهذا يعتقد جان ماري (نفسه) أن اسم ماري يعود لغوياً إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. ولعله يدل على اسم أقدم أُطلق من قبل سكان الألف الرابع الذين لا يتوافر لدينا نصوص تكشف عن هويتهم.

من جهة أخرى نعلم أن لوائح ملوك سومر تذكر أن ماري كانت تحكم من قبل سلالة زمن ملحمة الطوفان السومري(٥).

أما ماري واسمها في عصر إبلا فقد وردبعض أسماء ملوكها مثل أبول أيـل Ibul-El والأشهر منه انادجن Enna-Dagan حيث نفهم وجود علاقات وثيقة بين ماري وإبــلا في الألف الثالث. (ر: A. Archi, MARI. 4) وقد عزى نهاية ماري في هذا الـدور إلى شروكين/صارغون الأكادي في القرن الرابع والعشرين ق.م. ثـم تعـود مـاري للظهور في عصر النهضة السومري أي زمن سلالة اور الثالثة تحـت حكـم سـلالة تدعى شكنكوم حيث ذكرت مع بقية المدن السورية – الشامية في نصـوص دريهـم السومرية. وعرفت ماري دور تدهور في القرنين العشرين ومعظم القرن التاسع عشر ق.م. ثم تبدأ بالظهور عند وصول البدو الأموريين بني سمأل وهم من منطقة البلـيخ وكان أول اسم زعيم سمألي هو يجدليم Yaggid-Lim حيث سـيطر علـى صـبروم Suprum (تل أبو حسن) وترقا Traqa ثم ماري. واصطدم مع إيلاكبكبو Ilakabkabu والد سمسي ادو الآشوري الشهير.

وتبدو ماري مملكة قوية في عهد ابنه يخدن ليم الذي خاض حروباً ضد بنـي يمـين وغيرهم من القبائل والبدو. ويعلن نفسه ملكاً معمراً لماري وقنوات الري حتـى ديـر الزور. وترك لنا كتاباته التأسيسية المعروفة باسمه. وتدل على أعماله الحربيـة فـي الشمال والغرب الشامي حيث وصل إلى الأمانوس. ويدخل في صراع مـع خصـمه الآشوري سمسي ادو ملك اكلاتم كما لم يفلح ابنه سوموياماn Sûmû-Yaman بمقاومة سمسي ادو، الذي تمكن من السيطرة على ماري وطرد سـلالة يجـدليم(٦)، وسـتبقى إنجازات يخدن ليم في كتابات آخر ملك من السلالة أي زمري ليم وعهده المزدهـر. وتعيش ماري فترة السيطرة الآشورية في زمن سمسي ادو الذي قام بتوحيـد شـمال سورية وأعالي الفرات واتبع في ذكره تأريخ السنوات نظام تسمية السنة باسم شخص ملكي أو قائد وهو نظام شمالي آشوري بعكس الجنوب العراقي الذي يعتمـد سـنوات حكم الملوك وأعمالهم(٧)، ونعلم من خلاله تاريخ ماري في عهد يسمخ ادو Yasmah-Addu ابن سمسي ادو الذي نصبه ملكاً عليها وكذلك الرسائل المتبادلة بـين الاثنـين

الأخيرين. وهي تمثل محور فهمنا للأحداث السياسية والعسكرية في السنوات القليلة من حكم يسمخ ادو، وقبل عودة آخر ملوك سلالة يجدليم أي حفيده زمري ليم. الذي عاش أكثر من نصف قرن ولكنه لم يحكم بالفعل سوى أربعة عشر عاماً(٨)، وتؤرخ معظم رسائل ماري في هذا الزمن.

٢ – نهاية ماري:

تعني نهاية ماري انقطاع تاريخ أهم فترة من تاريخ الشام الموثق. وقد فأجانا حمورابي الحليف الأولي لزمري ليم بأنه هو الذي سيقوض أركان المملكة ويحرق المدينة ويجعلها في طي النسيان. ولا نعلم شيئاً عن مصير زمري ليم، ولا عن سلالته ولا قبيلته من بني سمأل أي لا شيء بعد هذا التاريخ، ويظن جان ماري ديوران أن سلالته استطاعت أن تعيش في شمال دير الزور في ترقا مقر الإله اتورمير Itur-Mêr وتعرف بمنطقة بدو حانا/خانا، كما أن نصوص الألف الأول الآشورية قد ذكرتها ولكن في مكان آخر وسياق آخر ربما يكون في تل بدير على الخابور. ونجد تعبير "ملك ماري" في الألف الأول وقد تبناه ملوك سلالة صغيرة في الشمال تدعى سخوم Suhûm. وكانت تلك المناطق تخضع لسيطرة زمري ليم في عصر الازدهار، وهو ما حفظه السكان ولم ينسَ.

٣ – الوضع السياسي والعسكري لبلاد ماري:

كانت معلوماتنا حتى ما قبل عصر ماري تأتي من سومروأكاد وبابل وآشور وحسب، وقد صنف المؤرخون هذه الأدوار وسموها بالعصور السومرية والأكادية والبابلية والآشورية وقسم بعضها إلى أدوار أخرى وفق النصوص والسيطرة السياسية إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة. ولم ينسَ المؤرخون وجود ممالك ثانوية على الأطراف في سورية وغيرها، تذكر عند حدوث تقلبات سياسية وسكانية إلا أنه يجب رؤية التصنيف السابق من خلال المعطيات الجديدة بعد نشر محفوظات ماري وهي: لم تكن

سومر في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد سوى ذكرى تاريخية وكان آخر لقب "ملك سومر" يحمله ريم سين في لارسا وهو من أصل أموري/عموري·

وقد كانت ثقافة سومر وكتابتها تراثاً محفوظاً، ولكنه ليس ساكناً بل نجد سكان الفرات وشمال سورية يطورون استخدام الكتابة التصويرية السومرية ويوظفونها لخدمة لغتهم المحكية باستخدام كثيف للمقاطع الصوتية بدل التصويرية·

٤ – ماري قبل بابل:

لم تكن بابل مثلها مثل بقية مدن سورية الشمالية قد بدأت تصبح مركزاً سياسياً مهماً ورغم أنها تقوت بعد القضاء على مملكة ماري إلا أن إلهها الرئيس مردوخ لم يحتل مرتبة عليا بالمقارنة مع الإله أدو/حدد الحلبي، الذي أصبح إلهاً كونياً خاصة بعد دراسة مستفيضة ومقنعة لجان ماري ديوران حول ملحمة الإلهة ادو البحر(٩)· وكان ملك حلب ياريم ليم يمثل القوة السياسية الأعظم في سورية والشام كلّها، ولم تكن بابل سوى جزء من بلاد أكاد القديمة في ذاكرة التاريخ· وكانت اشنونا هي التي تمثل القوة الأخطر أمام بابل وماري· أما آشور فلم تكن قد أخذت أبعادها السياسية التاريخية التي عرفناها فيما بعد· وكانت آشور عاصمة إلا أن الآشوريين لم يكونوا سوى بدو أموريين من أصول سورية شامية(١٠)· وكانوا بدؤوا تاريخهم تجاراً في شمال سورية وفي أعماق الأناضول ولم يظهر بعد المفهوم الامبريالي الآشوري، وكانت عاصمة شمشي ادو هي اكالاتوم الواقعة في عالي الجزيرة الفراتية·

٥ – الأموريون في الشام وفلسطين:

لقد وثقت لنا ماري المناطق الشامية الغربية للمرة الأولى في التاريخ ولا يعادلها في ذلك سوى النصوص الأقدم في إبلا أو الأحدث في أوجاريت أو تل العمارنة·

وتلي والمقابل تقريباً عن الساحل الشامي من أوغاريت إلى جبيل/بيبلوس اللبنانية والمدن الفلسطينية وتقريباً عن كريت (كفتور) وقبرص (ألاشيا) قبل غيرها من المدن والقرى.

٢ – الإقليم السومري الأكادي وماري:

أثبتت مكتشفات آثار إبلا ومخطوطاتها أنها لم تكن بحاجة للنمط الأكادي أو السومري الآشوري دولة مركزية. ذلك أنها تأسست قبل ظهور الإمبراطورية الأكادية ولعل شروكين/سارغون الذي عرفها قد استولى عليها، ولهذا يبدو لنا المسرح السياسي في بداية الألف الثاني – من خلال نصوص ماري كما يلي:

١ – يظهر الأموريون/العموريون طبقة حاكمة أساسية تسيطر في مناطق أخرى هي بابل وآشور وماري وحلب وقطنا وأوغاريت وجبيل/بيبلوس وحاصور.

ويبدو العالم الجديد العموري وريث سومر وأكاد وعبر ذلك العالم المقابل لعالم الحضارة المصرية التي لم تكن بعد قد مدت نفوذها إلى فلسطين والشام عامة.

كان الساحل الشامي (السوري اللبناني الفلسطيني) مسكناً ومعبراً للملوك العموريين وسكان بني يمين القادمين من الفرات، وسيكون المسرح الساحلي مكتظاً بالسكان العموريين الذين سيبدؤون رحلاتهم البحرية بحثاً عن أراضٍ جديدة، وسيعرفهم الإغريق تحت اسم فينكوس/هذا التعبير الإغريقي للتجار العموريين سيصبح مقابلاً لحضارة سماها الغرب بالفينيقية. وللأسف أن بعض المؤرخين العرب ومثقفيهم التقطوا التسمية ليبنوا عليها تاريخاً مستقلاً لجزء من الساحل الشامي اللبناني بما يخدم التطلعات السياسية لفئة معينة. وكذلك ظهر تاريخ العموريين – (الفينيقيين) في تونس/قرطاجة وغيرها من سواحل البحر الأبيض المتوسط وظهر كأنه مفصول عن أصله العموري/الشامي. إلا أن جميع سكان الساحل الشامي كانوا في حركة وتنقل في جميع أرجاء المتوسط، ولئن كانت مدن صور وصيدا من المراكز العمورية «الفينيقية» المهمة، إلا أنهما لم تكونا معزولتين

أو «مستقلتين» عن بقية الساحل ومدنه مثل ارواد وأوجاريت شمالاً، وعكا وغزة جنوباً، على سبيل المثال، كما أن دمشق عرفت عصرها العموري تحت اسم بلاد أبوم Apum وكذلك خصوم وسارون Saron في لبنان، حتى أن بقاع لبنان يدعي (مات كنخوم) أي بلاد كنعان وهم عموريون ذكروا في كتابات ادريمي ملك آلالاخ في شمال سورية، الذي لجأ إلى فرع منهم (أقرباؤه غالباً) قرب ايمار على الفرات. ولكي نفهم المزيد عن التوزيع السياسي والجغرافي لهذه المرحلة العمورية لابد من مراجعة دقيقة لدراسة زميلنا أ.د.جان ماري ديوران الذي يفند فيها كيف وثقت نصوص ماري لغرب المشرق العربي أي الشام(١١). وقد تمثلت قوة الممالك الشامية هذه وخاصة حلب بقدرتها على التدخل السياسي في الشرق أي في العراق البابلي وذلك قبل صعود الامبراطورية البابلية العريقة. ونعلم أن حمورابي لم يتمكن من تجاوز الحدود الغربية بعد ماري بسبب امتداد النفوذ الجغرافي الحلبي وقوته الذي وصل إلى تل ليلان (قرب القامشلي).

٨ – الجغرافية السياسية لماري:

تشكل أعالي الجزيرة والفرات وفي عمق الأناضول ميداناً سياسياً وجغرافياً وسكانياً متنوعاً ومعقداً. واشتهر من مناطقها حران (زلمكوم Zalmakum وادمرص Ida-Mars وبلاد أبوم (اسم بلاد أخرى مطابق لاسم أبوم الاسم القديم لحوض دمشق) وبلاد سبرتم Subartum. وسنرى في النصوص والرسائل السياسية أن هذه البلاد تحتل مكانة مهمة في تاريخ شمال سورية/الشام، حيث نعرف ملوك هذه المنطقة من خلال نصوص ماري بأنواعها السياسية والإدارية. فقد كانت كركميش وخشوم Haššum واروسوم Ursum تجمع بين الأرياف الشامية والأناضولية. وكانت حران تمتد بسهولها إلى أعماق الأناضول وتشكل تحالفاً سياسياً يضم مدناً مثل نهريا Nihriya وشدا šuda وخنزات Hanzat وشكلت مملكة زلمكوم المعروفة، وهو معقل لسكن مكثف للبدو من بني يمين، وسفوح طور عابدين (Maras) حتى جغجغ وكانت تحمل اسم ادمرص Ida-maras أي (جانب مرض).

وتتجمع مجموعة قرى ومدن في هذه المنطقة الخصبة هي إلان صـــورا وأشـــنكوم واوركيش وشوشا وأشلاكا وترماني وشدخم وزلخان وخزكـــانوم وقاســـقا qâ-Isqâ وكخات ونعلم أن أوركش هي تل موازن اليوم، ويقع شمال البليخ المدينة الشـــهيرة دير Dêr، وكانت هذه المنطقة ومدنها مسرحاً وسكناً للبدو من بني سمأل. كمـــا أن المواقع الشهيرة مثل تل حلف وتل فخرية وتل طويلة وتل طويل وتل بيدر قد سكنت في الألف الثالث وهجرت في العصر الأموري (الألف الثاني) ذلك أن موقعاً مثـــل سكاني Sikkani على الخابور قد ذكر في نهاية الألف الثالث زمن اور ٣ وعُـــرف في العصر الأرامي ولكنه غائب من نصوص ماري. كما أن المواقع التي ذكرت في محفوظات إبلا في الألف الثالث لم تذكر في محفوظات ماري في الألـــف الثـــاني. وكان جغجغ يدعى خرمش Hirmaš، حتى في المصادر العربية، بقي الاسم علـــى حاله ويتبع موقع كخات المعروف في ماري الذي يمكن أن يُموقع في تـــل حميديـــة وليس في تل بري (flor. Mar. II. 244) ونجد قـــرب تـــل بـــراك ناجـــار Nagar الأمورية وكانت مركزاً سياسياً زمن الفتوح الأكادية. وكان تل لـــيلان (القامشـــلي) يشكل منطقة نمو القصب أي (مات ابوم) وتقع بين عابدين وسنجار. ودعيت قـــديماً شخنا وصارت شباط انليل عاصمة شمشي ادو الآشوري الأولى. وكان أقرب موقع لها يدعى ازمخل Azamhul أي (تل محمد دياب) (J.M. D I p151) أما السوبارتو Subartu فقد تموضعوا في الرميلان القريبة من الدجلة (وفيها موقع رزما Razamâ ويشان Yušan ويقع إلى الشمال من مملكة اكلاتم (رزما قطارة كرنـــا) وســـنجار وعاصمته أندريج وملكها الشهير يموت بعل وكردا عاصمة بـــلاد نمخـــا Numhâ وهكذا فإن جبل سنجار الذي مازال يحمل اسمه التاريخي السلفي للعرب، كان مكتظاً بالمواقع والسكن من قبل بني سمأل.

وكانت الجبال وخاصة زاغروس الإيرانية تشكل خطراً دائماً على سكان السهول البدو والحضر، وكان معاني أسمائها تدل على ذلك مثل مـــرص Maras ومـــردو Murdû

(ممرض، مصيبة) وباخوم (مخيف) وشجر (Saggar) ومردو Murdû وبـ [illegible]

وعقال. ولم يكن هناك من اسم ذي معنى إيجابي سوى "كوكب [illegible]" [illegible] أو [illegible]

زاغروس، وكانت كلمة أسقر Asqur تعني المرتفع.

وكانت مدينة كسبا Kasapa تحتل بين سنجار وعابدين وجنوب جبل عبد العزيز

بمكانة مهمة وسط الصحراء، وكانت زاغروس حدود التغلغل الآشوري. واعتبرت

جبال زاغروس مصدر خوف ورعب، وعرفت عاصمة ذلك الزمن أنشان Anšan (تل

ي، ماليان) Tell-i-Malian ومركز الامبراطور العيلامي شـ[illegible] Sukkal

mahhum وكان يسيطر على سوز (سوزة)، ولم تظهر قوته إلا زمن [illegible]

وكانت الصحراء أو البادية تحظى بقليل من الأمطار السنوية فتحولها إلى مروج خضراء لزمن قليل، فهي لم تكن تختلف إلا قليلاً عما هي اليوم. أي أنها كانت أكثر رطوبة ومطراً بنسبة ضئيلة. ويمكن أن نسجل عدداً من الرحلات الموثقة بين تدمر ودير الزور، وحلبيا والرقة. ويبدو من المؤكد أن القوافل والبدو لم تتوقف عن عبور البادية يوماً. وكانت قوات شمشي أدو أكبر قوة حربية (عشرون ألف رجل) عبرت البادية إلى تدمر وحمص ودمشق ولبنان، وبذلك عرف لبنان للمرة الأولى في التاريخ من خلال نصب شمشي أود في القرن الثامن عشر ق.م (mat libano) (١٢)، وكان بدو السوتوم Sutûm يسرحون بين بادية سورية وبادية الحجاز العريقة.

٩ – اللغة وهوية السكان:

لاشك بأن اللغة هي الدليل القاطع على الهوية الثقافية والعرقية ولكن لا يجب الخلط بين اللغة والعرق (race, ethnie). وذلك أن مصادر معلوماتنا اللغوية قد تخدعنا أحياناً ذلك أن مهاجرين جدد، قد يتبنون لغة سكنهم الجديد، دون أن ينتموا ثقافياً وعرقياً إلى المكان هذا.

ومصدرنا في التمييز بين الأعراق هو الأسماء المذكورة في النصوص، فمعنى الاسم وجذره، يتميز بسهولة ويمكن نسبته إلى اللغة الأم لحامل الاسم.. حتى هذا الأمر ليس معادلة مستقرة ويجب الحذر والانتباه، فمثلاً يمكن ملاحظة أن أسماء العلم التي تتضمن صيغة فعلية من يا ia قد صنفت على أن الاسم أموري/عموري من غرب الشام. والأسماء الأخرى التي تتشابه مع أسماء محفوظات نوزي Nuzi فهي حورية.

إن فائدة أسماء العلم في نصوص ماري تكشف لنا عن اسم الأب والابن والجد وبالتالي تركيب سلالة وتصنيفها على المستوى السياسي والعرقي. ونلاحظ وجود اختلاط طبيعي في الأسماء من أجناس أو أعراق مختلفة، وخاصة الحوري منها.

- **اللغة الأكادية واللهجات الغربية الشامية**: لا نستطيع إيجاد فروق كبيرة بين أسماء العلم الأكادية الشرقية وتلك الغربية الشامية. ونجد أن زمري ليم ملك ماري يذكر أن مملكته هي مزدوجة التبعية أكادية وبدوية، ولكنه يذكر في مكان آخر أنها أمورية (JMD. I. p.53) ولكننا رغم هذا نستطيع تمييز الأسماء الغربية عن الشرقية في كثير من الصيغ الاسمية حيث يكثر في الغرب استخدام اسم ياريم وليم وهو نادر في الشرق الأكادي حيث نجد شار، نارام، وسين إلخ..
- أما بالنسبة للحوريين وأسمائهم فسأنقل حرفياً ما استنتجه أ.د. جان ماري ديوران من خلال نصوص ماري وغيرها، نظراً لما تحمله هذه المشكلة من مشاعر معاصرة لدى الأقليات في سورية من أكراد وتركمان وأرمن، حتى أكون محايداً في الموضوع، يقول جان ماري ديوران في مجلده الأول عن نصوص ماري (JMD, I, p 54): «إن أسماء العلم المنتشرة في النصوص ذات الصفة الحورية، تمثل حقيقة في شمال الرافدين، حقيقة لا يمكننا تحديدها بدقة فيما إذا كانت سومرية أو سامية (شامية)» (١٣).

ويتابع جان ماري ديوران JMD: «إنه لمن الصعب التقرير فيما إذا كانت تمثل أساساً أو جوهراً حقيقياً في الشمال، أو حقيقة لأناس كانوا يسكنون في الجبال. فمن جهة

توثق لنا ماري أسماء علم كثيرة، وتعود لتاريخ أقدم من نصوص نوزي Nuzi (الحورية) أو بوغاز كوي (حاتوشا الحثية)، ومن جهة أخرى، تكشف لنا عن الأصول الحقيقية السورية (الشامية) التي كنا نحكم، بصورة نمطية، أنها ثقافة حورية، كما هي الحال بالنسبة لعدد من أسماء الآلهة القديمة مثل (خبات Hébat أو أشتبل Aštabil وخلدو Haldû ونبادج Nubadig) أو تعابير حضارية وأداتية (أداة، مادة). فكثير مما حُكِمَ عليه بأنه «حوري خالص» في وثائق وسط الألف الثاني، يجب، بالأحرى، أن يعتبر، من الآن فصاعداً، حقيقة «سورية شمالية» (شامية – شمالية)، وكذلك الأمر، بالنسبة، للتحويل المشوه للحقائق السامية، غير الأكادية».

وبمعنى آخر إن على المؤرخ اليوم أن ينظر إلى حقيقة الأسماء واللغة في شمال سورية أي الشام على أنّه أصل مختلف عن الحوري أو الحثي، وكذلك ألا يفسر على أنه أكادي خالص، وبالتالي فإنه سوري – شامي قديم صرف(١٤).

١٠ – نظرة البداوة والتحضر والسياسة والدولة:

إذا كانت البداوة ظاهرة شامية (سامية) منذ أقدم العصور. إلا أنه ليس من المنطق أو الإثبات التاريخي أن كل التمدن الشامي جاء من خلال البداوة. ولئن كان قسم من العرب بدواً، إلا أن بعضهم من مثل أصحاب حضارة البتراء وتدمر واليمن القديم تغيب عنهم صفة البداوة القريبة.

كما أن الأكاديين وهم أبعد سلف للعرب لا نجد في وثائقهم أصلهم البدوي!. ونحن هنا نتكلم عن حالة تاريخية وليس قبل تاريخية. لأن البداوة والصيد هي سمة أساسية فيما قبل التاريخ.

ولنذكر أن سكان الساحل الشامي من عموريين وآراميين لا يعكسون في وثائقهم أي صورة لأصول بدوية. كما أن نصوص ماري وهي الأقرب إلى صورة الواقع بخلاف المصادر الأخرى، فإنها لا تذكر، ولا تعكس صورة آلية للتحضر أو البداوة. ونلاحظ

أن ذكر ظاهرة البداوة الأقدم في عصور سومر وأكاد لم يكن إلا إشارة إلى تقلبات سكانية وحضارية متنوعة، وتأتي ظاهرة سكن البدو والتقرب من مواقع التحضر أمراً متسقاً مع عوامل أخرى. وعلى هذا علينا العدول عن تلك النظرية التقليدية السائدة هنا وهناك حتى في أدبيات الغرب الأوربي (ن: J-R. Kupper Les Nomades en Mésopotamie.. p. 262-263) أن هناك تغلغل وتسرب دائم من البدو إلى المراكز الحضارية على مدار التاريخ.

وكل ذلك يتشابه مع غزو "البرابرة" للامبراطورية الرومانية!.. يمكن لنا أن نجمل القول إنّ البداوة والتحضر هما ظاهرة مدنية بحد ذاتها، لأن البداوة تخضع لشروط جغرافية وحسب، وليست ظاهرة (عرقية)، وبالتالي فالبدو جزء من الحضر والعكس صحيح، وهما البشر الذين يتعرضون لتقلبات جغرافية سلبية أو إيجابية، فيتولد منهما التحضر أو الاضطرار للعيش في حالة تنقل بحثاً عن الكلأ والملح لدوابهم، ونلاحظ في وثائق ماري وإيلا أن أكبر أعداد الدواب والأغنام تعود للملوك والحكام في المدن وليس للبدو المتنقلين!. فلا يجب أن نحتفظ بصورة مطلقة لظاهرة متبدلة.

وعلينا مراجعة أعمال الندوة الدولية عن البدو والحضر (XX VIIIe RAI de Paris, p. 98-108) الخاصة به ماري ووضعها السياسي والسكاني، حيث إنّ محيط ماري متوزع بصورة دائمة بين بدو وحضر ولا نشعر بطغيان أحدهما على الآخر، ما خلا بعض ظواهر العنف المسجلة من صراعات قبلية بين بني سمأل وبني يمين، وحانا وسوتو. وهي ذات طابع اجتماعي وقبلي لا بدوي وحضري.

ونعرض هنا صورة عن الواقع السكاني والسياسي في عهد زمري ليم كما يلي:

١ – تتشكل المملكة من قلب هو ماري وتوابع وأطراف وهو توتل وإيمار أحياناً، وطور عابدين شمالاً، ورزما وقطارة وكرنا شرقاً – شمالاً وحيث Hit إلى الشرق، والبادية جنوباً.

٢ – كان جيران ماري من العواصم الكبرى آنذاك مثل حلب وبلاد يمحاض وكركميش/طرابلس وقطنا/حمص وبابل إلى الشرق الجنوبي، واكلاتم، شمال شرق.

٣ – إن عالم المراكز والعواصم البعيدة عن ماري التي تتصل معها بعلاقات تجارية هي الساحل الشامي: أوجاريت وجبيل/بيبلوس وحاصور في فلسطين وكريت ومصر، والخليج العربي وما وراءه البحرين/دلمون. وزاغروس والأناضول بما فيها المحيط الحوري الحثي. ولا تتوفر لدينا معلومات أكيدة حول ظاهرة البداوة والتحضر في هذه الأماكن ولا نمتلك سوى شواهد تجارية مباشرة أو غير مباشرة. وهكذا نجد أن محيط ماري الصغير والكبير هو ذات الامتداد المشرقي العربي اليوم وجواره الإيراني والأناضولي والإغريقي والقوقازي – الروسي.

والخلاصة، شاهد ماري الحضاري وقيمته:

إن الوثائق السياسية والإدارية والاجتماعية التي قدمتها محفوظات ماري تقع في المقام الأول في تاريخنا القديم وخاصة بداية الألف الثاني قبل الميلاد. ونجد أنها تلقي الضوء على تاريخ شمال بلاد الشام للمرة الأولى وتجعله صنواً ورديفاً لتاريخ سومر وأكاد وبابل وآشور. كما سمحت باكتشاف حضارة مدن وأقاليم مجاورة لم يصلنا منها بالذات أية معلومات مثل حلب وكركميش وأوجاريت وجبيل وغيرها.. ويسمح لنا هذا الصعود في تاريخ الوثائق المارية، بالتأكد من وجود دول مهمة ورائدة، كنا نعتقد أنها حديثة العهد أو غير موجود، وسمحت لنا بالتأكد من خلود حضارة المشرق العربي واستقرارها الدائم إلى جانب محيطها المختلف لغوياً وعرقياً. وحددت لنا سمات وحدود الانتشار الحضاري اللغوي والتقني لأسلاف العرب والشام وخاصة، كما ترينا قدرتها الانفتاحية وليس الانغلاقية، وذلك من خلال عبقريتها الخاصة التي لا تلغي ولا تحجب عبقرية الحضارات المجاورة وشعوبها، كما لا يمكن أن نعزل حضارة ماري عن الإرث الثقافي العربي الشامل، فهي التي عاشت تطورها من خلال ألف سنة من

التجارب، التي نجد فيها بدايات التكوين لثقافاتنا الدينية المتنوعة. وكلما تعمقنا في دراسة نصوصها نكتشف المزيد من غنى حضارتنا اليوم. حضارتنا اليوم، التي تحتاج إلى دفع وتحريك باتجاه المستقبل من خلال العودة إلى أقدم الجذور، وليس الجذور التقليدية المعروفة وحسب.

النصوص:

١ – السياسة والعمليات الحربية:

إن موضوع السياسة والحرب هو الأكثر وضوحاً في نصوص ماري(١٥). وتتجلى من خلاله أسماء ممالك تقع في شمال بلاد الشام والعراق. وبالتحديد في أعمال الجزيرة والفرات وشمال سورية ويذكر منها أشنونا وقبرا Qabra وزلمقوم Zalmaqum ويمحاض.

وكان زمري ليم أشهر ملوك العصر وبفضله وصلتنا النصوص السياسية والحربية، وقد استعاد عرش أجداده بالقوة، وذهبت مملكته في نهاية المطاف تحت قرقعة السلاح وحفيف النيران. وقد شكلت تلك الممالك وحدات سياسية وجغرافية مستقلة ولكن بقوة السلاح وصراع لم يتوقف أبداً.

وكانت القوى المتصارعة تتسارع للتحالفات وطلب العون من حلفاء اليوم الذين قد يكونون أعداء المستقبل والعكس صحيح.

إن الرسالة الأولى التي نبدأ فيها دراستنا تنبئنا عن هذا الواقع الأليم التي يمكن أن تكون فاتحة لفهم التركيبة السياسية والصراعية شمال الشام – سورية.

إلا أن السياسة وفكرة الحرب لا تخدمنا إلا بقدر وصولنا إلى عمق الأحداث كي نتمكن من الاستفادة منه ونقل تجربة الأجداد إلى الأحفاد، والهدف هو الاستفادة من الماضي في إعداد المستقبل وليس الحاضر وحسب.

وننقل هنا ترجمة النصوص الأصلية إلى العربية ولعل هذا يحدث للمرة الأولى بعد أن ملأت هذه النصوص صفحات التاريخ في اللغات الأوروبية. ونستعين كما هي العادة بنصوص ترجمها أستاذنا وزميلنا أ.د. جان ماري ديوران J.M.D وكذلك بمعرفتنا بالترجمات السابقة وبأصول النص الأكادي – المسماري، وهذا النص الفاتحة هو:

(قل لمولاي أن قال ابال بي إيل Ibâl-pî El خادمك: علمت أن يَرِخَا أبوم Yariha-Abum قد حصل على إذنكم بترك أمير اشنونا Ešnunna، ويعلم مولاي أن هذا البيت (الملكي) مليء بالخيانة! وأخشى أن تكون حيلة ضد مولاي بهدف الاستيلاء على اندريج Andarig، فإن أخذها، سيتوجه إلى كردا؛ ومنها سيعبر جبل سنجار، وكل بلاد شبرتمŠubartum ستصيح: «عاش مولانا» فهذا البيت قد راح يفعل تماماً، كما فعل سمسي ادو Samsî-Addu(١٦). فهو لا يتوقف عند حدود. فقد استولى على اكلاتم، وأقام معسكره ضد قطارا Qattarâ وضد ألخد Allahad والمدينة التي يستولي عليها يقوم بضمها! فهذا البيت مملوء بالخيانة!

وقبل أن تخرج الأمور عن رقابتنا، ويدهمنا الوقت، فلنمش ضده (ضد هذا البيت) فالبدو يتحرقون للقتال وكذلك ملوك ادمرص Ida-Maras قد تجمعوا مع قواتهم وهم يتطلعون بعيونهم إلى مولاي وقد اجتمع المشايخ وبعثوا إلى مولاي كل من آني ايتي ايل Annî-itti-El وحنزان Hanzân(١٧) فليتشاور مولاي مع خادميه وليبدأ الطريق).

٢ – الحملة على قطنا/حمص:

يمثل هذا العمل السياسي والعسكري أكبر مجموعة من النصوص(١٨) ومنها غير منشور وينشر للمرة الأولى بفضل زميلنا J.M.D الذي طرح السؤال من كان يقود الحملة آنذاك أي الحملة الآشورية نحو غرب وسط سورية أي حمص ولبنان ودمشق؟. وهل كان ملك آشور سمسي أدو بنفسه أو أحد ابنيه أو أحد القادة العسكريين.

ويقرر ديوران J.M.D أن أحد ابنيه المدعو يسمخ ادو ملك ماري عدو زمري لـيم ومغتصب عرش أبيه، هو بنفسه قائد الحملة· وسنقع على رسائل نترجمها هنا تبين لنا الطرق التي سلكتها حروب الأمس، فهناك ما يشير إلى أن طرقاً مباشرة ومختصرة تعبر البادي الشامية/السورية شرق تدمر لتصل مباشرة إلى نهر الفرات· وكان على ملك آشور شمسي أدو أن ينتظر الهدوء على جبهته الشرقية أي طوروس وزاغروس حتى يوجه قواته إلى الغرب· وكان عليه إنهاء المعارك الشرقية مع قبرا واشنونا وإقامة التحالفات عند الضرورة وتجميع قوات كافية لمعارك الغرب·

ومن خلال الدراسات المتعلقة بالحياة الدينية في ماري، نستطيع أن نبين أيضاً، موقع رجال الدين في الحياة السياسية· فقد عرض جان ماري ديوران في دراسته الشاملة عن الكهانة والعرافة في نصوص ماري، هذا الدور الذي يتركز في النقاط الآتية:

إن على الكاهن أن يحدد الاختيارات المناسبة لمسيرة الدولة والابتعاد عن المغامرات التي تحكم عليها الآلهة بالفشل·

ويمكن تلمس مثل هذا الحال في تعبير الكاهن شمش عينايا (Šamaš, imâya = الشمس عيناي) عندما يشكو من أنه لا يستطيع القيام بعمله، وأنه مجبر على المسايرة إزاء قيامه بواجباته كي يحفظ باب رزقه ورزق عائلته عندما يقول في إحدى رسائله: "عاجلاً أو آجلاً، ولا سمح الإله فسترتكب الخطايا"(١٩)·

رسالة من أوصر – أواسو Usur - awassu

كبار المسؤولين في قصر ماري زمن يسمخ ادو Yasmah addu

D. Charpin(٢٠). 298 [A. 3120]

(قل لمولاي أن قال خادمك أوصر أواسو: "كتب لي مولاي أوامر مشددة تتعلق بمرض بلتوم Bêltum قائلاً: «انتبه أن لا يكون هناك إهمال»·

وقد تابعت الأوامر، بالنسبة لي، فأنا لست قلقاً على ملكتي، فقد خفت حدة مرضها فلم تعد كما سبق. من جهة أخرى، لا يوجد في القصر مرافقات ممتازات تستطعن خدمة بلتوم شخصياً. يوجد حالياً أربع أو خمس مرافقات عند مبلساجا Mubalsaga اللواتي يعرفن استخدامات القصر. ويناسبن للخدمة الشخصية لبلتوم، فليرسلهن مولاي كي يقمن بخدمة – الملكة شخصياً بحيث ينصحنها بما هو مناسب وكذلك المشرفة العامة.

إن المرضعة التي جاءت مع بلتوم من قطنا، كونها أشرفت على تربية بلتوم وتعرف أطباعها، كان يجب أن تحضر عندما جاءت بلتوم من قطنا. والحال أنها أرسلت مع بلتوم إلى ماري، ولكنها لا تعرف شيئاً عن حياة القصر في ماري، وبسبب المرأة غير المسؤولة التي تقوم على الخدمة الشخصية لملكتي، وعند القيلولة وإغلاقه أبواب القصر، قامت (ملكتي) بإخراج المغنيات إلى مزار عشتار من أجل الصلوات (شوراروم Šurarum) وفي باحة بيت برمي birmi ضربتها الشمس! فمرضت منذ ذلك اليوم. أما الآن فلا ينشغل بال مولاي إطلاقاً.

فقد خفت حدة مرضها، بعد أربعة أيام من هذه الرسالة، سأبعث لمولاي بأخبار جيدة».

٣ – بداية الغزو العيلامي (أسلاف الإيرانيين)

في زمن زمري ليم

ومحاولات الاستطلاع

D.C 301 [M. 165]

رسالة قصيرة.. من مبعوث زمري ليم المدعو يمصوم Yamsûm

(قل لمولاي أن قال خادمك يمصوم. وصلت إلى مدينة على الجبهة، وهي مدينة إلان صورا Ilân-Surâ، حيث الملك هيا – سومو Hâya-Sûmû وجيش مولاي بحالة جيدة. ولدي تسعة وعشرون رجلاً، وبعثت برجل آخر.

هذه هي الأخبار بسرعة أبعثها لمولاي من إلان صورا).

يتلو ذلك عدة رسائل عن أوضاع الجبهة مع العيلاميين نختار منها اثنتين:

D.C 302 [M. 7099]

(قل لمولاي أن قال خادمك يمصوم: إن جيش ومدينة مولاي بحالة جيدة. كان مولاي قد أمرني – ونحن في مدينة إلان صورا ما يلي: «عليك أن تذهب إلى مدينة إلان صورا، وتراقب ما أمرتك به» وسهرت على تأدية دوري ولم أرتكب خطأ أو أسبب نقصاً تجاه مولاي. إن الأخبار التي أسمعها هنا وهناك وما تراه عيناي، فإن لم أتأكد من الخبر، فلا أكتبه لمولاي. وقد يحدث أن لا أتأكد من خبر ما، ولكن هذا ليس بكذب، ذلك أنني لا أكذب على مولاي. والواقع أن أحداً! ذهب لملاقاة مولاي ودس عليّ بهذه العبارات: «ياسيم – إل Yasim-El قد أوكل إلى يمصوم سبعة عبيد من نومخ numhu، لقد استهان بقَسَم اتور–مير Itûr-Mêr وبمولاي».

أقسم، بإنني لم أرَ شيئاً بين يدي يسيم – إل أو في يدي الجنوْد، وإنني لم أُدْخلْ شيئاً إلى مدينة إلان – صورا، وإنني لم أخفِ هذا الأمر على مولاي؛ وإلا من سينقذني من بين يدي مولاي ذات يوم. وكان أقبا – أخوم، أحد تابعي مولاي، وموضع ثقة، قد ساءلني أمام هيا – سومو، واستعرض قضية النومخين، ولكن شيئاً لم يوجه ضدي، وانجلى موقفي. واليوم، فليعلم مولاي أن هيا سومو لم يتوقف عن الكتابة إلى مولاي بالنميمة في موضوعي. فقد تحدث هذا الرجل! أقبا أخوم ولكن.. نهض أيا سومو أمام أقبا أخوم وقال له: «لماذا أتيت وزدت في الأمر على يمصوم؟ فهل هذا القرار عادل؟ إنه لا يساوي شيء».

إن أقبا أخوم تابع مولاي وجدير بالثقة، قد حقق في الأمر، ولم يوجه ضدي أي شيء، وعاد إلى أتمروم. وعندما كان يسيم – في طريقه إلى مدينة سيبخوم Siphum، فقد أرسل إلى ثوراً/بقرة مع خادمة وساقها خادم لي سالمة إلى قطونان. يجب على أتمروم أن يُسلِّم هذا الرجل، أو أن يسيم. قد أخذه. لا أعلم، إلا أن مولاي يجب أن يكون على علم بهذه الأخبار.

شيء آخر، سمعت من حولي [...] إن حمورابي يعد لحرب.. لا أخبر حمورابي، وليعقد السلام معي!»... إن أقبا أخوم قد ذهب».

٤ – قتال في شمال الجزيرة:

ونتابع أمور الدسائس بين تابعي الملك في رسالة أخرى ولكنها تلقي ضوءاً آخر على صراعات وقتال يدبر في شمال الجزيرة السورية، وهناك إشارة ثانية إلى حصار على بابل وقتال ضد عيلام. ولكن مطلع الرسالة مهشم إنها الرسالة ذات الرقم:

D.C 303 [A. 1168]

يقول كاتب الرسالة: «أريد أن أذهب إلى شخنا عند كونام Kunnam كنت قد قلت أن خصميك أدي أدو Addi-Addu ويشيم أدو، مازالا هناك، فلا تذهب، لأنهما سيضعفان موقفك». وجاء في اليوم التالي إيللوري Ulluri، واستعرضنا معه الرسالة التي حمّله إياها مولانا. فنهض وقال: «أنقذتموني أكثر مما أنقذتم شبرام Šubram وساميتار Sammêtar» عندها نهض إيللوري وقال مواجهةً له: «ألست أنت الذي أوداه إلى التهلكة بسبب تكتمك؟»، حينها نهضت وقلت: «أمام خطئك ألا تقول، هذا خطئي!» ألا تدري أنه حيثما حل سلطان مولانا يعم السلام؟ فمنذ أن توفي سمسي أدو، يوجد أربعة ملوك أقوياء. ولكنهم لم يتزوجوا من نسل يخدون ليم. والحال أنك تزوجت اثنتين من بنات مولاي، ومن ثم يصدر منك السخرية تجاه مولاي! ألا تعلم أنه من دون قوات صديقة على أبواب أندريج Addrig قد طرد مولاي سيد اشنونا، وهو ملك قوي؟ فلماذا يصدر منك هذا التهكم تجاه مولانا، ألا تدري أن رمح مولانا وكذلك الحنانيون أقوى من نظيره في البلاد كلها؟» الآن، فلينتبه مولاي جيداً إلى هذا اللوح (الرسالة). حالياً، فإن إيللوري، تابعك الجدير بالثقة، الذي يلوم هياسومو وجهاً لوجه. فقد لقناه درساً أنا وإيللوري، ولذا لم يذهب إلى شخنا. ولكن بما أنه قد أرسل صوريا Suriya وأقبا أبوم Aqba-abum، مكانه، فقد حلفوا اليمين مع كونام وأدي أدو ويشيم ادو. حالياً فإن رسائل السوكال Sukkal (مندوب العيلامي) قد وصلت إلى الملوك. وهذا ما يقولونه:

«ضعوا حداً لانشقاقاتكم وتعالوا! سأقوم بحصار بابل. وهكذا فإن البلاد تتوجه إلى مولانا. والآن فإن هياسومو قلق. فلينتبه مولاي أن لا يهمل الموضوع... وليتفكر مولاي... شيء آخر، اكتب له بهذه العبارات: «تعالَ إليَّ لنتفكر سوية ونجري اللازم. قل لمولانا أن يعطي رمحاً ليد رابوم).

D.C 328 [A. 2138 + M. 6368 + M. 14997]

تدل هذه الرسالة بوضوح على الأعمال الحربية لزمري ليم ملك ماري في الشمال والجبهة الشرقية العيلامية وكذلك البابلية:

(قل لمولاي أن قال تابعك يمصوم. المدينة بخير، وكذلك قوات مولاي.

فقد أرسل هياسومو أتباعه إلى مدينة شخنا وحملهم هذه الرسالة:

«لمن ستفتحون أبواب مدينتكم؟ إن فتحتموها لزمري ليم فسأعوضكم بما تريدون، فأجابه ينوخ سمر «إنني محاصر داخل المدينة، والعيون مفتحة علي». كما أرسل هذه الرسالة إلى سِمّة خلوريش Simat-hlluriš، فأجابه سِمّة: «سأحتفظ بالمدينة إلى مولانا. ولن أفتح المدينة لأي كان. فإن وصلت نجدة مولاي، سأُنقذ، وإلا سأضحي بحياتي لمعارضة دخولك. وإن امتدت يد علي، فسيبكيني مولاي؟». لم يعتقد هذا الرجل أن العيلاميين قد انسحبوا من مدينة حيرة Hirîtum ورحلوا إلى بلادهم، وفي النهاية، لم يصله أية قافلة. ولم يبق حبوب في المدينة، لم يبقَ من الحبوب ما يكفي سوى لشهرين).

٥ – زوزو الملك... مات في تل محمد دياب:

إن الرسالة القادمة تحمل الكثير من صور الحياة اليومية في سورية قبل أربعة آلاف سنة، ومكان أحداثها على ما يظن العالمان الصديقان جان ماري ديوران ودمنيك شاربان هو تل محمد دياب على بعد ثلاثين كيلو متر شرق القامشلي، ويظنان أن بقايا التل الأثرية التي تنقب من قبلهما منذ عام ١٩٨٨. (وبمشاركتي في إحدى المواسم) أن

هذا التل قد ورد اسمه القديم في الرسالة هذه باسم أزمخل Azamhul وتتبع مملكة تدعى أبوم Apum.

لقد بعث بالرسالة مندوب زمري ليم ويدعى أبال – إيل Ibâl-EL من مرخوم بني سمأل، وتعكس لنا الرسالة في مطلعها حياة الرعاة البدو التي يشبهها بالتاجر المتجول الذي يعبر البلاد دون أن يكترث بالأوضاع السياسية والحربية... وفي ذلك دلالة كبيرة على إصرار الناس على العمل والعيش مهما كانت الظروف! أما الموقف السياسي آنذاك فيبدو أن زوزو ملك أو شيخ بلاد أبوم قد منى بهزيمة على يد قوات زمري ليم وتم اقتسام المراعي في المنطقة بين زعيمين آخرين هما قرني ليم ملك أندريج وبونو اشتار ملك كردا، وإن زوزو قد أقام في ازمخل/تل محمد دياب (!) وهي منطقة خاضعة لنفوذ بونو اشتار، حيث نجد عمالهم القضاة يختمون بيته، ويحجزون مئة حمار عائدة لزوزو، وكان يجب أن تنقل الحبوب من أزمخل إلى سبخم وأن رجلاً هرب ليخبر قرني ليم بموت زوزو، وهذا يدل على العداء القديم بين بونو اشتار وقرني ليم. ومن المحتمل أن هذا الأخير كان يقيم في شباط انليل لأن أبال – إيل وبني سمأل لا يقيمون جنوب جبل سنجار عادة، ويبدو من جهة أخرى أن قرني ليم قد أقام هيا أبو ملكاً على بلاد أبوم بعد موت زوزو موضوع الرسالة الآتية.

D.C. Annexe: A. 350 + A. 616 (26)[٢١]

(قل لمولاي أن قال خادمك أبال – إيل Ibâl-El: «يعلم مولاي أنني أقود جماعة خانا، وإنني كتاجر يمضي بين الحرب والسلم، ورجال خانا على أقدامهم يمضون بين الحرب والسلم، ويتعلمون في مسعاهم ما تنطق به البلاد. فقد جاءني أحدهم وقال: «إن زوزو Zuzu قد جاءته منية الله، ومات» هذا ما قاله لي وحمل لي الخنانيون أيضاً خبر موته، فقلت إلى قرني – ليم Qarni-Lim «إن زوزو قد مات». إلا أن قرني ليم لم يصدق خبر موت زوزو وبعث بخادم له ليؤكد له خبر موت زوزو. وكتب ذلك الخادم العبارات الآتية: «لم تأت منية الله لزوزو بل أنه سقط من أعلى جدار السور

وحطمت واجهة أنفه إحدى الحجارة، وحملوه مضرجاً بالدماء، إلا أنه توفي أثناء نقله» هذا ما سمعته حولي.

بعد ذلك، فإن خادم قرني ليم، وهو الرجل الذي وضع بتصرفه مئة حمار تعود لزوزو، وكان عليه أن يحملها بالحبوب من ازمخل Azamhul حتى سبخيم Saphum، هذا الرجل، هرب ونقل خبر موت زوزو إلى قرني ليم وقال له: «إن منية الله لم تأت زوزو وهو لم يمت بعد سقوطه من أعلى جدار السور. لقد مات موتاً طبيعياً».

ثم جاء قضاة من بونو – اشتار Bûnû-Eštar، وختموا منزل زوزو، واحتجزوا الحمير التي يجب أن تُحمّل بالحبوب، في زمخلْ» هذا ما سمعته من حولي قد نقلته إلى مولاي. أما الآن، فإن الرجل الذي ثار ضد مولانا، والذي قام بإنقاذ أعداء مولانا، يهدد المراعي التابعة لمولانا ... [ولاشك أن إله مولانا سيعاقبه!... وبعثت برجل عسس. وعندما ستكون لدي أخبار مؤكدة فسأكتب إلى مولانا تقريراً كاملاً).

٦ – هجوم العيلاميين الإيرانيين على لارسا والخداع الحربي!

D. Chaprin 362 [A. 1860 + A. 4419]

(قل لمولاي أن قال ياريم أدو، خادمك: «إن سوكل Sukkal (= عاهل أو حاكم) العيلامي قد كتب إلى حمورابي ما يلي: «أتحضر للهجوم على لارسا، فهيئ قواتك المميزة، قوات التفوق، وأتباعك الذين رأيتهم في اشنونا، حتى يكونوا جاهزين عند وصولي. إذا استثنى رجل واحد من القوات التي رأيتها، فسأهاجمك أنت» هذا ما كتبه سوكل إلى حمورابي. فأجابه هذا الأخير: «كما كتبت لي، فإن قواتي جاهزة للهجوم معك. عندما ستهاجم فإن قواتي ستنطلق معك». هذا ما أجابه به. وبنفس الطريقة التي كتب فيها سوكل عيلام إلى حمورابي، فقد كتب إلى ريم – سين بهذه العبارة: «سأتجهز للانطلاق ضد بابل. جهز قواتك المنتخبة، قوات التفوق، وأتباعك

المخلصين، حتى يكونوا جاهزين. فإذا استثنى رجل واحد ممن سمعت عنه، فسأهاجمك أنت». هذا ما كتبه سوكل عيلام إلى ريم – سين. إن تلك الرسالة التي بعث بها سوكل عيلام إلى ريم – سين، هي بالذات قد أرسلها ريم – سين إلى حمورابي، بذات العمل، وأرسل رسالته التي أرسلها له سوكل عيلام، إلى ريم سين، واعتباراً من ذلك اليوم، فقد أعطى حمورابي أوامره إلى وزير خارجيته سين – بل ابليم Sin-Bêl-aplim وإلى أمين السر الإداري بين النساخ – سكاكيم Sakkakim وبعث بهم إلى مملكة لارسا، وأقاموا في مشكاشبير Maškaššapir قرب سين – مُباليط، وكان وزير ريم – سين يقيم لدى حمورابي. وكانت أخبار ريم سين تصل إلى حمورابي بانتظام، وأخبار حمورابي تصل بانتظام إلى ريم سين، من جهة أخرى، فإن مبعوثي سوكل عيلام يأتون إلى حمورابي بانتظام، ويبقون يوماً ثم يسفرهم في الغد.

وفي يوم وصولهم، اقتربت من باب القصر، وكان لي حوار معهم (!) سألت عن صحة سوكل عيلام وقلت لهم: «بما أنّ مولاي قد بعث بتقرير كامل إلى سوكل عيلام (أبيه) وأنه تكلم صراحة مع سوكل عيلام (أبيه) فإنهم يحجزونني هنا منذ وقت طويل، فقد كتب إلى مولاي ولكن حمورابي لم يدعني أغادر، ولكن إن رأيتكم، فإنني لا أخشى أي شخص آخر».

هذا ما قلته لهم. وليعلم مولاي).

٧ – حمورابي يعلن النفير العام:

D.C. 363 [A. 4511 + 8681] p. 165

(قل لمولاي أن قال ياريم أدو، خادمك: «ما يزال جيش العدو مقيماً في أوبي Upi بعد أن نصب خيامه. وما يزال جيش الأغرار التابع لحمورابي، مقيماً في مواجهتهم، جاهزاً للمعركة، ويراقب كل منهما الآخر. وفي اليوم الذي بعثت لمولاي هذه الرسالة، فإن حمورابي قد أعلن حالة النفير العام في بلاده، فقد طلب جمهور التجار، وجميع

الذكور، وذهب حتى تحرير العبيد، مما يملكه· وأرسل مندوباً كبيراً إلى ريم سين ليطلب جيشاً·

لا أعلم، حتى الآن، عن شيء يتعلق بوصول هذه القوات، بعد رسالتي هذه، سأكتب لمولاي تقريراً كاملاً عما سأعلمه، من جهة أخرى، فقد قيدوا بالحديد المندوبين العيلاميين، وأخذوا خدمهم وأملاكهم وحميرهم للقصر·

فليعلم مولاي»)·

D.C. 367 [A. 308] p. 170

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم – ادو: «إن بعثة، طاب علي ماتم Tâb-eli-mâtim وسين – بعل – ابليم Sîm-bêl-aplim وموظفي حمورابي الكبار الذين أوفدوا بمهمة، منذ وقت طويل، إلى مَشكَشبر، لم يرجعوا بعد·

وقد كتب ريم سين إلى حمورابي بهذه العبارة: «إن قواتي متجمعة في محافظتي، فلتجمع قواتك في محافظتك أيضاً· فإن هاجمك العدو، فإن قواتي ومراكبي ستنجدك· وكذلك الحال بالنسبة لي، إن هاجمني العدو· فتجدني قواتك ومراكبك»، هذا ما كتبه ريم – سين إلى حمورابي، إلا أن قواتهما، لم تتجمع بعد· ولم أتمكن من كتابة تقرير كامل بهذا الشأن)·

٨ – صراع اشنونا وحمورابي واتمرم

D.C. 372 [A. 107 + A. 110]

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم – أدو: «كتبت لمولاي بشأن التوجيهات المتعلقة بصاحب اشنونا، التي وجهها حمورابي إلى مندوبه»، فعندما ذهب حمورابي إلى بارسيبا فقد التحق به مبعوثو صاحب اشنونا ولكنهم لم يروه· وأقاموا قبالته في اليوم التالي، وبعد أن جعلوه ينتظر ليلة كاملة، فقد أجابهم عن الأخبار التي وصلته عنه! وأعطى أوامر إلى سين ··· ابن ككرُقم Kakkruqqum وإلى مردوخ – مُشَلِم

Marduk-mušallim وبعث بهم إلى اشنونا برفقتهم، وأخذوا بأيديهم اللوح (الرسالة) الصغيرة، واستوثقوا صاحب اشنونا بهذه الرسالة. كما تعهد حمورابي هنا، وبعد أن تعهدوا واستوثقوا بموجب تلك الرسالة الصغيرة، فقد بعث حمورابي – بلوح (رسالة) كبيرة إلى صاحب اشنونا. وهي لوح (نص) معاهدة. وجعل صاحب اشنونا يقسم اليمين. وبعث صاحب اشنونا اللوح الكبير – المعاهدة إلى حمورابي وهكذا سيقيمون حلفاً بينهم. إن التحالف بين حمورابي وصاحب اشنونا قد تم أو على وشك أن يتم، هذا مؤكد. حالياً، فإن الجواب عن رسالة سفير سين ومردوخ مشلم لم يصل بعد من اشنونا؛ والحال هذه لم أتمكن من كتابة هذا الخبر إلى مولاي. ولكن إثر رسالتي هذه، سأكتب إلى مولاي الأخبار الكاملة التي ستردني من اشنونا.

إن زمري – سمس خادم أتمرم Atamrum قد انضم إلى بعثة من اكالاتوم Ekallâtum؛ وقد وصل إلى بابل. وكتب أتمرُم إلى حمورابي ما يأتي: «لقد وصل شو – اشتار ومردوخ – مشلم، خادما أبي، إلي، ونقلا أخبار أبي إليّ. وكنت متيقظاً لما كتبه أبي من أخبار. وأخذت الهدايا المرسلة من أبي، من بين أيدي الوجهاء، وهي ألبسة، وزينة وحلي للألبسة، وعَمْرة وأريكة، وأشياء أخرى، وكنت مسروراً جداً. ولبست الثياب وزينها، وجلست على الأريكة التي بعثها أبي لي ولا أتوقف عن الصلاة لأبي.

أما بالنسبة للمعاهدة التي أظهرها لي أبي – فلا يوجد في اللوح – النص – إله أو بند أو شرط زائد، والحقيقة أنني لا أريد شيئاً من الآلهة أو شروط إضافية. وهذا هو المكتوب على ذلك اللوح: «كن عدائياً مع أعدائي وكن صادقاً مع أصدقائي»». هذا ما كتبه إلي أبي. وكي لا أحتفظ بالرجال ... من أجل أبي ... فإنني ... واستجابة لذلك، فقد وهبوني هذه المدينة ... وجعلوني أؤدي القسم. وأقسمت بهذه العبارة: (أقسم إنني لن أحتجزكم ... وسيبقى مال مدينتكم لكم ... وعندها أقسم لوالدي على ذلك). هذا ما كتبه أتمرُم إلى حمورابي. وكتب حمورابي في اليوم نفسه إلى اشمي دجن قائلاً: «دع

القوات الاشنونية التي أركبها أتمرُم، تذهب بسلام ···» وكتب إلى أتمرم هذه العبارات: «منذ قليل كتبت إلى اشمي دجن ما يلي: «عندما تشفى ··· فإن اشمي دجن موجود في الجبهة ··· وأنت اقسم لي قسماً! وأعطني الرضا الكامل، وابعث لي على جناح السرعة جواباً على رسالتي».

كان هذا ما كتبه حمورابي إلى أتمرم).

٩ – حمورابي وعيلام واشنونا:

وبعكس ما تقدم فإننا نرى حمورابي يخالف كلامه في رسائله التي يبدو فيها بحالة حرب ضد عيلام، فهو في هذه الرسالة، يوطد علاقاته مع سوكل عيلام، ويبعث بمندوبه إلى سوز في عيلام، إلا أن مبعوثيه يتبعون طريقاً آخر ذلك أن الطريق بين بابل وسوز عبر ملجوم Malgûm ودير، قد قطع من قبل ملك اشنونا. وقام حمورابي بإرسال نجدة من المال والعتاد إلى ملك ملجوم المدعو أبيق – اشتار، الذي عقد معه معاهدة. من جهة أخرى هناك قوات لدى اشمي – دجن تتحضر سراً، كما أن ملك اشنونا يرفض مشروع المعاهدة مع حمورابي، وهذه الرسالة تعكس لنا الوقائع كما هي من خلال كاتبها.

D. C. 373 [A. 223]

(قل لمولاي أن قال خادمك ياريم ادو:

سبق أن كتبت إلى مولانا أن حمورابي قد وارب في كلامه وراح يثرثر بصراحة مع سوكل عيلام كما حدث قبلاً. وإن مبعوثي سوكل عيلام إلى حمورابي ما يزالون حالياً، عند باب قصره. وبعد أن زودهم سوكل عيلام بتعليماته بعث بهم بمرافقة من سوزا إلى دير استاران. واستقبلهم صاحب دير وبعث معهم بمرافقة إلى ملجوم، وقام هذا الأخير بتأمين مرافقتهم حتى بابل. إلا أن صاحب اشنونا قد قطع الطريق عليهم، ولم يتمكنوا من عبوره. وعلم حمورابي أن رجال صاحب اشنونا قد قطعوا الطريق

أمامهم، لم يعد يرسل مبعوثيه المعتادين إلى سوكل عيلام عبر طريق ملجوم ودير. والحال أنه توجد مناطق خالية في أراضي اشنونا فأرسلهم من تلك المناطق، وهكذا فإن بريده نفذ إلى سوكل عيلام. إلا أنه لم يتلق بعد تقريراً عما حدث لدى سوكل عيلام.

شيء آخر، أرسل حمورابي إعانة من ثقلين من الفضة وسبعين جوراً من الحبوب إلى ملك ملجوم إبيق اشتار، عندها عقد ابيق اشتار معاهدة مع حمورابي.

فليعلم ذلك مولاي. من جهة أخرى سمعت من حولي ما يلي: «إن قواتاً من ستة آلاف رجل بابلي، سيصعدون إلى اشمي دجن، إلا أنهم يبثون الشائعات أنهم سيذهبون إلى مكان آخر». لقد استطعت الكشف عن هذا الكلام. وهذا بسبب زازيا Zaziya وملك قبرا qabara حيث تم تحريك القوات. وهي قوات مجهزة. وستصعد إلى اشمي دجن، وقد استوثقت من هذه العملية، وستصعد القوات إلى اشمي دجن في بداية الشهر.

من جهة أخرى، فالرسالة (اللوح) الصغيرة – المعاهدة التي بعث بها حمورابي إلى ملك اشنونا صلي – سين Sili-sîm، فهو ما يزال يجيب بكلام الرفض، ولم يعقد أية معاهدة مع حمورابي).

١٠ – مخالفات دبلوماسية وسياسية:

في قصر حمورابي في بابل وعيلام الإيرانية تؤدي دور الفرقة:

D.C. 384 [A. 1175]

إن منشئ هذه الرسالة غير معروف بسبب تهشم رأس اللوح/الرقم أي مطلع الرسالة ولكن الرسائل السابقة التي تتعلق بالموضوع، تدل على أن أحد مندوبي زمري ليم ملك ماري السابقي الذكر هو المنشئ. يقول:

(... قد وصلوا، وكذلك التقرير الذي أوكلني به مولاي ... إن مبعوثي اشمي – دجن في ... في دلدبا Daldaba، وفي يوم وصولهم، جاؤوا إلى باب القصر، ولكنهم لم

يقابلوا حمورابي. بل ذهبوا إلى موقع وزير العلاقات الخارجية سين بعل أبلـيم Sîn-bêl-aplim، وخرج هذا إليهم قائلاً: «أهل ماري ... أليسوا معكم؟» فأجابه مبعوثـو اشمي دجن هكذا: «أهل ماري لم يأتوا معنا إطلاقاً ... ونحـن ... »، وقـام وزيـر العلاقات الخارجية بنقل الموضوع إلى القصر وقال: «لم يدخل بعـد أهـل مـاري. ولتكتب بطريقة يكون فيها أهل ماري هنا! وأن يكونوا مع أهل اكـالاتوم ... وقـال ثانية: «لماذا لم يدخل أهل ماري معكم؟» وقال أهل اكالاتوم مايلي: ... ولكن وزيـر الخارجية عاد وتكلم هكذا: «بلا مبالغة، كيف تقولون أن أهل ماري ليسوا معكم ولـم يدخلوا معكم» ... ثم كرر قوله ... ثم دخلنا جميعاً إلى القصر».

واستقبلوهم بالتحيات العادية. وقاموا بتسليم رسالتهم التي تقول: «قال خادمك اشـمي دجن. لاقيت المصاعب بسبب اشكالات مولانا عندما كان العيلاميون في حرب ضـد مولاي فإن ملوك بلاد شُبرتم، قد تآمروا ضدي لدى سوكل عـيلام. وسـاقوني إلـى اشنونا. ولقنني سوكل عيلام الدرس، وخرجت من لدنه على عكاز! وعندما حاصـر العيلاميون مدينة خريتُم Hirîtum، يعلم مولاي أية خدمة أديتها له. فقد عانيت الأمرين بسبب إشكالات مولاي، والآن، وبعظمة مولانا التي أجل وأحترم، فإن زازيا Zaziya صاحب توروكّو Turukku، قد حمل ضد بلادي، واستولى على ٣ – ٤ من مـدني، ووضع البلاد في الخطر، وقد كتبت لك بشأن نجدة القوات، ولكنك لم تفعل، والحـال أنك بعثتها إلى مكان آخر؟».

فأجاب حمورابي: «لمن بعثت بالقوات ... قل. قل!» واقترب منه وكرر القول خمـس مرات وست مرات ... مجبراً إياهم على القول: «بعثت بالقوات إلى اتمروم!» فأجـابهم حمورابي: «أي قوات بعثت بها إلى اتمروم ... إنها قوات ثلاث إلى أربعمائة رجل فقط، التي أرسلتها إلى اتمروم. أما قوات ... واستمر حمورابي قائلاً لهم: «لماذا تخبئون بقية أقوالكم؟ قولوا ما لديكم من تقرير بالكامل» فأجابوه بما يلي ... وقال ما يلي ... «يوجـد بالتأكيد أخبار أخرى تحملونها». فقالوا: «لا، ليس لدينا تقرير سري، أرسله خادمـك ...

ولا تعنفنا: فإن مولانا ينبطح تحت قدميك كالبساط. وإن كان هناك ملك آخر يبجلك. وهو لن يكتب لك مثل هكذا رسالة خضوع».

وعندما قال مبعوثو اشمي دجن ما تقدم، أجابهم حمورابي بهذه العبارات: «إنكم لا تريدون إنهاء تقريركم، فلينهه مندوبي الذي جاء معكم» ودعا حمورابي مندوبه الذي كان قد جاء معهم وقال له: «بما أنهم لا يريدون إنهاء التقرير المكلفين به، فخذ دورك الآن، أكمل تقريرهم!». وجاء مندوب حمورابي الذي قدم معهم، وقرأ التقرير الذي سلمه مبعوثو اشمي – دجن. وأتمه بهذه العبارات: «إن زمري ليم الذي جعلتني أكتب إليه بصفة الابن، هذا الرجل ألم يكن خادمي؟ إنه لا يجلس على عرش رفيع، ولهذا لم أكتب تحيات مبجلة». عندها صرخ حمورابي: «أية فضيحة!»..

وقد نفى مبعوثو اشمي دجن التقرير بهذه العبارات ... إننا لم نكلف بمثل هذا التقرير.

وعندما انطلقنا، فإن ايلي – ايتي ilî-itê خادم اشمي دجن لحق بنا قائلاً: «هذا التقرير لم يرسل خاصة إلى مولاي زمري ليم، وإنما إلى اتمروم». فقال حمورابي لمبعوثي اشمي دجن: «إن ملوك شُبرتُم قد أنكروا مولاكم وقد كتبت له بهذه العبارات: «اكتب للملوك الذين يكتبون لي بصفة الابن، أنت اكتب لهم بصفة الأخ. وإلى زمري ليم الذي كتب لي بصفة الأخ، فاكتب له أنت بصفة الابن».

فهل ما كتبت له هو سيء».

هذا ما أجابهم به حمورابي، وكانت بقية التقرير الذي سلمه مندوب حمورابي يقول ما يلي: «عندما ذهبت إلى بابل، قُدِّم الودك، والسمك، والعصافير والفستق إلى مندوبي زمري ليم، أما أنا فلم يهتموا بي، وقدموا لي بعض الهدايا لاختيار واحدة منها قبل سفري وهي: أربع مزهريات فضة ... مثل بقية المندوبين»..

هذا هو التقرير الذي قدمه مندوب حمورابي ... فقررت بيني وبين نفسي: إنني أريد هذا التقرير مهما كان، وقبل أن يدخل مندوبو اشمي دجن إلى القصر [...] كتبت إلى

مولاي، أما ما يتعلق بموضوع سوكل عيلام، سمعت من حولي ما يقال: « إن سوكل عيلام قد مات» وكتبت هذا لمولاي. أما الآن، فقد وصل مندوبون من عيلام إلى حمورابي وقالوا: «إنه ليس إلا مريضاً مخطراً».

خلاصة ونتائج:

لم نستطع أن نقدم هنا سوى مجموعة محدودة من النصوص ونأمل أن نقدم المزيد منها في المستقبل، إلا أن خيوط التوزع الجغرافي للنفوذ السياسي في العصر العموري باتت واضحة تماماً. وهي تتمحور في وادي الفرات في ثلاثة مراكز هي:

١ - جنوباً حيث كانت بابل بقيادة حمورابي تتطلع لمد نفوذها على كامل العراق وسورية لتأمين مصادر الخشب وطرق التجارة مع الأناضول والمتوسط.

٢ - وكانت ماري في الوسط بقيادة زمري ليم التي أرادت أن تؤدي دوراً مماثلاً لبابل، بالاعتماد على حلب بقيادة ياريم ليم وقبل ذلك الاعتماد على ثرواتها في حوض الفرات الأعلى. ولهذا نجد أن معظم الرسائل تأتي من المندوبين الذين قادوا الصراع في الجزيرة العليا والجبهة الإيرانية.

٣ - آشور وعاصمتها الأولى شباط انليل (قرب القامشلي) بقيادة شمشي أدو ثم اشمي دجن في أكلاتم الذي يحاول استعادة مجد أبيه دونما نتائج مهمة.

هذا ما يتعلق بوادي الفرات.

أما في سورية - الشام الوسطى والساحلية، فقد تنازعت قوى حلب وسلالتها اليمحاضية (سومواإيبوخ وياريم ليم) وقطنة (المشرفة - قرب حمص) (بقيادة اشخي ادو ثم ابنه) للسيطرة على سهول سورية الوسطى وطرق المواصلات إلى الساحل السوري اللبناني. وأدت قطنا دوراً في إيصال النفوذ الآشوري إلى لبنان. وقد تمكنت حلب من معادلة التوازن السياسي، وحفظ نفوذها في كامل سورية الشام أمام نفوذ حمورابي البابلي من الجنوب، وكذلك الآشوري القادم من الشمال.

الهوامش

(١) هذا البحث هو جزء من البحث الشامل الذي قدمته إلى جامعة دمشق بعد تنفيذ مهمتي العلمية إلى باريس عام ٢٠٠٥٠ وآمل بنشر بقية النصوص لاحقاً٠

(٢) لتسهيل القراءة:

١ – قللت ما أمكن من الإشارات الاختصاصية، إلا أن النصوص غير الكاملة، والتي فقدت أسطراً كثيرة أو قليلة يشار إليها هكذا [...] أو [تهشيم] أو ...

٢ – استخدمت ذات الترقيم الأصلي للنصوص مع الإشارة إلى صاحب الترجمة إلى الفرنسية، ورقم صفحة النص والمجلد٠

٣ – ترد الاختصارات في أسماء العلم أو المؤلفات مع الاسم الكامل للمرة الأولى عند استخدامها٠

٤ – لم أستخدم ترقيم الأسطر في النصوص تسهيلاً لقراءة النص العربي، حيث يمكن للمختص العودة إلى الأصل، وتدقيق ترجمة العربية٠

٥ – إن ترجمتي العربية انطلقت من النص الأكادي، ولذا فإنني أتحمل أية مخالفة للترجمة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية بسبب أن قرابة اللغة تسمح أحياناً بنقل جمل في ترتيب النص الأكادي كما لكل مختص رأيه في الترجمة وأنا من يتحمل كل اختلاف أو نقص!..

(٣) من أجل هذه الأفكار راجع:

Jean-Mari Durand, Litteraturs Anciennes du Proche-Orient, Document Epistolaires du Palais de Mari Tome I = J.M. Durand, I Paris. 1997. P. 25.

(4) J.M. Durand, I. MARI 4, P. 151, n. 6

(٥) راجع من أجل اسم ماري في اللوائح السومرية:

Th. Jacobsen, The Sumerian King List, AS II;

ونصوص تل ليلان شمال شرق سورية:

C. Vicente. ZA 85, 1995, p. 234-270.

(6) D. Charpin, Amurru II.

(7) MARI 4, p 219-242; MARI 6. P. 271-275; J.M Durand, M. Gichar Les rituels de Mari, Flor. Mar. III.

(8)JMD, I, p. 45.

(9) J.M. Durand, Le Mythologéme du combat entre le dieu de l'Orage et Mer, MARI 7 p. 41-61.

(10) D. Charpin,, J.M. Durand, Aššur avant l'Assyrie, MARI 8.

(11) J.M. Durand. Comment les texts de Mari Documentes les régions Occidentales du proche-Orient. L'Acrobat et le Trureau. Colloque du Louvre, 1997.

(12) MARI 8, p. 341-366; F.J, Les routes au proche-Orients, Amurru I, p. 323-361.

(١٣) كل ما هو بين قوسين (...) في هذه الصفحة هو إضافة مني لمزيد من التعريف وتقريب المصطلح مثل سوري/شامي/سامي.

(١٤) للدلالة على هذه الحقيقة من خلال الأسماء الطبوغرافية (الأماكن الأرضية) أسوق الحادثة الآتية:

كنا فرقة حفر فرنسية بإدارة جان ماري ديوران نفسه في تل محمد دياب قرب الحدود العراقية أقصى الشمال السوري وفي الصباح الباكر أشرقت الشمس ونحن في بدء عملنا وسمعنا أحدهم (من العمال الحفارين) يقول: "طلعت الشمس على جبل سنجار" فرد عليه آخر قائلاً: "طلعت على جبل الأكراد" وقد التفتُ مع جان ماري ديوران لنرى القائلين، حيث إن ديوران يفهم ويتكلم العربية فقال متوجهاً للعاملين: «الاسم الأقدم هو سنجار»، ونظرت بدوري إليهم ومعظمهم متعلم فقلت: لا يجب أن تقلب الحقائق وفق الرغبات.. فالجبل موثق على أنه سنجار ومايزال، أما تسمية "جبل الأكراد" فهي ولا شك مرتبطة بالحالة الكردية.

(15) Jean-Marie Durand, LAPOII, les documents épistotaires du Palais de Mari. Paris. 1998. P. 7.

وأشكر هنا الأستاذ جان ماري ديوران الذي أذن لي باستخدام هذا المجلد وغيره من أعماله الكبيرة حول نصوص ماري.

(16) JMD II, p 10.

(17) bîtum = بيت ملكي v. Mélanges M. B., p. 63-64 et n. 95, et XXVII 37: 6-7

(١٨) لمراجع أكثر:
Bibliographie: publié par D. Ch, Mémoires de NABU 2, p. 97-102.

(19) J.M. Durand ARMT XXVI (1) AEM 1/1, Paris 1988, p.11.

(٢٠) جميع الرسائل الموجودة في هذا الكتاب منشورة في مجلد محفوظات ماري الآتي:
ARCIVES EPISOLAIRES DE MARI, I, 1, 2 – AEM-Archives Royales de Mari XXVI = ARM XXVI. Pubiliées Par, Dominique CHARPIN Francis Joannés, Sylvie, Lackenbacher et Bertrand Lafont. Paris 1988.

(21) Charpin, NABU-C/1, 1990, p. 120.

دراسة لأسباب اختلاف العقوبات الآشورية ضد زعماء الشعوب الأخرى وأعوانهم (منذ القرن الثالث عشر ق.م حتى القرن السابع ق.م)

دكتور عارف أحمد إسماعيل المخلافي

أستاذ تاريخ وحضارة الشرق القديم المساعد

قسم التاريخ-كلية الآداب-جامعة صنعاء

ملخص الدراسة:

عُرف تاريخ الآشوريين بظاهرة العنف التي طغت على حياتهم السياسية والحربية. وهذه الدراسة لن تتناول الظاهرة بذاتها، لكنها عنيت بجانب مختلف تماماً، وتناول جديد للظاهرة ينحصر في الإجابة عن التساؤلات التالية:

- **ما هي مظاهر اختلاف العقوبات الآشورية ضد الشعوب الأخرى وأعوانهم ؟.**
- **لماذا اختلفت أساليب هذه العقوبات من شعب إلى آخر ؟، ولماذا اتفقت أحياناً ؟.**
- **هل بني هذا الاختلاف أو الاتفاق على معلومات ودراية مسبقة بعادات وتقاليد تلك الشعوب ؟.**
- **هل أدرك الآشوريون أن إهانة العدو، أو معاملته بعنف يخضع تأثيره على نفسيته ونفسية أتباعه وشعبه لما هو كريم وما هو مهين ؟.**

وقد رأى الباحث أن الإجابة عن هذه التساؤلات لا ينبغي أن تبنى على احتمالات

وفرضيات، بل يجب أن تفهم من خلال دراسة عادات ومعتقدات الشعوب المعنية، و هو ما قاد إلى نتائج مذهلة ...

ABSTRACT

A Study Of The Reasons Behind The Diversity Of Punshment Systems Used By Assyrians Against The Leaders Of Other People And Their Allies During The (13th C. B.C –7th C. B.C)

Aref Ahmed Ismail A-Lmekhlafy

Assisstant Proffesor In Old History Of The Near East

Department Of History

Faculty Of Arts

University Of Sana'a Yemen

The History of Assyrians was marked by cruelty and violence, which dominated over all aspects of the political life, and became a prominent hallmark of that time. This study will present this phenomenon in a different perspective by trying to answer the following questions:

1-What are the different ways of punishment that the Assyrians used against other people and their allies?

2-What are the reasons behind such diversity in punishment?

3-Was it based upon a previous knowledge and awareness of the traditions and customs of those people?

4-Was it the fact that the assyrians were aware that humiliating the enemy and treating him vehemently would have a strong impact upon the psychology of the enemy?

We see that answering on these questions should not be based on mere hypotheses and assumptions, but rather by careful understanding of the traditions and customs of the concerned people, which in turn has led to fruitful results.

عُرف تاريخ الآشوريين بظاهرة العنف التي طغت على حياتهم السياسية والحربية، بل صبغتها وصارت من أبرز سماتها. ولذا دار جدل كبير بين العلماء حول ما إذا كان العنف والقسوة من مميزات الشخصية الآشورية، أم أن الأمر فرضته ظروف الصراع والتنافس والمتغيرات التي سادت الشرق القديم خلال الألفين الثاني والأول ق.م.

ومن العلماء من أصر على أن الآشوري عنيف بطبعه، ومنهم من رأى أنه مدافع عن مصالحه، وبين العنف والدفاع يقع اهتمام هذه الدراسة، ولكن ليس من زاوية الإصرار أو الإنكار، بل تبتعد عن الخوض في الظاهرة نفسها. فقد فاضت بها الأبحاث والكتب، سواء تلك التي تحدثت عن التاريخ أم التي تحدثت عن الفنون، والكل أجمع على أن العنف والقسوة قد مورسا من قبل الآشوريين بكل تباهٍ وتفاخر، ومن دون أدنى تحفظ كما يظهر من النصوص الآشورية. ولذا ستعنى هذه الدراسة بجانب مختلف تماماً، وتناول جديد للظاهرة ينحصر في الإجابة عن التساؤلات التالية:

- **ما مظاهر اختلاف العقوبات الآشورية ضد الشعوب الأخرى وأعوانهم ؟.**
- **لماذا اختلفت أساليب هذه العقوبات من شعب إلى آخر ؟، ولماذا اتفقت أحياناً ؟.**
- **هل بني هذا الاختلاف أو الاتفاق على معلومات ودراية مسبقة بعادات وتقاليد تلك الشعوب ؟.**
- **هل أدرك الآشوريون أن إهانة العدو، أو معاملته بعنف يخضع تأثيره على نفسيته ونفسية أتباعه وشعبه لما هو كريم وما هو مهين ؟.**

وقد رأى الباحث أن الإجابة عن هذه التساؤلات لا ينبغي أن تبنى على احتمالات أو فرضيات مسبقة، بل يجب أن تفهم من خلال تتبع ومعرفة ودراسة عادات ومعتقدات الشعوب المعنية، وهو ما قاد إلى نتائج مذهلة، كما سنرى في سياق الدراسة وحيثياتها...

أولاً: نماذج من مظاهر اختلاف العقوبات الآشورية:

١-آسية الصغرى:

(أ)الأناضول:

يذكر نص للملك الآشوري "شلمنصر" الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) أن هذا الملك اصطدم مع الحيثيين وحلفائهم، وأنه تمكن من هزيمتهم وذبح جنودهم كالخراف[١]، ويذكرالملك "تجلات بلازر" الأول (١١١٥-١٠٧٧ ق.م) في نص له، أن الأقوام التي حلت محل الحيثيين[٢] الذين أطلق عليهم اسم "Kutmuhi" وقفت ضد المصالح الآشورية، وأنه قام بمهاجمتهم وهزمهم، ثم ألقي بجثث جنودهم القتلى من أعالي الجبال بما يشبه العاصفة، وجعل دماءهم تسيل من الجبال إلي الوديان[٣]. أما الملك "سنحاريب" (٧٠٥-٦٨١ ق.م) فقد ذكر في نص له أن حاكم "قليقيا/كليكيا"[٤] ثار ضد الآشوريين سنة ٦٩٨ ق.م، فاتجه إليه جيشه، وتمكن من أسر ذلك الحاكم، وأُحضر إليه في نينوى حيث سُلخ جلده حياً[٥].

(ب) أرمينيا[٦]:

يذكر نص للملك الآشوري "تجلات بلازر" الأول، أنه قام ومعه عشرون ألف مقاتل بمهاجمة "الموسكائيين" (في أرمينيا) الذين تمردوا عليه بعد ما كانوا قد خضعوا للآشوريين في عهد الملك "توكلتي نينورتا" الأول (١٢٢٤-١٢٠٨ ق.م)، فانقض على "كوماجين" (مركز وجودهم)، وقطع رؤوس القتلي وزين بها أعلي قمم الأسوار المهدمة لمدنهم[٧].

وفي نص للملك الآشوري "آشور ناصر بال" الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م)، يذكر أنه هاجم مدينة "كينابو" Kinabu التي كان يحكمها "هولاي" Hulai والتي خرجت عن ولائها للآشوريين -على ما يبدو-، فيقول: "قتلت ٦٠٠ من الجنود بحد السيف، وأحرقت بالنار ثلاثة آلاف أسير، ولم أبق على أحد منهم حياً ليصبح رهينة في يدي،

وقد وقع أمير المدينة أسيراً في يدي. لقد كومت جثثهم حتى صارت في علوها كأنها برج، وأحرقت فتيتهم بالنار، وأما الملك فقد سلخته وعلقت جلده على جدار مدينة دامداموسا، وأما المدينة نفسها فقد دمرتها وأحرقتها بالنار"[٨]، كما يذكر هذا الملك "أنه هاجم المتمردين في أرض "كيروري"، Kirruri وسحقهم، وكذلك فعل مع أرض "جلزاني" Gilzani و "هوبوشكيا" Hubushkia فأعلنوا ولاءهم له وقدموا له الجزية، ومن "كيروري" انطلق عبر "هولون" Hulun إلى أرض "كيرهي" Kirhi (القريبة من نائيري[٩]) -عدّد مدنها في النص-، وبالرغم من أنه واجه مقاومة عنيفة، إلا أنه تمكن من الاستيلاء على "نيشتون" Nishtun -عاصمة "كيرهي"-، وفر رجالها إلى جبل مرتفع كأنه سحابة في السماء، ولكن جنوده تعقبوا الفارين ووقع الكثير منهم أسرى، فقام الملك بإعدام ٢٦٠ رجلاً منهم، وقطع رؤوسهم، واستخدم جثثهم كلبنات في بناء الأعمدة، ثم استولى على ممتلكاتهم، كما تمكن من القبض على "بوبو" Bubu بن "بوبا" Buba حاكم "نيشتون" وأخذه أسيراً إلى مدينة "أربيلا" (أربيل)، وهناك سلخ جلده حياً، ونشره على جدران المدينة .."[١٠].

أما الملك الآشوري "شلمنصر" الثالث (٨٨٣-٨٥٩ ق.م)، فيذكر أنه قاد حملة إلى مملكة "أورارتو"[١١] ووطأها كثور بري، فهزم المتمردين وكوم أهراماً من الجماجم، ووضع المهزومين على الخوازيق[١٢].

وكذلك عرفنا من نص للملك "سرجون" الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) أنه في سنة ٧١٤ ق.م سيّر حملة إلى "أورارتو" بسبب تمردها، ولكن ملكها "روسا" الأول امتطى صهوة جواده وفر بجيشه من أرض المعركة بعد أن تمكن الآشوريون من أسر العديد من أقاربه وتدمير أعداد كبيرة من مدن المملكة[١٣]، كما يذكر في عدة نصوص أخرى أنه دمر مدن ومعابد ومزارات هذا الملك[١٤]، وفي نص آخر يذكر الملك "سرجون" الثاني أن بعض القادة قاموا باغتيال الملك الأورارتي الموالي للآشوريين، ثم تحالفوا مع "المانيين" لحرب الآشوريين، فما كان منه إلا أن قام بحملة إلى هناك وتمكن من أسر

أحد القادة المتآمرين، وسلخ جلده، ووضعه علي البوابة الرئيسة لعاصمتهم، كما يذكر أنه أسر بعضهم ثم أطلق سراحهم لكي يعودوا إلي مدنهم وأقوامهم فيقصوا عليهم ما حل من خراب ودمار بالأورارتيين وكل من حالفهم(١٥).

٢- الآراميون(١٦) في سورية:

يذكر الملك الآشوري "آشور ناصر بال" الثاني، أن بيت حالوبي Bit-Halupe شرق الخابور –رافد الفرات– ثارت ضد حاكمها الموالي للآشوريين، فقام الملك بحملة إلى هناك، وتمكن من إلقاء القبض علي مغتصب العرش "أهيا بابا" Ahiababa ومعاونيه، ثم قام بقطع رؤوس معاونيه، ثم سلخ جلودهم ولف بها أثراً أقيم أمام بوابات المدينة. وأما جثثهم المقطوعة الرؤوس فقد وضعت فوق الخوازيق، وعلقت رؤوسهم كتاج فوق الأثر. أما بالنسبة لمغتصب العرش نفسه "أهيا بابا" فقد نقله إلي نينوى، ثم سلخ جلده حياً، وقام بتعليقه (الجلد) بالمسامير علي جدران المدينة(١٧).

وفي نص للملك "شلمنصر" الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) تحدث أنه هاجم الآراميين وحلفاءهم في معركة "قرقر" –شمال غرب حماه– في سنة ٨٥٣/٤ ق.م، وذبح منهم ١٤ ألف مقاتل بحد السيف، وجعل دماءهم تسيل في الوديان، ولم يستوعب السهل الصغير جثثهم المبعثرة، فجعل منها معبراً له علي نهر الأورنت Aranatu (١٨).

ويذكر الملك الآشوري "سرجون" أنه خاض معركة في "قرقر" أيضاً في عام ٧٢٠ ق.م ضد حلف تزعمه ملك حماة ضم مدن "أربادا" Arpada (شمالي حلب)، و "سميرا" Simirra (على البحر المتوسط)، و "دمشق" Damascus ، و "السامرة" Samaria (شمالي أورشليم)، ولذلك حشد "سرجون" قواته واصطدم مع المتمردين عند "قرقر" "مدينة حماه المفضلة"، وانتهت المعركة بحصار المدينة وأحرقها، وأسر ملك حماه "لو-بيدي" Lau-bidi مع مقاتليه وتم سلخهم(١٩).

٣- فينيقيا:

عندما ثار "عبدي-ملكوتي" Abdi-milkutti ملك صيدا ضد الآشوريين بإيعاز من مصر، وتحالف مع زعماء من الأناضول: "ساندواري" Sanduarri و "سيزو" Sizu في إقليم قليقيا/كليكيا، قام الملك الآشوري "أسرحدون" (٦٨١-٦٦٩ ق.م) بحملة ضدهم، فأسر ملك صيدا وقطع رأسه وحمله إلى نينوى، كما ساق شعبه إلى آشور "في حشود لا تعد ولا تحصى"(٢٠)، أما "ساندواري" و "سيزو" فقد قطع رأسيهما بعد أن أسرا، وأخذا إلى العاصمة الآشورية "نينوى"، وهناك حيث الاحتفال بالنصر علقت الرؤوس المقطوعة في مناكب نبلائهم وسيق الجميع في موكب النصر والمغنون يعزفون (على القيثارة)(٢١).

٤-عيلام:

أما في عيلام، فقد ثار ملكها "تيومان" Teumman وتحالف مع "دونانو" Dunanu (ملك) "جامبولو" Gambulu (Dunanu (King) of Gambulu)، فقام الملك الآشوري "آشور بانيبال" (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) بحملة إلى هناك، وتمكن من قطع رأس ملك "عيلام" وأخذه إلى "نينوى"، كما أسر حليفه "دونانو" ثم أخذا جميعاً إلى "نينوى" حيث جرى الاحتفال بالنصر في موكب عظيم، وفي هذا الموكب ظهر "دونانو" وهو يحمل على رقبته رأس "تيومان" ملك عيلام(٢٢). ثم اقتيد "دونانو" إلى "أربيلا" (أربيل) وقطع لسانه، وسلخ جلده، ثم أحضره على هذه الصورة إلى "نينوى" عرياناً مسلوخاً، وبعد ذلك كله اقتيد إلى مكان الذبح "فذبح كالحمل"(٢٣).

٥- فلسطين:

يذكر نص للملك الاشوري "سرجون" الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) أنه عندما تواجهت قواته مع تحالف "هانو" Hanno أمير غزة -الذي سبق له الفرار إلى مصر في عهد "تجلات بلازر" الثالث- و "سيبئة" Sibae المكلف بقيادة القوات المصرية، تمكن

"سرجون" الثاني من أسر "هانو" بعد أن فر سيبئة إلي داخل مصر، وأخذه إلى "نينوى"[٢٤]. وكذلك نجد أن خليفته "سنحاريب" (٧٠٥-٦٨١ ق.م) لم يتهاون مع التحالف ضد الآشوريين الذي ضم مصر وبعض الدويلات في فلسطين، فقد تمكن من أسر "صدقيا" Sidqia ملك "عسقلان" Ashkelon الذي لم يسبق له الخضوع للآشوريين، كما يذكر النص، ثم أرسله إلى "آشور" مع زوجته، وأطفاله، وإخوته، وكل الذكور من نسل أُسرته، ثم واصل الحملة نحو المدن الأخرى[٢٥].

٦- مصر:

تذكر النصوص الآشورية أن الملك الآشوري "أسرحدون" (٦٨١-٦٦٩ ق.م) عندما تمكن من احتلال مصر سنة ٦٧١ ق.م، فر ملكها "طاهرقا" Tarqu (٦٩٠-٦٦٤ ق.م) جنوباً إلى "كوش" Kusu (النوبة)، لكن الملك الآشوري استطاع أسر زوجة الملك المصري، وجميع نساء قصره، والموظفين، وكذلك ولي عهده "أوشناهورو" Ushanahuru ، وبقية أولاده، وأخذهم جميعاً إلى آشور[٢٦].

ويتحدث خليفته "آشور بانيبال" أنه عندما ثارت المدن المصرية ضد الآشوريين في سنة ٦٦٩ ق.م -أي بعد عودة القوات الآشورية إلى بلادها مباشرة-، تعامل الجيش الآشوري معها ومع من فيها بقسوة شديدة يصفها في النص على النحو التالي:

"... وأما الضباط، فقد ذبحوا أهالي مدن سايس، وبنديدي، صغاراً وكباراً بالسيف، وأما تانيس وكل المدن الأخرى التي اشتركت في المؤامرة، فلم يبقوا فيها حياً، بل علقوا جثثهم، وسلخوا جلودهم وغطوا بها أسوار مدنهم ..."، " .. أما الملوك الذين عادوا للعصيان مرة أخرى، فقد تم أسرهم، وجئ بهم أحياء إلى نينوى حيث لم تأخذني الشفقة بهم .."[٢٧].

٧-العرب في شمال الجزيرة العربية:

ذكر الملك "تجلات بلازر" الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) في أحد نصوصه أنه هاجم

الملكة "شمسي" Samsi ملكة بلاد العرب، وذبح من قومها ١١٠٠ شخص، أما الملكة نفسها فقد ولت الأدبار، وتركت قومها للجوع والظمأ، لكنها بعد ذلك جاءت معتذرة، وقدمت له الهدايا(٢٨). والسبب في مهاجمته لها -كما يذكر في نص آخر- أنها حنثت بقسم الولاء "لشمش" (أي للأشوريين ممثلين في معبودهم)(٢٩).

أما الملك "سنحاريب" (٧٠٥-٦٨١ ق.م)، فقد عاقب بشدة العرب الذين وقفوا إلى جانب المتمرد الكلدي "مردوخ-إبلا-إدينا" الثاني (مردوخ بلادان، في العهد القديم) الذي أعلن تمرده في مدينة بابل، حيث أرسلت ملكة بلاد العرب "ياتعة" Iatiae قوات بقيادة شقيقها "بسقانو" Baskanu للوقوف إلى جانب المتمرد، لكن الملك الآشوري هزمهم، وتمكن من أسر "بسقانو"، وجعله مع جنوده عبيداً له(٣٠). كما يفهم من نص لابنه وخليفته "أسرحدون" (٦٨١-٦٦٩ ق.م) أن والده "سنحاريب" هاجم "أدوماتو" (دومة الجندل) مرة أخرى وأسر ملكتها "تلخنو/يتعلخنو" Teaelhunu مع معبوداتها وأموالها، وأميرة تدعى "تبوعة" Tabua ، وأخذهم جميعاً إلى بلاد آشور"(٣١). ويبدو أن هذا الملك قد هاجم "أدوماتو" في إحدى حملاته، إذ يذكر أنه تمكن أثناء ذلك الهجوم من أسر ملكة بلاد العرب التي تدعى "اسكلاتو" Iskallatu (٣٢).

ومن ناحية أخرى يذكر "أسرحدون" في نص آخر أنه عندما قام شخص عربي يدعى "وهب" Uabu بثورة ضد "يطع" Iatiae الموالي للأشوريين لم يتردد الملك الآشوري من الوقوف إلى جانب "يطع"، بل تمكن من هزيمة "وهب" وقيده مع أتباعه، ثم اقتيدوا إلى عاصمته "نينوى" حيث أنزل بهم العقوبات المهينة، وهي أنه ربطهم على بوابة مدينته، وجعلهم حراساً له، كما يذكر أنه وضع أطواقاً في رقابهم، وقيدهم على قائم بوابته في نينوى(٣٣).

ويبدو أن عهد الملك "آشور بانيبال" (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) شهد أسوأ حالات التغير في التعامل مع العرب. فقد ذكر أن "يطع" -السابق ذكره- قد انقلب ضد الآشوريين وثار عليهم، مما جعله يقود حملة ضده، لكن يطع خان شعبه وهرب إلى "نابايتا" Nabaite

(بلاد الأنباط) قبل أن يصل إليه الجيش الآشوري الذي أشعل النيران في خيم ومساكن شعبه(٣٤)، ويذكر في نص آخر أنه نقل "البهائم، والماشية، والحمير، والجمال، وساق العرب إلى نينوى، لدرجة أن الجمل بيع في الأسواق بـ(١) شيقل و (نصف) شيقل، هذا فضلاً عن قيامه بتوزيع الهدايا من الجمال والعبيد حتى لفلاحي الحدائق وبائعي الشراب(٣٥). ومن الملاحظ أنه عندما سعى "ناتنو" ملك الأنباط في الصلح ووافق الملك الآشوري على ذلك(٣٦)، ذهب يطع إلى نينوى، لكن "آشور بانيبال" لم يف بوعده حيث يقول" "طعنت ذقنه بخنجر في يدي، ومررت حبلاً علي حنكه، وقيدته بسلسلة الكلب، وجعلته يحرس (مُرْبى) الكلاب، كما جعلته حارساً لبوابة سور نينوى التي تدعى مدخل الأمم المحتشدة"(٣٧)، ويذكر كذلك أنه وضع طوقاً علي عنقي "يطع بن حزائيل"، و "يطع بن بيردادا" المتعاون معه، وجعلهما مع الكلاب يقفون حراساً على بوابة نينوى(٣٨) .

ويبدو أن الملك الآشوري لم يتوقف عند هذا الحد، بل استكمل في نينوى العقوبة ليس ليطع وحسب وإنما كذلك لغيره الذين تحالفوا مع أخيه "شمش-شم-أوكين" الذي تمرد ضده في بابل. فيذكر أنه جعل "يطع" وكذلك الملوك العيلاميين "تاماريتو" Tammaritu، و "أوماناالداش" Ummanaldash يتعلقون برباط عربته ويمسكون بها – أثناء عبوره في شوارع نينوى- حتى وصلت إلى معبد "بيت أكيت" Bit-akit (المقر الرسمي للاحتفالات بعيد السنة الجديدة عند الآشوريين)(٣٩).

ويذكر هذا الملك أيضاً أنه تمكن من أسر "عدية" Adia زوجة "يطع" التي تولت القيادة من بعده، والتي تحالفت مع العرب ومع الأنباط في حربها ضد الآشوريين بسبب نكث الملك الآشوري بعهده في الصلح -كما سبق-، و ذكر أنه نكّل بشعبها، وأحرق مخيماتهم، أما هي نفسها، فقد حكم عليها بالموت(٤٠)، وبالنسبة لحلفائها الآخرين "أبيطع" Abiate، و "آمو" Amu بن "تعري" Teari وغيرهم، فقد جرى قتلهم في نينوى(٤١).

ثانياً: تفسير الظاهرة في ضوء عادات ومعتقدات الشعوب المعنية:

هانحن نصل الآن إلى النقطة المحورية في الدراسة، بعد أن قدمنا نماذج لمظاهر الاختلاف. فقد استغرق الباحث وقتاً طويلاً وهو يتأمل في جوانب مختلفة لمحاولة الوصول إلى تفسير يوضح أسباب الاختلاف في العقوبات التي فرضها الآشوريون على أعدائهم، حتّى اهتدى إلى ضرورة معرفة وتتبع عادات ومعتقدات الشعوب المعنية من اجل الخروج برؤية تحليلية تعتمد على قاعدة معلوماتية شاملة، وذلك من خلال التعرف على مكانة الزعماء والقادة، ومدى تأثيرهم في مجتمعاتهم، وكيف يُنظر إليهم في بلدانهم، وما هي العادات والمعتقدات التي تحكمهم وتتحكم في حياتهم، وهل أدرك الآشوريون كل ذلك ؟.

وسنقوم في هذا المحور، بتحليل وتفسير الظاهرة لكل شعب على حدة، بحسب المنهجية التي اتبعناها، مع توضيح لأسباب المشترك والمختلف، ثم سنُتبع ذلك بجدول لتوضيح الفكرة وتسهيل استيعابها. كما سنضطر إلى تكرار المعلومات التي وردت في النصوص السابقة باختصار، لكي نربط المعلومات، والحيثيات، والاستنتاجات بعضها ببعض، ومن ثم تكوين صورة متكاملة للوصول إلى الغاية التي قصدها الباحث، وبكل وضوح ..

أولاً: آسية الصغرى:

١-الأناضول:

لاحظنا أن نصوص الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، لم تتطرق للحكام بصورة مباشرة،ولكنها تحدثت عن العقوبات التي أُنزلت بجنود الحيثيين بعد هزيمتهم. فقد ذبح الملك "شلمنصر" الأول جنود الحيثيين "كالخراف"، أما "تجلات بلازر" الأول فلم يكتف بقتل الجنود الحيثيين المهزومين، بل "ألقي بجثثهم من أعالي الجبال بما يشبه العاصفة، كما جعل دماءهم تسيل من الجبال إلى الوديان".

ومن خلال تتبعنا لعادات ومعتقدات الحيثيين، وجدنا أن النكبات التي تحل بالبلاد، تقع على عاتق الملك، وأن ذلك راجع إلى إساءة ملكية تخالف المعتقدات الدينية التي آمنوا بها[٤٢]، كما عرفنا أن هزيمة الجيوش ليست بالأمر الهيّن، بل يلزم ذلك طقوس تطهير خاصة تصل إلى حد تقديم ضحايا بشرية وحيوانية، وفي هذا الصدد جاء في إحدى التعليمات المرتبطة بذلك ما يلي:

"إذا هُزمت الجيوش من قبل العدو فعليها أن تؤدي طقساً وراء النهر كما يأتي: عليهم أن يشقّوا رجلاً، وعنزة، وخنزيراً صغيراً، ويضعون نصفاً على هذا الجانب ونصفاً على ذلك الجانب"[٤٣]. وهذا يعني ان الآشوريين لم يكتفوا بتحقيق الانتصارات وحسب، بل استهدفوا تدمير معنويات العدو، فهزيمة الجيش الحيثي تلقي بظلالها على مختلف الجوانب في البلاد، فإذا كان الملك الذي يوصف بأنه "الملك العظيم"، و "البطل"، و "محبوب الإله"، و "المزود بقوى خارقة"، و "مانح الخير والسعادة للشعب"[٤٤]، و "المشرف على كل أمور البلاد"[٤٥]، و "الكاهن الأعلى لمزاراتها"، و "قائد الجيش"، و "القاضي الأعلى"، و "المؤله بعد وفاته، و "الذي يعد وكيلاً عن معبود العاصفة، ويحكم البلاد بدلاً عنه، وهو الوسيط بين المعبودات والبشر"[٤٦]، فإذا كان الملك هو المسؤول الأول عن تلك الهزائم، فإن هزيمة الجيش تعني هزيمة للملك، وهزيمة الملك تعني تقصير منه، وهذا الأمر يعني خللاً في عقيدة الشعب الحيثي ككل، وهو ما يعد من أكبر العوامل التي كانت تترك أثراً مباشراً أو غير مباشر على الحكومة والشعب على السواء، الأمر الذي يجعلهم يقدمون حتى الضحايا البشرية للخروج من تلك الإساءة الملكية، فإذا كان الأمر كما وصفنا، فإن تكرار الهزيمة يعنى مزيد من تدمير المعنويات، ولذا تعمد ملوك آشور إشاعة ما جرى، بل والمبالغة فيه، لتحقيق أعلى درجات الانتصار في منطقة معينة. بالإضافة إلى التأثير على معنويات المناطق المجاورة التي تتعرض للمصالح الآشورية.

أما في العصر المتأخر وتحديداً في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع ق.م،

فقد أشارت النصوص الآشورية إلى كيفية التعامل مع المهزوم ذاتـه. فهـاهو الملـك "سنحاريب" يشير إلى أنه أسر ملك "قليقيا/كليكيا" المتمرد على الآشوريين، وأنه جرى سلخ جلده وهو حي في العاصمة الآشورية نينوى.

ومن المعلوم أن هذه المرحلة لم يعد للحيثيين فيها مكان، وإنما صارت البلاد مشـتتة ومنقسمة إلى دويلات يقطنها المهاجرون "الفريجيون" الذين حلوا محل الحيثيـين(٤٧)، لكن بكل تأكيد لم تنته التقاليد الحيثية، بل تشربها من عُرفوا "بالحيثيين الجدد"، وبالتالي فإن سلخ الملك يعني أقصى درجات التحطيم المعنوي لملك ذي مكانة عالية في شعبه، بعد مرارة الهزيمة التي أفضت إلى ذلك الأسر، والتي ستفضي إلـى خضـوع تـام للآشوريين.

٢-أرمينيا:

لقد تعامل الآشوريون مع الدويلات التي كانت قائمة في أرمينيا، بأعلى درجات التمثيل للقتلى والأسرى، ليس في المناطق البعيدة أو الجبلية، بل كان يجري ذلك في المـدن المهزومة نفسها وعلى مرأى ومسمع من شعوبها التي بقيت حية !!!.

فالملك "توكلتي نينورتا" الأول، قطع رؤوس القتلى في مدينـة "كومـاجين" -مركـز التمرد- "وزين بها أعلى قمم الأسوار المهدمة لمدنهم، بينما لجأ الملك "آشور ناصـر بال" الثاني إلى قتل الجنود وإحراق الأسرى والفتية بالنار، ولم يكتف بذلك بـل كـوم جثث القتلى بما يشبه الأبراج"، أما الملك فقد أسره وسلخ جلده حياً، ثم قام بتعليق الجلد المسلوخ على جدار عاصمته دامداموسا" التي أحرقت هي الأخرى بالنار، وفي معركة أخرى جعل جثث القتلى كلبنات في بناء الأعمدة، وقبض على الملك بوبو بن بويا وقام بسلخ جلده في مدينة أربيل. كذلك نلاحظ أن الملك "شلمنصر" الثالث استخدم الأسلوب نفسه، فقطع رؤوس القتلى وكومها كالأهرام، ووضع المهزومين على الخوازيق. كما سار "سرجون" على الأسلوب نفسه، حيث سلخ قائد التآمر علـى الملـك الأورارتـي المتحالف معه، ووضعه على البوابة الرئيسة للعاصمة الأورارتية، وإلى جانب ذلـك

أشاع هذه الأخبار من خلال إطلاق بعض الأسرى.

وبالنظر إلى ما تقدم نجد أن المجتمع الأورارتي كان مجتمعاً عبودياً يخضع بالكامل للملك الذي يستقوي بأقربائه وجيشه، والذي يعد رأس الدولة ويمتلك كل شيء(٤٨)، فإن ذلك الملك الملقب بـ "ملك العالم" و "الملك القوي"، و "الذي لا مساومة له"(٤٩)، كان لا يخشى جانب شعبه، وإنما يستخدمهم في معاركه بحكم نفوذه القوي عليهم، ولذلك -كما يظهر من النصوص- تعمد الآشوريون التشهير بالملوك والقادة والجنود من خلال التمثيل بهم داخل المدن، وعلى أسوارها وبواباتها، كما تعمدوا إشاعة تلك الأخبار من خلال الأسرى الذين يطلق سراحهم عنوة، وهو ما يعني القضاء على هيبة الملك وقادته في وسط شعوبهم، ومن ثم ضمان خضوع تلك المناطق للآشوريين أطول فترة ممكنة رهبة ورعباً منهم.

ومع أن الآشوريين حققوا منافع سياسية واقتصادية من تلك الانتصارات، ولاسيّما في هذه المنطقة، إلا أن هناك من يرى أن إضعاف "أورارتو" دونما ضمان للسيطرة التامة عليها، قد هدد أمن بلاد آشور من خلال الهجرات المتكررة إليها، التي لم تستطع مملكة "أورارتو" الضعيفة والمدمرة لعب دور الحليف الحاجز الذي يمنع المتسللين من الوصول إلى بلاد آشور(٥٠)، مما يعني أن النتائج لم تكن دوماً في صالح الآشوريين، إلا من قبيل إشاعة الرهبة والرعب في نفوس الأعداء.

ثانياً: الآراميون في سورية:

من الملاحظ أن العقوبات التي طالت زعماء الآراميين وجنودهم لم تختلف عما كان شائعاً في الألف الأول ق.م، فقد شملت سلخ الجلود، وقطع الرؤوس، ووضع الجثث فوق الخوازيق، والمبالغة في أعداد القتلى، وقد كان يُمَثّلُ بالجنود والقادة داخل مدنهم، أما الملوك فيؤخذون إلى العاصمة الآشورية ويتم سلخهم.

ومن المعلوم أن الآراميين اقتبسوا الحضارة المادية للشعب الذي سكنوا في أوساطه.

ففي شمالي سورية، أصبحوا ورثاء ومتابعين لعمل الحضارتين الحيثية والآشورية، وفي سورية الوسطى، ورثوا الحضارة الكنعانية وتابعوها، واتخذت عاصمتهم "سمأل / شمأل" في الشمال الغربي مظهر مدينة حثية، ولكن ملوكها كانوا يتسمّون بأسماء آرامية، وتركوا كتابات أثرية بحروف فينيقية[٥١]، ومما يذكر كذلك أن القرن الثامن ق.م شهد انتشارا سريعا للتأثير السياسي الأورارتي بين الممالك الآرامية في شمال سورية عن طريق "أرفاد"[٥٢]، التي خضعت لملك أورارتو القوي "سردور الثالث"[٥٣] الذي حكم في الفترة بين ٧٤٣ ق.م حتى ٧١٤ ق.م[٥٤]. ومن جهة أخري يستدل من النصوص التي خلفها الآراميون أن الملك كان مهما في نظر شعبه، ويحمل همهم، كما كان يهتم بالمظاهر الملكية الفخمة. فقد ذكر نص على تمثال أقامه "بنامو" الأول ملك "سمال/شمأل" (القرن الثامن ق.م) لمعبوده "حدد"، أن الملك كان عليه مسئولية كبيره تجاه شعبه، حيث جاء "إن هم الملك الأكبر كان سعادة شعبه"[٥٥]، كما ذكر نص على تمثال تذكاري لملك "سمال/شمأل" "بنامو" الثاني (القرن الثامن ق.م) أن الملك كان يعيش في رفاهية، فذكر: "وفي أيام أبي بنامو عيّن حاملين للكؤوس وسائقي مركبات"[٥٦].

ويتضح مما تقدم أن الآراميين اتبعوا ما كان سائداً من معتقدات في مدنهم، إلى جانب تمسكهم بعاداتهم التي حملوها معهم عندما هاجروا من الجزيرة العربية[٥٧]، بمعنى أنهم استلهموا قيماً وتقاليد عدة، جمعت معتقداتهم وتقاليدهم مع ما عرفته الشعوب الأخرى، فشكلت خليطاً استدعى استخدام العنف الشديد معهم من قبل الآشوريين كباقي الشعوب المعاصرة لهم، وخاصة أن الملك الآرامي كان كما سبق أن عرفنا من نصوص "سمأل/شمأل"، "همه الأكبر سعادة شعبه"، فأي سعادة ستكون لشعب سُلِخَ ملكه، وتخوزقت جثث جنوده ؟!! سوى الوصول إلى النتيجة التي أرادها الآشوريون، وهي موالاة تلك الشعوب لملوك آشور، وضمان أمن البلاد واقتصادها ..

ثالثاً: فينيقيا وعيـــــلام:

اتضح لنا من النصوص أن الآشوريين قد انتهجوا مع الملوك المتحالفين ضدهم، عندما يتمكنون من الإمساك بهم، أسلوباً واحداً ومتميزاً في العقوبات، يشمل التشهير والرعب والعنف في الوقت نفسه ..، فالملك "أسرحدون" قطع رأس ملك صيدا الذي ثار ضده، كما قطع رؤوس حلفائه من ملوك الأناضول، ثم علق تلك الرؤوس المقطوعــة علــى مناكب أتباعهم الذين تم أسرهم ليسيروا في موكب النصر على نغمات الموسيقى.

وبالطريقة نفسها تعامل الملك "آشور بانيبال" مع ملك عيلام وحليفه "دونـــانو"، حيــث قطع رأس ملك عيلام وعلقه على رقبة "دونانو" ليسير على تلك الصورة في موكــب النصر في نينوى، ثم مالبث أن قطع لسان "دونانو"، ثم سلخ جلــده، وأخيــراً ذبحــه "كالحمل".

وبرؤية تفسيرية لذلك، نجد أن هناك تشابهاً كبيراً في العقوبات المتخذة ضــد ملــوك فينيقيا وعيلام، وهذا لا يعني بالطبع تشابه في العادات والتقاليد، وإنما هــو أســلوب تشهيري أراد له الآشوريون أن يصل إلى الداخل والخارج على السواء، ففي الــداخل أرادوا إثارة الرعب لمنع أي اضطرابات أوقلاقل بسبب الخلافات الداخلية التي سادت عهدي "أسرحدون" وابنه "آشور بانيبال" بالترافق مع طموحات التوسع الخارجي مــن ناحية، وتهديد الوحدة الوطنية من الداخل من ناحية أخرى(٥٨). أما في الخارج، فقــد أراد ملوك آشور تنبيه أي قوى متحالفة ضد الآشوريين إلى أن هناك سياســة أخــرى تجمع بين الأساليب القديمة في التعامل مع الأعداء، وبين الأساليب الجديــدة المشــار إليها آنفاً.

وبطبيعة الحال، فإن ذلك لا يعني عدم بناء العقوبة على أسس من العادات والمعتقدات، بل كان هذا الأمر نصب أعين ملوك آشور. فالفينيقيون كانوا في البداية شيوخاً لقبائل، ثم تطور نظام الحكم عندهم إلى وجود مجلس للشيوخ، ومع ذلك لــم يفقــدوا تقاليــد البداوة(٥٩)، ثم ادعى ملوك فينيقيا الطبيعة الإلهية، وجعلوا أنفسهم كهنــة المعبــودات

الكبرى لمدنهم[٦٠]. أما العيلاميون، فقد كان الملك عندهم يحكم اتحاداً عيلامياً لعدد من الولايات، وكان هو على رأس ذلك الاتحاد، ومن تحته عدد من الأمراء[٦١]. وفي ضوء ذلك نجد أن إهانة ملك له جذور عشائرية، أو كونه كاهناً أعلى، أو ملكاً للملوك، بتلك الطريقة التي مرت بنا، أمر له تداعيات كبيرة، فذلك يدمر الكرامة والمعنويات على حد سواء، ليس للملك فحسب، بل للشعب الذي كان يحكمه كذلك.

رابعاً: فلسطين:

من الملاحظ بالنسبة للنصوص الخاصة بفلسطين، أن ملوك آشور تحدثوا في نصوصهم عن قيامهم بأسر الملك أو أسرته، ولكن لا نعرف المصير الذي يؤول إليه حالهم بعد ذلك.

فالملك سرجون الثاني، يذكر أنه أسر "هانو" أمير غزة الذي سبق له الفرار إلى مصر في عهد تجلات بلازر الثالث، ثم تحالف معها ليقع في أسر الآشوريين بعد ذلك[٦٢]، ولكن لا يُعرف مصيره على وجه التحديد بعد أن تم نقله إلى "نينوى". وكذلك الأمر بالنسبة للملك سنحاريب الذي أسر "صدقيا" أمير عسقلان، ثم أرسله إلى "آشور" مع زوجته وأطفاله وإخوته وكل الذكور من نسل أسرته.

ومن المعروف أن النظام الاجتماعي للشعوب التي عاشت في فلسطين، كما ذُكر في العهد القديم، كان نظاماً عشائرياً قائم على زعامة الآباء، ومطابق لنظام العشائر العربية[٦٣]، ومن ثم اتبع الآشوريون معهم الأساليب نفسها التي استخدموها مع العرب، فقد اكتفوا بأسرهم منفردين أو مع عائلاتهم أحياناً، ثم إهانتهم، دون الحاجة إلى القسوة الشديدة التي اُتبعت مع جيرانهم الآراميين مثلاً، وربما ما ساعد على ذلك أيضاً أن الآشوريين كانوا يعلمون أن مواقف أولئك الأمراء تتجاذبها صراع المصالح بين المصريين والآشوريين، ومن ثم فهي لا تشكل مواقف صريحة وصارمة في عدائها ضد هذا الطرف أو ذاك[٦٤].

خامساً: مصـــر:

أما على الجانب المصري، فقد ذكرت النصوص الآشورية أن الملك أسرحدون عندما احتل مصر سنة ٦٧١ ق.م، لم يتمكن من أسر الملك المصري "طاهرقا" الذي فر إلى "كوش"، ولكنه استطاع أسر زوجة الملك، وجميع نساء قصره، والموظفين، وكذلك ولي عهده الذي سماه النص "أوشناهورو"، وبقية أولاده، وأخذهم جميعاً إلى آشور. كما ذكر الملك الآشوري "آشور بانيبال" أنه قضى على ثورة المصريين، وأن ضباطه قاموا بذبح الثوار وتدمير المدن، وأسروا الأمراء، ثم نُقلوا جميعاً إلى نينوى حيث تعامل معهم بقسوة.

وبرغم أن موقف الآشوريين تجاه أمراء فلسطين -كما سبق- أساسه تدخل المصريين لتحريض أولئك الأمراء ضد الآشوريين، إلا أن معاملة الآشوريين للمصريين اختلفت، وهذا أمر طبيعي؛ لأن صراع المصالح بين الجانبين كان على أشده، بل وصل إلى حد تمكن الآشوريين من احتلال مصر ، ولذلك استهدف الآشوريون تحطيم معنويات الملك الكوشي الذي ورث عن الحضارة المصرية القديمة نظاماً فردياً مطلقاً، فقد كان الملك هو الدولة، وهو الذي يضمن أمام المعبودات تحقيق المهام الأساسية للدولة(٦٥)، بل إن الملك "عُبِد" في مصر، واستمرت عبادته وإقامة شعائر العبادة له حتى بعد موته(٦٦). ولذلك عندما يذكر النص الآشوري أن الملك المصري فر وترك زوجته ونساء قصره وأولاده أسرى للآشوريين، يصبح الأمر مدعاة لسخرية المصريين، وكذلك الشعوب الأخرى. ومع ذلك لم نعلم أن أولئك الأسرى قد تعرضوا للمهانة باستثناء لوحة تُظهر ولي العهد الأسير "أوشناهورو" وهو مربوط بحبل من أنفه مع آخرين، بينما يقودهم الملك أسرحدون كالحيوانات(٦٧)، ولكن إغفال الإهانة والتعذيب بعد الأسر لم يكن دائم الحدوث، فقد عرفنا كيف أن الملك آشور بانيبال ترك العنان لضباطه ليقوموا بذبح الثوار المصريين، وكذلك قسوته في معاملة الأسرى كما ذَكر. ويظهر من قوله "لم تأخذني بهم الشفقة"، أنه قتلهم، وربما أنه سلخهم كغيرهم من الأمم

الأخرى ..

سادساً: العرب في شمال الجزيرة:

اصطدم الآشوريون بالعرب، أو بالقبائل العربية في شمال الجزيرة العربية مرات عديدة، ومع ذلك نجدهم يستخدمون معهم أساليب لا نجد لها مثيلاً فيما سبق من أمثلة، إلا في حالات فردية ونادرة. وقد وجدنا ثلاثة أساليب مختلفة تعامل بها الآشوريون مع العرب. وفي ضوء ذلك رأينا أن نقدم تقسيماً جديداً للحقبة التي ارتبطت بالأحداث موضع البحث إلى ثلاث مراحل (**قديمة، ووسطى، ومتأخرة**) بحسب تطور الأساليب واختلافها. ففي **المرحلة القديمة**، كان التعامل مع الملكات العربيات بين الشدة واللين. وفي **المرحلة الوسطى**، ظهر التعامل مع الملوك العرب، واختفى ذكر الملكات، كما تغيرت أساليب التعامل بصورة جذرية. وفي **المرحلة المتأخرة**، ظهر أسلوب جديد يعتمد القتل لأعداء الآشوريين من العرب، وهو ما لم نعرفه من قبل.

(أ): المرحلة القديمة:

اتسمت هذه المرحلة بذكر النصوص الآشورية لملكات عربيات عديدات حكمن العرب في منطقة "دومة الجندل" التي أسمتها تلك النصوص "أدوماتو"[٦٨]. فقد ذكر الملك "تجلات بلازر" الثالث أنه هاجم الملكة "شمشي" (شمسة) ملكة بلاد العرب، بسبب أنها "حنثت بعهدها لآشور"، وأنه ذبح من قومها ١١٠٠ شخص، وان هذه الملكة ولت الأدبار "وتركت قومها للجوع والظمأ"، لكنها جاءت إليه بعد ذلك، واعتذرت وقدمت له الهدايا. وذكر الملك "سنحاريب"، أنه عاقب بشدة العرب الذين تحالفوا مع المتمرد الكلدي "مردوخ –إبلا–ادينا" الثاني (مردوخ بلادان في العهد القديم) في بابل، وأنه أسر "بسقانو" شقيق الملكة العربية "ياتعة" التي أرسلته لمناصرة التمرد، وذكر أنه جعله وجنوده عبيداً له. كما هاجم "أدوماتو" مرة أخرى بعد ذلك وأسر الملكة "تلخنو" مع معبوداتها وأميرة تدعى "تبوعة"، وأخذهم جميعاً إلى آشور. وتنتهي هذه المرحلة

بمطلع عهد "أسرحدون" الذي ولى الأميرة الأسيرة "تبوعة" ملكة على بلاد العرب، كما ذكر أنه أسر ملكة عربية أخرى تدعى "أسكلاتو"(٦٩).

وإذا ما أردنا تحليل وتفسير ومعرفة أسباب اتخاذ الآشوريين لهذه الأساليب مع العرب، التي لاتصل إلى حد "السلخ" –كما مر بنا مع أقوام أخرى–، فإننا لا بد أن ننطلق في ذلك من ضرورة فهمنا لطبائع العرب وعقائدهم وعاداتهم.

ومن الملاحظ في هذا الصدد أن الأساليب المتبعة مع العرب قد اعتمدت على "الإذلال" و "الإهانة"، فهل من الممكن أن تفر الملكة وتترك قومها للظمأ والجوع ؟.

من المعلوم أن ملكة "أدوماتو" كانت تعد الكاهنة العليا لكل القاطنين في مملكتها(٧٠)، كما يعرف عن العرب أن كل قبيلة من قبائلهم كان لها مجلس من شيوخها يرأسه الشيخ من بينهم، وكانو يسمونه بالرئيس أو السيد(٧١)، وكان له في نفوسهم وقار وتَجِلّة(٧٢)، وقد اشترطوا في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة، وأشدهم عصبية، وأكثرهم مالاً، وأكبرهم سناً، وأعظمهم نفوذاً(٧٣)، وكان عليه أن يَعين الضعفاء، ويفتح بيته للنزلاء والضيوف، ويدفع الديات عن فقراء القبيلة(٧٤).

وفي ضوء ذلك، فإن من يتسم بهذه الأوصاف لا يمكن أن يفر ويترك شعبه ليذبح الآشوريون منهم ١١٠٠، ثم يُتبِعُ هذا الموقف بالاعتذار للآشوريين. ولذا فما ذكرته النصوص الآشورية مبني على علم مسبق بعادات وتقاليد العرب، وقد استهدف تحطيم كبريائهم ومعنوياتهم من خلال السخرية منهم ومن ملكتهم، واتهامها بما يعد معيباً عند قومها. ولكن إذا كان الآشوريون قد علموا بأن القبائل العربية أو العرب يفضلون الموت على الفرار من المعركة، فإنهم على ما يبدو لم يعرفوا أن الكر والفر كان سجية عند عرب البادية وليس جُبْناً؛ فهم كما يذكر ابن خلدون "يميلون إلى النهب والعبث، ولكن دون مُغالبة وركوب خطر، أو تحدي الصعاب، فهم يفضلون ما سهُل ويتركون ما صعُب عليهم، ولذا فإنهم عند المُزاحفة والمُحاربة يفرون إلى الأماكن المقفرة"، ومع ذلك نجدهم في حال اضطرارهم للدفاع عن أرضهم وعرضهم، فإنهم

يذهبون بأنفسهم إلى المُحاربة والمواجهة(٧٥).

أما استخدام النصوص الآشورية لعبارة "الحنث بالقسم" من قبل العرب، فذلك في حال حدوثه، يعد عيب كبير عند عرب البادية؛ لأنه عُرِف عن العربي أنه إذا نطق كلمة وعد، أوجبت عليه عهداً يفي به على أكمل وجه، وإلا يتعرض شرفه للتجريح، وتتسم سمعته بالعار، ولذا كان الوفاء من سمات نبل الأخلاق عندهم(٧٦).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا انتهج الآشوريون في هذه المرحلة أسلوب التسامح مع الملكة "شمسي". ولماذا ذهبت هي أصلاً للاعتذار للآشوريين وموالاتهم؟.

يبدو أن الآشوريين كانوا يدركون أن مجرد قبول عرب البادية بموالاة الآشوريين وتقديم الهدايا (الجزية) لهم، هو في حد ذاته عقوبة لهم؛ لأن ذلك يعني إذلال وإهانة الملكة وشعبها على حد سواء، وخاصة أن النص يذكر أن الملك الآشوري أرسل معها وكيلاً سياسياً آشورياً للإشراف على سياستها، وحماية المصالح الآشورية -على ما يظهر-، لضمان مرور القوافل التجارية التي لا بد أن تمر عبر "أدوماتو" في طريقها إلى المملكة الآشورية.

أما موقف الملكة، فيبدو أنه قد حكمته عدة عوامل، من بينها ما ذكره ابن خلدون: أن ذُل العربي وانقياده، دليل على فقدان العصبية، وبالتالي عجزه عن المُدافعة، والمُقاومة، والمُطالبة(٧٧)، وهذا مرده في رأينا إلى أمرين: أولهما، أنه بالرغم من أن هذه المرحلة قد أتاحت للمرأة أن تكون على رأس أعلى الهيئات الحاكمة، ولها صلاحية إعلان الحرب، وإبرام معاهدات السلام، واتخاذ قرار الاشتراك في الأحلاف المعادية للآشوريين(٧٨)، إلا أن العربي كان ينظر للمرأة التي تشاركه في شؤون الحياة، أنها لا تُغْني غناء الرجل في الحروب التي هي جزء من حياتهم التي ألِفوها، فانحطت لذلك منزلة المرأة عن منزلة الرجل(٧٩)، وهو ما دفع الملكة لذلك الموقف. وثانيهما، أن حلة الاستقرار قد غيرت طباع عرب البادية في "أدوماتو"، فكما يذكر ابن خلدون: أن شجاعة أهل البادية تتناقص "إذا نزلوا الحضر، وألِفوا النعيم وعوائد

الخصب في المعاش"، فالشجاعة عندهم تتناقص بمقدار تناقص بداوتهم، وبمقدار اندماجهم مع الآخرين، أو كما عبر عنها بقوله "زوال وحشيتهم"(٨٠)، وهذا يفسر أن حالة الاستقرار الاقتصادي في "أدوماتو"، وتبادلها المصالح مع الغير، جعلت الملكات يتعاملن بهدوء مع الآشوريين، بل عملن على "تحاشي" إغضابهم -بعد أن عرفن حجم قوتهم- من خلال المسارعة إلى تقديم الهدايا (الجزية)، ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يمثل حالة من الثبات في مواقفهن؛ لأننا نعرف تكرار الآشوريين لمهاجمتهن عند امتناعهن عن تقديم تلك الهدايا (الجزية)، أو عندما يتحالفن مع قوى معادية للآشوريين، وهو ما يعني بدوره أن تلك الملكات أردن تحقيق المصالح الاقتصادية لبلادهن رغبة في التخلص من الإذلال والتبعية للآشوريين دون الالتفات إلى العواقب أحياناً. فعندما ينتابهن الإحساس بالذل والمهانة نتيجة السماح للآشوريين بنهب ثروات بلادهن من خلال ما يقدمنه لهم من الهدايا (الجزية) السنوية المفروضة عليهن، فإنهن لا يترددن في الانضمام إلى التحالفات التي تقوم بين وقت وآخر ضد الآشوريين، ومع ذلك لا يجدن حرجاً في مسايرة المتغيرات الداخلية والخارجية، فيقدمن للآشوريين الاعتذار، ويتصالحن معهم، وخاصة إذا ما أدركن غلبة القوة الآشورية، واندحار أو هزيمة أعداء الآشوريين في أماكن أخرى.

ولكن لماذا امتنع الآشوريون عن الإهانة والتشهير بالملكات والأميرات العربيات اللاتي يتم سبيهن ؟.

يبدو أن الآشوريين قد فهموا أن قتل المرأة العربية المسبية بالنسبة للعرب أفضل من بقائها؛ لأن ذلك يجلب عليهن وعلى قبائلهن الذل والعار، ولمّا كان الآشوريون يرغبون في السيطرة على طرق العرب التجارية، ويعلمون استحالة سيطرتهم على الصحراء وأعرابها، فإنهم عمدوا إلى الإهانة بالدرجة الأولى، لتحقيق مزيد من الضغط عليهم، ومن هنا يمكن أن نفهم، سبب عدم قيام "سنحاريب" بقتل وسلخ الملكة "تلخنو"، ولماذا لم يفعل ذلك أيضاً الملك "أسرحدون" مع الملكة "اسكلاتو"، بل نفهم في

ضوء ذلك أيضاً، إصرار "أسرحدون" على تولي الأميرة المسبية "تبوعة" على بلاد العرب، بعد أن صار ملكا على آشور.

لقد تحققت العقوبة بالإهانة والإذلال؛ لأن العربي كان يفضل الموت دفاعاً عن قبيلته، وذوداً عن الحريم، وصوناً لهن من ذل السبي (٨١)، بل بلغ بهم الحال مع المرأة -كما يذكر الألوسي-، أن الملوك كانوا "إذا سبُوا القبيلة خرجت إليهم السادة للفداء، فكرهوا أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن، (ولذا كانوا يتحينون الوقت المناسب من الليل) فيوقدون النار التي عُرفت بنار الفداء، فيُعْرضن"(٨٢). فكيف سيكون إذاً حال العربي عندما تُسبى ملكته، أو تعود أميرته المسبية ملكة عليه، بل وفي حال ولاء شديد للآشوريين، أليست هذه عقوبة أقوى من القتل والسلخ ؟.

والأمر نفسه ينطبق على القائد "بسقانو" وجنوده الذين تحولوا من سادة إلى عبيد، فالعربي الذي طُبع سلوكه بالشهامة، والدفاع عن الجار واللاجئ والمستغيث، والعفو عند المقدرة(٨٣)، وحُب السيطرة والغَلَبَة(٨٤)، و المروءة التي تعتمد على الشجاعة والكرم(٨٥)، القتل عنده أهون عليه من أن يصبح عبداً تابعاً لعدوه، فهل هناك عقوبة أقوى من الاستعباد بالنسبة للعربي ؟ ..

(ب): المرحلة الوسطى:

امتازت هذه المرحلة باختفاء دور الملكات بعد وقت قليل من تولي أسرحدون الحكم في آشور وظهور دور الملوك العرب، لدرجة أننا لم نعد نسمع سوى عن امرأة واحدة، هي "عدية" التي حلت محل زوجها "يطع" الأسير لدى الآشوريين، ولكن في قيادة الجيش فقط وليس في تزعم العرب؛ لأنها وحلفاءها استمروا في ولائهم للملك الأسير واعترافهم بزعامته عليهم، بل من أجله دخلوا في صراع عنيف مع الآشوريين. كذلك امتازت هذه المرحلة باستمرار أسلوب العقوبة بالإهانة والإذلال.

تبدأ هذه المرحلة من عهد الملك "أسرحدون" الذي ذكر في بداية عهده ملكتان هما

"ياتعة" الأميرة الأسيرة التي صارت ملكة كما سبق ذكره، و"اسكلاتو"، ثم تتحدث نصوص هذا الملك عن "يطع" بن "حزائيل" ملك بلاد العرب، الذي كان موالياً للآشوريين في بداية عهده. فيذكر "أسرحدون" أنه سير حملة لمعاونة حليفه "يطع" ضد شخص يدعى "وهب"، الذي هُزِم واقتيد مع أعوانه إلى "نينوى" حيث بدأ بمعاقبته بما تأباه كرامة العربي وتمقته، فربطه ومن معه على بوابة مدينته، وجعلهم حراساً له، كما يذكر أنه وضع أطواقاً في رقابهم وقيدهم على قائم بوابته في نينوى.

ثم ينتقل الأسلوب نفسه إلى عهد الملك الآشوري "آشور بانيبال"، الذي شهد عهده انقلاباً من قبل حليفه "يطع" على الآشوريين، وهو ما أثار غضب الملك الآشوري الذي هاجم بلاد العرب بعنف شديد، كما أخذ يشن الدعاية التي تقلل من شأن الملك في نظر شعبه، فذكر أن "يطع" خان شعبه، وهرب إلى بلاد الأنباط قبل أن يصل إليه الجيش الآشوري الذي أشعل النيران في خيم ومساكن شعب "يطع"، ونقل البهائم والماشية، والحمير ، والجمال، وساق العرب كذلك إلى نينوى ..، ويظهر أن حجم النهب والأسر كان كبيراً جداً؛ لأن النص الآشوري تحدث عن رخص سعر الجمال والمواشي في نينوى، بل يتجاوز ذلك ليتحدث عن كثرة العبيد والجمال، لدرجة أنه كان يهدي الجمال والعرب الذين صاروا عبيداً، إلى أناس عاديين، مثل بائع الشراب وغيره..

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل حنث الملك الآشوري بتعهده لملك الأنباط الذي توسط بالحل بين الخصمين، بحيث يذهب "يطع" إلى نينوى، فأذاقه مرارة الذل والإهانة كعقاب له على تنكره لجميل الآشوريين الذين خلصوه من المتمرد وهب. وفي هذا الصدد يذكر أنه طعن ذقنه بخنجر في يده، ومرر حبلاً على حنكه، وقيده بسلسلة الكلب، وجعله يحرس "مُرْبي" الكلاب، وجعله حارساً لإحدى بوابات نينوى المسماه "مدخل الأمم المحتشده"، بمعنى إهانته أمام كل الناس، ويذكر أيضاً أنه وضع طوقاً على عنقي "يطع" بن "حزائيل" وحليفه "يطع" بن "بيرداداً"، وجعلهم مع الكلاب يقفون حراساً على بوابة نينوى. ويبدو أن الملك الآشوري لم يكتف بما فعله، بل جمع "يطع"

وملوك عيلام الذين تحالفوا مع أخيه "شمش-شم-أوكن" ضده لمعاقبتهم بصورة جماعية[٨٦]، فيذكر أنه جعل "يطع" ملك العرب مع ملوك عيلام الذين ذكرهم النص يتعلقون برباط عربته، فأمسكوا بها أثناء عبوره في شوارع نينوى قاصداً الوصول إلى معبد "بيت أكيتو" حيث سيحتفل بعيد السنة الجديدة عندهم.

كل ما تقدم، مارسه ملوك آشور مع ملوك وقادة العرب في هذه المرحلة، ولذلك غضب ملك الأنباط لهذا الفعل، وجمع "عدية" زوجة "يطع" وجيشها (أنصارها) والمتحالفين معهم للدخول في حرب ضد الآشوريين، بل انضم إليهم حتى "أبيطع" الذي عينه الآشوريون بديلاً للملك الأسير.

ولتفسير ما تقدم، نجد أن "يطع" قد ثار ضد الآشوريين رغم تحالفه معهم؛ لأنه أحس بعبء وثقل الجزية التي فرفضها الآشوريون عليه، مما يعني تبديد ونهب لثروات العرب دون مقابل[٨٧]، فذهب "يطع" إلى ملك الأنباط لطلب النجدة، ولم يفر كما صور الأمر الملك الآشوري، ويبدو أن ذلك كان قبل وصول الجيش الآشوري بالفعل، ويبدو كذلك، أن ما تربى عليه "يطع" من عادات وتقاليد عرب البادية، جعلته يأنف الخضوع للأجنبي والركون إلى حمايته؛ لأن العرب على الدوام -كما يذكر ابن خلدون- "قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم"[٨٨]، "وكان لا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم"[٨٩]، فالأرض التي تنزل بها القبيلة، والتي تعيش عليها، تنتشر بطونها وعشائرها لحمايتها، فلا تسمح لغريب النزول بها أو حتى المرور إلا بموافقتها، وتسمى هذه الأرض "منزل القبيلة"، كما تسمى "بيوت القبيلة"، أو "بيوت العشيرة"[٩٠]، وهذا يعني أن وطنية البدوي (الأعرابي) وطنية قبلية، لا وطنية شعبية، وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعصبية[٩١]، وكان العون والمناصرة يتم بمجرد أن تدخل القبيلة في حلف مع قبيلة أو قبائل أخرى، فيصبح عليهم كل الحقوق وكل الواجبات، من حماية، ونجدة، ودفاع مشترك[٩٢]. وهذا يفسر

موقف ملك الأنباط الذي ذهب إليه "يطع" طالباً النجدة.

أما موقف الآشوريين وعقوباتهم، فقد جاءت منسجمة مع كل ما يرفضه العربي، فربط الملك مع الكلاب حارساً في الباب، أو تحويل الأعراب الأسرى إلى عبيد، أمور كلها كانت بالنسبة للعربي معادلة للقتل والسلخ ومختلف أنواع التمثيل التي مرت بنا مع شعوب أخرى، بل إن العقوبات المتخذة ضد العرب أقسى وأقوى؛ لأنهم يُقتلون ويُسلخون في كل لحظة ذل وإهانة..

(ج): المرحلة المتأخرة:

فضلنا استخدام مصطلح "المرحلة المتأخرة"؛ لأن مملكة "أدوماتو" في هذه المرحلة انتهت تماماً، ولم تعد تذكر بعد ذلك إلا كمدينة أو محطة في طريق القوافل فحسب، وحصن لغير أهلها.

على أية حال، انتقلت أساليب العقوبات الآشورية ضد العرب إلى مرحلة لم يألفها العرب من قبل، فقد شن الملك "آشور بانيبال" هجوماً على أتباع "يطع" وتمكن -كما يذكر- من أسر "عدية" زوجة "يطع"، ونكل بشعبها وأحرق مخيماتهم، ثم أخذها إلى نينوى حيث حكم عليها بالموت، أما حلفاؤها الآخرون الذين تمكن من القبض عليهم، وهم "أبيطع"، و "آمو بن تعري" وآخرون، فقد أخذوا كذلك إلى نينوى ليتم قتلهم هناك.

ومن المرجح لدينا أن تغيير أسلوب العقوبات الآشورية تجاه العرب، من الإهانة والإذلال، إلى القتل، مرده إلى سببين هما:

أولاً: أدرك الآشوريون أنه بالرغم من الإهانة والتركيز على ما يعتبره العرب عيباً أو عاراً، لم يجد استجابة واستسلاماً، بل زاد من ثورتهم وعدائهم للآشوريين.

ثانياً: اجتماع الناس حول زعماء العرب بمن فيهم صنائع الآشوريين مثل "أبيطع"، إلى جانب بروز جانب التحالفات القبلية، وظهور قبائل جديدة تشترك في الصراع مع الآشوريين، قد أقلق نينوى، ولذلك تغيرت نظرة الآشوريين لهم فبدلوا أساليب

عقوباتهم. فالعرب لم يعودوا –كما يظهر– بدواً قليل العدد والعدة، ويسهل السيطرة عليهم والاقتراب منهم، أو التضييق على أرزاقهم، بل صاروا يحملون السلاح ضد الآشوريين، ويتحالفون مع أعدائهم في أحوال عديدة، وهو ما حسب له الآشوريون ألف حساب، فاستبدلوا الاحتواء بالقسوة كغيرهم من قبل الشعوب الأخرى. وهذا يعني أنه من الممكن أن يتهاون ملوك آشور مع الحالات الفردية أو المعزولة أو الضعيفة، ولكن الأمر يتغير إذا بلغ حد التحالف، واجتماع كلمة العرب بقيادة زعيم واحد، وتوسيع دائرة الصراع ضدهم. فاجتماع كلمة العرب وتوحد هدفهم في هذه المرحلة، قد يؤدي إلى قيام مملكة عربية قوية في شمال الجزيرة العربية تشكل قلقاً لمصالح الدولة الآشورية التي تعاني من التصدع الداخلي والخارجي، بل من قرب نهاية عصرها على أيدي الكلديين/الكلدانيين..

الخلاصة:

خرجنا من هذه الدراسة بالإجابة عن السؤال المحوري فيها، المتعلق بأسباب اختلاف عقوبات الآشوريين ضد زعماء الشعوب الأخرى وأعوانهم. وقد توصلنا إلى أن الآشوريين كانوا على دراية بطبيعة وعادات وتقاليد كل شعب من الشعوب التي تعاملوا معهم، وبنوا على أساسه سياستهم تجاه تلك الشعوب، بصرف النظر عن جدواها أحياناً وعدم جدواها في أحيان أخرى، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

ففي الأناضول: كان التركيز على التشهير بالجيش وإبراز هزيمته وتدميره ولو لم يصلوا إلى الملك نفسه؛ لأنهم أدركوا أن الهزيمة ستطاله وستطال عقيدته سواء أكان حاضراً أم غائباً.

أما بالنسبة لأورارتو: فإن أسلوب التمثيل والتشهير بالمهزومين داخل المدن المهزومة، وعلى أسوارها، قُصد به تدمير هيبة الملك المسيطر والمتجبر على شعبه، ومن ثم تحطيم كبريائه، ومكانته، ومعنوياته، هو وجيشه، حتى شعبه الذي لم يألف سوى العبودية للملك.

كذلك الحال كان عند الآراميين: فلأن عاداتهم كانت لفيفاً وخليطاً من عادات الشعوب التي حلت محلها، فقد أُنزِل بهم أصناف العقوبات التي كانت شائعة، من أسر، وقتل، وسلخ ...

ولكن الحال تغير مع الفينيقيين والعيلاميين: من حيث توحيد العقوبة ضد المتحالفين من خلال جمعهم وإرعابهم، وقطع رؤوس بعضهم وجعل البعض الآخر يحملها، هذا فضلاً عن الإهانة، وسلخ الجلود، وهم الذين سادوا وتألّهوا على شعوبهم ..

أما بالنسبة لفلسطين: فقد عومل ملوكها الأسرى، وأُسرهم، وأتباعهم، بالأسلوب نفسه الذي كان متبعاً مع العرب من حيث الإذلال والإهانة، ربما بسبب عاداتهم المتشابهة بحكم صلاتهم بهم، وتشابه نظامهم الاجتماعي معهم ..

ومع ذلك فإن الأمر اختلف في جارتها مصر: فقد تم أسر عائلة ملك مصر وإهانتهم من قبل الآشوريين، كما اتضح لنا من اللوحة التي يظهر فيها ابن "طاهرقا" في وضع مهين، وهذا أمر شديد الوطأة على ملك مؤلّه، وهو الدولة كلها في بلاده. كما تعامل الآشوريون مع الأمراء الثوار وأتباعهم، بالقتل، والسلخ، والذبح.

أما بالنسبة للعرب: فقد جاءت العقوبات المفروضة ضدهم منسجمة مع كل ما ترفضه كرامة العربي، من حيث ارتباطها بالإذلال، والإهانة، والتحقير، إلى حد ربط الملك مع الكلاب حارساً على البوابة، أو تحويل الأعراب الأسرى عبيداً، وهذا بالنسبة للعرب معادل للقتل والسلخ ومختلف أنواع التمثيل التي عرفتها الشعوب الأخرى، بل هي أقسى وأقوى من ذلك كله.

جدول توضيحي لأنواع العقوبات، ولما هو متماثل ومختلف من الأساليب

نوع العقوبة	البلاد أو الشعب	زمن الحدث
قطع رؤوس الملوك والتمثيل بها	فينيقيا - عيلام	الألف الأول ق.م
سلخ جلود الملوك والأمراء والتمثيل بها	الأناضول - أورارتو - الآراميون - فينيقيا - عيلام	الألف الأول ق.م
أسرُ الملوك وإهانتهم	فلسطين - العرب	الألف الأول ق.م
أسرُ أسر الملوك	أورارتو - الآراميون - مصر	الألف الأول ق.م
سلخ جلود القادة وتعليقها على أسوار وبوابات المدن	أورارتو - الآراميون - مصر	الألف الأول ق.م
قتل القادة والجنود والتمثيل بهم	الأناضول أورارتو الآراميون مصر العرب	الألف الثاني ق.م الألف الثاني + الألف الأول ق.م الألف الأول ق.م الألف الأول ق.م الألف الأول ق.م

قائمة المراجع

المراجع العربية والمعربة:

أبو بكر، عبد المنعم: "**النظم الاجتماعية**"، في كتاب تاريخ الحضارة المصرية– العصر الفرعوني، مج١. القاهرة (د.ت). (ص ١٠٩–١٣٢)

الأحمد، سامي سعيد، رضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم –إيران والأناضول**، بغداد (د.ت).

الألوسي البغدادي: السيد محمد شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، ج٢، عني بشرحه –وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري. بيروت (د.ت).

أمين، أحمد: فجر الإسلام. القاهرة ، طبعة ١٩٩٦.

برو، توفيق: **تاريخ العرب القديم**، دمشق، ط٢ ١٩٩٦.

جرني، أ.د: الحيثيون، ترجمة: محمد عبد القادر محمد، مراجعة: فيصل الوائلي. القاهرة، طبعة ١٩٩٧.

حتي، فليب: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ج١، ترجمة: جورج حداد، مراجعة: عبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته وتحريره، جبرائيل جبور. بيروت (د.ت).

حتي، فليب، إدورد جورجي، جبرائيل جبور: **تاريخ العرب**، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

حسن، حسين الحاج: **حضارة العرب في عصر الجاهلية**. بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

ابن خلدون: **مقدمة العلامة ابن خلدون**، بيروت (د.ت).

دياكوف. ف ، ف.س. كوفاليف: **الحضارات القديمة**، ج١، ترجمة: نسيم اليازجي. دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

ديلابورت، ل: **بلاد ما بين النهرين**، ترجمة: محرم كمال بك، مراجعة: عبد المنعم

... القاهرة، طبعة ١٩٩٧.

الراوي، فاروق ناصر: "**التعبئة وأساليب القتال في الجيش الآشوري**"، كتاب الجيش والسلاح، ج٢، بغداد ١٩٨٨. (ص ١١٧-١٧٨)

رو، جورج: **العراق القديم**، ترجمة وتعليق: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد علي. بغداد ١٩٨٤.

ساكز، هاري: **عظمة** بابل، موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، ط، ١٩٧٩.

سالم، السيد عبد العزيز: **تاريخ العرب القديم في عصر الجاهلية**. بيروت ١٩٧٠.

السعدي، حسن محمد محي الدين: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ج٢، العراق-إيران-آسيا الصغرى. الإسكندرية ١٩٩٥.

سليمان، توفيق: **دراسات في حضارات غرب آسية القديمة (١)**، من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م (الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين، بلاد الشام). دمشق، ط١، ١٩٨٥.

صالح، عبد العزيز: **الشرق الأدنى القديم**- مصر والعراق. القاهرة، ط٤، ١٩٨٤.

عبد النعيم، عبد القادر خليل: "**السياسة الخارجية للملك آشور ناصر بال الثاني بين عامي ٨٨٣-٨٨٠ ق.م**"، المجلة التاريخية المصرية، تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٣٤، سنة ١٩٨٧. (ص ٤٣-٦٩)

عصفور، محمد أبو المحاسن: **المدن الفينيقية**. بيروت ١٩٨١.

المخلافي، عارف أحمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (١)**: العلاقات التاريخية بين العراق وشبه الجزيرة العربية، منذ منتصف الألف الثالث ق.م، وحتى منتصف الألف الأول ق.م. صنعاء، ط١، ١٩٩٨.

المخلافي، عارف أحمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (٢)**: العراق

وبلاد الشام. صنعاء، ط١، ٢٠٠٢.

المخلافي، عارف أحمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (٣)**: تاريخ وادي النيل–مصر والسودان. صنعاء، ط١، ٢٠٠٤.

منشورات إدارة الآثار والمتاحف: مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية، الرياض ١٩٧٥.

مهران، محمد بيومي: **مصر والشرق الأدنى القديم (٨)، بلاد الشام**، الإسكندرية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ميخائيل، نجيب: مصر والشرق الأدنى القديم (٥)، الشرق الأدنى القديم–وادي الرافدين، بلاد الحيثيين، فارس، القاهرة ١٩٦٣.

هبو، أحمد أرحيم: **تاريخ الشرق القديم (١)** سورية، صنعاء، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

هبو، أحمد: **تاريخ الشرق القديم (٢): بلاد ما بين النهرين** (العراق). صنعاء، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

هوسون، جونيفييف، دومينيك فالبيل: **الدولة والمؤسسات في مصر، من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان**، ترجمة: فؤاد الدهان. القاهرة، ط١، ١٩٩٥.

اختصارات المراجع غير العربية:

ANET: Prichard.J.B, Ancient Near Eastern Texts Relating To The Old Testament,New Jersy,1969.

ARAB: Lukenbill.D.D, Ancient Records Of Assyria And Babylonia, Chicago.Vol.1,1926 & Vol.2,1927.

CANE: Sasson.J.M,(ed), Civilizations Of The Ancient Near East, Vol.II,New York,1995.

الهوامش

(١) Lukenbill.D.D,Ancient Record Of Assyria and Babylonia.Vol.I,Cicago,1926.Par.116,P.40. (سيشار إليه فيما بعد بالاختصار ARAB.1).

(٢) الحيثيون: استوطنت القبائل الحيثية منطقة "كبادوكيا" في آسيا الصغرى في نهاية الألف الثالث ق.م، بعد أن هاجرت إليها من البلقان، أو من المناطق الشمالية التي تقع على سواحل البحر الأسود. ثم تمكنوا من تأسيس دويلات مدن حيثية في الأناضول لتبدأ حرباً توسعية بينها، نتج عنها تأسيس مملكة للحيثيين خلال القرن التاسع عشر ق.م تقريباً، ثم مرت بثلاث مراحل: الأولى تبدأ بسنة ١٦٠٠ ق.م، وتعرف بالإمبراطورية الحيثية القديمة. والثانية تبدأ بسنة ١٣٨٠ ق.م، وقد أتت بعد مرحلة صراع وانقطاع، وتعرف بالإمبراطورية الحديثة، والتي انتهت على أيدي شعوب البحر. انظر، سليمان توفيق: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م (الشرق الأدنى القديم-بلاد ما بين النهرين-بلاد الشام)، دمشق، ط١، ١٩٨٥. ص ٢٦٨-٣٠٥. أما المرحلة الثالثة، فقد عُرف أصحابها بـ (الحيثيين الجدد)، وهم مهاجرون فريجيون استقروا في منطقة الحيثيين، واستمروا حتى انتهى أمرهم على يد الآشوريين سنة ٧٠٩ ق.م.
عن مرحلة الفريجيين انظر:
Sams.G.K, "Midas Of Gordion And The Anatolian Kingdom Of Phrygia",In, Sasson.J.M.(ed), Civilizations Of The Ancient Near East.Vol II, New York.1995.PP.1147-1159.

(٣)- ARAB I, Par.227.PP.77-78.

(٤) -قليقيا/كليكيا: تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية لآسيا الصغرى، وتفصلها جبال طوروس عن "كبادوكيا" وسوريا. حتي، فليب: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**،

ج١، ترجمة: جورج حداد، مراجعة: عبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته وتحريره: جبرائيل جبور. بيروت (د.ت). ص ٨٠٣.

(٥) ديلابورت، ل: بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال بك، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، طبعة ١٩٩٧. ص ٢٦٠.

(٦) نشأت على أرض أرمينيا حضارة مهمة في النصف الأول من الألف الأول ق.م، عُرفت باسم "أرارات" أو "أورارتو"، وكانت أقاليم "نائيري" الوعرة التي ذكرتها النصوص الآشورية منذ عهد الملك "توكلتي نينورتا" الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) تشكل جزءاً منها عندما قامت المملكة بعد اتحاد القبائل الحورية التي عاشت في تلك المرتفعات، وقد دخلت في صراع مرير مع الآشوريين في العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م)، ثم انتهت على أيديهم على ما يبدو. ولا نعرف أسماء لملوكها قبل النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. حول ذلك انظر: Zimanisky.P.E, "The King dom Of Urartu In Eastern Anatolia"In, Sasson.J.M.(ed), Civilizations Of The Ancient Near East.Vol II, New York.1995,PP.1135-1146. (CANE II سيشار للكتاب بعد ذلك بالاختصار)

(٧) ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص ٢٤٩.

(٨) ARAB I,Par.445,P.146 ، مهران، محمد بيومي: **مصر والشرق الأدنى القديم، بلاد الشام**، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٠. ص ٣٦٣.

(٩) انظر ارمينيا، الحاشية رقم (٧).

(١٠) ARAB I,Par.441,P.143- ، عبد النعيم، عبد القادر خليل: "**السياسة الخارجية للملك آشور ناصر بال الثاني بين عامي ٨٨٣-٨٨٠ ق.م**". المجلة التاريخية المصرية، تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة، مج٤، سنة ١٩٨٧. ص ٥٠-٥٢.

(١١) انظر **الحاشية** رقم (٧).

(١٢) ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص ٢٨٥.

(١٣) Zimansky.P.E, In, CANE II, P.1139 ، وانظر النص كاملاً في: Lukenbill.D.D,Ancient Record Of Assyria and Babylonia. Vol.II, Cicago, 1927. Par.158,PP.84-85 (بالاختصار ARAB II. سيشار إليه فيما بعد).

(١٤) انظر النصوص في ARAB II,1927,155-165.

(١٥) الراوي، فاروق ناصر: "**التعبئة وأساليب القتال في الجيش الآشوري**"، في كتاب الجيش والسلاح ج٢، بغداد ١٩٨٨. ص ١٤٦-١٤٧.

(١٦) الآراميون: هاجر الآراميون من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، وحاولوا إقامة دولة لهم، لكنهم اصطدموا بالضربات الآشورية القوية ضدهم، ومع ذلك انخرطوا في التجارة، وأنشؤوا لهم دويلات عديدة في الأناضول، وسورية، والعراق، وشرق الأردن، وقد أدت هذه الدويلات دوراً مهماً في النصف الأول من الألف الأول ق.م، وبلغ تأثيرهم الثقافي إلى حد أن صار الخط الآرامي هو المعروف في الشرق القديم على المستويين الدبلوماسي والاقتصادي آنذاك، لكن هذه الدويلات انتهت تحت الضربات المتتالية من قبل الآشوريين في عصرهم الحديث. انظر: حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص ١٧٤-١٨٤. هبو، أحمد أرحيم: تاريخ الشرق القديم (١) سورية، صنعاء، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. ص ٢٦٥-٢٧١. مهران، بلاد الشام، ص ١٩٣-٢١٣.

(١٧) ARAB II, Par.443,PP.144-145- ، ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ٢٥١-٢٥٢.

(١٨) ARAB II,Par.611,P.223 ، وكذلك: Oppenheim.A.L, "The Babylonion And Assyrian Historical Texts", In, Prichard.J.B, Ancient Near Eastern Texts Relating to The Old

Testament.New Jersy.1969. P.275. (ANETسيشار لهذا الكتاب بعد ذلك بالاختصار)

(١٩) ARAB II,Par.55,PP.26-27

(٢٠) ANET,PP.290-291

(٢١) ARAB II,Par.527PP.211-212, Par. 228,P.212 ، صالح، عبد العزيز: **الشرق الأدنى القديم**، مصر والعراق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤، ص ٥٣٣، ميخائيل، نجيب: **مصر والشرق الأدنى القديم**، ج٥، **الشرق الأدنى القديم، وادي الرافدين، بلاد الحيثيين، فارس**، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٢٢) ARAB II,Par.865,PP. 334, 866

(٢٣) ARAB II,Par.866,PP.334-335- ، ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ١٨٩.

(٢٤) ANET,P.285 &ARAB II,Par.55,PP.26-27

(٢٥) ANET,P.287

(٢٦) ANET,PP.292-293

(٢٧) ANET,PP.294-295 ، ميخائيل، **مصر والشرق**، ج٥، ص ٣٠٠-٣٠١.

الجدير ذكره، أن ثورة سنة ٦٦٩ ق.م قادها الملك المصري "طاهرقا" بعد أن عاد إلى الدلتا بطلب من الأمراء المصريين الذين كان من بينهم حتى أولئك الذين عينهم الآشوريون بعد نجاحهم في احتلال مصر، كما نشير إلى أن هذه الثورة قد جرت في عهد الملك الآشوري "أسر حدون" الذي توفي في مدينة "حران" وهو في طريقه لقمع الثورة، فاستكمل المشوار ابنه "آشور بانيبال" بإرسال الجيش إلى مصر، أما هو فقد اضطر للعودة إلى نينوى بسبب وفاة والده ومراسيم تولي العرش، لكنه جهز حملة في عام ٦٦٦ ق.م لاستكمال القضاء على مظاهر

الثورة. عن ذلك انظر: **المخلافي**، عارف أحمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (٣) تاريخ وادي النيل**، مصر والسودان، صنعاء،ط١، ٢٠٠٤. ص ١٧٣-١٧٤.

(٢٨) ANET,P.284 , ARAB,I,817,P.293 .

(٢٩) AB I,778,P.279 .

(٣٠) II,259,P.130 .

(٣١) II,940,943,PP.364,366,Musil,P.532,CAH III,PP.74-75,405 . والجدير بالذكر أن الأميرة "تبوعة" التي أسرها "سنحاريب" صارت فيما بعد ملكة في عهد "أسرحدون" بعد أن تربت داخل البلاط الآشوري على حب الآشوريين، وبقيت موالية لهم إلى نهاية عهدها. انظر إسماعيل، عارف أحمد: دراسات في تاريخ الشرق القديم (١)، العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية، منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد. صنعاء ١٩٨٨. ص ١٤٠-١٤١.

(٣٢) PP.291-292.

(٣٣) B II,Par.518a,P.207,ANET,P.292 وكذلك:
Irvine.K.A, "The Arabs And Ethiopians",In,Wiseman.D.J, Peoples Of Old Testament Times. Oxford,1975.PP.287-311(POTT يشار إلى هذا الكتاب بعد ذلك بالاختصار).

(٣٤) II,Par.828,P.318

(٣٥) II,Par.869,P.827, ANET,PP.299-300.

(٣٦) II,Par.880.P342.

(٣٧) II,Par.819,P.314.

(٣٨) P.298.

(٣٩) II,Par.833,P.320.

(٤٠) II,Par.1084,P,400.

(٤١) II,Par.831,P.311. ، كذلك انظر تفاصيل هذا الموضوع في ANET,PP.298-301 . والجدير بالذكر أن "أبيطع" المذكور أعلاه، هو الشخص الذي عينه الآشوريون بدلاً عن "يطع" بعد ثورته ضدهم ARAB II,Par.870,PP.838-839 ، ولكنه عاد للتحالف مع "عدية" بعد نكث الملك الآشوري بعهده.

(٤٢) د. سامي سعيد، رضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم- إيران والأناضول، بغداد (د.ت). ص ٢٩٠.

(٤٣) أ.د: **الحيثيون**، ترجمة: محمد عبد القادر محمد، ومراجعة: فيصل الوائلي، القاهرة، طبعة ١٩٩٧. ص ١٨٤.

(٤٤) **الحيثيون**، ص ٨٩-٩٠.

(٤٥) .ف، ف.س. كوفاليف: **الحضارات القديمة**، ج١، ترجمة: نسيم اليازجي، دمشق، ط١، ٢٠٠٠. ص ١٥٨.

(٤٦) الأحمد: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص ٢٩٠.

(٤٧) انظر **الحاشية** رقم (٢).

(٤٨) دياكوف: **الحضارات القديمة**، ج١، ص ١٩٠.

(٤٩) الأحمد: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص ٣٣٨.

(٥٠) Saggs.H.W.F,"The Assyrians", In,Wiseman.D.J,POTT,1974, P.162.

(٥١) حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ص ١٨٥.

(٥٢) رو، جورج: **العراق القديم**، ترجمة وتعليق: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد علي، بغداد ١٩٨٥. ص ٤٠٧.

(٥٣) رو: **العراق القديم**، ص ٤١٢.

(٥٤) Zimansky.P.E, In,CANE,P.1141.

(٥٥) حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ص ١٨٥.

(٥٦) حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ص ١٨٥-١٨٦.

(٥٧) انظر الحاشية رقم ١٦.

(٥٨) انظر: المخلافي،عارف أحمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (٢) العراق وبلاد الشام**، صنعاء، ط١، ٢٠٠٢. ص ١٣٣-١٣٩، هبو، أحمد أرحيم: تاريخ الشرق القديم (٢) **بلاد ما بين النهرين** (العراق)، صنعاء، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ص ٢٣٧-٢٤٦.

(٥٩) عصفور، محمد أبو المحاسن: **المدن الفينيقية**، بيروت ١٩٨١. ص ١٠٩-١١٢.

(٦٠) دياكوف: **الحضارات القديمة**،ج١، ص ١٨٦.

(٦١) Ghirshman.R, Iran, London,1954.P.63.

(٦٢) المخلافي، عارف احمد إسماعيل: **دراسات في تاريخ الشرق القديم (٣)** تاريخ وادي النيل-مصر والسودان، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤. ص ١٦٦-١٦٧.

(٦٣) حتي، فليب، ادورد جورجي، جبرائيل جبور: **تاريخ العرب**، بيروت، ط١١، ٢٠٠٢. ص ٥٥.

(٦٤) لمعرفة مثل هذه المواقف، انظر، المخلافي: **تاريخ وادي النيل**، ص ١٦٩-١٧٣.

(٦٥) هوسون، جونيفيف، دومينيك فالبيل: **الدولة والمؤسسات في مصر- من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان**، ترجمة: فؤاد الهان، القاهرة، ط١، ١٩٨٤. ص ٢٠-٢١.

(٦٦) أبو بكر، عبد المنعم: "**النظم الاجتماعية**"، في كتاب، تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، مج١، ألفه نخبة من العلماء، القاهرة، (د.ت). ص ١١٦.

(٦٧) انظر هذه الصورة في:
Pritchard.J, The Ancient Near East In Picture. Relation to Old Testament. New Jersy,1984. P.154,Plate.447. ، وكذلك في ديلابورت: ص ٢٩٣.

(٦٨) تقع "أدوماتو" في المملكة العربية السعودية، وتعرف اليوم (بالجوف)، وعُرفت في النصوص الآشورية بـ "أدوماتو"، وفي العهد القديم بـ "دومة"، واشتهرت بـ "دومة الجندل". مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية، منشورات إدارة الآثار والمتاحف، الرياض ١٩٧٥. ص ٦٥.

(٦٩) عن تفاصيل هذه الأحداث، راجع: المخلافي: **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية**، ص ١٣٢-١٤٤ ، صالح: مصر والعراق، ص ٥٢١-٥٣٦.

(٧٠) انظر: Musil.A, Arabia deserta, New York,1927.P.481.

(٧١) سالم، السيد عبد العزيز: **تاريخ العرب القديم في عصر الجاهلية**، بيروت ١٩٧٠. ص ٤١٤.

(٧٢) ابن خلدون: **مقدمة العلامة ابن خلدون**، بيروت (د.ت). ص ١٢٨.

(٧٣) سالم: **تاريخ العرب القديم**، ص ٤١٤.

(٧٤) سالم: **تاريخ العرب القديم**، ص ٤١٥.

(٧٥) ابن خلدون: **المقدمة**، ص ١٤٩.

(٧٦) حسن، حسين الحاج: **حضارة العرب في عصر الجاهلية**، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م. ص ٨٥.

(٧٧) ابن خلدون: **المقدمة**، ص ١٤١.

(٧٨) انظر: المخلافي: **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية**، ص ١٣١-١٥٠، ص ١٧٠.

(٧٩) أمين، أحمد: **فجر الإسلام، القاهرة**، طبعة ١٩٩٦. ص ٢١.

(٨٠) ابن خلدون: **المقدمة**، ص ١٣٨.

(٨١) سالم: **تاريخ العرب القديم**، ص ٤٤٥.

(٨٢) الألوسي البغدادي، السيد محمد شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، ج ٢، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، بيروت (د.ت). ص ١٦٣.

(٨٣) برو، توفيق: **تاريخ العرب القديم، دمشق**، ط٢، ١٩٩٦. ص ٢٦٢.

(٨٤) سالم: **تاريخ العرب القديم**، ص ٤٤٣.

(٨٥) أمين: فجر الإسلام، ص ٢١.

(٨٦) انظر: هبو: **بلاد ما بين النهرين**، ص ٢٤١-٢٤٢، رو: **العراق القديم**، ص٤٤٤. ساكز، هاري: عظمة بابل- **موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديم**، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، ط١، ١٩٧٩. ص ١٥٧:

(٨٧) المخلافي: **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية**، ص ١٤٢.

(٨٨) ابن خلدون: **المقدمة**، ص ١٢٨.

(٨٩) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٢٨.

(٩٠) حسن: **حضارة العرب في عصر الجاهلية**، ص ٧٠.

(٩١) أمين: فجر الإسلام، ص ٢١.

(٩٢) برو: **تاريخ العرب القديم**، ص ٢٠٠.

الهجرات من جنوبي الجزيرة العربية حتى نهاية القرن الثالث الميلادي

الدكتور رفعت هزيم
جامعة دمشق

ينبغي أن يعتمد الباحث في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام - كي يكون منهجه منهجاً علمياً صحيحاً - على مجموعة من المصادر، وهي:

١- الآثار والنقوش القديمة: فأما الآثار فتشمل المعابد والحصون والقصور والقبور والتماثيل والمسكوكات والأدوات الحجرية والمعدنية والفخارية، وغيرها. ولذا يقوم علماء الآثار المتخصصون بعمليات المسح والتنقيب في شتى المواقع الأثرية بحثاً عمّا خلّفه القدماء حكاماً أو محكومين. وأماّ النقوش فهي تلك التّي كتبها العرب القدماء حيث كانوا يقيمون أو يرتحلون، وهي صنفان، نقوش مكتوبة بالعربية الجنوبية أو الشمالية، وأخرى مكتوبة بلهجات آرامية وأهمّها النقوش النبطية والحضرية، والتدمرية، التي تطلعنا على جوانب كثيرة من تاريخ دول الأنباط والحضر وتدمر.

٢- الكتابات والنقوش الساميّة التي خلّفتها الأقوام المجاورة، ولاسيما الكتابات المسمارية والسريانية والحبشية.

٣- الكتابات الكلاسيكية: ويراد بها مؤلّفات المؤرّخين والجغرافيين من اليونان أو الرومان أو من سكان الشرق القديم في العهود اليونانية والهلنستية والرومانية مكتوبةً باليونانية أو باللاتينيّة أو بغيرهما، وأهمهم: هيرودوت (القرن الخامس ق.م) وديودورس الصّقلي (ت٤٠ق.م) في كتابه "المكتبة التاريخية" و: سترابو (ت١٩م) في كتابه "الجغرافية"، و: بليني (ت٧٩م) في كتابه "التاريخ الطبيعي"، و: بطليموس (ت١٤٠م) في كتابه "الجغرافية"، و: الملاّح اليوناني المجهول صاحب كتاب الطواف أو البريبلوس periplus (من القرن الثاني أو الثالث للميلاد) وبروكوبيوس (ت٥٦٥م) في كتابه "تاريخ الحروب".

٤- كتب التراث: وتشمل كتب الأدب ودواوين الشِّعر وكتب الأخباريين وكتب التاريخ والجغرافية والأنساب وسواها (١).

وعلى الباحث أن يفحص ما تذكره هذه المصادر فحصاً دقيقاً، وأن يقارن بعضها ببعض، وكلما تعددت المصادر المؤيدة لما يذهب إليه كان هذا أدعى إلى تأكيد صحة المنهج.

ولاشكّ أنّ مسألة الهجرات من جنوبي الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين وشمالي إفريقية وشرقيّها قبل الإسلام ذات أهمية بالغة، لأنّ كثيراً من الاستنتاجات والنظريات في مؤلفات المؤرّخين واللغويين- قديماً وحديثاً - تستند إليها وستكون البداية بما ورد في كتب الأخباريين عن موضوعنا هذا لأنّها مصدر معظم ما يرد عنه في مؤلّفات اليعقوبي والطبري والمسعودي والهمداني ونشوان الحميري وسواهم. ويُعدّ كتابا عبيد بن شريّة الجرهمي (المتوفى نحو ٦٨ هـ)(٢) ووهب بن منبّه (المتوفى ١٠٦ هـ)(٣) أقدم ما نعرفه مما صنّفه الأخباريون، والسِّمتان الغالبتان على هذين الكتابين هما امتزاج الحقيقة بالخيال ؛ والمبالغة المفرطة، إذْ يعودان بحضارة اليمن القديم إلى زمنٍ بعيد جداً، ويصلان أنساب الملوك والحكام - الذين نفتقد الدليل

على وجود بعضهم – بالأنبياء عليهم السّلام، ويرويان قصص الفتوحات والغزوات التي قام بها هؤلاء الحكام في أصقاع شتى من العالم.

فمما ذكروه في هذا الشأن أنّ شدّاد بن عاد بن الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام بلغ أقصى المشرق، ثم مضى إلى ساحل سمرقند في أرض التبت؛ ثم مضى إلى أرمينية؛ ثم جاء إلى الشام؛ ثم إلى المغرب حتى بلغ البحر المحيط وهو يبني المدن ويتخذ المصانع، فأقام في المغرب مئتي عام ثم قفل إلى المشرق. وذكروا أيضاً أنّ الحارث الرائش قام بفتوحات واسعة أكملها ابنه أبرهة ذو المنار الذي قاد مع ولديه عمرو ذي الأذعار وافريقيس غزوات شملت السّاحل الإفريقي للبحر الأحمر ؛ ثم امتدت إلى الشمال الإفريقي بما فيه المغرب إلى طنجة. وزعموا أنّ ناشر النّعم – أو: ياسر أنعم – بلغ في غزوه البحر المحيط، ثم سار بنفسه غازياً نحو المغرب فدوّخه ووطئه حتى بلغ وادي الرّمل ؛ فأمر بصنم من نحاس نُصبَ على صخرةٍ وكُتِبَ على صدره بكتاب المسند: "صنعَ هذا الصنمَ الملكُ الحميريُ ناشر النعم اليعفري، ليس وراء هذا مذهب، فلا يتكلفْ أحدٌ المضي متغلغلاً فيعطب". أما شمر يرعش بن ناشر النعم فقد " ملك الأرضَ جميعها ودانت له، وكان عامله على فارس بلاش بن قُباذ، وعامله على الرّوم ماهان بن هرقل، وجعل على أهل بابل والبحرين وعُمان ألف درع". وأما أشهرهم أسعد الكامل فينسبون إليه قصيدة طويلة يتغنى فيها بفتوحاته وبطولاته، ومنها قوله:

ونلت بلاد الهند والسند كلها وفي الصين صيرنا نقيباً وعاملا
ونلتُ بلاد المشرقين كلاهما ونلتُ بلاد المغربين وبابلا

ويزعمون أنه آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث نبياً، وينسبون إليه قصيدة يقول فيها:

شهدتُ على أحمد أنّه رسولٌ من الله باري النسم

له أمةٌ سميت في الزّبور　　　فأمة أحمد خير الأممْ
فلو مدّ عمري إلى دهره　　　لكنت وزيراً له وابن عمْ (٤)

ثم يدّعون أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن سبّه لأنه أول من كسا الكعبة، وأنه هو المراد في قوله تعالى: أهم خيرٌ أم قومُ تبّع" (الدّخان ٣٧)(٥).

وقد تنبّه بعض المتقدّمين إلى ما في تلك الروايات والأخبار من ضعفٍ واختلاق فأكد ابن حزم أنّه "لايصحُّ من كُتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلا طرفٌ يسير لاضطراب رواتهم وبُعد العهد"(٦)، ثم تلاه ابن خلدون فانتهى بعد أن روى طرفاً من أخبار التبابعة إلى أنّ " هذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة"، وأنكر تلك الفتوحات المزعومة في الغرب والشرق لأنّ "الطريق إلى المغرب كانت تمرّ بالعمالقة وكنعان وبني إسرائيل بالشام والقبط بمصر، ولم يُنقلْ قط أنّ التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال... وأما وادي الرمل فلمْ يُسمعْ قط ذكره في المغرب،... وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك... فلمْ يُنقلْ قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم، وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود أرض العراق وبلاد العرب"(٧). كما نبّه إلى ذلك الباحثون المعاصرون المدققون فوصفوا عبيداً ووهباً ومعهما كعب الأحبار بأنهم " قصّاص أساطير ورواة خرافات وسمر"(٨). ومن الواضح أن تأليف هذه الأخبار والتوسّعَ فيها والعنايةَ بها إنّما يرجع بعضه إلى ذلك الصراع الدّموي بين اليمنيّة والقيسيّة – طوال العصر الأموي– على الخلافة والسلطان؛ إذ لم يكتفِ كل من الفريقين بالفخر بأمجاده في الإسلام، بل عاد بها إلى الأزمان الغابرة ليُثبتَ تفوّقه على خصمه ومنافسه قبل الإسلام وبعده(٩)، وقد "ظهر أجداد أهل اليمن في هذه الروايات أحسن وأخير من أجداد قريش وأهل مكة ؛ ظهروا فيها مؤمنين موحّدين كسوا البيت الحرام، وكانوا هم أول من كساه وعُنوا به إذْ عمّروه مراراً وقدروا مكانته قبل الإسلام بزمان طويل"(١٠) وبالرغم من أنّ التاريخ قد طوى هذا الصراع – ولله الحمد– منذ أمدٍ

بعيد فإنّ بعض الباحثين العرب ما زالوا يتقبلون هذه الأخبار والروايات بدون تمحيص أو تدقيق، لأنهم يعدّونها بسبب ورودها في مؤلفات المتقدمين من المسلمات، ثم يبنون عليها أحكاماً ونظريات يلجؤون للبرهنة على صحتها إلى تفسير ما ورد في المصادر التاريخية تفسيراً يوافق هواهم وإنْ كان مخالفاً للمنهج العلمي. فيشارك هؤلاء الباحثون المحدثون – بذلك– أولئك الأخباريين في الاعتقاد بأنّ الحضارة العربية هي أقدم الحضارات في العالم القديم ؛ وبأنّ موجاتٍ بشرية كبرى متعاقبة خرجتْ من جنوب الجزيرة العربية وشمالها منذ أقدم العصور لتستوطن – سِلماً أو غزواً – مناطق واسعة من بلاد الشام وبلاد الرافدين ؛ والأجزاء الشرقية والشمالية من القارة الإفريقية . ويقدّمون لتعزيز مذهبهم هذا دليلين اثنين، أحدهما: ما يُروى عن تدفق الهجرات من اليمن إثر حدوث سيل العرم الذي أشار إليه القرآن الكريم ؛ والآخر: افتراض الكثيرين من الباحثين – عرباً ومستشرقين– أنّ الشعوب الناطقة باللغات الساميّة وصلتْ إلى أماكن سكناها المعروفة في هجراتٍ متتابعة من الجزيرة العربية.

غير أن المصادر الأخرى التي أشرنا إليها لا تقدّم دليلاً واضحاً يُثبتُ سبقَ الحضارة العربية زمناً لجميع حضارات العالم القديم، كما أنّ المكتشفات الأثرية والنقوش والكتابات بشتى اللغات، وكذلك المصادر الكلاسيكية لا تشير إلى خروج موجات كبرى –غازيةً أو مسالمةً – من جزيرة العرب إلى بلاد الشام أو بلاد الرافدين أو إفريقية – ماعدا الحبشة – حتى القرن الثالث الميلادي. زد على ذلك بأنه لا يمكن التسليم بأن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للشعوب " الساميّة "، فثمة نظريات تجعل هذا الموطن في بلاد الشام أو في بلاد الرّافدين أو في الشمال الإفريقي أو في أقاليم أخرى.

ولو وقفنا قليلاً عند نقوش اليمن القديم – وهي أهم المصادر في هذه المسألة – لوجدنا أنها لا تذكر شدّاد بن الملطاط أو الحارث الرائش أو أبرهة ذا المنار أو عمراً ذا الأذعار أو أفريقس البتّة، ولكنها تذكر أخبار ثلاثة من أولئك الحكّام الذين تحدّث عنهم

الأخباريون ومَن تابعهم، وهم: ناشر النّعم (أي: ياسر يهنعم) وابنه شمّر يهرعش وهو شريكه ثم خليفته في الحكم، إذْ استطاعت حمير في عهدهما الوصول إلى مأرب فاتّحد بذلك الكيانان السبئي والحميري -بعد صراعٍ طويلٍ- في دولة واحدة أواخر القرن الثالث الميلادى. ثم استطاع شمّر ضمَّ أجزاء من حضرموت، فاتخذ لقب "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت"، أما ثالثهم فهو أسعد الكامل (أي: أبي كرب أسعد) الذي شارك أباه ملك كرب يهأمن الحكم أواخر القرن الرابع الميلادي، وبالرغم من أنه أخضع بعد انفراده بالحكم اليمن القديم كله تقريباً لسلطانه كما يستنتج من إضافة عبارة "وأعرابهم طوداً وتهامه" إلى لقبه فإن غزواته لم تتجاوز -كما تقول النقوش- بعض مناطق نجد.

وإذا انتقلنا إلى ما أوردته المصادر التي خلفها ملوك الدولة الآشورية الحديثة والدولة البابلية الحديثة ولاسيما الحوليات التي تروي ماجرى بينهم وبين الدول والأقوام المجاورة في أوقات الحرب والسلم فإننا نجد أنّ تلك الكتابات المسمارية تذكر العرب بصيغة **Aribi** أو بصيغ مشابهة لها تارةً أو بأسماء قبائلهم ومجموعاتهم تارةً أخرى. وقد يستنتج المرء من ورود بعض أسماء الأعلام العربية الجنوبية فيها أن هجرةً أو هجرات من جنوبي الجزيرة إلى شمالها حدثت في الألف الأوّل ق.م، مؤيّداً استنتاجه هذا بأن الخطوط المستعملة في كتابة النقوش العربية الشمالية ليست سوى أشكالٍ من خط المُسْنَد. غير أنّ هذا الاستنتاج مردود بأدلةٍ تاريخية ولغوية، أوّلها: أنّ المصادر المسمارية حدّدت هويّة عرب الجنوب تحديداً واضحاً فذكرتْ - مثلاً - "سبأ" و "يثع أمر" السبئي الذي دفع إتاوةً لسارجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م)، وثانيها: أنّ تلك المصادر لاتشير من قريبٍ أو بعيد إلى أن مجموعات عرب الشمال ترجع في أصولها إلى جنوبي الجزيرة، وثالثها: أنّ أسماء تلك المجموعات وكذلك أسماء زعمائها وشيوخها لم تردْ البتة في النقوش اليمنية القديمة فكيف تكون أصولهم -إذن- من

الجنوب؟، ورابعها: أنّ لغة النقوش العربية الشمالية هي العربية الشمالية بالرغم من استعمالها خطوطاً مشتقة من خط عرب الجنوب.

وأمّا سدّ مأرب الذي جعلوا انهياره سبباً لهجرة قبائل كثيرة إلى أماكن شتى تجاوز بعضها تخومَ الجزيرة العربية فإنّ النقوش ودراسات المتخصّصين هي التي تمدّنا بمعلومات موثوقة عن بنائه وتصدّعه وانهياره، إذْ اكتمل بناء السدّ في ذلك الموقع في القرن الخامس ق.م، وقد أقيم هناك لاحتواء مياه السّيول الناشئة عن تدفق مياه الأمطار الموسمية من أودية المنطقة إلى مساقط تجمّعها التي تقدّر مساحتها نحو عشرة آلاف كم٢. ولا يستطيع السدُّ استيعاب مياه جميع السيول وما تجرفه من طمي لفترة تزيد على قرنٍ، فإذا أضيف إلى ذلك الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات، وفوق ذلك الإهمال أحياناً فإن هذا يفسّر تصدّع السدّ مراراً دون أن ينهار، مما يستدعي إصلاح الأجزاء المتصدّعة منه واستخراج ما ترسّب في حوض السدّ من أتربة وحجارة وأخشاب وسواها [١١]. ويرجع أول ذكرٍ لإصلاح السدّ في النقوش إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، حيث أشار أحد النقوش إلى إصلاح جرى في عهد الملكين ثأران يهنعم وابنه ملك كرب يهأمن، وشمل إعادة بناء المصرف الشمالي (Ja 671)، ثم تحدّث نقشان يرجعان إلى عامي ٤٤٩ م (CIH 540) و٤٥٧م (Garsy) عن ترميم السدّ مرتين في عامين متتاليين من عهد الملك شرحبيل يُعفر الملقّب بـ "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طوداً وتهامة"، وذُكر فيهما أنّ الملك سخّر في المرّة الثانية عشرين ألفاً من رجال حمير وحضرموت للقيام بالإصلاح. ثمّ قام أبرهة بإصلاحٍ جديد عام ٥٤٢ م (CIH 541) لمْ يُطلْ عمر السدّ إلا زمناً قصيراً لأنه انهار قُبيل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بسنواتٍ قليلة، فنتج عن ذلك انهيارُ نظام الريّ في تلك المنطقة، مما أدى إلى هجرة قبائلها وتفرّقهم في كل مكان، وجاء ذكرُ هذا الحدث الجلل – كما يقول مفسّرو القرآن الكريم في قوله تعالى:

" فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العرم، وبدّلناهم بجنّتين ذواتي أكُلٍ خَمْطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل " (سبأ: ١٦)(١٢).

فإنْ صحَّ أنّ الآيات الكريمة تشير إلى التصدّع الأخير الذي أدّى إلى انهيار السدّ، فهذا يعني أنّ الهجرات الكبرى المزعومة كانت في الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي(١٣)، فلماذا سكتت كتبُ التراث – إذن – وغيرها من المصادر عن وصف سير تلك الهجرات وبيان القبائل التي شاركت فيها بالرغم من قرب عهدها بظهور الإسلام؟ ويلاحظ "أنّ قصّة سيل العرم تبدو أكثر القصص التصاقاً بأهداف التحالف القحطاني في سوريا [في العصر الأموي] ففيها وُجد التفسير المريح لسببيّة بعض القبائل الشمالية من خلال ربطها بالأزد، وفي سبيل تحقيق ذلك الغرض تجوهل تاريخ خراب سدّ مأرب الحقيقي ولم يفهمه أولئك الرواة المفسّرون أو لعلهم فهموه وتحاموه لأمرٍ في نفس يعقوب، وأصبحت القصة عندهم داخلة في عداد الماضي غير المحدّد بزمن، مع أنّ الأزد لم يكونوا في مأرب حين حدث التصدّع قبل الأخير أيام أبرهة، وإنما كانت لهم مملكة أو مملكتان كما كانت لغسان مملكة أخرى في النصف الشمالي من شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الميلادي على الأقل"(١٤). ويحسن هنا الرجوع إلى دراسات الباحثين المعاصرين في هذا الشأن، إذ قدّروا أنّ مساحة الأراضي التي كان يسقيها السدُّ في القديم لا تتجاوز عشرة آلاف هكتار، واستنتجوا من هذا أنّ الأراضي المزروعة آنذاك كانت تكفي لإطعام ما بين ثلاثين إلى خمسين ألف نسمة كانوا يعيشون في منطقة مأرب، علماً بأنّ مساحة المدينة نفسها لم تكن تزيد على كيلومتر مربّع واحد(١٥). ومهما تكن نسبة الخطأ في هذه النتائج فإنني أستبعد أنْ يكون أولئك المتضررون من انهيار السدّ – وهم قومٌ مزارعون؛ أي: مستقرّون – قد هاجروا إلى مناطق بعيدة مجهولة لا يعرفون عنها شيئاً تاركين بلدهم الوفير الخيرات الواسع المساحة، فالأرجح أنّهم تفرّقوا في اليمن نفسه، ماعدا فئة قليلة منهم التحقوا

بإخوانهم من الجماعات التي سبقتهم إلى وسط الجزيرة العربية طوال القرون الماضية.

على أنّ ذلك لا يعني أنّ اليمنيين القدماء ظلوا حبيسي بلادهم، فثمّة أدلة وفيرة متنوّعة على حدوث هجرات يمنيّة إلى الحبشة في الألف الأول ق.م، غير أنها لم تكن بشكل غزوات أو هجرات كبرى، بل هي عبورُ جماعات صغيرة من اليمنيين البحر الأحمر إلى الساحل الإفريقيّ القريب المقابل(١٦)، حيث أقامت محطات تجارية في ميناء "عدولي Adolis" وفي مواقع مجاورة، ثمّ لحقت بها جماعاتٌ أخرى زحفت غرباً إلى مناطق شتّى من إرتيرية وتجري، واختلطت بالسكّان المحليين، وخلّفتْ هناك مجموعة من النقوش المكتوبة بخطّ المسند عُثِر على أقدمها في موقع "يحا" قرب أكسوم، وتضمّنتْ أسماء آلهة اليمن القديم، نحو: المقه وعثتر وذات بعدان وذات حميم؛ وأسماء بعض حكّامه، نحو: سمه علي (وهو المكرب السبئيّ "سمه علي ينف" الذي كان حاكماً عام ٥١٠ ق.م تقريباً).وتدلّ المكتشفات الأثريّة في ذلك الموقع – بما فيها الأدوات والأشكال والأنماط المعمارية والفنيّة – على وجود صلاتٍ قوية بين اليمن القديم والحبشة، فالمنصّة المدرّجة في يحا تشبه تلك التي في مأرب أو في "الحريضة"، والأعمدة المربّعة ذات القاعدة المستطيلة في يحا كنظائرها في مأرب، والبلاط الحجريّ المخطط في معبد يحا وقصرها مماثل لذاك الذي في مأرب والحريضة، كما أنّ الزخرفة الفنيّة هنا وهناك واحدة . وثمة أوجه شبهٍ معمارية واضحة بين معبد يحا ومعبدي الحريضة و"المساجد"، وكذلك بين رواق القصر في يحا ونظيره في معبد أوام (محرم بلقيس) في مأرب وفي معبد عثتر في "تمنع". أمّا الجدار الداخليّ في قصر يحا فمبنيٌّ على طراز الجدران في معبد مأرب؛ أي: بطبقتين من البلاط الحجريّ المستطيل المحشو بالحصى. ووجه الشبه واضح أيضاً في المذابح الصغيرة وألواح تقديم القرابين والمذابح الأسطوانية أو المكعّبة والأختام البرونزية ذات الأشكال الهندسية. ويصدق هذا على المصنوعات الفخاريّة، فالجِرارُ المثلّمة من

الطرفين والأكواب المضلّعة من الطرفين في يحا كنظائرها في "هجـر بـن حميـد" والحريضة، والأكواب ذات القاعدة نصف الكروية في يحا كتلك التـي فـي شـبوة، والقدور في "مطرا "ويحا كنظائرها في مأرب. أضفْ إلى هذا رموزَ الإله المقه؛ وهي رسوم الوعل المنقوشة على جبال يحا ومطرا و"حاولتي"، وتماثيلَ الثور المصنوعة من المرمر، والأسماء اليمنية لبعض المواقع القريبة من أكسوم. أمّا أثر اليمن القديم الحيّ إلى يومنا هذا في الحبشة فهو لغويٌّ؛ إذْ اتخذتْ دولة أكسوم التي ظهرتْ إلى الوجـود في القرن الأوّل الميلادي خط المسند – بعد تطويره بإضافة رموز الحركات إليـه – لكتابة اللغة الحبشية (الجعزية) التي تُظهر المقارنةُ وجودَ أوجه شبهٍ نحويـةٍ ولغويـةٍ كثيرة بينها وبين العربية الفصحى ولغة النقوش اليمنية، زدْ على ذلك أنّ اسـم الـبلاد نفسها – الحبشة – هو من صوغ اليمنيين القدماء(١٧).

وقد يتساءل المرء هنا: ألمْ تتابع بعض تلك الجماعات اليمنية طريقها عبر الحبشة إلى الشمال الإفريقي؟ والجواب هو أنّ الطريق الآمن الوحيد للوصول إلى هناك هو عبور السودان ثم مصر، ولو حدث ذلك لخلّف أولئك المهاجرون ما يدلّ على تلك الهجرات – أي: كما فعلوا في الحبشة – ناهيك عن أننا لا نجد لهذا ذكراً في أيٍّ من المصـادر المعروفة.

فهل يعني ماقدّمناه أنّ هجرة اليمنيين القدماء إلى الحبشة هي الهجرة الوحيدة المعروفة في تلك العصور؟ لعلّ الإجابة عن ذلك تكمن في أنّ ازدهار حضارة الـيمن القـديم يرجع إلى التجارة بالطيوب التي كانت تُنتج أنواعها في بلاد المهرة وظُفار وجزيـرة سوقطرة وتهامة لِتُنقلَ مع السّلع المُستوردة من الهند والشرق الأقصى إلى الشـمال ؛ أي: إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام وحوض البحر المتوسـط. وكـان تصـدير تلـك الطيوب والسلع عبر "طريق البخور" الذي يمتدّ من ميناء "قنا" على ساحل بحر العرب عبر شبوة فمأرب فنجران، حيث يتفرّع فرعين: أحدهما يعبر "الفاو" في وادي الدواسر فاليمامة إلى الخليج العربي أو بلاد الرافدين، والآخر يعبر مكة فيثرب فديدان (العـلا)

فتبوك فالبتراء إلى دمشق أو إلى غزّة. وقد خلّف لنا التجّار اليمنيون نقوشاً في بعض البلاد التي وصلوا إليها، فمنها نقش معينيٌ عُثر عليه في سقارة قرب القاهرة (M 338) مكتوب على تابوتٍ خشبيٍ لتاجرٍ معينيٍ يُدعى زيدإل بن زيد، ويخبرنا ذلك النقش المؤرّخ بالسنة ٢٢ من عهد بطليموس الثاني؛ أي سنة ٢٦٤ ق.م أنّ صاحبه كان يُزوّد المعابد المصرية بأنواع البخور ومنها المُرّ، وأنّه دُفِن هناك على نفقة معابد الآلهة المصرية، ومنها أيضاً نقش معينيٌ آخر عُثر عليه في جزيرة ديلوس في بحر إيجه (M 349) يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م، ويذكر فيه صاحبه أنه أقام مذبحاً للإله "ودّ" وآلهة معين الأخرى في تلك الجزيرة[١٨]. غير أنّ المجموعة الكبرى من النقوش المعينيّة خارج اليمن وُجدتْ في ديدان (العلا) بأعالي الحجاز، فالظاهر أنّ التجّار المعينيين أقاموا مستوطنة هناك ليضمنوا سلامة القوافل التجارية في ذهابها وإيابها على الطريق الطويل الذي كان عددُ محطاته من "تمنع" عاصمة قتبان إلى غزّة يبلغ – كما يقول بليني – ٦٥ محطة في القرن الأول للميلاد[١٩]، وتعود هذه النقوش إلى الفترة مابين القرنين الرابع والثاني ق.م.

ولا شكّ أنّ "ديدان" لم تكن الموقع الوحيد الذي استوطنه اليمنيون القدماء، فثمة جماعات منهم – تجّاراً وغير تجّار – كانت على مدى القرون تتخلف لسببٍ أو لآخر في الأماكن التي تصل إليها في مناطق شتىّ من بلاد الشام وبلاد الرافدين لتختلط هناك بالقبائل العربية الشمالية ولتؤسس معها إماراتٍ عربية اشتهر منها ثلاث هي إمارات المناذرة والغساسنة وكندة . ومن المؤكد أنه كان هناك أربع إمارات عربية أخرى أسبق منها زمناً، اثنتان منها معروفتان للجميع وهما دولة الأنباط (من بداية حكم الحارث الأول عام ١٦٦ ق.م إلى سقوط البتراء في عهد الإمبراطور تراجان عام ١٠٦ م) ودولة تدمر (من عام ٤١ ق.م عندما حاول الرومان الاستيلاء عليها حتى سقوطها بيد الإمبراطور أورليان عام ٢٧٣ م)، وثالثة أقلّ منهما شهرةً هي دولة "الحضر Hatra " التي يرجع أقدم نقوشها إلى نحو عام ٨٥ م، ثم ذكر Dio cassius

في كتابه "تاريخ الرومان" أنّ تراجان هاجمها عام ١١٧ م دون أن يستولي عليها، ثم حاصرها سبتيموس سيفيروس عام ١٩٨ م فاستعصت عليه، ولكنها سقطت بعد ذلك بأيدي الساسانيين عام ٢٤١ م. أمّا الدولة الرابعة – التي تكاد تكون مجهولة لدى الكثيرين – فهي دولة اليطوريين (نسبةً إلى "يطور" من أبناء إسماعيل) الذين أشارت النقوش اليونانية والمصادر الكلاسيكية إلى وجودهم في لبنان بدءاً من القرن الثاني ق.م، وقد أدّى انشغالُ السلوقيين بالصراع على السّلطة من عام ١١٦ إلى عام ٩٦ ق.م إلى ضعف سيطرتهم على بلاد الشام، فاضطروا للاعتراف باليطوريين – إلى جانب الأنباط والمكابيين – ومنحوا أميرهم "منايوس"(أي: مَعْن) لقب Tetrarch عام ١١٥ ق.م، وكانت حدود هذه الإمارة تضيق تارة وتتسع أخرى حتى تلاشى ذكرها بعد عام ٢٠ ق.م[٢٠].

وينبغي هنا ألا ننسى أنّ الحدود السياسية أو الجغرافية لم تكن آنذاك تمنع القبائل من الحركة أنّى شاءت وحيثما أرادت، ولذا كانت تنتقل – غازية أو مسالمة – من منطقة إلى أخرى في المشرق العربيّ؛ أي في الجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد الرافدين، مما يعني " أنّ الهجرات لم تكن في اتجاهٍ واحد، بل كانت حركة دائمة تتجه مختلف الاتجاهات لعوامل سياسية واقتصادية وحربية... فهي ليست هجراتٍ بالمعنى الذي نفهمه من الهجرات في لغة علماء الساميات ذات أزمانٍ معيّنة لها أمد محدود"[٢١].

ولقد أورد المؤرّخون القدامى أنفسهم أمثلة على ذلك، فذكروا أنّ "تنوخ" خرجتْ إلى البحرين فأقامت هناك وتحالفت فيما بينها، ثم تابعت تحرّكها في مطلع القرن الثالث الميلادي إلى جنوبي بلاد الرافدين لتقيم هناك دولة المناذرة. وذكروا أيضاً أنّ الغساسنة انتقلوا من مأرب إلى تهامة ثم إلى جنوبي بلاد الشام حيث أقاموا دولتهم. وذكروا كذلك أنّ "كندة" كانت في البحرين ثم نزحت إلى حضرموت ثم نزلت أرض معدٍّ فأسستْ هناك مُلكاً. ولعلّ هذه الروايات هي التي تدفع بعض الباحثين المعاصرين إلى تسمية دول المناذرة والغساسنة وكندة دولَ عرب الجنوب في شمالي الجزيرة

العربية، ولكنني أعود فأقول إنّ عرب الجنوب وعرب الشمال شاركوا معاً في إقامة هذه الدول وفي إقامة دول الأنباط والحضر وتدمر واليطوريين كذلك، وسنجد الدليل على ذلك مرة أخرى في مؤلفات القدامى الذين وصفوا لنا - مثلاً - أهل الحيرة على هذا النحو: "الثلث من تنوخ وهم مَن كان يسكن المظال وبيوت الشَّعر والوبر في غربي الفرات فيما بين الحيرة والأنبار ومافوقها؛ والثلث الثاني: العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بها؛ والثلث الثالث: الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ممن لم يكن مِن تنوخ من الوبر ولا من العباد"(٢٢).

وتلقي النقوش اليمنية القديمة الضوء على حركة القبائل في الاتجاه المعاكس - أي من الشمال إلى الجنوب - عندما تتحدّث عن العرب أو الأعراب الذين يعادون ممالك سبأ وحضرموت وحمير تارة، ويسالمونها تارة أخرى، وإنْ لم يكونوا جميعهم من عرب الشمال، فقد ورد في نقشٍ من منتصف القرن الثاني الميلادي (نقش المعسال) أنّ الجيش الحضرمي كان يضمّ قوّة بدويّة يقودها "سيّد الأعراب"، وتحدّث نقشٌ آخر من عهد إل شرح يحضب الثاني - أي من منتصف القرن الثالث الميلادي (ZI 75) - عن دويلاتٍ لغسّان ونزار ومذحج والأزد في الأطراف الشمالية لمملكة سبأ، ثم نجد قائداً يزنيّاً في عهد ياسر يهنعم بن شمر يهرعش - أي في القرن الرابع - يُلقّب في بعض النقوش (Ja 665 +Ir 32) بكبير أعراب كندة ومذحج وحريم وباهل وزيدإل(٢٣).

ولعلّ حركة التنقّل المستمرة هذه بين الشمال والجنوب في كلا الاتجاهين هي التي جعلت النسّابين يختلفون في نسبة بعض القبائل - ولاسيّما قضاعة وعكّ وكندة - إلى قحطان أو عدنان(٢٤). وإذا كان يصعب علينا تتبعُ حركة قضاعة وعك فإنّ ما ذكرته النقوش وكتب التراث عن كندة كافٍ لتعليل هذا الأمر، إذْ ورد في نقشٍ سبئيٍّ من محرم بلقيس(Ja 635) أنّ شعر أوتر ملك سبأ الذي حكم أوائل القرن الثالث الميلادي أرسل حملتين عسكريتين إلى قرية ذات كاهل ضد ربيعة ذي آل ثورملك كندة وقحطان، وذكر نقشٌ سبئيٌّ ثانٍ(Ja 2110).

إنّ الملكين إل شرح يحضب الثاني وأخاه يأزل بين اللذين كانا يحكمان في منتصف القرن الثالث الميلادي أرسلا سفارة إلى مالك بن بد ملك كندة ومذحج. ونضيف إلى هذين النقشين نقشاً ثالثاً بخط المسند على نصب قبرٍ لا تُذكرُ فيه " كندة " صراحة، ولكنه يذكر أنّ صاحب القبر – ويُدعى معاوية بن ربيعة – هو ملك قحطان ومذحج، وقد عُثر على النقش المذكور – ومعه نقوش أخرى– في تنقيبات أثرية في موقع قرية ذات كاهل (الفاو حالياً) في نجد[٢٥]. ثم يختفي ذكر دولة كندة وقحطان ومذحج هذه التي تمثل الدور الأول من تاريخها وهو دور تجهله كتب التراث تماماً لأنها تبدأ تاريخ كندة – كما ذكرنا أعلاه – بالحديث عن انتقالها من البحرين إلى حضرموت ثم نزولها أرض معد وتأسيس دولة، حيث ولّى حسّانُ بن تبّع (أي حسان يهأمن بن أسعد الكامل) ملك حمير في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي حُجْراً بن عمرو بن معاوية – الملقبّ بآكل المُرار– على قبائل معد التي خضعت له في وسط الجزيرة العربية ويبدو أن ذلك كان مكافأة له على مساندة الحميريين ضد خصومهم هناك،إذ يذكر أحد النقوش (Ry 509) أن أعراباً من كندة قاتلوا مع أسعد الكامل في غزوةٍ أوصلته إلى موقعٍ يُدعى مَأسَل الجُمح في نجد[٢٦].

ويؤيّد هذا الذي ذكرناه دليلٌ لغويّ هام هو انتشار النقوش العربية الشمالية هذا الانتشار الواسع الذي يمتد مَن حيث زمنه من القرن الرابع ق.م إلى القرن الثالث للميلاد، ويشمل من حيث رقعته بلاد الشام وجنوبي بلاد الرافدين وشمالي الجزيرة العربية وشرقيها، فبِمَ نعلل كتابة تلك النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية والأحسائية ونقوش "الفاو" بأشكال من خط المسند وهو خط النقوش العربية الجنوبية؟ وبمَ نعلل وجود نقوش يمنية قديمة مكتوبة بخط المسند (Ja 2122، R5065) في حين أنّ لغتها عربية شمالية؟ وبِمَ نعلل أن يكون موطن النقوش الأحسائيّة هو منطقة الأحساء في شرقي الجزيرة؟ وبِمَ نعلل "أنّ النقوش الثموديّة وُجدتْ في الجنوب بمقدارٍ يفوق ما وُجد منها في الشمال" ؟[٢٧].

ومن الواضح أنّ هناك عوامل متعدّدة تتحكم في آراء الباحثين في هذه المسألة وتجعلهم يتشبثون بنظرية الهجرات الكبرى المتتالية من جنوبي الجزيرة العربية:

أوّلها: عدم وجود حقائق مؤكدة بشأن حركة الموجات البشرية ومنها ما يُسمّى "الموجات الساميّة" في العصور القديمة في المشرق العربي.

وثانيها: الادّعاء أنّ جميع أشكال الحضارة في المشرق العربي ترجع إلى مصدر واحد هو الجزيرة العربية، وقد جعلوا ذلك من المُسلّمات.

وثالثها: الأحكام المُسبقة المتأثرة بكيفيّة انتشار العرب مع انتشار الإسلام - سلماً أو حرباً - فيفترضون أنّ ما حدث قبل الإسلام كان مماثلاً أو مشابهاً، ويعتقدون أنّ هجرات كبرى متتابعة حدثت في تلك الأزمان على منوال التغريبة الهلاليّة في القرن الخامس الهجري.

غير أنّ هذا البحث انتهى بعد تمحيص ما ورد في شتىّ المصادر عن تاريخ اليمن القديم وحضارته إلى مجموعة من النتائج:

أولاها: أنّ الزعم بأنّ جنوبي الجزيرة العربية كان في العصور القديمة خزاناً بشرياً عامراً خرجت منه في أزمان مختلفة هجرات كبرى ملأت المشرق والمغرب أتى به الأخباريون والنسّابون لأغراض معيّنة ولكننا لانجد دليلاً على صحته في أيٍّ من المصادر التي بين أيدينا والثانية: أنّ المنطقة الوحيدة التي كان لعرب جنوبي الجزيرة تأثير حضاري واضح فيها خارج بلادهم هي الحبشة، وهو مؤكّد بأدلّة كثيرة منذ القرن السادس ق.م وما يزال معظمها شاهداً على تلك الصلة بين ضفّتي البحر الأحمر إلى اليوم. أما القول إنّ ذلك التأثير امتد إلى شمالي إفريقية ممثلاً بهجرة البربر إلى هناك فهو دعوى تحتاج إلى البيّنة، وقد أنكرها في القرن الخامس الهجري ابن حزم قائلاً:" وادّعت طوائف من البربر إلى اليمن؛ إلى حمير، وبعضهم إلى برّ بن قيس عيلان، وهذا باطل لاشكّ فيه. وما علم النسّابون لقيس عيلان ابناً اسمه برّ أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرّخي اليمن"(٢٨) والثالثة: أنّ هجرة

عرب الجنوب إلى شمالي الجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد الرافدين أمرٌ مؤكد، وأهمّ الأدلة على ذلك هو النشاط التجاري الواسع الذي اشتُهر به اليمنيون القدماء على مرّ القرون. ولكنّ الهجرات التي تمّتْ في الفترة المذكورة لم تكن هجرات كبرى على النّحو الذي حدث بعد ظهور الإسلام مصاحباً الفتوحات أو تالياً لها؛ أو على غرار التغريبة الهلالية، بل كانت جميعها - بما فيها الهجرات إلى الحبشة - تتمّ بجماعات صغيرة من التجّار أو سواهم يتبع بعضُهم بعضاً - وهو مافعله اليمنيون المسلمون بعد ذلك في هجراتهم إلى أندونيسيا وماليزيا - فاختلطت تلك الجماعات المتتالية في مواطنها الجديدة بالقبائل العربية الشمالية هناك، وما لبثت الهوية العربية الإسلامية الموحّدة أنْ أظلت الجميع[٢٩].

فأمّا من يرى خلاف ذلك فعليه أن يأتي بأدلةٍ واضحة من المصادر التي ذكرناها في مقدمة هذا البحث للبرهنة على صحّة روايات الأخباريين والنسّابين!

الحواشي

(١) ثمة عرض واف لهذه المصادر في: المفصّل لجواد علي ١/٣٧-١٠٦.

(٢) ذكر الهمداني أنّ عبيداً كان مسامراً لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق، انظر: **الإكليل** ٨/١٦١. ولمْ يذكر بروكلمان سنة وفاته، ولكنه قال إنه عاش إلى زمن عبد الملك بن مروان، انظر: **تاريخ الأدب العربي** ١/٢٥١.

(٣) نشر كرنكو الكتابين معاً عام ١٣٤٧هـ في حيدر أباد، وعنوان أحدهما "كتاب التيجان في ملوك حمير عن وهب بن منبه"، وعنوان الآخر "**أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها**". غير أنّ بروكلمان يقول إنّ "كتاب التيجان" هو لابن هشام راوية وهب، وقد اعتمد فيه بصورة أساسية على إسرائيليات وهب، وإنْ روى أيضاً عن مصادر أخرى، انظر: تاريخ الأدب العربي ١/٢٥٢، و: المفصّل ١/٨٣-٨٧.

(٤) انظر هذه الروايات والأخبار- ومعظمها منقول عن عبيد ووهب- في: **الإكليل** ٨/١٨٣-٢٢٥، و: **كتاب التيجان** ٨١-١٣٤ و٢١٩-٢٢١، وقارن بما ذكره يوسف عبد الله في: أوراق ٢٥٢-٢٥٦ ومحمد عبد القادر بافقيه في: في العربية السعيدة (٢): ٣٨-٤٧. وثمة خطأ نحويّ ظاهر في أحد الأبيات المنسوبة لأسعد الكامل.

(٥) انظر: المفصّل ٢/٥١٣-٥١٤، وقارن بـ: أوراق ٢٥٥.

(٦)جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص ٤٣٩.

(٧) مقدمة ابن خلدون: ص ١٢-١٣.

(٨) المفصّل ١/٨٣.

(٩) عقد ابن حزم الأندلسي فصلاً بعنوان "الكلام في مفاخرة قحطان وعدنان "في كتابه "**الجمهرة**" أجمل فيه أوجه المفاخرة لكلا الفريقين، وانتهى إلى القول "ويظهر

فضلُ عدنان ظهوراً لا خفاء به، وأما في الحقيقة فلا فخر إلا بالتقوى"، انظر: الجمهرة ٤٨٧–٤٩٠.

(١٠) المفصّل ٢/٥١٦.

(١١) انظر دراسةً مفصّلة عن سدّ مأرب في: أوراق ٦٩–١٠٢.

(١٢) أوراق ٧٤.

(١٣) الرأي الشائع هو أنّ السدّ انهار بين عامي ٥٧٥ و٦٠٠ م، انظر: **Vogt , P. 378**

(١٤) بافقيه: **في العربية السعيدة** (٢): ص٢٢٢.

(١٥) أوراق ٩٣.

(١٦) سبقَ إلى هذا الرأي محمّد عبد القادر بافقيه، إذ بيّن " أنّ الهجرة التي بدأتْ في القرن السابع ق.م أو قبله استغرقت وقتاً طويلاً، فليس هناك ما يدلّ على غزوةٍ أو هجرة واسعة تمّتْ دفعة واحدة "، انظر: تاريخ اليمن قبل الإسلام ١٦٧.

(١٧) انظر: الحضارات الساميّة القديمة لموسكاتي: ص ٢١٢–٢٢٣، و: تاريخ اليمن لبافقيه: ص ١٦٥–١٦٩، و: **Contenson , pp. 349 – 369**.

(١٨) وثمة نقش حضرميٌّ في الجزيرة هو (**RES 3952**).

(١٩) ويُحدّثنا صاحب كتاب الطواف **Periplus** عن طرق التجارة البحرية التي سلكها اليمنيون القدماء بين الموانىء اليمنية (المخا "موزة" على البحر الأحمر، وعدن وقنا وموشا على بحر العرب) وسواحل القرن الإفريقي والهند، انظر: **Periplus 21-23**، وانظر الفصل الذي عقده بافقيه بعنوان "**البخور والطرق التجارية**" في كتابه: تاريخ اليمن ١٧١–١٨٣.

(٢٠) انظر بشأن اليطوريين: المفصّل ١/٤٤٣–٤٤٥، وثمة إمارات أخرى تحدّث عنها في: ٢/٦٠٠–٦٢٥.

(٢١) المفصّل: ١/٢٥٢–٢٥٣.

(٢٢) انظر: **تاريخ الطبري** ٢/٤٢–٤٣ وقارن بما ذكره في ١/ ٦١٠ . ويلاحظ هنا أنّ بعضهم يجعل القبائل الشمالية التي ضمّها اسمُ " تنوخ " مضريّةً ويمنيّةً (انظر: الكامل لابن الأثير ١/٣٤٠)، ويذكرون أيضاً أنّ قبائل **غطفان وتغلب وطيّء وسواها أحلاف** .

(٢٣) انظر بشأن دلالة مصطلح "الأعراب": في العربية السعيدة (١): ٢٤–٣٤، و: انتشار العرب البداة: ٨٣–١٠٧ و: **نقوش مسنديّة**: ١٠٦–١٠٧+١٣٨–١٣٩ و: **Müller ; P. 232**.

(٢٤) قال ابن حزم: "جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال، وهم: عدنان وقحطان وقضاعة... وأما قضاعة فمختلف فيه ؛ قيل: ابن معد بن عدنان، وقيل: ابن مالك بن حمير"، انظر: **جمهرة الأنساب**: ص ٧+٣٧٥+٤٤٠، و: المفصّل: ١/٣٩٢– ٣٩٤.

(٢٥) انظر هذه النقوش في: **قرية الفاو للأنصاري**.

(٢٦) لا يخفى أننا لا نستطيع التفصيل في الكلام على تاريخ كندة أو المناذرة أو الغساسنة لأنّ ذلك يتجاوز – موضوعياً وزمنياً – مجال هذا البحث.

(٢٧) **في العربية السعيدة** (١): ص ٢٠.

(٢٨) جمهرة الأنساب: ص ٤٩٥، وانظر مانقلناه عن **ابن خلدون** أعلاه.

(٢٩) تكاد هذه النتائج توافق آراء ابن حزم وابن خلدون من المتقدمين، وجواد علي ومحمد عبد القادر بافقيه من المحدثين.

المـــراجـــع

- **بالعــربيّـــة:**

- **الإكليل:** الهمداني (الحسن بن أحمد)، ج٢ تحقيق محمَّد بن علي الأكوع • بغــداد ١٩٨٠، ج٨ تحقيق نبيه أمين فارس • بيروت ١٩٤٠

- انتشار العرب البداة في اليمن من القرن الثاني إلــى القــرن العاشــر المــيلادي: كريستيان روبان، ترجمة علي محمَّد زيد، في: **دراسات يمنية**(العدد ٢٧، ١٩٨٧) ص ٨٣– ١٠٧

- **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره:** يوسف عبد الله، ط٢ • بيروت ١٩٩٠

- **تاريخ الأدب العربي:** كارل بروكلمان، ج١ ترجمة عبد الحليم النجــار • القــاهرة ١٩٧٧

- **تاريخ الرسل والملوك:** الطبري (محمَّد بن جرير)، تحقيق محمَّـد أبــو الفضــل إبراهيم، ط٢ •القاهرة ١٩٦٧

- **تاريخ اليمن القديم:** محمَّد عبد القادر بافقيه، ط٢ • بيروت ١٩٨٥

- **جمهرة أنساب العرب:** ابن حزم الأندلسي (علي بن أحمد)، تحقيق عبــد الســلام هارون•القاهرة ١٩٦٢

- **الحضارات الساميّة القديمة:** سبتينو موسكاتي، ترجمة السيّد يعقوب بكر• القــاهرة ١٩٦٨

- **في العربية السعيدة** (١) و (٢): محمد عبد القادر بافقيه• صنعاء ١٩٨٧، ١٩٩٣

- قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام: عبد الرحمن الطيب الأنصاري • الرياض ١٩٨٢

- **الكامل في التاريخ:** ابن الأثير (عزّ الدين) • بيروت ١٩٦٥

- كتاب التيجان في ملوك حمير: وهب بن منبّه، تحقيق سالم كرنكو، ط٢ صنعاء ١٩٩٠.

(مصوّرة عن طبعة حيدر أباد ١٣٤٧هـ)

- المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ط١ ، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١

- المقدمة: ابن خلدون (عبد الرحمن): تحقيق جماعة من العلماء، القاهرة، د.ت.

- نقوش مسندية وتعليقات: مطهّر علي الإرياني، ط٢ ، صنعاء ١٩٩٠

- باللغات الأجنبيّة:

- Contenson , H. de: Pre-Aksumite culture, in: General History of Africa. published by UNESCO , II. 1981. pp. 349 - 369

-MÜller,W.:Das Ende des antiken Königreichs Hadramaut,in:al-Hudhud, Festschrift M.Höfner. Graz 1981, pp.225-256

-Periplus: The Periplus of the Erthrean sea , translated by G. Huntingford, London 1980

" Vogt , B.: Towards a new dating of the great dam of Marib, in: Proceedings of the Seminar **for Arabian Studies , 34 , 2004**

ملخّص البحث

مازال جمهور الباحثين متمسكاً بالنظرية القائلة إنّ جنوبي الجزيرة العربية كانت الموطن الأول للعرب، حيث خرجوا منه في هجرات كبرى متتابعة استغرقت قروناً، وهي التي بدأت – فيما يرون – بتعريب بلاد الشام وبلاد الرافدين وشمالي إفريقية حتىّ اكتمل ذلك بعد الإسلام ، ويناقش البحث هذه النظرية التي تستند إلى روايات الأخباريين والنسّابين، وإلى القياس الخاطىء على الهجرات المعروفة في العصور الإسلامية، ثمّ يجلو حقيقة هجرات اليمنيين القدماء حتى نهاية القرن الثالث للميلاد استناداً إلى المصادر الموثوقة ولاسيّما المكتشفات الأثرية والنقوش اليمنيّة القديمة ،

الأزياء العربية الإسلامية في العهد الأموي من خلال المراجع الأدبية التاريخية والأثرية

الدكتورة نهال نفوري
كلية الفنون الجميلة
جامعة دمشق

مدخل:

في بداية انتشار الإسلام، يوم كان الناس جميعهم على وجه التقريب يعيشون حياة البداوة، وكانت المدن الصغيرة قليلة الشأن، كاد فن الخياط يكون مجهولاً، فقد كانت الشملات البسيطة، المنسوجة قطعة واحدة كافية لضمان وقاية المشتملين بها من برد الشتاء وحرّ الصيف.

وليس بوسعنا أن نتصور استطاعة خياطة الألبسة وفق طراز أنيق، وكان الحائك وحده يقوم بهذه المهمة.

ولكن العرب ونتيجة انتشار ولايتهم على شطر كبير من آسية ومن إفريقية ومن أوروبة، وجدوا أنفسهم مرتبطين بعلاقات وثيقة مع شعوب تلك المناطق التي فتحوها، واستطاعوا الاستفادة من مدنيتها وحضارتها، فلم يكن من بدّ للعرب من هجر حياتهم البدوية شيئاً فشيئاً، والشروع في الاستقرار الدائم في المدن(١)، فأدركوا يومذاك أن بمقدورهم عمل ثياب أشدّ أناقة من الشملات التي كانوا يلتفون بها، فاستعاروا طرز

الشعوب التي عاشوا معها. وكانت أقربها إلى المنطقة الشرقية (العراق وسورية) الحضارة الفارسية (وهذا ما سيتأكد أثناء البحث) في أسبانية استعاروا الشطر الكبير من أزياء الفرسان النصارى.

وكان لانتعاش الحضارة وازدهارها وتقدم التجارة وانتشارها أن أنشئت مصانع من كل نوع، كانت تنسج فيها الأقمشة الحريرية الفاخرة وطرائف الديباج التي لا سبيل إلى حصرها[٢]، وقد أحرزت بغداد ودمشق تطوراً كبيراً فيها، ولعل بداية التغيرات التي شهدتها الأزياء العربية والإسلامية جاءت عقب الفتوحات الإسلامية، وذلك في الفترة الأموية (٤١-١٣٢ هجري) (الفترة الزمنية للبحث).

ونظراً لاعتماد الدراسة المقدمة على مراجع أدبية تاريخية وعلى مراجع أثرية ما زالت ماثلة إلى يومنا هذا وبحالة جيدة (قصير عمرة) سيتطرق البحث إلى بيان أهمية الربط بين المرجع الأدبي التاريخي والمرجع الأثري في دراسة التاريخ، ولاسيّما في دراسة الأزياء التاريخية.

ولسنا بحاجة إلى بيان أهمية الدراسة الأثرية التاريخية للباس وتطوره على مختلف العصور، باعتباره عصراً أساسياً من عناصر الحضارة الإنسانية للوقوف على درجة رقي الأمم وحضارتها، وعلى المستوى الذي وصلته الحضارة المادية وما كانت عليه الدولة من انتعاش اقتصادي.

وتحتوي المصادر الأدبية التاريخية والجغرافية وكتب الفقه والمعاجم على الكثير من الألفاظ والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس مثال ذلك ما تطالعنا به كتب الجاحظ وهي غنية عن أي تعريف. وكتاب الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني، وهو موسوعة كبيرة تحوي أصناف كثيرة من أنواه اللباس وما يتعلق بها، وكتاب (مروج الذهب) للمسعودي، فضلاً عن الجغرافيين أمثال الأصطخري في كتابه (المسالك والممالك)، وياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان)، ومجموعات العلماء المسلمين المشتغلين في حقلي الحديث والسنة أمثال البخاري ومسلم.

أما المعاجم التي تلقي الضوء على الكثير من المعلومات القيمة التي يتطلبها البحث ونذكر منها على سبيل المثال (مخصص ابن سيدة)، ونخصّ بالذكر كتب المحدثين وفي طليعتها كتاب (المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب) للمستشرق دوزي، فهو كتاب فريد، وليس في مقدور أي باحث أن ينجز عملاً في هذا الميدان دون أن يمرّ بهذا المعجم.

على أن كثيراً من هذه التسميات التي تتعلق بهذه الألفاظ والأسماء والصفات لمختلف أنواع اللباس يعوزها لوصف الدقيق لكي نستطيع أن نكوّن لها صوراً واضحة في أذهاننا، خاصة أن الكثير منها لا يستعمل في العصر الحديث، وإذا أضفنا إلى ما تقدم أنه كثيراً ما نجد أن لفظاً أو اسماً بعينه من أسماء اللباس يختلف وصفه ومعناه من عصر إلى آخر، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كلمة (حبرة)، التي كانت تعني قبل الإسلام زياً خاصاً، وفي أوائل العصر الإسلامي والعصور الوسطى زياً ثانياً، وفي العصر التركي زياً ثالثاً، وكذلك كلمة (خفتان) وكثير غيرها، لتبيّن لنا مقدار حاجتنا إلى مراجع حديثة تبيّن لنا لباس كل عصر حتى لا يختلط علينا لفظ أو اسم واحد في عصور مختلفة.

وإذا رجعنا إلى المراجع الأثرية وجدنا عكس ذلك تماماً، فكثير ما نجد صور كثيرة واضحة ودقيقة لمعظم أنواع اللباس في أكثر المخطوطات المصورة، ولكن أياً منها لم يعنَ بذكر تفاصيل هذا اللباس ولا المناسبة التي يلبس فيها، ولكننا نستطيع معرفة ذلك من سياق القصة أو الموضوع.

مما تقدّم يتبيّن لنا مدى حاجة المكتبة العربية إلى أبحاث تدمع بين ما تزخر به كتب التاريخ والمعاجم من أسماء وألفاظ خاصة باللباس لكي تسمى بها الصور والرسوم الكثيرة الواردة على المخطوطات والآثار.

وانطلاقاً من هذا كان الاهتمام بهذا الموضوع، وتم اختيار الفترة الأموية (٤١-١٣٢ هجري)، لأسباب كثيرة أهمها أن هذه الفترة شهدت تطوراً في الفكر الإسلامي السائد

حينها من حيث الانفتاح على الحضارات المجاورة والاقتباس منها والتأثر بها، أما ثانيها فهو ندرة الدراسات التي تهتم بالأزياء، وخاصة في فترات تاريخية قديمة مثل الفترة الأموية.

وقبل أن نعرض أنواع الملابس في تلك الفترة لا بدّ لنا لأن نتحدث ولو بشيء من الإيجاز عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، التي كانت سائدة وذلك لما لها من أثر مباشر على اللباس وعلى نوعياته ومكملاته.

ولما تكشف لنا هذه العوامل بشكل مباشر أو غير مباشر عن طبيعة الحياة وعن تركيبتها الاجتماعية، كذلك الحالة الاقتصادية والدور الذي تؤديه في تحديد مستوى الفرد وطريقة تفكيره ومدى عزلة الشعوب أو اتصالها بالخارج.

وطرق التجديد والابتكار المستخدمة في شتى مناحي الحياة الاقتصادية والنتائج المترتبة على ذلك في وفرة الإنتاج وزيادة الربح وترفيه الحياة وانعكاس ذلك على الفرد.

وبالرغم من قلة المراجع التي تتحدث عن تلك الناحيتين بشكل صريح، إذ جمهور الكتاب لم يرصدوا حالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية، بل اقتصرت كتاباتهم عن الحالة السياسية أو عن بلاط الخلفاء والملوك والسلاطين(٣).

ولكن مع ذلك بمكن لنا أن نستدل شيئاً عن الطبقات الاجتماعية من خلال ما كتب عن سيرة الولاة والخلفاء ومع بعض نصوص القوانين والتشريعات، التي كانت تصدر عن البلاط الأموي ولعلّ من المهم ذكره ما خلّفه الشعراء من نصوص أدبية ونثريات، كان لها الدور الكبير في الاستدلال على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية ولاسيما الأزياء.

فمن الواضح أن الدولة الأموية وبالقياس إلى الدولة العباسية، التي تلتها لم تخرج في حياتها خروجاً بالغاً عن الحياة التي كانت تعيشها الطبقات العربية العليا في الجزيرة، ولم تبعد عن عمود هذه الحياة التي كانت سائدة في مكة والمدينة، فقد حافظت على

التقاليد العربية مرة، ورعتها أن تعصف بها رياح التطور وأن تغلب عليها مرة، وكانت في أكثر المرات وفية لها... وما من شك أن الطبقة الحاكمة سكنت في دمشق (عاصمة الدولة الأموية) القصور، ونشرت السلطان، واتخذت سمة الملوك، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تنتقل في هذا نقلة بعيدة، أي أنها لم تستطع أن تتخذ في علاقاتها مع القبائل العربية ولاسيّما روح الملوك، وكان يكفي أن توفد القبيلة وفداً من أشرافها وشعرائها حتى يستطيع هذا الوفد أن يدخل على الخليفة حيث كان منزله ومكانه، وأن يلقاه وأن يتبسط معه في الحديث، ويتخذ في حديثه مثل أسلوبه الذي كان يتخذه في الجزيرة لا يغادره أو لا يكاد[٤].

إن النزعة التي جاشت في ضمائر الأمويين، بإنشاء إمبراطورية واسعة، كانت تبنّت حركة الفتوحات، بعد محاولاتها القضاء على المنازعات الداخلية، واستطاعت أن تفرض سياسة أساسها التوازن النسبي، بعد أن فرضت السلطة المطلقة لحكم واحد وإدارة واحدة... لقد أدرك الأمويون أن قيام سلطة قوية كان من مقتضيات الأمم ومتطلبات كيانها، لذلك عملوا على أن يكون جانب السلطة قوياً مهيمناً، ولذلك لتمتين الحكم انطلاقاً من بلاد الشام إلى جميع أنحاء إمبراطوريتهم ولهذا لجؤوا إلى خلق صراع طبقي من جهة وصراع قبلي مكن جهة أخرى... ليكفلوا تحقيق ما يرغبون به من هيمنة، وعلى هذا سعت السلطة الأموية لخلق طبقة برجوازية، سلّمت إليها مقاليد الأمور في أقاليم الدولة نتيجة شعوره الحاجة لمثل تلك الطبقة لأنها تقدم للإدارة الملكية الموظفين، بالإضافة لموقف هذه الطبقة من المعارض للأحزاب وسلوكها المتبع المتميز بالعنف والاضطهاد مع بقية أفراد الشعب[٥].

لقد كانت هذه الطبقة حديثة العهد، ووصولهم إلى ما هم عليه كان بعد جهود مريرة، أي بعد أن احترف بعضهم مهنة السلاح والحرب، وذلك لكسب السلطة عن طريق تقديمها الولاء ويغريها لذلك العيش البذخ واللهو والمرح، وهذا ما فتح المجال واسعاً أمام الغناء والرقص وذلاك من كثرة الحفلات التي كانوا يقيمونها في منازلهم.

إلى جانب هذه الطبقة الجديدة التي أوجدوها الأمويون، كانت هناك فئة تدعى الرقيق والموالي بجنسياتهم المختلفة التركي، والديلمي، والرومي، والبربري، والخراساني، والسندي، وقد كن عددهم في ازدياد دائم، وذلك نتيجة الفتوحات وما كان يرافقها من أسر أو إهداء، فكثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض والأسود كهدية إلى بلاط الخليفة بدلاً من خراج أو نحوه وذلك في أثناء الحروب[٦].

ونتيجة لذلك فلقد تزايد عدد الموالي تزايداً لا حدود له، فاستخدمهم العرب في جميع مصالحهم الصناعية، أو الزراعية أو العلمية، وبعضهم الآخر في الدينية، بينما استقل العرب بالسياسة والرياسة، ولقد أدّت هذه الفئة دوراً فعالاً فاق في شدته الأحرار، وذلك بسبب نقمتهم على أسيادهم أحياناً كثيرة، فكانوا كثيراً ما يحاربون لصالح كل من خلع من الطاعة أو طلب الخلافة كالمختار ابن أبي عبيد في العراق،عندما ثار مطالباً بدم الحسين (عام ٦٦ هـ)... وبعضهم كان مصدراً للثقة عند سيده فكانوا يعهدون لهم بمهام كبيرة ولنا من طارق بن زياد، مثالاً وذلك عندما كلف بقيادة الجيش الذي فتح الأندلس.

أما أهل الذمة، وهم أصحاب الكتب المقدسة، والذمة تعني العهد والأمان والضمان وهم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، وسُمّوا بذلك لأنهم دفعوا الجزية أماناً على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ولقد اعتمد عليهم الأمويون في أعمال كثيرة كالأعمال الإدارية وتحصيل الجزية[٧].

ولقد وردت نصوص كثيرة نسبت إلى عهد عمر بن عبد العزيز تتضمن شروطاً تتعلق بلباس النصارى وأزيائهم واحتفالاتهم الدينية واستعمالهم للنواقيس وارتفاع بيوتهم وغير ذلك من أمور، إلا أن تلك النصوص لم تكن دقيقة وإن ما ورد في تاريخ الطبري الجزء الثالث، ص ٧١٢-٧١٣، هو الأقرب إلى الصدق والدقة،حيث ذكر الطبري عن تشابه ألوان العمائم خلال العصر الأموي المتخذ من قبل جميع الطوائف وإن ما حصل من تغيير في إلزام الطوائف من أهل الذمة (نصارى ويهود ومجوس)،

في ارتداء ألوان تميزهم عن المسلمين إنما هي إضافات متأخرة وليست من صلب العهد الأموي، وإنما تعود إلى عهد الخليفة هارون الرشيد أي الفترة العباسية[٨].

أما من الناحية الاقتصادي، فلقد نهجت السلطة الأموية سياسة ناجحة، وكان وضع المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية، حافزاً كبيراً لها أي (للدولة الأموية)، لكي تنمي مواردها العامة، ووسائل دفاعها البرية والبحرية وهذا أدى بدوره إلى نشاط الحركة التجارية، وإلى بروز دور التجار – الذين حلّت عليهم روح الجشع – في المجتمع آنذاك. وإن الموقع الجغرافي المتميز لبلاد الشام (مقر الخلافة الأموية) من جهة، وإلى طبيعة تجار هذه المنطقة وحبهم للمقامرة، أن أسهمت هذه الظروف إلى جعل تجار دمشق يتمتعون بثراء عظيم، سهل لهم لا سبل للعيش حياة مترفة قلما استمتع بها أحد من أفراد الشعب، ولقد قام بعض الخلفاء الأمويين بالكثير من الإصلاحات الاقتصادية ولعل أهمها ما قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، من إنشاء دار الصناعة للسفن التجارية والحربية[٩]، وتعريبه للنقد منطلقاً من بلاد الشام حيث أمر بضرب الدراهم والدنانير اعتباراً من سنة ٧٦ للهجرة، وكانت قبل ذلك أعجمية. أما أعمال الصناعات المختلفة وتحديداً الزراعية – حيث إن الأمويين لم يعملوا أبداً في مجال الزراعة، نتيجة قلة خبرتهم في الموضوع – فكانت أحوالهم المعيشية متدنية جداً، علماً أن الدولة كانت تنتج في مصانعها معظم ما يحتاجه الجيش والموظفون والحاشية من البضائع. ومن أهم الصناعات في الفترة الأموية الصناعات النحاسية، وصناعة أنواع المنسوجات كالتيل الدمشقي[١٠]، والحرير الطبيعي، الذي لم يكن يسمح بارتدائه إلا من قبل أفرد الأسرة الحاكمة والحاشية وكبار الموظفين، وبالرغم من تحريم الإسلام لارتداء الحرير إلا أنه كان في الواقع لا ينفصل عن القصر الأموي. وقد اعتبره مادة ترفيهية، واتخذوا الكثير من ملابسهم مقلدين في ذلك الأباطرة الروم، ولكن رغبهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق وفي هذا قال الأحنف: "لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف"[١١].

لم يُكتب للدولة الأموية أن تستمر طويلاً (٤١-١٣٢هـ)، ولقد ذكر المؤرخون والمحللون الكثير عن أسباب انهيارها وأهم هذه الأسباب:

١- ظهور المعارضة الداخلية بسبب التغيير في طريقة الحاكم الذي كان قائماً على أسس ديمقراطية، وأصبح في الفترة الأموية يورث للأبناء، حيث أدّى إلى نشوب حروب أهلية في مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية.

٢- انغماس بعض رجال الحكم والطبقة المقرّبة منها في الملذّات وابتعادهم عن تحمّل المسؤولية واهتمامهم بالكماليات وانصرافهم عن الاهتمام بأمور العامة.

٣- خوضهم لكثير من الحروب الداخلية والخارجية أدّى لهم إلى إهمالهم لجميع أنواع العلوم وإلى استنزاف أموال كثيرة كانت من الممكن أن تؤسس لحركة علمية وفكرية واجتماعية أكثر انفتاحاً ورسوخاً وحضارة.

وفيما يلي عرض شامل عن اللباس في الفترة الأموية:

لم يتغير اللباس في العصر الذي سبقه (العصر الراشدي)* إلا ضمن نطاق محدود خاصة في فترة أن الأمويين لم تكن طويلة (٤١-١٣٢ هجري)، بحيث تسمح لهم بالتغيير، إضافة إلى أن اللباس يحتاج إلى زمن يتعود عليه الناس لينتشر، فضلاً عن انشغال الناس بالفتوحات، وإذا ما حصل تغيير في اللباس فإنه اقتصر على البلاط الأموي، ولم يشمل جميع فئات الشعب، حيث إن حياة الزهد والتقشف التي ميزت العصر الراشدي أخذت بالانحسار وانتهت مع مراحل الفتوحات الإسلامية الأولى،

* عرف عن العرب في زمن الرسول (ص) والخلافة الأولى أنهم انصرفوا عن الاهتمام بلباسهم، ولزموا جانب التقشف والبساطة فكان الخليفة الراشدي يمشي في السوق وهو يلبس القميص الخلق المرفوع إلى نصف ساقه أو ثوب من الكرياس (وهو ثوب فارسي شبيه جداً بالقميص العربي ولكنه أغلظ)، وفي رجليه نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف، وكان عمالهم من الأمصار مثل ما حولهم، وإذا وفد أحدهم إلى الخليفة لبس جبة لم الصوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه (جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي ج ٣، ص ٦٠٩).

وبدأ الخلفاء يتطلعون إلى حياة جديدة فيها ترف وبذخ فاقتنوا اللباس الفاخر المصنوع من أحسن أنواع الأنسجة وأغلاها، فضلاً عن أن بعضهم اقتنى الألوف منها وكان يخصص بهذا الموضوع الأموال الكثيرة.

ومن أهم ملابس البدن الخارجية التي استعملها الرجال الأمويون:

١- **البردة**: كان الخلفاء في العصر الأموي يلبسون البردة في المواكب، وقد استعملت برود اليمن في بلاد الأمويين في الشام(١٢).

والبردة: قطعة طويلة من القماش الصوفي السميك، الذي كان يستعمله الناس لإكساء أجسامهم بها خلال النهار والمتخذة كذلك غطاء أثناء الليل.

أما لون هذا القماش، فهو أسمر، أو رمادي، ويبدو أن هذا النسيج كان في العهود القديمة مخططاً على الدوام(١٣)، وقد لبس الخلفاء الأمويون البردة اقتداء بالرسول (ص)، كان قد وهبها للشاعر كعب بن زهير بعد أن سمع قصيدته التي يمتدحه فيها وقد أطلق عليها نقّاد الأدب اسم "البردة".

وعندما مات كعب اشتراها معاوية من ورثته بعشرة آلاف درهم(١٤).

٢- **الجبة**: وهو لباس خارجي آخر عرفه الأمويون، فقد ذكر أن عمر بن عبد العزيز كان يصلي في جبة طيالسة ليس عليها إزار(١٥)، (والمقصود بطيالسة قماش غليظ وضخم).

والجبة هي رداء طويل مفتوح من الجهة الأمامية، لها ردنان قصيران ولا يصلان إلى المعصمين، بحيث يمكن رؤية الأردان التي تحتها، إن هذا الرداء كان أكثر قصراً من الجهة الأمامية منه في الجهة الخلفية، كان يعمل من القماش الأحمر أو الأزرق أو الأشهب(١٦).

ويذكر في أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك، عملت الجبب الموشاة ولبس الناس جميعاً جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل إلا أن يكون عليه ثوب من هذا النوع.

٣- **الملاءة**: لبس الخلفاء الأمويون الملاءة، حتى بلغ الترف ببعضهم أنهم كانوا يعطرونها بالروائح الزكية، ويذكر الأصفهاني(١٧): (إنه كان على الوليد الثاني ملاءة طيبة)، وقديماً كان هذا النوع من اللباس لا يلبسه إلا الرجال، وقد اكتسب المغنية الشهيرة عزى الميلاء لقبها الميلا لأنها كانت تلبس الملاءة وتتشبه بالرجال وجاء في (وصف مصر ، ج١٨، ص ١٢٠)، "الملاية شقة من القماش القطني المخطط بخطوط زرقاء وبيضاء، طولها ثماني أقدام، وعرضها أربع أقدام، وتستعمل استعمال المعطف (الإزار)" وفي كتاب بوكوك (وصف الشرق، ج١، ص ٣٢٨-٣٢٧)، يقول: "وهي عادة سارية على وجه التقريب بين الأعراب والمسلمين الذين وجدوا في شبه الجزيرة العربية في ارتداء إزار أبيض أو أسمر، وفي الصيف يتخذونه من القطن الأبيض والأزرق، ونصارى الريف سيتبعون على الدوام هذه العادة).

وهم يغطون الذراع اليسرى بإحدى الزوايا، ويطرحون الثوب على الوراء، ويجعلونه يمر تحت الذراع اليمنى، ثم فوق الصدر وعلى الجسم ويرمي سائره على الذراع اليسرى، بحيث يجعلونه يتدلى على الظهر والذراع اليمنى تبقى مكشوفة بغية استعمالها بحرية(١٨)، (وحسب دوزي، ص ١٥٨) فإن الملاءة كانت تدعى الريطة، إذ كانت قطعة واحدة ولم تكن قطعتين).

٤- **البرنس**: وهو واحد من قطع اللباس الخارجي الذي ورثه المجتمع الأموي عن أسلافهم فقد ذكر: "أن عبد الرحمن بن الأسود كان يسجد في برنس طيالسة ويداه فيه أو في ثيابه)(١٩)

والبرنس وطبقاً لرأي القاموس (ط كلكتا، ص ٧٣٩)، يكون معناها قلنسوة طويلة أو كل ثوب رأسه فيه، دراعه* كان أو جبة أو ممطراً**.

ويزودنا البخاري (في صحيحه، ج٢، مخ ٣٥٦، ص ١٦٧)، بفصل من هذا الكتاب معنون: باب البرانس، وأرى أن كلمة برنس مستعملة فيه كذلك بمعنى طاقية، وإليكم كلمات البخاري: وقال لي مسدد حدثنا معتمر (شخص يقوم بأداء العمرة)، سمعت أبي قال: رأيت على أنس برنساً أصفر من خز. حدثنا اسماعيل قال: حدثني أن رجلاً قال: يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب؟ قال رسول الله (ص): لا تلبسوا القميص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف إلا أحد لا يجد النعلين....إلخ.

إذ إن هذه الكلمة قد عنيت في الأزمنة القديمة طاقية لتشير إشارة - لا سبيل إلى الاستراية في أمرها- في العصور الحديثة، إلى معطف ضخم له قلنسوة.

ملابس البدن الداخلي للرجال:

١- **السروال**: وهو من ألبسة البدن الداخلية للرجال. وليس السروال في الأصل عربياً، وإنما هو لباس دخيل، لعله انتقل إلى العرب عن فارس، وهي مشتقة من الفارسية القديمة (زردارد)، وهي في الفارسية الحديثة (شلوار)[٢٠].

قال أحد الأعاجم يفتخر على العرب في هذا المعنى (وإنما كانت رماحكم من مران وأسنتكم من قرون البقر... ولا تعرفوا الأقبية ولا السراويلات...).

ويظهر السروال في قول الجاحظ[٢١]: (إن القميص والسروال هما الشعار وسائر الثياب الدثار).

---

* الدراعة وكانت تشير في المغرب إلى الرداء الواسع المسمى كذلك الإزار، وقديماً لم تكن تعمل إلا من الصوف، ويصفها المقريزي بأنها رداء مفتوح من الجهة الأمامية أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى. انظر دوزي، ص ١٤٥-١٤٦..

** الممطر وهو ثوب يرتدى من المطر وهو معمول من الصوف، دوزي، ص ٣٢٩.

أما عن شكل السروال فهو ماله حجزة وساقان*، وتتميز في أنها تستر من الجسم أسفله، وتكون مفصلة ومخيطة وهي على أنواع، بحسب هيئتها، منها سراويل أسماط أي غير محشوة، وسراويل مخرجة ومفرسخة وهي السراويل الواسعة(٢٢).

٢- **القميص**: وهو من ألبسة البدن الداخلي للرجال، وقد لبسه الخلفاء والشعراء، ويذكر ابن سعد(٢٤): (إن عمر بن عبد العزيز كانت قميصه وجبابه فيما بين الكعب والشراك)، ولقد لبس القميص كذلك عامة الشعب ولكن من أقمشة رخيصة الثمن كالقطن والكتان.

وامتازت القمصان بأن لها فتحة من الأمام تصل مباشرة إلى السرة، ويروي الأصفهاني في كتابه (الأغاني، ج٩، ص ١٠)، (أن الفرزدق جاء مرة عليه قميص أسود قد شقه إلى سرته)، ويعدّ القميص من لباس الصيف والشتاء وكان الخلفاء يقتنون عدداً كبيراً من القمصان فقد وجد عند هشام بن عبد الملك ١٢ ألف قميص وعشرة آلاف تكة**، وقيل إن أغلبها كانت موشاة***، وكانت كسوته إذ حج تحمل على سبعمائة جمل(٢٥).

ومن ألبسة البدن الداخل نوع يطلق عليه اسم (التبان).

- التبان سروال صغير مقدار شبر يستر العورة(٢٦)، ويبدو أنه في هذا العصر كان لباساً مشتركاً بين الرجال والنساء، في النقوش التي تزين جدران حمام قصير عمرة رسم رجال ونساء يقومون بحركات رياضية، يرتدي معظمهم التبابين. شكل (١١- ١٢).

---

*السروال يشبه تماماً ما يعرف في أيامنا هذه بالبنطلون.

**تكة: التكة رباط السراويل وجمعها تكك، وكانت أحياناً تصنع من الإبريسم (الحرير)، -ابن سيده- المخصص، ج٤، ص ٨٤.

***الموشى: وشي الثوب حسّنه بالألوان ونمنه، الوش: نقش الثوب وزخرفه.

ويعتبر دوزي أن كلمة التبان محرفة عن كلمة (تنبان)، التي تعني بالفارسية سراويل من جلد.

ومعظم التبابين نجدها بسيطة خالية من أية زخرفة، وقد ورد في كتاب الجاحظ البيان والتبيين أن العرب لم تستسغ لبس التبان، حيث ورد على لسان أعرابي: (أنا -والله- العربي لا أوقع الجريان ولا ألبس التبان)، ولهذا فالمعلومات التاريخية التي وردت عن هذا اللباس ضئيلة، ويبدو أن سبب إحجام الرواة عن ذكره هو عدم شيوعه بين الناس من الطبقة العاديةـ، وأنه لباس محدود الاستعمال، ويهمّ الخاصة بالدرجة الأولى، وعلى العموم، التبان عبارة عن لباس قصير يستر العورة ولا يتجاوز طوله الشبر.

مكملات الأزياء الرجالية:

اتخذ الفقهاء والخلفاء والقضاة والولاة وغيرهم من الناس عدة أنواع من ألبسة الرأس وأهمها:

العمامة:

ويبدو أن العمامة استعملت في هذا العصر في إدخال الرهبة في نفوس العامة، كما فعل الحجاج عندما قدم إلى الكوفة، ويدلنا عليه استشهاده بالبيت التالي:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني[(٢٧)]

وقد وصف أبو الأسود الدؤلي العمامة فقال: "هي جنة في الحرب ومكنة في الحر ومدفأة من القر ووقار من الندى، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة، وهي بعد من عدادات العرب"[(٢٧)].

وامتازت عمائم الولاة بأنها كانت من نسيج الخز الأحمر ويذكر الأصفهاني: "أن الحجاج أول من استعمل العمائم المصنوعة من الخز الأحمر ثم انتشرت بعد ذلك بين أهل العراق".

واتخذ الناس القلانس إلى جانب العمائم، وقد تميزت قلانس هذا العصر بطولها يذكر الأصفهاني: "إن الخليفة هشام بن عبد الملك في طريقه إلى الحج وقف له حنين يظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له وعليه قلنسوة طويلة".

والقلنسوة لباس مستدير مقور بشكل نصف كرة مبطن غالباً من الداخل وتختلف القلانس بأطوالها وأشكالها(٢٨).

وترد إشارات إلى أن الحكام في هذا العصر كانوا يرغبون في تمييز أنفسهم عن باقي الرعية، وأن يتزيوا بزيٍ لم يجرؤ أحد من الرعية على مثله، فيذكر الجاحظ في كتابه (التاج، ص ٤٧): "إن الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طوية، لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها". والطويلة هي غالباً الطرطور، وحسب دوزي تشير كلمة طرطور إلى طاقية عالية.

الطيلسان:

وقد ورد في كتاب الخراج – عن أبي يوسف، ص ٧٢ بأن الناس وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز واستمروا في لبس الطيلسان، غير أنه منع أهل الذمة من لبسه. وحسب دوزي –معجم الملابس– ص ٢٢٩: أن الطيلسان هو نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الرأس والكتفين أو يلقى أحياناً على الكتفين فقط وهو خاص بالفقراء أو بأساتذة الفقه والشريعة.

ويستخلص من هذا الترف الذي كان عليه خلفاء بني أمية في اللباس، فقد لبسوا الحرير عل أنواعه وتفتنوا بأنواع الأنسجة وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس فبذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق، وفي هذا المجال قال الأحنف: "لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف"(٢٩).

وقد أقبل ولاة المسلمون في العصر الأموي على المنسوجات يسرفون في اقتنائها ويحملون النساج على التسابق في إجادة نسجها.

وابتداع الأنواع المختلفة منها هذا وأن الألبسة العربية استمرت في زمن الأمويين في التطور نظراً لرقي مستوى المعيشة، والترف الذي توفر للطبقة الحاكمة والطبقة البرجوازية المحيطة بها، فازداد استعمال الألبسة المترفة كما دخلت أساليب متنوعة من البلاد المفتوحة إلى المجتمعات العربية، ومما يؤيد تأثر الأمويين بالألبسة الفارسية الصور التي عثر عليها في قصر الحير الغربي، الذي يعود تاريخه إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، حيث وجدت صورة امرأة تضرب على العود ورجلاً ينفخ في ناي (شكل ١)، فكل شيء في هذه الصورة يشير إلى أصله الفارسي)[٣٠].

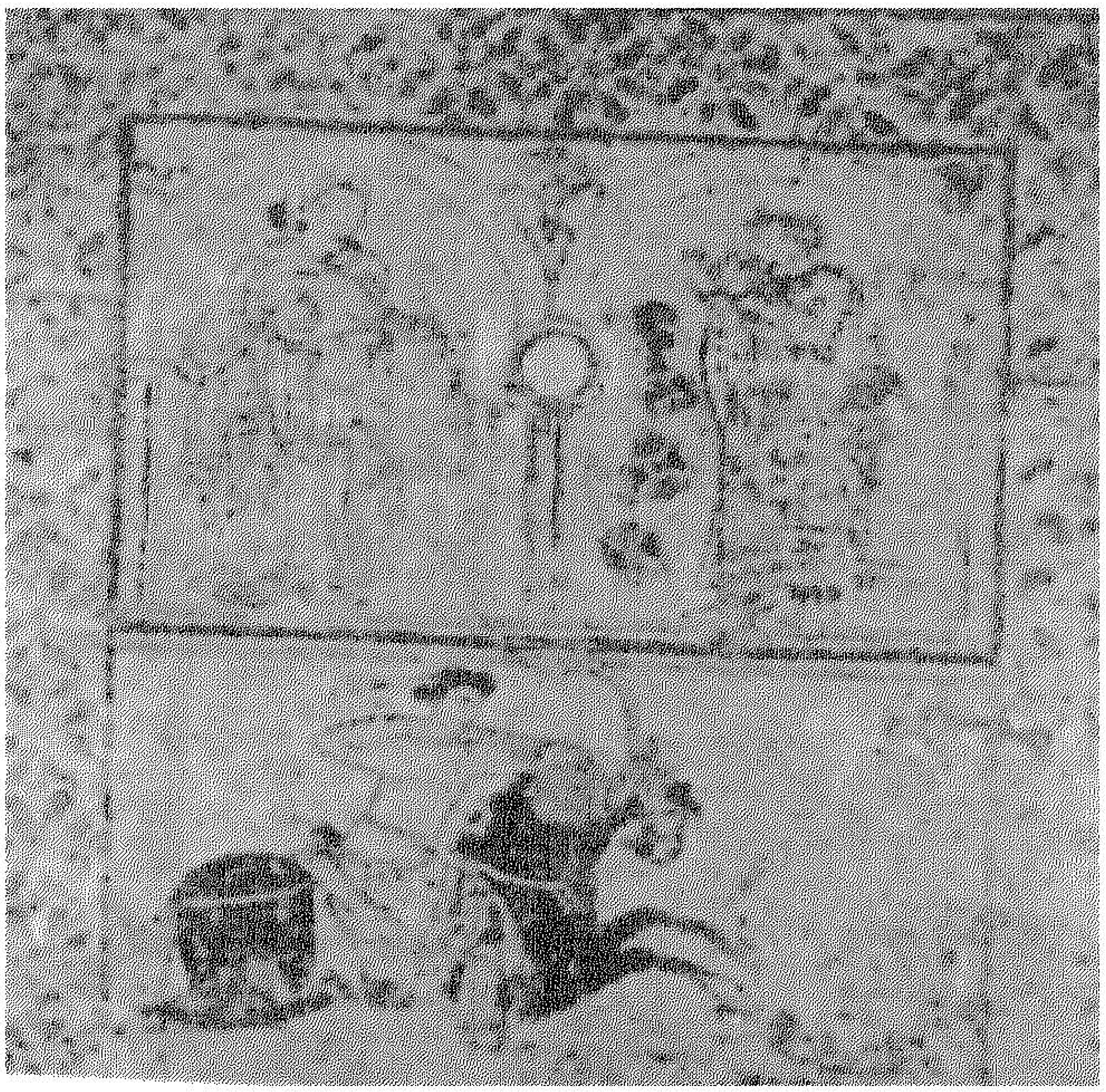

شكل ١

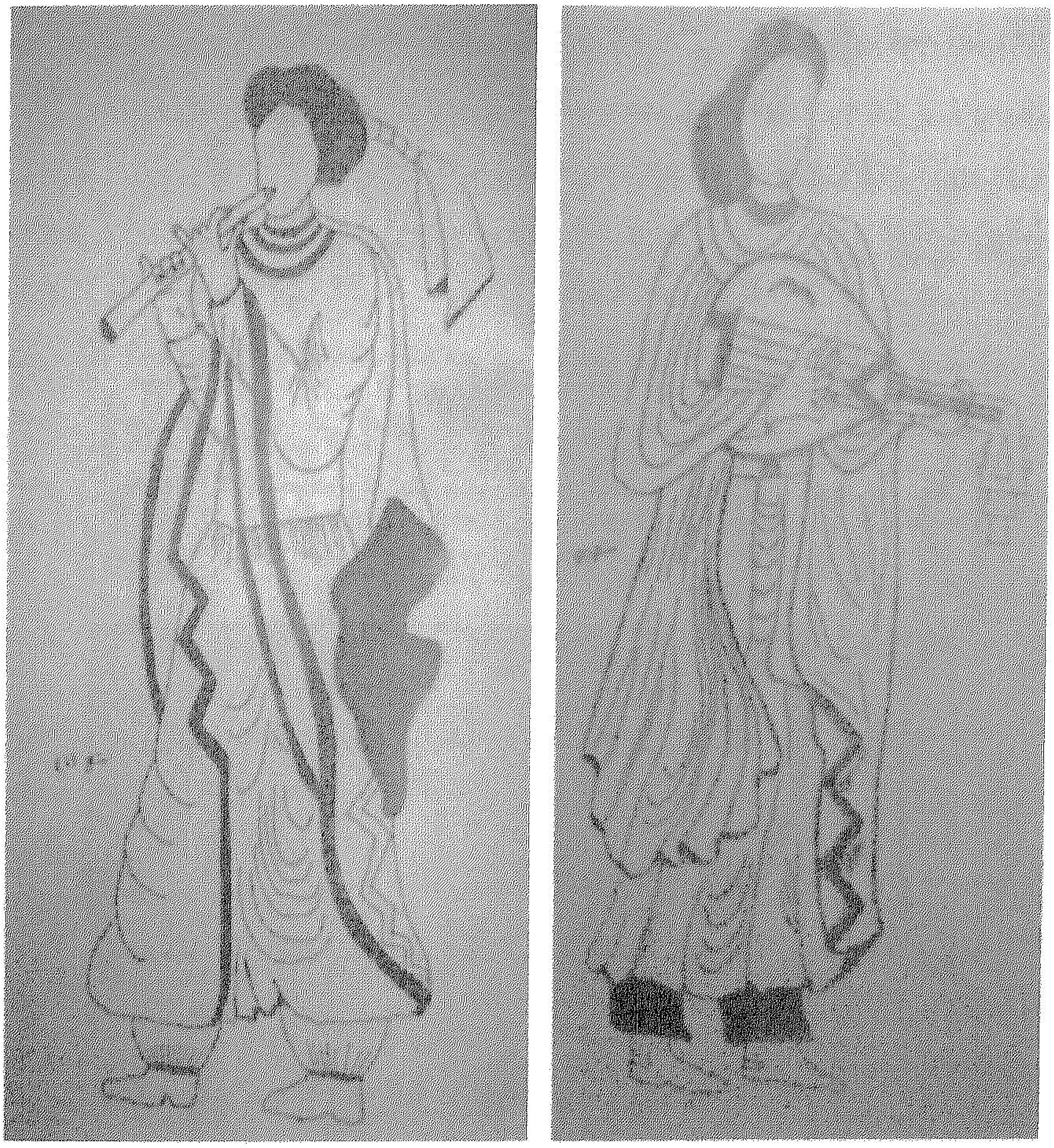

تفصيلات شكل ١ امرأة تعزف على العود ورجل يعزف على المزمار وتبدو على الأزياء المؤثرات الفارسية

وفي زمن الأمويين كانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في صور الخلفاء وتسمى دور الطراز.

والطراز كلمة معربة من الفارسية ومعناها في الأصل التطريز، ومن ثم دلت على الرداء المحلى بأشغال التطريز المتشابكة وخاصة الرداء المزين بالأشرطة الطرزة عليها كتابات يرتديه الحاكم أو أي شخص من الأعيان وقد تطور معنى الطراز من الشريط المطرز بالكتابة إلى معنى آخر فرعي هو الشريط المكتوب عليه سواء كان الشريط على حافة الرداء أو في الوسط بوجه عام. وكانت هذه الكتابات ترسم باللون الأحمر أو الأخضر. وكان القائم على النظر في دور الطراز يسمى (صاحب الطراز)، ينظر في أمر الصباغ والآلة والحياكة(٣١).

أما بالنسبة لألبسة النساء في العصر الأموي فقد كانت كما يلي:

١- **التبان**: وهو من ألبسة البدن الداخلية (سبق شرحه في ألبسة البدن الداخلي لدى الرجال)، وهو نفسه النسائي إلا أنه يختلف في الخامات.

٢- **القميص**: ما يلبس على الجلد أو ما يلي الجلد من اللباس، ويكون من صوف أو قطن، وهو من الملابس الرئيسية عند المرأة.

والقميص عبارة عن ثوب من قطع عديدة ومخيطة، وللقميص أكمام.

أما طول القميص فكان يختلف منه ما يصل إلى نصف الساق ومنه ما يمس الأرض، والأردان تصل حتى أطراف الأصابع.

أما ياقة القميص في العصور الإسلامية الأولى فقد كانت تقرب من شكل الهرم الناقص، فذكر أنها تضيق في الأعلى وتتسع في الأسفل.

أما القميص فغالباً لونه أبيض – من قماش قطني- خام من الشام – أو من الحرير الملون وتمتاز هذه القمص بالأردان الطويلة – ويذكر القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"، مجلد ٣، ص ٢٧٤- بأن طول الكم أصبح عشرين شبراً في العهد الأموي.

٣- **السروال**: وهو نفس السروال الرجالي، إلا أن سراويل المرأة كانت أطول وأوسع، ولكنها تكاد تختفي تحت سائر الألبسة، وكانت تخاط عادة من

الحرير الملون الرقيق الزاهي، بالنسبة لنساء الطبقة الحاكمة والأغنياء، وقد لبسته كذلك نساء جميع الطوائف والفئات الاجتماعية أي أنه كان من قطع الملابس الشعبية.

٤- الإزار: عرف الإزار على نطاق واسع وفي أغلب المناطق العربية والإسلامية منطلقاً من فترة ما قبل الإسلام، وعرف الإزار على أنه من لباس النساء بالدرجة الأولى، وحسب دوزي: "فإن الإزار هو ثوب واسع مكون من قطعة واحدة في العادة، تلتف به المرأة فلا يظهر من هيئتها شيء، وكانت النساء ينتقبن بنقاب سميك يستر الوجه إلى قصبة الأنف ولا يرى من وجههن إلا العينان.

وقد تفننت نساء هذا العصر في لبس الإزار فوضعن في الزنانير وهو أمر لم يكن معروفاً في هذا العصر، ويروي الأصفهاني(٣٢): "إن أول من عقد من النساء في كرف الإزار أو خيط إبرسيم ثم تجعله في رأسها لا يتحرك هي متيمة الهاشمية المغنية البارعة في عهد المأمون. وكانت تعليمات الدولة تقتضي بعدم السماح للناس دخول الحمامات دون إزار(٣٣)، والمشهور عن الإزار أن يلف على أسفل البدن لفاً ويلفح به أعلاه، ويعقد عند المحزم عقدة يسمى موضعها (الحجزة)، وأنه من ألبسة النساء والرجال.

إلا أنه أحياناً: اتخذ من قطعتين أيضاً: القطعة السفلى عبارة عن مرط (جيب)، مزود أعلاه بحزام ضيق يشد القطعة على وسط الجسم.

أما القسم العلوي: فيكون قصيراً ويربط من أطرافه السفلى على الخصر أيضاً، ولا تعرف للإزار أكمام في جميع عصور لبسه. وكانت نساء العرب إذا خرجن من بيوتهن لزيارة لبسن فوق الثياب إزاراً ذا أهداب، كان منقوشاً برسوم أحياناً، ويصفه امرؤ القيس قائلاً:

كأن دمى سقف على ظهر مرمر كسا مزيد الساجوم وشياً مصورا

وقال أيضاً:

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرجل

والمرط بحسب ما جاء في المخصص لابن سيده، (ج٤، ص ٧٧): بأن المرط هو ملحفة من خز وصوف يؤتزر لها.

أما ألوانه فالأكثر شيوعاً هو الأبيض (والأبيض شعار بني أمية)، ثم الأزرق، ثم اللون الذي تغلب عليه الحمرة والصفرة. أما النسيج الذي يصنع منه الإزار فمنه الصوف، والقصب، والخز، ومنها القماش والرخيص ويسمى بالفوطة(٣٤).

وفي العصر الأموي أدخل على الإزار شيء من التطور بضرب نم الخياطة فقد ورد في أخبار حبابة جارية يزيد بن عبد الملك، أنهم رأوها مؤتزرة بإزار خلوقي*، وقد جعلت له ذنبين(٣٥).

والمعروف أن الإزار كان يلبس فوق جميع الألبسة كما أسلفنا أو فوق القميص وحده، وحينما طوِّر واعتني به على أيدي النساء في العصر الأموي، بصورة خاصة فقد كن سيضعنه أيضاً على رؤوسهن أو يلقينه على وجوههن وذكر أن هذا الإزار كان يشد إلى وسط الجسم بوساطة زنار، وهو نوع من الحزام، والزنار هذا لم يسلم من التجميل والتحلية بشكله أو باختيار ألوانه وطريقة وضعه على الجسم أو تزيينه بالكتابات والأشعار، وخاصة ما كان منه ملبوس الجواري.

٥- **الملاءة**: لقد ذكر عن الملاءة بأنها الملحفة - والملحفة والملحف هو اللباس الذي يكون فوق سائر الملابس، من دثار البردة ونحوه، وكل شيء يتغطى به فإنه ملتحف به، والملحفة دعيت أيضاً الملاءة فإذا بطنت ببطانة أو حشيت

* خلوقي: الخلوق يتخذ من الزعفران وعليه الحورة والصفرة لونه كلون الخلوق.

فهي عند العوام ملحفة[٣٦]، وقد لبست العربيات غالباً الملحفة فوق القميص ولبست على الإزار أيضاً[٣٧].

أما تاريخها فيعود إلى فترى ما قبل الإسلام وخلال الفترة الإسلامية حتى ما قبل ما هو إلى يومنا هذا.

وقد أطلق اسم الريطة على الملاءة إذا كانت واسعة، وإذا كانت من قطعة واحدة ولم تكن لفقتين، وقيل الريطة كل ملاءة غير ذات لفقتين كلها نسيج واحد، وقيل كل ثوب لين دقيق.

ووصفت مرة على لسان الشاعر (سلمى بن ربيعة) القائل:

والبيض يرفلن كالدمى　　في الريط والمذهب المصون

ويريد بالريط بالمتبخترات في الريط وهي الملاءات الواسعة، والذهب المصون، يراد به الثياب المطرزة بالذهب فضلاً ولوعهن بالثياب المصورة بأنواع النقوش، ووصف لون الملاءة بأنها صفراء أو حمراء.

٦- **الغلالة**: ويقال لها الشعار والغطاية، وتذكر كذلك بالعربية الفصحى وتسمى الغلالة، بالكسر، وهو ما يلبس تحت الثوب، وفي العصر الأموي اقتصر في لبسته النساء على الجواري بالدرجة الأولى في مناسبات اللهو والطرب والرقص وفي المجالس الخاصة، مما يتفق وطبيعة تلك المناسبات، وجاء في كتاب الأغاني للأصفهاني عن الغلالة وارتداء الجواري لها أن (سليمان بن عبد الملك كان مستلقياً على فراشه في الليل وجارية له على جنبه وعليها غلالة ورداء معصفران).

وينورنا دوزي في مؤلفه عن أبيات ذكرت في وصف الغلالة:

أقبلت في غلالة زرقاء　　لازوردية بلون السماء
فتأملت في الغلالة منها　　قمر الصيف في ليالي الشتاء[٣٨].

ومن هذا يظهر أنه اتخذ منها ألوان عديدة وهي على ما يبدو كانت شفافة دائماً.

أما الحلة فثوب ظاهره ثوب آخر وغالباً ما يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً يظهر ما يليه أو ما تحته.

وذكر في نص آخر في معرض الكلام عن غلالة الرجال: (يا سيدي اخلع ثيابك وعمامتك والبس هذه الغلالة الصفراء واجعل هذا القناع على رأسك حتى تحظى بالمأكول والشراب).

وفي مكان آخر ذكرت الغلالة الزرقاء للرجل أيضاً. ومن هنا نستنتج أن الغلالة كانت ملبوساً رجالياً ونسائياً. ومن الملابس الداخلية ويقتصر لبسها في أوقات الخلوة، وعرفت كذلك باسم التخفيفة إشارة إلى الثياب الخفيفة وذلك بحسب ما جاء في معجم دوزي، ص ١٦٠-١٦٢.

٧- **الجبة:** وهي أيضاً من ضروب الألبسة المستعملة لما فوق الملابس وللجبة كمّان وذكر أنها تلبس فوق القميص وهي لباس واسع كالعباءة، وقيل إنها ضرب من مقطعات الثياب تشمل الجسم وتجمعه فيها.

والجبة الأكثر شيوعاً (المكفوفة الجيب والكمّين) والمعروف عن أكمام الجبة أنها موضع اهتمام خاص، فقد بولغ في سعتها وأصبحت أداة لحمل كثير من الأشياء فيها، وكان ذلك بالنسبة للناس والرجال على حد سواء، وهو علاوة على استعمال النساء لها كأداة لحمل الطيب والزهر [٣٩]، ويظهر أن الميل إلى الفضفضة في أكمام الجبة لم يكن راجعاً فقط إلى الاستفادة منها -كجيوب- ذات نفع خاص، بل استخدمت في نواح تجميلية أيضاً وذلك لما يضفي توسيع الأكمام من أناقة خاصة على الملبوس.

٨- **ألبسة الرأس:**

أ- **العمامة:** لقد تفننت النساء في طريقة لف العمامة وشدها على الرأس، وكانت طرق لفها ودرجات إرخائها حسب المناسبات.

ولقد بالغت النساء في تكبير عمائمهن، واستلزم الأمر فترة من الفترات منع هذا الإفراط والحد من هذه المبالغة، كذلك اتخذت البدويات من العمائم لباساً للرأس وتؤخذ هذه التقليعة جانباً من جوانب تأثر النساء بالرجال، في عالم سادت فيه في بداية صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، علاقات اجتماعية تميز رؤية البعض للبعض الآخر، ولقد اتخذن من الشنابر (٤٠) لفة الرأس، وهي عبارة عن شريط من الحرير الأسود أو من الأحمر القاتم وعرضه شبران طوله نحو سبعة أذرع تلفه النساء على رؤوسهن فوق العصابة، بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثاني من مؤخره.

عرف من أنسجة العمامة الوشي، وكذلك عرف الديباج والخز قماشاً لعملها أيضاً، ولقد تفنّن الأمويون باتخاذ لون العمامة لينسجم مع لون ثيابهم.

ب- **المقنعة**: وهي مشتقة من القناع الذي يراد به تغطية الوجه، وقد وصف لبسه بهذا الشكل في ألف ليلة وليلة، وكانت تصنع من الموسلين، وكانت الجزء العلوي من المقنعة على الرأس تحت الإزار، والباقي منها يغطي الوجه وينزل ليصل حتى المحزم (٤١).

إن المقنعة والقناع بهذا الشكل كان معروفاً من قبل النساء العربيات عامة، وعلى نطاق واسع جداً منذ فترات الإسلام الأولى، وورد النقاب القناع على مارن الأنف، وقيل إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينها فتلك الوصوصة، فإن أنزلته دون ذلك إلى المحجر فهو النقاب، فإن كان على طرف الأنف فهو اللثام.

جـ- **العصابة**: وهي من ألبسة الرأس النسائية والرجالية معاً، وهي عبارة عن قطعة قماشية مزركشة بالألوان اتخذ لها الظرفاء كتابات وتعابير تعتبر من أنواع الطراز.

وكان إنجاز هذه الكتابات يتم بوساطة نسيج خيوط مغايرة ألوانها لخيوط ولون العصابة، واستخدمت بصورة خاصة الخيوط الذهبية والفضية بكثرة، وعرفنا مثلاً عن عصابات الجواري تعابير مكتوبة هي في الأصل قرآنية ومنها أشعار غزلية، ومن أمثال ما يخص الشعر الغزلي المطرز على عصابة جارية وردت في الأبيات التالية:

تمت وتم الحسن في وجهها فكل شيء ما سواها محال
للناس في الشهر هلال ولي في وجهها كل صباح هلال

كذلك زينت هذه العصابات المتخذة من قبل الجواري من النساء بخيوط هندسية منفذة بواسطة قطع من الأحجار الكريمة، وعرف كذلك فيما بعد الكتابة عليها بواسطة خيوط الذهب(٤٢).

٩- ألبسة القدم:

عرفت صناعة الجلود اعتباراً من الفترات السابقة ظهور الإسلام، وعرفت من الحرف الخاصة بهذه الصناعة الدباغة، كذلك عن الآلات والأدوات، التي كانت مستخدمة في صناعة الجلود.

وكان لطبيعة المناطق الجغرافية وتنوعها السبب الرئيسي في أشكال وتنوع ألبسة القدم.

ثم تأتي الأسباب الأخرى ومنها الاقتصادية، التي تتحكم في نوعية المواد الأولية وما يتممها في الغالب من مكملات قد تصل إلى حد استخدام الحلي من الجواهر والقطع الذهبية والأحجار الكريمة زينة لها كعنوان لإظهار برجوازية لابسي مثل هذه الأنواع من الأحذية(٤٣)، ومن أكثر ألبسة القدم شيوعاً في البلاد الإسلامية:

أ- الخف:

وهو نوع من - صندل - والتسمية خف تستعمل لكل أنواعه، سواء الخف البسيط، أو الخف المزركش بالذهب والمرصع بالأحجار الكريمة. ولقد لبس الخف الرجال والنساء، وكعادة النساء في إظهار أنفسهن بمظهر مغاير، فقد اتخذن فوق الخف خفاً آخر في أرجلهن يسمى جرموق (ج٢، مج ٨٥، ص ١١١)، بأنها الخف الواسع الذي يلبس فوق الخف الأول(٤٤).

ويظهر أن النساء لم يقفن عند هذا الحد في محاولاتهن، فقد اتخذن ألواناً للخف، وذكر من ذلك في العصر الإسلامي الأول، مثلاً، اللون الأحمر والأصفر، وهناك على الأغلب ألوان أخرى، ولقد حاولن إظهار الانسجام بين ألوان الخف وبين قطع ملابسهن الأخرى.

ب- النعال:

إلى جانب الخف استخدموا أنواعاً عديدة من النعال، ومفردها نعل، والنعل: قطعة من الجلد المستوية يكون حجمها على قدر حجم القدم وتشد إلى القدم بوساطة أشرطة جلدية في الغالب.

ومثل الخف، عرفت النعال أشكالاً عرفت منها: المشعرة أي ذات الشعر، والملمعة، التي فيها لمع: سواد وصفرة(٤٥).

إن إمرار الأشرطة الجلدية وغيرها في جسم النعل لتثبيته على القدم كان يتم بوساطة ثقوب خاصة كانت تعرف بـ (الخرب) والشريط الذي يدخل فيه كان يسمى بـ (الشسع).

وكانت أشرطة النعال تعقد أحياناً في مؤخرة القدم، ويشبه النعل عند ذاك الصندل المعروف عندنا اليوم.

جـ- القباقيب:

وهي تشبه من حيث المبدأ النعال المعروفة ما عدا استخدامها لمواد أولية أخرى غير الجلد وتُعرف أن مواد القباقيب الأولية الرئيسية كانت من الأخشاب التي لم تخلُ من التنويع والتفنّن من حيث إدخال مواد غريبة في صناعتها كالتطعيم بالعاج والعظم والأسلاك المعدنية، هذا إضافة إلى الأشرطة الجلدية التي تستلزم ربط القباقيب إلى القدم(٤٦).

يتضح مما تقدم أن الألبسة في العصر الأموي قد تميزت عن الألبسة في عصر صدر الإسلام بميزتين أساسيتين:

أولهما تأثرها بألبسة الدول التي فتحها المسلمون ومنها البيزنطية والساسانية والهند ولبعض دول آسية الوسطى وكذلك الصين.

ثانيهما الترف والتنوع والبذخ في الألبسة نتيجة تحسّن الأحوال الاقتصادية بشكل جعل خلفاء بني أمية والطبقة البرجوازية وطبقة التجار يعتنون بملابسهم ويبذخون في خياطتها وزينتها.

وبعد استعراضنا الأزياء في العصر الأموي من خلال المراجع الأدبية والتاريخية ستتطرق الدراسة إلى إعطاء فكرة موجزة عن بعض ما تبقى من أوابد تحمل في طياتها بعض الفنون والرسومات التي وجدت في الفترة الأموية.

فمنذ بداية العهد الأموي الذي امتد من عام ٦٦١ إلى ٧٥٠م، وكان الإسلام قد استقر رغم متابعته الفتوح، وابتدأ عهد إنشاء الدولة والحضارة الإسلامية في عهد عبد الملك ابن مروان، وأولاده الذي أقاموا صروح العمارة الإسلامية الأولى، التي قام سكان بلاد الشام بتنفيذها وفق الخصائص المحلية، وكانت تلك بداية تكون فن العمارة الإسلامية والفنون الأخرى(٤٧).

ولقد عانى الفن التشكيلي العربي من اضطهاد القائلين بتحريمه الكثير من العنت والتعسف فأوردنا بذلك إلى قرابة سبعة قرون عجاب لم نعرف فيها من الفن غير ما تتناقله الفئات البسيطة من الناس وعلى شكل أعمال يدوية بدائية(٤٨).

أما في مجال العمارة فلقد بنى الأمويون الكثير من القصور والحمامات سواء في بادية الشام، أو في إقليم شرق الأردن، وكانوا يخرجون إليها لتمضية بعض أوقات راحة وهدوء في كل عام، ولقد بلغت سبعين قصراً اندثرت جميعها، وذلك لأن بناءها كان غالباً من الطين أو التراب المشوي، لم يستطع أن يقاوم عوامل الطبيعة، وبيئة دمشق الرطبة(٤٩).

وسنعرض فيما يلي ما تبقى من هذه القصور التي ما زالت بحالة جيدة ويمكن العودة إليها ودراسة الأزياء من خلال جدارياتها أو أعمال النحت فيها ومقارنتها مع ما جاء في المراجع الأدبية والتاريخية.

١- قصر الحير الغربي: وقد عثر عليه قرب تدمر وتم نقله إلى متحف دمشق الوطني، وهنالك صورة جدارية وردت في بداية البحث (شكل ١)، تحوي هذه الجدارية صورة لعازف وامرأة تبدو على أزيائهما المؤثرات الفارسية التي دخلت على الأزياء الأموية آنذاك.

٢- قصر المفجر: ويقع شمال أريحا بفلسطين، وقد عثر في موقع القصر على تمثال وهو غالباً باني هذا القصر وهو الخليفة هشام بن عبد الملك (شكل ٢)(٥٠).

٣- قصير عمرة: (سكنى وحمامات أموية)، باني هذا القصر هو يزيد بن الوليد. إن أكبر أهمية لهذا المبنى، يكمن أساساً في الزخارف التي حفظت في جدرانه، والتي تعطينا فكرة عن تفاصيل مختلفة ذات أهمية كبيرة، وتعكس لنا حقائق عن هذه المباني الصغيرة والهامة من العهد الأموي وكذلك بالنسبة إلى استخدامها والعمل الذي أدّته(٥١).

منحوتة هشام بن عبد الملك وهو يرتدي الجبة، ويبدو أن الجبة مطابقة لوصف الجبة الرجالية كما وردت في البحث

فلقد حفلت الجدران برسوم مشاهد الصيد، وكذلك مشاهد استحمام، وتمارين رياضية وأوضاع مصارعة ومنازلة، وبعض الصور لآلهة أسطورية إغريقية·

ومن بين تصاوير قصير عمرة، التي كانت تحلي جدران القصر وسقوفه وتتمثل فيها مجموعة من الرسوم الآدمية، ومن بينها رسم ستة مستطيلات داخل كل مستطيل رسم أشخاص يمثلون عدداً من الصناعات اليدوية كالنجارة والحدادة وأعمال البناء[٥٢]، ومعظم الأشخاص يرتدون زياً واحداً يتمثل في نوع من القمصان التي تصل إلى الركبة وذات فتحة أمامية ومقورة من ناحية الرقبة ولها أردان تصل إلى منتصف العضد، والجزء الأسفل من هذه القمصان يزدان بزخارف قوامها شريط ينخفض ويرتفع فيقسمه على مثلثات بعضها قائم على قاعدتها والبعض الأخر قائم على أحد زواياه (شكل ٣ + تفصيلات ٣)·

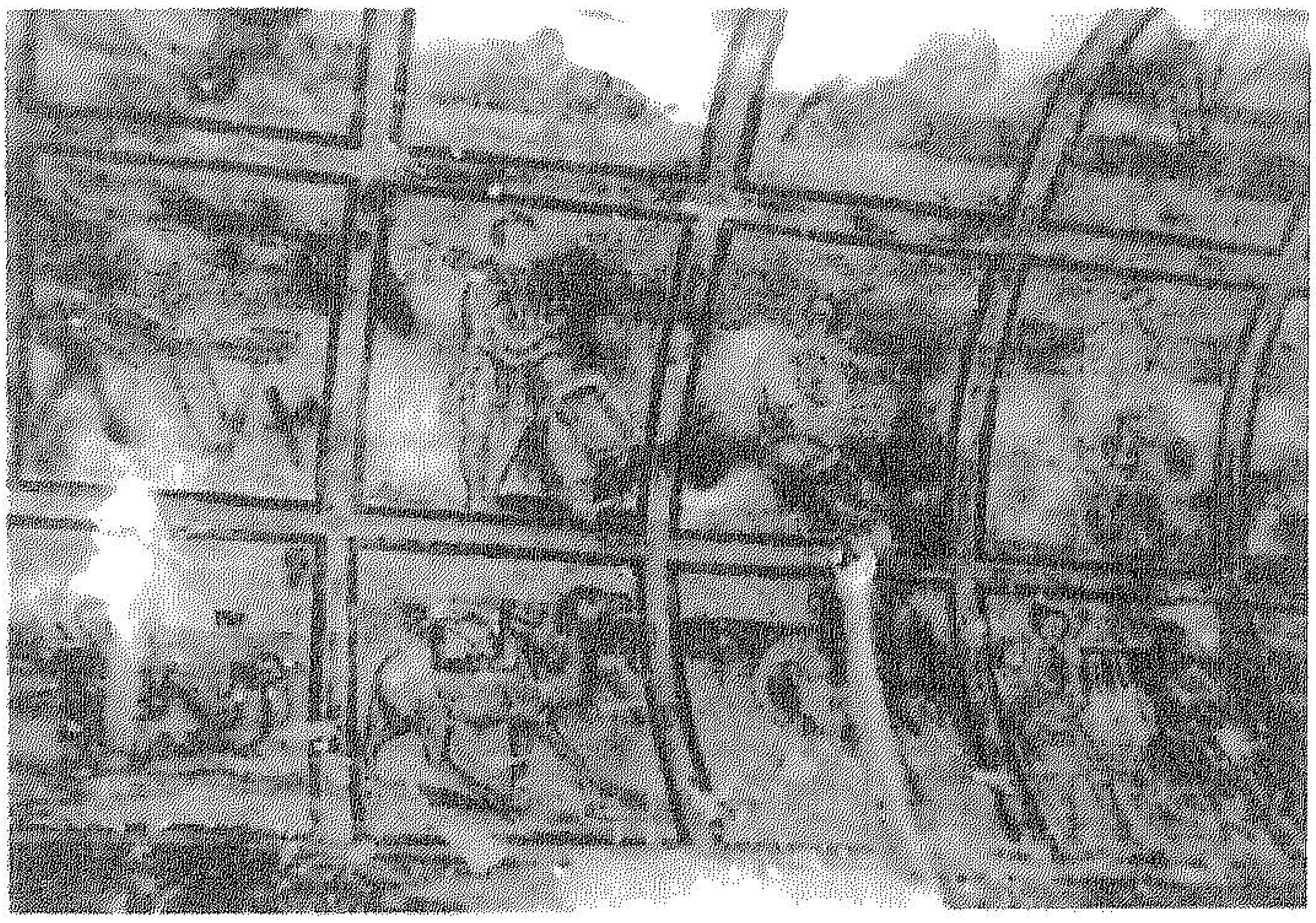

منظر عام لقنطرة الرواق الأيسر يمثل أشخاصاً من الطبقة العاملة ويرتدي معظمهم القمصان القصيرة لسهولة الحركة· ويرجح أن تكون نوعية هذا القماش من النوع الرخيص كالقطن أو الكتان وذلك لأن الشخصيات التي ترتدي هذه القمصان تمثل لباس الطبقات الفقيرة والعاملة·

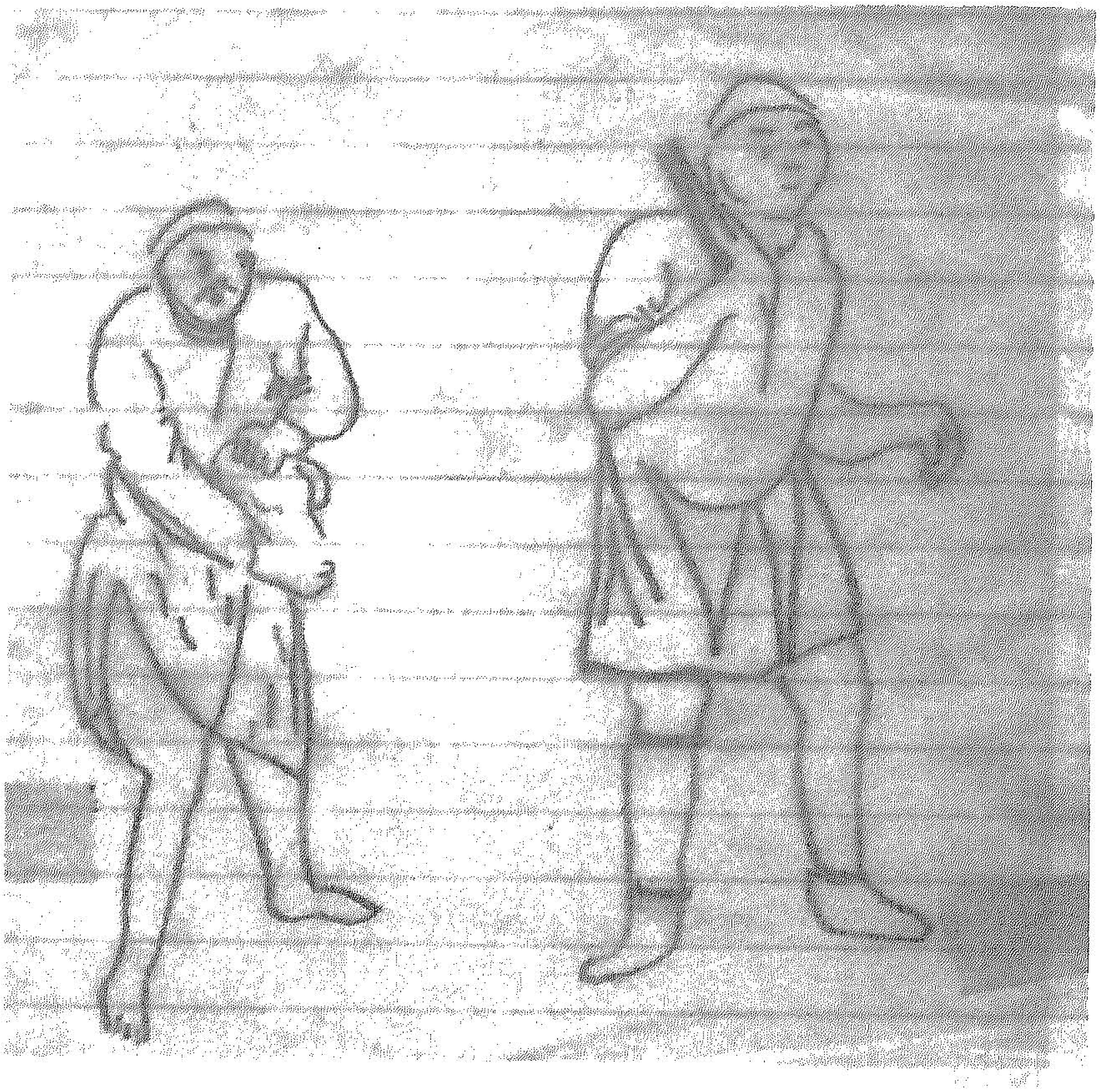

تفصيلات – ٣ –

رسم تفصيلي للقميص مأخوذ من الشكل ٣ وتبدو فيه مجموعة من أصحاب الحرف من الطبقة الفقيرة وهم يرتدونها.

شكل -٤-

نقش بالألوان المائية في القاعة الجانبية الأولى في قصير عمرة، ويظهر فيها امرأة غجرية راقصة تلبس (الحلة) وهو عبارة عن ثوب يظاهره ثوب آخر وغالباً ما يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً والغجرية تلبس وقد جمعت الثوبين بواسطة حزام إلى الخصر لتجعله أكثر رقة وجمالاً.

شكل – ٥ –

نقش بالألوان المائية تمثل امرأة غجرية تعزف على المزمار وهي ترتدي (الأتب) وهو ثوب بدون أكمام أو قميص لا كم ولا جيب ويكون عادة قصيراً نسبياً ويصل أحياناً إلى مستوى الركبتين ولقد عرف لبسه منذ عصر صدر الإسلام وما زال مستخدماً حتى اليوم من قبل النساء – انظر دوزي، ص ٢٨.

شكل – ٦ –

مشهد زوجة الخليفة وهي ترتدي الغلالة المؤلفة من قطعتين وتظهر في الصورة سيدة النصر حاملة التاج· وفي هذه الصورة نرى تناقضاً بين ما ورد في المرجع الأدبي التاريخي من وصف للغلالة بأنه لباس تخص النساء الجواري وفي هذا المرجع ذي الرقم ٥١ الوارد في الفهارس والمراجع يذكر المؤلفون أن هذه السيدة زوجة الخليفة·

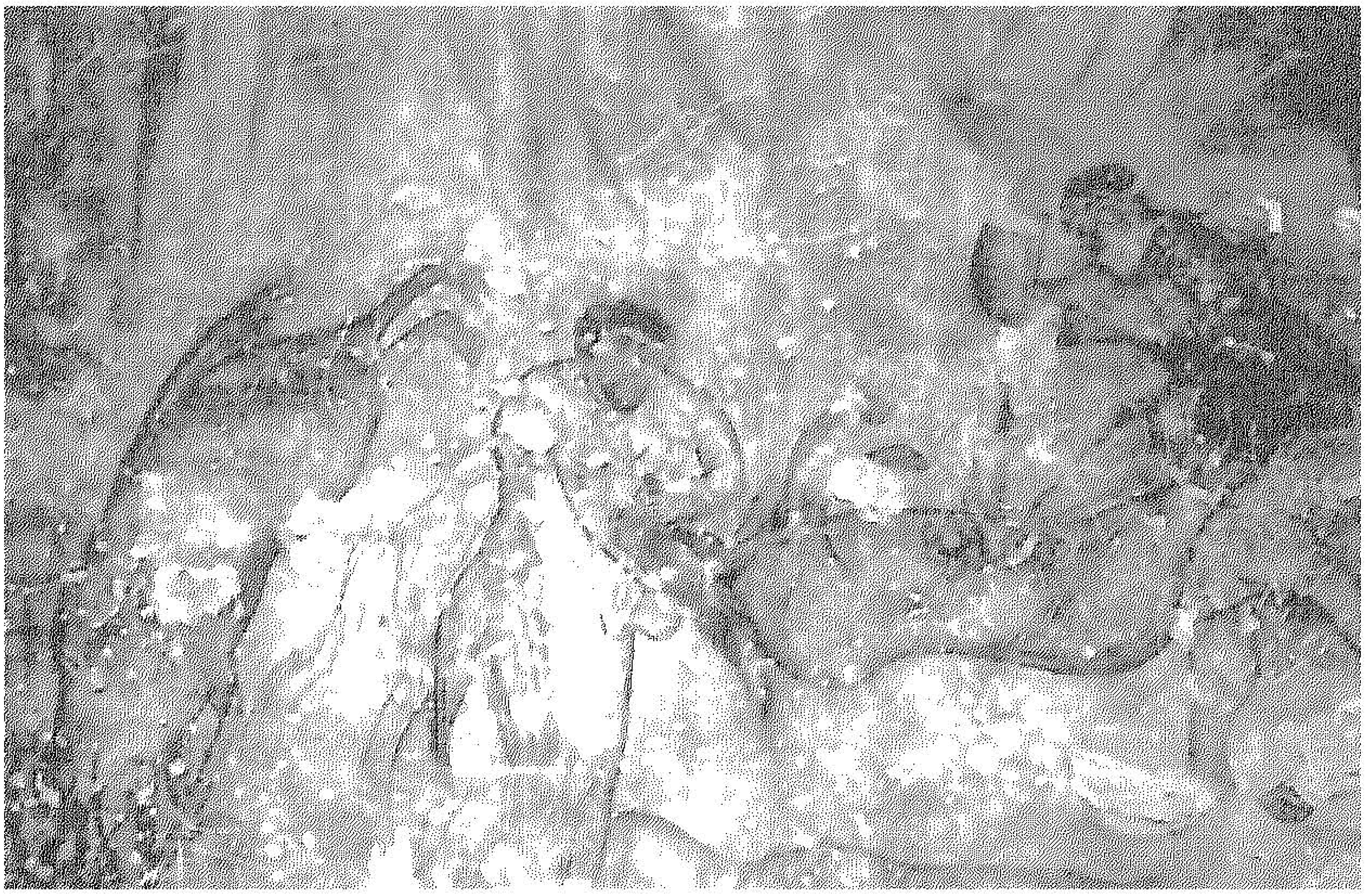

شكل – ٧ –

مشهد استنزاف دماء العير بعد صيدها ونحرها، موجودة في واجهة الرواق اليساري، وفي الوسط، يشاهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وهو يرتدي القميص بأدران طويلة وواسعة أثناء عملية الصيد.

شكل – ٨ –

تفصيل من المنطقة المركزية الموجد في واجهة الرواق الأيمن، من القاعة الكبرى، يظهر فيها رجلاً بلحية ورأسه مغطاة بقلنسوة، حاملاً في يده عكازاً منحنياً، وهو يمثل غالباً الخليفة أو الأمير. وغطاء الرأس في الصورة جاء مطابقاً تماماً لوصف القلنسوة كما وردت في ألبسة الرأس الرجالية، وهي لباس مستدير مقور، بشكل نصف كرة مبطن في الغالب من الداخل.

شكل -٩-

نقش بالألوان المائية في القاعة الكبرى من الجناح الرئيسي، قصير عمرة يمثل امرأة تعزف المزمار مع رجل يظهر في الخلف.

والمرأة ترتدي ثوباً بأكمام طويلة وعليه نقوش بيزنطية وهذا يدل على تأثر الفنان المسلم بالحضارة البيزنطية آنذاك.

شكل – ١٠ –

تفاصيل لمنظر عام لواجهة قاعة العرش في قصير عمرة· ومن المفروض أن يكون الخليفة جالساً في الوسط، ويقوم اثنان من الرجال على الجانبين يروحون له·

وكما يبدو الرجل في الجهة اليمنى وهو يرتدي القميص الطويل ويشتمل بالإزار وكان يعني في العهود الإسلامية الأولى ثوباً مهما كان شمل هذا الثوب، وكذلك الأردية تعني الإزار وكان الرجال يشتملون بها و استعملت كذلك التسمية الإزار لتعني كذلك الحبرة أو البردة·

شكل - ١١ -

شخصية نسائية، تفصيلة من مشهد لوحة الحمام النسائي، وغالباً هي زوجة الخليفة، وهي ترتدي التبان.

شكل - ١٢ -

منظر لشاب في مشهد ممارسة الرياضة، ويرتدي التبان كما ورد في البحث سروال يستر العورة.

وهنالك جداريات أخرى لم نتطرق في الدراسة لتحليلها وإن ظهرت بهيئات بشرية ولكنها كما ذكرت المصادر كانت تمثل بعض الآلهة الإغريقية وتمثل الأبراج.

خاتمة:

وبعد فقد ظهر لنا من هذه الدراسة، أن اللباس في العصر الأموي لم يقتصر فقط على سدّ حاجة الإنسان بالنسبة لوقايته من عوامل الطبيعة وتقلباتها، وستر العورة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى اتخاذه عنصراً لإظهار زينته وتجميل نفسه، وكان للناس فيه أساليب معينة قاموا بتنفيذها لإبراز مفاتن الجسم المختلفة، لذا فقد أملى اللباس على الفنان ابتكارات متعددة، لم تقتصر على المظهر الجمالي العام في اللباس، بل أحياناً في أجزائه مثل الأكمام والحواشي، بطريقة أو بأخرى، وقد تكون بطراز كتابي أو زخرفي.

وبذلك يكون اللباس قد ارتفع من مستوى الاكتفاء الذاتي للحاجة الضرورية إلى ما هو أبعد من ذلك.

هذا بالإضافة إلى أن اللباس يعتبر عند علماء الحضارات من أهم المقومات التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة مدى تقدم وتأخر الشعوب، ومدى عزلة هذه الشعوب أو اتصالاتها أو مدى عزلة محافظتها أو قبولها للتجديد والاقتباس.

كما تبين لي من هذه الدراسة أيضاً أن اللباس قد خضع لمواصفات معينة، تبعاً لطبقات المجتمع الأموي، فكان لطبقة الخلفاء والحكام لباس خاص يميزها عن سواها من حيث الشكل واللون وكذلك الحال بالنسبة للنساء، حيث كان لهن أيضاً لباس خاص بهن، غير أنهن كن يشتركن مع الرجال في بعض لباسهم أحياناً (كالعمامة مثلاً كانت لرجال والنساء، وكذلك الجبة والقميص والسراويل والتبان).

ومن خلال التحقيق بالبحث، تبيّن هنالك أنواع من اللباس لم تأتِ المصادر الأدبية التاريخية على ذكرها بينما وجدناها في رسوم الجداريات وعلى سبل المثال الإزار الرجالي (شكل ١٠).

وكذلك بالنسبة لملابس النساء فلقد ورد في الكتابات الأدبية كلمة الرداء ولكنها لم تأت بوصف لأشكال هذه الأردية وفي الجداريات الأشكال ٤-٥، وجدنا بأن هنالك تفصيلات متعددة للرداء.

وقد ساعدتني هذه الدراسة في التقصي عن حقيقة تحريم التصوير في الإسلام وقد تبيّن بأن هنالك الكثير من المصادر التاريخية التي تدل على أن المجتمع الإسلامي الأول لم يكن معادياً للتصوير على قد ما حدث بعد بذلك بدءاً من القرن الثاني للهجرة (ممكن العودة إلى البحث المقدم من قبل بلندر الحيدري، مجلة العربي، ٤٥ مايو ١٩٩٦م).

ولا بدّ من الإشارة بأن هناك كثيراً من أنواع اللباس في العصر الأموي ما يزال يستعمل في الوقت الحاضر مثل التبان، والأتب، وهنالك بعض التسميات المأخوذة من الملابس العربية. مثل كلمة Jube الفرنسية والتي أخذت من الجبة بواسطة الإسبان الذين يسمونها Eljuppa، وهذا ما يثبت أصالة الفنون والتراث العربي الإسلامي.

وأخيراً لقد كان لدراسة الأزياء في العهد الأموي أهمة بالغة بالرغم من الكثير من الصعوبات التي واجهتها فالعودة إلى ما تبقى من مراجع أثرية وقراءتها ولعل أهمها على الإطلاق قصير عمرة أضافت الكثير من المعلومات عن الفن الإسلامي ونشأته، إذ إن الجداريات التي وجدت فيه تمثل حلقة الوصل بين الفن العربي البدائي الذي تأثر بالفن والثقافة البيزنطية، في الوقت الذي بدأ فيه الشف عن شخصيته المميزة.

وإن بعض المناظر الموجودة في قصير عمرة، كمشهد الصيد والكلاب، إنما تدل على أنها النواة لعلقية جديدة برزت في الفكر الإسلامي، وأسهمت في إنماء شخصية هذا الفن...

المصادر والمراجع

(١) ابن خلدون عبد الرحمن محمد المغربي، ١٤٠٥م، **المقدمة**، ص ١٥٨-١٥٩، الفصل الخاص بصناعة الحياكة والخياطة، بيروت، المكتبة الأدبية، ١٨٨١م.

(٢) رينهارت دوزي، **معجم الملابس**، ص ١٤، ترجمة د. أكرم فاضل، وزارة الإعلام، مطبعة دار الحرية والطباعة، بغداد ١٩٧١م.

(٣) الجاحظ، **البيان** والتبيين، ج٢، ص ٧٧، وانظر كذلك الاصطخري، مسالك، ص ٩١.

(٤) شكري فيصل، **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول**، ص ٣٩٠، طبعة المثنى، بغداد ١٩٥٢.

(٥) أحمد اسماعيل علي، **تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الإسلام حتى نهاية العصر الأموي**، ص ٣١٩، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

(٦) المسعودي، **مروج الذهب**، ج٢، ص ٣٥٤.

(٧) ابن الأثير، ج٥، ص ٣١.

(٨) خلافة بني أمية، د. نبيه عاقل، ص ٢٧٥-٢٧٦، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣.

(٩) فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ج٢، ص ١٠٣.

(١٠) ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، ج١٣، ص ١٠٨، طبعة القاهرة، ١٩٧٣.

(١١) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مجلد٣، ص ٦٠٩.

(١٢) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الكاتب، **الأغاني**، ج٢٠، ص ١٠٦، حققته لجنة مطبعة دار الكتب بالقاهرة، طبعة التقدم، ٢١ جزء.

(١٣) رينهارت دوزي، **معجم الملابس**، ص ٥٥.

(١٤) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مطبعة دار الكتب المصرية، مجلد ٣، ص ٢٧٣.

(١٥) أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، ج٦، ص ٤٣٨.

(١٦) دوزي، **معجم الملابس**، ص ٣٣٠.

(١٧) الأصفهاني، **الأغاني**، ص ١ : ٥٢.

(١٨) دوزي، **معجم الملابس**، ص ٣٣٠.

(١٩) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم، **كتاب الخراج**، ص ٧٢، طبعة القاهرة، ١٩٥٢.

(٢٠) ابن سيده أبو الحسن علي بن اسماعيل، **المخصص**، ج٤، ص ٨٣، وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة (سروال).

(٢١) الجاحظ: أبو عثمان عمر بن بحر، **التاج في أخلاق الملوك**، تحقيق أحمد زكي، ١٩١٤، ص ١٥٤.

(٢٢) ابن سيده ، **المخصص**، ج٤، ص ٨٣، طبعة بيروت.

(٢٣) ابن سعد محمد بن سعيد الواقدي، **الطبقات الكبرى**، ٥ : ٢٩٨، ليدن، ١٣٣٨هـ.

(٢٤) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مجلد ٣، ص ٦٣٩.

(٢٥) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (١٠٣٨م): **لطائف**، ص ١٠٠. ابن منظور، **لسان العرب**، ١٣، ص ٧٢.

(٢٦) المسعودي: أبو الحسن علي بن أبي الحسين بن علي، ٩٥٧م، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج٣، ص ١٣٤.

(٢٧) الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦١م، ج٣، ص ١٠٠٠

(٢٨) دوزي، **معجم الملابس**، ص ٢٩٥٠

(٢٩) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مجلد ٣، ص ٦٠٩٠

(٣٠) ريتشارد ايتكنهاوزن، **فن التصوير عند العرب**، ص ٣٤، ترجمة عيسى سليمان وسليم طه التكريتي، وزارة الإعلام، ١٩٧٣، بغداد٠

(٣١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ١٢١-١٢٢٠

(٣٢) الأصفهاني، **الأغاني**، مرجع سابق، ج٧، ص ٣٠٢٠

(٣٣) ابن سعد، **طبقات**، مرجع سابق، ١-٤/١٢٧٠

(٣٤) ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج٨، ص ٣٧٣، صادر ،بيروت، ١٣٧٤هـ٠

(٣٥) الأصفهاني، **الأغاني**، مرجع سابق، ج١٥، ص ١٣١٠

(٣٦) ابن منظور: **لسان العرب**، ج١٢، ص ٢٢٥٠

(٣٧) الأصفهاني، **الأغاني**، مرجع سابق، ج١٥، ص ٨٠

(٣٨) دوزي، **مرجع سابق**، ص ٣١٩٠

(٣٩) الأصفهاني، **الأغاني**، مرجع سابق، ج٧، ص ٣٠٦٠

(٤٠) الشنابر: جمع شنبر وهي كلمة معربة وهي نوع من أنواع لباس الرأس للنساء، انظر المقريزي، **السلوك**، ج٢، القسم الثاني، ص ٥٢٨٠

(٤١) دوزي، **مرجع سابق**، ص ٣٧٧٠

(٤٢) الأصفهاني، **الأغاني**، مرجع سابق، ج١٤، ص ١٥٦٠

(٤٣) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المثنى، بغداد، ج١، ص ١٧٢٠

(٤٤) دوزي، **مرجع سابق**، ص ١٦٧.

(٤٥) العسكري: أبي هلال العسكري، **التلخيص في معرفة الأشياء**، ج١، ص ٢٤١، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٩هـ.

(٤٦) دوزي، **مرجع سابق**، ص ٢٨١.

(٤٧) عفيف بهنسي، **الفن الإسلامي**، ص ٤١، ط١، دار طلاس للطباعة، دمشق، ١٩٨٦.

(٤٨) مجلة العربية، مقالة: **الإسلام وتحريم الصور**، بلند الحيدري، العدد ٤٥٠، ص ١٥٧، مايو ١٩٩٦م.

(٤٩) أنور الرفاعي، **تاريخ الفن عند العرب والمسلمين**، ص ٩٨، الفكر، طبعة ثانية، دمشق، ١٩٧٧.

(٥٠) www.mcah.columbia.edu/dbcourses/islamic

(٥١) مارتين ألماغور، لويس كاباليرو، خوان ثوثايا، انطونيو الماغرو، **قصير عمرة سكنى وحمامات أموية**، ص ١٥، مدريد، ١٩٧٥.

(٥٢) www.joedantelecome-jo/pc/desertcatles.asp

الأصول العربية لبعض الشعوب المسلمة في أوروبة (المجر)

التاريخ – الخيال – السياسة

الأستاذ الدكتور محمد م. الأرناؤوط
قسم التاريخ
جامعة آل البيت
الأردن

مقدمة:

لقد حيّرت مسألة نشأة المجر وتحركاتهم الأولى الباحثين لوقت طويل، بل يمكن القول، على حدّ تعبير ماكارتن، أنها واحدة من أكثر الألغاز التاريخية غموضاً(١).

ومن المؤكد على الأقل أن المجر ينتمون إلى العائلة الفينية – الأوغرية Finno-Ugric من الشعوب الأورالية، حيث ينتمي الفلنديون إلى القسم الأول (الفيني Finnic)، بينما ينتمي المجر والشعوب الأوب أوغرية Ob-Ugric إلى القسم الأوغري Ugric. ويعتقد أن الموطن الأصلي للفينو–أوغريين كان ما بين حوض الفولغا وجبل كاما وبلايا، حيث اندفع القسم الفيني باتجاه الغرب (حوض البلطيق)، بينما بقي القسم الأوغري في موطنه إلى أن خضع لتقلبات المنطقة. وهكذا فقد انتهت الوحدة الفينية – الأوغرية نحو ٥٠٠ ق.م، حيث هاجر بعد القسم ذلك قسم من الأوغرين إلى سيبيريا الغربية

والبشكير والخزر (وخاصة من قبيلة الكابار منهم) مما انعكس هذا على اللغة وأسماء القبائل والأمكنة والاسم الذي عرف به المجر في المصادر الشرقية والغربية: الأونغر Ungrar والهنغر Ungrois والترك Turk وغير ذلك(٢).

ونظراً لمجاورتهم الأتراك البشكير في بشكيريا الحالية، التي أصبحت تدعى هنغاريا الكبرى Magan Hungaria، فقد اختلطوا معهم أيضاً واختلط ذلك على معظم المؤلفين المسلمين الذين دعوهم باسم "الباشغرد" منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وفي ذلك الوقت تعرّض المجر إلى هجوم مفاجئ اضطرهم لترك موطنهم والتوجه نحو الغرب(٣). فقد شهد ذلك الوقت صراع على السهوب بين الأتراك والأوغوز (الغز) والأتراك البيتشنغ (البجنق)، حيث تمكّن الأوغوز من طرد البيتشنغ من موطنهم مما دفعهم إلى الهجوم على المجر لاحتلال موطنهم. وهكذا فقد اضطر المجر أمام هذا الهجوم/ الضغط المفاجئ أن يندفعوا نحو الغرب ويعبروا جبال الكارابات ويستقروا في الموطن الحالي لهم حوالي سنة ٨٩٥م، بقيادة زعيمهم أرباد. ومن المؤكد أنه قد صاحب المجر إلى موطنهم الجديد بعض جيرانهم وحلفائهم من الخوارزمة والخزر، كما أنه بقي يلتحق بهم في الموطن الجديد بعض البيتشنغ. وفي هذه الحالة فقد جاءت هذه القبائل/ الشعوب بدياناتها الأصلية (الوثنية واليهودية والإسلام)، ولم يتمكن أحفاد أرباد من تأسيس دولة /أمة واحد، إلا بعد نحو قرنين من الزمن، وذلك بعد نشر الكاثوليكية بالترغيب والترهيب في البلاد(٤).

المعطيات الأولى للمؤلفين المسلمين عن المجر في الموطن الأصلي:

في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لدينا مصدران مهمان (ابن رستة وابن فضلان)، يتحدثان عن المجفرية والباشغردية، حيث اعتمدت عليهما المصادر اللاحقة بصيغ مختلفة ومضطربة أحياناً لذكر ذلك الشعب الذي كان يسكن حوض الدون في ذلك الوقت. وعلى أن الأول (ابن رستة) استند فيما يبدو إلى

ما كتبه الجهماني نجد أن الثاني (ابن فضلان) قام بوصف ما شاهده الباشفرد خلال رحلته إلى بلاد البلقان في سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م.

ويذكر ابن رستة في كتابه "الأعلاق النفيسة" الذي ألفه نحو ٢٩٠هـ/ ٩٣٠م، "المجفرية جنس من الترك" وأن "بلادهم واسعة ... ذات شجر ومياه وأرضهم ندية ولهم مزارع ولهم الغلبة على جميع من يليهم من الصقالبة"، ويحدّد موضعهم بين بلاد البجاناكية (البجناقية)، وبين بلاد البلغار حيث "يتصل حد منها ببحر الروم وينصب إلى ذلك البحر نهران"، أي بين الدون والدانوب الأسفل[٥].

وبالمقارنة مع ابن رستة، الذي يبدو أنه اعتمد على الجهماني وعلى غيره، نجد أن ابن فضلان قد جال في تلك المنطقة بنفسه ووصف لنا الشعوب التي شاهدها في طريقه. وكان الخليفة العباسي المقتدر بالله قد استقبل رسولاً من ملك البلغار/ الصقالبة يطلب منه إرسال وفد للتعريف بالإسلام وبناء مسجد هناك والدعوة للخليفة. /وقد استجاب الخليفة حينئذٍ لذلك وأرسل وفداً برئاسة العالم أحمد بن فضلان، الذي انطلق بهذه البعثة من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩هـ/ ٢١ حزيران، ووصل عند ملك البلغار/ الصقالبة في ١٢ محرك ٣١٠هـ/ ١١ أيار ٩٢٢م[٦]. وقد وصف ابن فضلان "الباشغرد" حين دخل بلادهم فذكر أنهم "قوم من الترك"، بل أنهم "شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل"، لذلك فقد حذرهم "أشد الحذر" خلال إقامته . وقد ركّز ابن فضلان في الفصل الذي خصصه للباشغرد على ديانتهم، حيث ذكر أنهم يعبدون آلهة تمثل مظاهر الطبيعة (الشتاء والصيف والمطر والريح والشجر...إلخ)، مع التسليم بوجود ربّ أكبر في السماء، بينما يعبد آخرون منهم بعض الحيوانات كالحيات والسمك الكراكي[٧].

وبعد نحو نصف قرن نجد أن المسعودي (توفي ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م،) قد تطرق أيضاً إلى ذكر "البجغرد" في كتابه "مروج الذهب"، وذلك في سياق حديث عن الحرب التي دارت بين البجغرد والبجناق من ناحية وبين بيزنطة من ناحية أخرى، خلال سنوات ٣٢٠-٣٢٢هـ/ ٩٤٣-٩٤٤م[٨]. وفي ذلك الوقت نجد أن الأصطرخي (توفي

٣١١هـ/٩٥٧م)، أيضاً يورد في كتابه "مسالك الممالك" ذكر "البسجرد" سواء للبشكير أو للمجر، الذين يقول عنهم أنهم في جوار البجناق(٩). وهذا الذي أورده الأصطرخي كان المصدر الأساسي لابن حوقل (توفي ٣٧٠هـ/ ٩٨١م) في كتابه "المسالك والممالك" أو "كتاب صورة الأرض"، الذي انتهى منه في ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، حيث يرد فيه الاسم بصيغة "البشجرد أيضاً"(١٠).

أما في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فلدينا البكري (توفي ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، الذي يبدو أنه اعتمد في كتابه "المسالك والممالك" على نفس المصدر الذي اعتمد عليه ابن رستة لوصف بلاد المجغرية"(١١)، أي أنه لم يصنف شيئاً جديداً يذكر عنهم بعد كل هذا الوقت.

معطيات أبي حامد الغرناطي عن المجر في الموطن الجديد لهم:

بعد مرور نحو قرنين من الزمن على انتقال المجر وغيرهم إلى الموطن الجديد، وبعد أن استقرت المجرية هناك، جاء الرحالة أبو حامد الغرناطي ليقوم برحلة طويلة إلى بلاد الباشغرد /المجر ويحظى هناك بإقامة طويلة (٥٤٥-٥٤٨هـ/ ١١٥٠-١١٥٣م)، ساعدته على تقديم معطيات جديدة ومختلفة عن المسلمين في المجر في كتابيه المعروفين "المعرب عن عجائب المغرب"، و "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب". وبالمقارنة مع ابن فضلان، الذي نكاد لا نعرف عنه شيئاً، نجد أن المصادر توفر لنا الكثير عن أبي حامد الغرناطي(١٢).

وكان أبو حامد الغرناطي (نسبته إلى غرناطة التي ولد فيها سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٧٠م)، وقام برحلته الأولى إلى الاسكندرية والقاهرة لطلب العلم في (٥٠٨هـ/ ١١١٤م)، وقام برحلته الثانية إلى بغداد في (٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، حيث بقي أربع سنوات يتمتع بعطف الوزير يحيى بين هبيرة المعروف بحبه للعلم ورعايته للعلماء. وفي (٥٢٣هـ/ ١١٣٠م)، قام برحلته الأولى إلى أوروبة، حيث وصل إلى مصب نهر الفولغا، بينما قام في (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م)، برحلته الثانية إلى بلاد البلغار، حيث توفي هناك أحد

أولاده. وبعد فترة انقطاع عشرين سنة قام برحلته الثالثة إلى بلاد الباشغرد/ المجر، حيث بقي نحو سنتين (٥٤٥-٥٤٨هـ/ ١١٥٠-١١٥٣م)، وبقي من بعده ابنه الأكبر حامد الذي تزوج بامرأتين واستقر هناك بشكل دائم. وقد عاد أبو حامد إلى بغداد في (٥٥٤هـ/ ١١٦٠م)، عند راعيه الوزير ابن هبيرة، حيث ألّف كتابه الأول "المعرب عن عجائب المغرب"، الذي انتهى منه في (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م). وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى الموصل في رعاية أحد علماء المدينة، الشيخ معين الدين الأردبيلي، الذي شجعه على تأليف كتابه الآخر "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"(١٣). وتجدر الإشارة إلى أن الغرناطي قد تنقّل بعد ذلك ما بين حلب وخراسان قبل أن يتوجّه إلى دمشق حيث توفي في ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م.

ويلاحظ في عنوان الكتابين تركيز المؤلف على "عجائب" البلاد التي أوردها حتى أصبح يعتبر بحق مؤسس "مدرسة العجائب" في الأدب الجغرافي. وقد وجد من انتقد الغرناطي على إكثاره من الأساطير وحكايات العجائب والغرائب، ولكن وجد أيضاً من يقدره كالمستشرق الروسي دورن Dorn، والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي باعتبار أنه يمكن استخلاص حقائق جديدة وقيمة من بين العجائب والغرائب التي يسوقها في ما كتبه(١٤). ولا بدّ هنا من التوضيح أن الغرناطي يشير أحياناً إلى مصادره (كابن فضلان والمسعودي والحافظ وغيرهم)، ويطلق العنان أحياناً لخيال رواته الذين لا يسميهم، بينما يحافظ على حيّز لا بأس به (نحو الثلث) على ما رآه بعينيه. ولكن حتى هذا الجزء الذي يعتبر الأهم، وخاصة فيما يتعلق بأوروبة الشرقية، لا يخلو من المبالغات أو التعميمات كما في القسم الخاص ببلاد الباشغرد/ المجر، الذي يعنينا هنا.

وفي حدود ما نعرف فقد كان الغرناطي أول عالم مسلم في هذا القرن يتمكن من الوصول إلى بلاد الباشغرد المجر، والتجول فيها والاختلاط بالمسلمين هناك والتأليف عنها، إلا أن ما يسوقه عنها على الرغم من قيمته يتضمن بعض الإشكاليات.

وهكذا في كتابه الأول "المعرب عن عجائب المغرب" يتحدث عن المسلمين في المجر في السنوات التي أقام فيها، وبالتحديد في عهد الملك غيـزا الأول Geza1 (١١٤١-١١٦١م). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرناطي يمتدح هذا الملك، ويذكر عنـه "أنـه يجب المسلمين"، ومع ذلك فقد تحدث الغرناطي عن قسمين مختلفين مـن المسـلمين: "وفيها من أولاد المغاربة آلاف، لا عدد لهم؛ وفيها من أولاد الخـوازرميين آلاف، لا عدد لهم أيضاً. وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك، ويتظاهرون بالنصراني، يكتمون الإسلام. وأولاد المغاربة لا يخدمون النصـارى إلا فـي الحـروب، وهـم يعلنـون الإسلام"(١٥). وقد كان الغرناطي على صلة أوثق بـ "أولاد المغاربة" الذي احتفوا بـه وكرموه، ولذلك فقد اهتم بتعليمهم العبادات وأسس الفقه واللغة العربية(١٦).

ونظراً لأن الغرناطي كان يهتم بكل ما هو مسلم في المجر، ولو كان هذا على حساب الآخر كما تقول الباحثة يوفانكا كاليتش(١٧)، فقد أورد لنا معطيات في غاية الأهمية عن المسلمين خلال الصراع المجري – البيزنطي. فقد أقام الغرناطي في المجـر خـلال ذروة الصراع والحروب بين الطرفين حيث أسر كل طرف مسـلمين مـن الطـرف الآخر. وهكذا يذكر الغرناطي أن الإمبراطور البيزنطي مانويلو الأول قد أسر الكثيـر من المسلمين خلال المعارك مع المجر، وفي المقابل فقد أسر الجيش المجري الكثيـر من المسلمين الذين يقاتلون مع الجيش البيزنطي. وقد اهتم الغرنـاطي بهـذا الأمـر وتحدث مع جماعة منهم وتبيّن أنهم من "عسكر قونيـة" (سـلاجقة الـروم)، وأنهـم يشاركون في القتال مع الجيش البيزنطي لأسباب مادية (٢٠٠ دينار للفـرد)، وأنهـم فوجئوا بوجود مسلمين في المجر، ولذلك فقد عمل الغرنـاطي علـى إعـادتهم إلـى قونية(١٨). وفي الحقيقة أن معطيات الغرناطي عن هؤلاء المسلمين لا تتنـاقض مـع المصادر البيزنطية كما بيّنت ذلك الباحثة كاليتش(١٩).

أما في كتابه الآخر "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" فيضيف ما يفيد بوصـول بعـض العرب إلى المجر واستقرارهم هناك وذلك في سياق أسطوري عجائبي. فالمؤلف يذكّر

القارئ بقوم عاد وملكهم الذي تجبّر شداد بن عاد حتى أرسل الله سبحانه وتعالى له النبي هود، [ثم يذكر أن شدد بن عاد هذا قد أرسل إلى العراق ابن عمه الضحاك بن علوان على رأس عشرة آلاف من الجبارة/ العمالقة، وكان في جملة هذا الجيش "رجل مؤمن يكتم إيمانه قد آمن بهود] يقال له لام بن عامر، ولما اعترض مرة على ما يقوم به الضحاك من ظلم الناس شكك به الضحاك بكونه "على دين هود" مما جعل لام بن عامر يخشى على نفسه ويقرر الهرب. وهكذا فقد تظاهر بالخروج للصيد وغادر البلاد مع أولاده وحاشيته باتجاه الشمال حتى وصل إلى بلاد الباشغرد/المجر فاستقر هناك واتخذ قبة من الرصاص كالجبل وأمر أن يدفن هناك، وكتب على ضريحه أبيات من الشعر في اللغة العربية مطلعها:

أنا لام بن عامر المعتاص — من ظلاّم الإشراك بالإخلاص
كنت بالله مؤمناً ربّ إدريس — وهود مؤمناً بالقصاص

وعندما تنبّه الضحاك لغيابه عرف أنه قد غادر البلاد باتجاه الشمال، فأرسل خلفه أميرين على رأس جيشين من الجبابرة/ العمالقة أحدهما وتوجّه إلى بلاد البلغار والثاني ذهب إلى بلاد الباشغرد/المجر. ولما قتل الضحاك أقام هؤلاء الجبابرة/ العمالقة في بلاد البلغار وبلاد الباشغرد/ المجر. وهنا يؤكد الغرناطي هذه الرواية بما رآه بنفسه في بلاد الباشغرد/ المجر، حيث يقول إنه رأى قبورهم هناك، بل إن طول سن أحدهم أربعة أشبار وعرضه شبران، ولمزيد من التأكيد بضيف الغرناطي أنه كان لديه في بيته في بلاد الباشغرد/ المجر نصف أصل الثنية التي أخرجت من الفك الأسفل لأحدهم، حيث كان عرض ذلك النصف شبراً ووزنه ألف ومائتي مثقال[٢٠]. وكما في بقية الكتاب فإن المؤلف في عرضه لمثل هذه العجائب والغرائب لا يحاول

أن يناقشها أو ينقدها أو أن يفسرها في ضوء المعارف الموجودة في عصره، وهو ما يؤخذ عليه في الواقع.

وإذا تجاوزنا السياق الأسطوري الذي يشير إلى وصول مبكّر لبعض العرب إلى المجر واستقرارهم هناك، فإن ما ورد في "المعرب" عن المسلمين الذين اختلط بهم الغرناطي خلال إقامته في المجر هو الأهم، وخاصة فيما يتعلق بأصولهم. وفي هذا الإطار فقد أثار تقسيم الغرناطي للمسلمين إلى "أولاد المغاربة" و"أولاد الخوارزمية" الكثير مكن الأسئلة حول أصولهم، وخاصة فيما يتعلق بـ "أولاد المغاربة". وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغرناطي كان قد جاب العلم الإسلامي من المغرب إلى خوارزم وعرف جيداً شعوبه، ولذلك يثير وصفه لبعض المسلمين هناك بـ "المغاربة" الكثير من الأسئلة حول أصلب هؤلاء المسلمين. وفي الواقع لقد حاول العديد من الباحثين الخوض في هذه الأسئلة المطروحة حول أصل هؤلاء "المغاربة" في المجر وانتهوا إلى أجوبة مختلفة:

١- يرى الباحث التشيكي إ. هربك I. Hrbek أن هذا الاسم/ الوصف للمسلمين في المجر إنما ينبع من أسطورة شعبية محلية تربط تشكل أو استقرار المجموعات البشرية بالغرب(٢١).

٢- يرى الباحث فيلوت فويغت V.Voigot أن اسم "المغاربة" الذي أطلقه الغرناطي على بعض المسلمين إنما يعبر بالفعل عن أصل هؤلاء المسلمين. فهو يرى أن موطنهم الأصلي هو الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية. ففي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي توطدت العلاقات بين المجر وإيطالية، حيث عقدت حينئذٍ معاهدة بين الطرفين، حتى إنه في سنة ١٠٨٧م، تزوج ملك المجر كالمان Kalman ابنه روجر ملك صقلية، مما يجعل في الإمكان أن يكون هؤلاء "المغاربة" من العرب أو المسلمين القادمين من تلك الجهة(٢٢).

٣- قارن الباحث البوسنوي اسماعيل باليتش I. Belic بين المصادر العربية والمجرية وانتهى حول هذا إلى أن اسم "المغاربة" لا يدل على انتماء اثني أو إقليمي/جغرافي وإنما هو يعبر عن وضع مهنة إذ يشير على ذلك باستخدام القوات العسكرية/ المرتزقة التي تقاتل في خدمة الحاكم/ النظام، ويستدل على ذلك باستخدام هذا الاسم في المشرق منذ الدولة العباسية(٢٣).

٤- قارنت الباحثة اليوغسلافية يوفانكا كاليتش J. Kalic بين معطيات الغرناطي والمصادر البيزنطية وانتهت إلى أن مثل الغرناطي لا يمكن أن يخلط بين الشعوب التي كان يعرفها جيداً في رحلاته، ولذلك رأت أن الخوارزمية الذين ذكرهم الغرناطي هم "الخوالص" الذين ورد ذكرهم في المصادر البيزنطية (يوحنا كيناموس)، بينما تميل إلى أن "المغاربة" هم البيتشينغ (البجناق) دون أي تفسير للاسم نفسه(٢٤).

ويبدو لنا بالاستناد إلى معرفة الغرناطي بشعوب تلك المنطقة التي اختلط بها خلال رحلاته أن "المغاربة" كان يقصد بهم الأتراك (البجناق) بسبب موقعهم الذي كانوا فيه، إلى الغرب من خوارزم والخوارزمية. فوجود البيتشنغ (البجناق) في المجر لا يُختلف عليه، وإنما الخلاف حول الاسم الذي عرفوا به. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر البيزنطية المعاصرة للغرناطي كانت تميز بين الأتراك المشارقة والأتراك المغاربة بحسب الموقع أيضاً، حيث كانت تطلق على الخرز "تركية الشرقية" وعلى المجر "تركية الغربية"(٢٥).

وعلى كل حال لقد كان الغرناطي أول وآخر من ذكر هذا الاسم (المغاربة) للدلالة على بعض مسلمي المجر، إذ إن المصادر العربية اللاحقة بقيت تستخدم "الباشغرد" للدلالة عن مسلمين المجر فقط و"الهنغر" للدلالة على المجر المسيحيين. وهكذا بعد نحو خمسين سنة يقدم ياقوت الحموي (توفي ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معطيات دقيقة بعد أن التقى في حلب بـ "طائفة كثيرة منهم يقال لهم الباشغردية" جاؤوا لدراسة الفقه

الحنفي. وعندما استفسر منهم عن أوضاعهم أجابه أحدهم أنهم في "مملكة أمة من الإفرنج يقال له الهنكر "حيث يجتمعون في نحو ثلاثين قرية" تكاد كل واحدة منها أن تكون بليدة" ويخدمون كغيرهم في الجيش ويتزيون كالآخرين(٢٦). وعلى هذا المنوال نجد أن سعيد المغربي (توفي ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، يميز بين الباشغرد (المسلمين وبين أخوتهم الهنكر –الهنقر (النصارى)، أي أن الفرق بينهم أصبح يكمن في الدين(٢٧).

وعلى الرغم من أن النص الذي يقدمه ياقوت الحموي يشير بوضوح إلى تمتع الباشغرد بحريتهم الدينية، إذ يسمح لهم بالذهاب إلى بلاد الشام لتحصيل العلم ويعاملون باحترام كبير لدى عودتهم(٢٨)، إلا أن المصادر المجرية تشير إلى العكس من ذلك، أي إلى اضمحلال سريع للمسلمين هناك في ذلك الوقت. وفي الواقع لدينا ما يشير إلى أن الضغوط على هؤلاء المسلمين بدأت منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وخاصة خلال عهد الملك كولمان الثالث (١٠٩٥–١١١٤م)، الذي أصدر عدة قرارات تنص على معاقبته المسلمين الذي يضبطون وهم يمارسون شعائر دينهم القديم (الإسلام) والتزام المسلمين ببناء كنيسة في كل قرية من قرى ورحيل نصف السكان المسلمين من كل قرية للسكن في قرى المسيحية وتزويج بناتهم إلى مسيحيين وغير ذلك(٢٩). يبدو أن هذا التغيير في المواقف إزاء المسلمين جاء نتيجة للتعصب الذي شمل أوروبة كلها خلال الحروب الصليبية، حيث إن الجيوش الصليبية كانت تمرّ عبر المجر خلال طريقها إلى المشرق وتنشر في البلاد مثل هذه المشاعر(٣٠).

ومما يدل على ذلك أو الوضع قد تحسّن لصالح المسلمين خلال عهد الملك غيزا الثاني (١١٤١–١١٦١م)، الذي امتدحه الغرناطي خلال زيارته/إقامته في المجر (١١٥٠–١١٥٣م)، ولكن الوضع انعكس ثانية في عهد الملك أندرو الثاني (١٢٠٥–١٢٣٥م)، الذي أصدر عدة مراسيم تقرر الضغوط على المسلمين لدفعهم إلى التخلي عن دينهم وتذويبهم في الإطار المجري(٣١). وعلى الرغم من ذلك يبدو أن بعض المسلمين قد حافظوا على دينهم حتى مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، حين قام الملك المجري

شاري روبرت الأنجوي (١٣٠٨-١٣٤٣م)، بتخييرهم بين اعتناق المسيحية أو تــرك البلاد[٣٢]، بينما بقي هناك من يذكَر بهم حتى القرن الخامس عشر المــيلادي[٣٣]، أي حين كانت المجر تواجه التقدم العثماني الذي سيؤدي إلى فتح المجر وإلى مدّ وجــزر آخر للإسلام هناك[٣٤].

الهوامش

(١) آرثر كوستلر، **إمبراطورية الخزر وميراثها**، ترجمة حمدي متولي مصطفى صالح، دمشق (لجنة الدراسات الفلسطينية)، ١٩٧٨م، ص ١١٩.

(٢) The Cambridge History of Early Inner Asia, edited by Denis Sinor, Cambridge University Press), 1990. Pp. 243-244.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الأبحاث الفيلولوجية والأركيولوجية في القرن العشرين حول أصل المجر قد أفضت إلى أربع نظريات مختلفة"

أ- المجر في الأصل شعب أوغري هاجر إلى سيبيريا الغربية أولاً حيث تحول إلى شعب من شعوب السهوب الراحل، وقد اختلط هناك مع شعوب تركية، وهاجر على شكل تحالف قبلي (يضم قبائل تركية أو تحمل أسماء تركية) إلى الموطن الجديدة.

ب- هاجر المجر إلى الجنوب أكثر، إلى بشكيريا الحالية، ليجاوروا بلغار الغولغا هناك، حيث جرى التداخل البلغاري- الهنغاري واستمر في السهوب الروسية الجنوبية حيث استقر التحالف المجري نحو ٧٥٠-٨٠٠ سنة قبل أن يهاجر أخيراً إلى الموطن الحالي.

ج- في الأصل كان هناك تحالف عشائري بين طرفين منفصلين ومتمايزين، الأول مجري Magyar والثاني أنغوري Onoghur، لم ينصهروا إلا في نهاية القرن التاسع ليشكلا المجر -الهنغار.

د- اللغة المجرية سبقت وصول أرباد إلى الموطن الحالي للمجر، حيث تأكد أنها كانت مستعملة في سهول بانونيا Panonia قبل وصول أرباد في ٥٩٨م، أي أن بعض المجر قد يكون وصل إلى ذلك في وقت مبكّر.

المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) للمزيد حول انتقال المجر واستقرارهم في الموطن الحالي. انظر: بومليه- بودولني، **الأثنوس والتاريخ**، ترجمة طارق معصراني، موسكو (دار التقدم)، ١٩٨٨، ص ٢١٨-٢٢٦.

(٤) حول ظروف انتشار المسيحية في المجر، انظر: يان دوبراتشينسكي، **أصداء الزمن- الكنيسة وكفاحها من أجل الوجود**، ترجمة د. كبرو لحدو، دمشق (دار الحصار)، ١٩٩٥، ص ٣٤٤*٣٤٥.

P. Sugar, A History of Hungary, London- New York (I. B. Tauris) 1990, pp. 15-22.

(٥) أبو علي أحمد بن عمر ابن رستة، كتاب **الأعلاق النفيسة**، المجلد السابع، ليدن (بريل)، ١٩٦٧، ص ١٤٣-١٤٤.

(٦) للمزيد حول هذه السفارة ورحلة ابن فضلان، انظر المقدمة الوافية التي وضعها د. سامي الدهان: أحمد بن فضلان بن العباس بن رشاد بن حماد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، تحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق (وزارة الثقافة)، ١٩٧٨، ص ١٩-٤٧.

(٧) **المصدر السابق**، ص ١٣٩.

(٨) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت (دار الأندلس)، ١٩٦٥، ج١، ص ٢٢٣.

(٩) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصطرخي، كتاب **مسالك الممالك**، ليون (بريل)، ١٩٦٧، ص ٢٢٧.

(١٠) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب **صورة الأرض**، ليون (بريل)، ١٩٨٢٨، ص ١٩٩٩.

(١١) أبو عبيد البكري، كتاب **المسالك والممالك**، تحقيق: ادريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس (الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق)، ١٩٩٢ ، ج١، ص ٧٥٦.

(١٢) تجدر الإشارة إلى أن الباحثين الأوروبيين قد اهتموا منذ القرن التاسع عشر بالغرناطي وقدموا عنه دراسات وافية مع ترجمات لأعماله. فبعد الإشارات /الملاحظات الأولى لدربلو D'Herbelo وفرين Frahn وشارموا Charmoy جاء دورن Dorn الروسي ليقدم أول دراسة جدية في ١٨٧٢، بينما صدرت أول ترجمة فرنسية لكتاب "تحفة الألباب" مع دراسة وافية لـ ك. فيران Ferrand في ١٩٢٥، وفي ١٩٥٣ ظهرت في الأسبانية ترجمة لكتاب "المعرب" مع دراسة طويلة لـ دبلر Dubler، بينما لدينا في النصف الثاني للقرن العشرين سلسلة من الدراسة في أوروبة الشرقية والغربية عن الغرناطي ومؤلفاته. للمزيد عن ذلك انظر الطبعة الجديدة من كتاب "المعرب" لبيارانو، حيث أحدث دراسة وبيلوغرافيا واسعة عما نشر عن الغرناطي:

Abu Hamid Al-Garnati, Al-Mu'rib 'An ba'd 'Aya'ib Al-Magrib, Intrduccion y traduccion por Ingrid Bejarano, Madrid (ICMA), 1991.

(١٣) "ولما وصلت إلى الموصل سنة سبع وخمسين ونزلت في جناب الشيخ... ولم يزل، أبقاه الله، يحثني كلما ألقاه أن أجمع ما رأيته من الأسفار من عجائب البلاد والبحار، وما صح عندي من نقلة الأخبار، فأجبته إلى ذلك ورأيت أن اسمي هذا المجموع "**تحفة الألباب ونخبة الأعجاب**": أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب الأعجاب، تحقيق الدكتور اسماعيل العربي، بيروت – المغرب (دار الجيل – دار الآفاق الجديد)، ١٩٩٣، ص ٠٩.

(١٤) اغناطيوس يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم وراجعه إيغور بلياييف، القاهرة (جامعة الدول العربية)، ١٩٦٠، ص ٢٩٥-٢٩٦.

ويضيف نوفيتش كراتشكوفسكي هنا (ص ٢٩٦)، إن الدراسة العميقة التي قام بها ج. ياكوب G. Jacob تثبت أن التحليل العميق لرواياته التي كانت تنسب قبلاً إلى محيط الأساطير قد يكشف في كثير منها عن أسس واقعية وعن دقته الكبيرة في الملاحظة.

(١٥) Abu Hamid el-Gradino y su Relacion de viaje por tierras eurasiaticas, ed. C.E.Dubler, Madrid 1953, P. 27.

(١٦) "ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني، وعلمتهم شيئاً من العلم، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرار في فرائض الصلاة وسائر العبادات، واختصرت لهم الحج وعلم المواريث حتى صاروا يقسمون المواريث...": **المصدر السابق**، ص ٢٨.

(١٧) Jovanka Kalic, "Podaci Abu Hamida o prilikama u juznoj Ugarskoj credinom XII veka", Za istoriju 4, Novi Sad 1971, p. 29.

(١٨) الغرناطي، **المعرب**، ص ٣١.

يروي الغرناطي في هذا السياق (ص ٣١-٣٢) أمراً مثيراً يتعلق بوضع المسلمين في المجر وبيزنطة، ألا وهو أن الإمبراطور البيزنطي تساءل عن سبب نجاح ملك باشغرد المجر في التوغل في بيزنطة وتخريبها فقل له أن "ملك باشغرد عنده عسكر من المسلمين قد تركهم يظهرون دينهم". ولما تساءل "وعندي مسلمون لا يقاتلون معي" قيل له "أنت تقهرهم على النصرانية"، ولذلك قرر أخيراً" لا أقهر مسلماً على ديني أبداً، وأبني لهم المساجد حتى يقاتلوا معي".

(١٩) Kalic, Podaci Abu Hamida, pp. 32-34.

(٢٠) الغرناطي، **تحفة الألباب**، ص ١٥١-١٥٢.

(٢١) I.Hrbek, "Em arabischer Berichtuber Ungaren", Acta Orientalina Academiae Scientiarum Hungaricae 5, Budimpest 1955, pp. 205-230.

(٢٢) Vilmos Voigt, "Hungarian Sources on Early Mediterranean Contacts "in Frist Congress of Mediterranean Studies of Arab-berber influence, edited by M. Gallay and D.R. Marshall, Algiers (SNED)1973, pp. 213-228.

(٢٣) اسماعيل باليتش، **الإسلام في المجر في القرون الوسطى**، ترجمة فريد أحمد القاضي، الموسم الثقافي لجامعة الأزهر، ١٣٨٤-١٣٨٥هـ/ ١٩٦٤-١٩٦٥م، القاهرة ١٩٦٦، ١١-١٢.

وللمزيد حول قوات المغاربة في الدولة العباسية، انظر: د. فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية في عصر المفوض العسكرية، بغداد (مكتبة المثنى)، ١٩٧٧، ص ١٣٨.

هذا وقد أكد المؤلف في حديث معي حول الموضوع بتاريخ ١٤/٣/٢٠٠٠، أنه يعتبر "المغاربة" هنا بالمفهوم الجغرافي وليس الاثني.

(٢٤) Kalic, Podaci Abu Hamida, PP. 32-34.

(٢٥) The Gambridge History of Early Inner Asia, p. 247

(٢٦) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت (دار صادر)، ١٩٩٥، ج٢، ص٣٢٣. م، وسنم، وسنة ة وتجدر الإشارة إلى أن الحموي كان في حلب سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦--١هـ/ ٢١هـ/ م، مما يعطينا التحديد للوقت الذي التقى فيه بحلب مع هؤلاء المسلمين.

(٢٧) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق/ اسماعيل العربي، بيروت (المكتب التجاري، ١٩٩٠، ص ١٨٢ و ١٩٤.

(٢٨) الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٣٢٣.

(٢٩) T.Lewicki, "Madjar", The Encyclopaedia of Islam, new edition, Vol. 5, Leiden 1986, p. 1015

ويضيف لويسكي هنا أن اسم "الخوالص" أو "الخالص" في المجرية الذي يرد في عدة صيغ: Kaliz و Caliz وغيرها في اليونانية Lhalisioi إنما ينحدر من الاسم الروسي Khvalisi القديم الذي أطلق على خوارزم والخوارزمية.

(٣٠) **المصدر السابق.**

(٣١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الملك أندرو بدأ عهده الطويل (١٢٠٥-١٢٣٥)، بالاستمرار في سياسة التسامح مع المسلمين التي كانت تسمح لهم بمشاركة واضحة في الدولة والمجتمع، ولكنه تعرض لضغوط قوية من الكنيسة الكاثوليكية حتى اضطر إلى تغيير سياسته إزاء المسلمين ابتداءً من سنة ١٢٢٢م، فقد أصدر في تلك السنة الميثاق المعروف باسم "المرسوم الذهبي"، الذي حدد بموجبه حقوق المجر ، والذي حدّ فيه من حقوق المسلمين واليهود.ويبدو أن هذا التضييق على المسلمين بقي على الورق حتى ١٢٣٢م، حين أصدر الأسقف روبرت استرغوم مرسوماً بالحرمان للمجر، ودعا فيه المجر المسيحيين على عدم التعامل مع المجر المسلمين، وتحت هذه الضغوط عقد الملك أندرو الثاني في ٢ آب ١٢٣٢م، اتفاقية مع ممثل الباب غريغوري التاسع تعهد فيه بالتضييق على المسلمين واليهود في المجر، بما في ذلك ارتداء ما يميزهم عن المسيحيين:
Lewicki, Madjar, p. 1020; Smail Balic, "Podunavski Muslimani srednjega vijeka", Bosanski pogled 3, Fribourg 1962, P. 14.

(٣٢) Lewicki, Madjar, p. 1021; Balic, Podunavski Muslimani, p. 14

صدر هذا القرار /التخيير في سنة ١٣٤١ وفي غضون ذلك صدرت "ثلاثية فريبتس" (مجموعة القوانين المجرية) التي تتضمن ما يلي:

المادة ٤٦: كل من رأى اسماعيلياً (مسلماً) يصوم أو يأكل على غير الطريقة المسيحية أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير أو يغتسل قبل الصلاة أو يؤدي شعائر دينه، وأبلغ الملك بذلك فيعطى له جزء من أملاك ذلك الاسماعيلي (المسلم).

المادة ٤٧: على قرية اسماعيلية (مسلمة) أن تشيد كنيسة وأن تؤدي لها الضرائب المقررة، وبعد الانتهاء من تشييد الكنيسة يجب أن يرحل نصف مسلمي القرية.

المادة ٤٨: لا يسمح لاسماعيلي (المسلم) أن يزوج ابنته من عشيرته، وإنما يتحتم عليه أن يزوجها رجلاً من الجماعة المسيحية:

باليتش، **الإسلام في المجر**، ١٩-٢٠.

(٣٣) على الرغم من أن المسلمين كانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحية خلال القرن الرابع عشر وأصبحوا يتكلمون المجرية كغيرهم إلا أنه بقي شيء من ملامحهم على الأقل حتى نهاية القرن الخامس عشر. فقد أقدم أ. بونيفينوس Bonifinivs وصفاً حياً لهؤلاء المسلمين – المسيحيين الآن جاء فيه أنهم "يرسلون لحاهم وشواربهم ويرتدون الزي الفارسي": .Lewcli, Madjar, p. 1021. والأهم من هذا أن المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس يؤكد على ما خلفه هؤلاء المسلمين في الأدب الشعبي المجري. فهو يوضح بالاستناد إلى ما توصل إليه الباحث المجري ب، بارتوك أن الوزن والعروض في الشعر الشعبي المجري والموضوعات في الأغاني الشعبية المجرية إنما هي من أصل شرقي إسلامي:

عبد الكريم جرمانوس، بين فكرين – **الأثر الشعبي المبدع في النتاج الفكري**، إعداد صلاح دهني، دمشق (فتى العرب)، د. ت.، ص٦٠.

(٣٤) كانت المجر تعاني في مطلع القرن السادس عشر من تململ اجتماعي (فلاحي) كبير ضد الأرستقراطية أدى إلى اندلاع الثورة الفلاحية في ١٥١٤، التي قمعت بشكل دموي، مما جعل بعض الفلاحين يتطلعون بأمل إلى العثمانيين كمحررين لهم. وبعد الانتصار العثماني في معركة موهاتش في ١٥٢٦م، التي قتل فيها الملك المجري لويس الثاني وقضي فيها على معظم الأرستقراطيين

المجرية، أيّد العثمانيون اختيار النبيل زابوليا ملكاً على المجر ضد ادعاء فرديناند هابسبرغ بحقه في هذا العرش. ولكن بعد وفاة زابوليا في ١٥٤٠، أصبحت المجر ولاية عثمانية كغيرها من الولايات مما عزّز الطابع العثماني فيها، وخاصة في المدن (بودابست وغيرها). ومع أن العثمانيين فيها لم يحاولوا نقل وتوطين عائلات تركية مسلمة كما في بعض مناطق البلقان، إلا أن الأمر هنا تغير مع قدوم واستقرار عائلات/جماعات من مسلمي البوسنة المجاورة للاستقرار في المدن المجرية، كما أن المنشآت التي أقاموها (الجوامع والمدارس والحمامات) وانتشار الإسلام التدريجي في المجر جعل الطابع الإسلامي في بعض المدن يبدو أكبر من الحجم الحقيقي للسكان المسلمين، الذين تلاشوا مرة أخرى بعد انحسار الحكم العثماني للمجر نتيجة لمعاهدة كارلوفتز ١٦٩٩.

وللمزيد حول الإسلام في المجر خلال الحكم العثماني انظر: بول كولز، **العثمانيون في أوروبة**، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة (الألف كتاب الثاني)، ١٩٩٣، ص ٨٢-٨٩؛ روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة (دار الفكر للدراسات)، ١٩٩٣، ج١، ص٤٤٤-٤٤٥.

(Iy. Szekely, La Hongrie e Ia don,ination ottomane XV-XVIII siecles, Budapest 1975; L. Fekete, Buda and Pest under Turkesh Rule, Budapest 1976; S.J. Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. I, Cambridge 1976, pp. 91-94. Sugar. A History of Hungary, pp. 83-120.

مركزية سلمية في الدعوة الإسماعيلية

الدكتور محمد زيود

مقدمة:

سلمية بلدة صغيرة من أعمال الشام، تقع إلى الشرق من نهر العاصي، على مسيرة خمسة وعشرين ميلاً من مدينة حماة، وخمسة وثلاثين ميلاً شمال شرقي حمص، وتقع في سهل خصب، على ارتفاع (١٥٠٠) قدم عن سطح البحر، على حافة بادية الشام[١]، وشغل موقعها على مرّ العصور أهمية كبيرة في تاريخها، حيث كانت تلتقي فيها الطرق المشهورة الكبرى الآتية من البادية (تدمر)، ومن العراق وغيرهما.

ومن المرجح أن المدينة عريقة في القدم، يشهد على ذلك آثارها، التي تحتوي كتابات ونقوشاً يونانية[٢]. أما اسمها فقد اختلف الجغرافيون العرب في لفظه، وأصله، فمنهم من كتبه بتخفيف الياء ومنهم من شددها[٣]، وقد أعاد ياقوت الحموي جذور هذا اللفظ إلى رواية ترتبط بالمؤتفكة: "لما نزل بأهل المؤتفكة ما نزل بهم من عذاب" رحم الله منهم مائة نفس نجاهم، فانتزحوا إلى سلمية، فعمروها وسكنوها، فسميت سلم مائة، ثم حرّف الناس اسمها وقالوا سلمية[٤]". وبذلك تكون جذور الاسم عربية، إلا أن الأرجح أن التسمية تعود للأصل اليوناني "سلمياس" نسبة إلى جذور جزيرة يونانية، ومدينة قبرصية تدعى كل منهما سلاميس[٥]، غير أن هذا لا يعني بالضرورة أن من بنى هذه المدينة هم اليونان، وربما كان لها اسم في اللغات السورية القديمة، لم يكتشف أو

يعرف حتى الآن[٦]. كما أن هناك آراء وأقوالاً أخرى أوردها بعض الباحثين عن أصل هذه التسمية.

سلمية في صدر الإسلام:

كانت المدينة في أثناء الفتوحات العربية الإسلامية تتبع جند حمص، وجرى فتحها إثر الخطة التي رسم معالمها القائد العربي المسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح مع الخليفة الفاروق[٧]، حيث تم فتحها، وانتزعت من أيدي البيزنطيين، في أثناء فتح حمص سنة ١٥ هـ[٨]، وغدت بعد ذلك ثغراً من ثغور الشام[٩] المهمة والمعروفة، استمرت من أعمال حمص[١٠]، حتى عام ١٥٠٠م، حيث تبعت مدينة حماة إدارياً، في العصر المملوكي.

وقد ذكرتها المصادر الإسلامية، وأكدت على أهميتها الجهادية، والثغرية، ودورها الدفاعي، فقال عنها الإدريسي إنها حصن، كالمدينة[١١]، مؤكداً على أهميتها في حماية الإسلام والمسلمين. على الرغم من أن هناك من يرجح أن المدينة كانت خراباً حتى عمرها العباسيون[١٢]، لكن الثابت أنه كان لها وجود في تلك الفترة، فقد أورد خليفة بن خياط في تاريخه، وفي أحداث سنة ٦٦هـ/٦٨٦م، التالي: "وضحى عامئذٍ أمير المؤمنين بسلمية"[١٣]، وهذا يعني أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ)/(٦٨٥-٧٠٥م)، قام في السنة الثانية من خلافته بنحر الأضاحي في هذه البلدة، وهذا يدل على وجود جماعات عربية بشرية مهمة، كانت تستقر فيها، وكان الخليفة الأموي يحرص على إرضائهم، وكسب تأييدهم، ولاسيّما إذا ما علمنا اضطراب الأوضاع الشديد خلال تلك الفترة، وخروج معظم أقاليم الدولة على الطاعة الأموية، مبايعتها لعبد الله بن الزبير[١٤]، الذي أعلن الثورة في الحجاز ضد الأمويين منذ مأساة كربلاء عام ٦١هـ/ ٦٨١م، واستمرت إلى سنة ٧٣هـ/٦٩٢م، مما هدّد بزوال الدولة الأموية.

نخلص إلى القول إلى أهمية سلمية آنذاك وطول تلك الفترة من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية وكذلك الاقتصادية، ولاسيّما التجارة منها باعتبارها واقعة على أطراف البادية الشامية المهمة، وعلى الطريق التجاري العالمي وتشغل محطة تجارية، ومركزاً مهماً من المراكز التجارية في وسط بلاد الشام،ولهذا كانت ولا تزال منطقة ومؤثرة في تاريخ بلاد الشام ومدنه الوسطى وعلى رأسها مدينتا حمص وحماة، ويزيد في أهميتها جميعاً كونها تشكّل بقعة متوسطة في إقليم مهم ومميز هو "الشام" عبر العصور، حيث كان لافت الأنظار، وقبله الطامعين، والمتطلعين إلى النفوذ، والراغبين في استغلال إمكانات بلادنا العربية الإسلامية، وسلب خيراتها. وهذا ما جعل الشام، ومنها هذه المنطقة الوسطى، من المواقع الفريدة في التاريخ، التي هيأتها الظروف والأحداث للتصدي للطامعين كلهم، وجعلتها مركزاً قيادياً دائماً.

سلمية في العصر العباسي:

لا شكّ أن المدينة استمرت تشغل دوراً مهماً في العصر العباسي، ويشهد على ذلك الأحداث العسكرية التي دارت على أرضها، منذ قيام خلافة بني العباس في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وظهر دورها المهم في ضرب حركات التمرد والقوى المناوئة في الشام ضد العباسيين، وساهمت في توطيد الحكم العباسي، إلى أن أصبحت مركزاً مهماً من المراكز التي قادت حركات عديدة معارضة لسلطة العباسيين، وإنهاء حكمهم، فقد شهدت سلمية أحداث المعركة التي جرت وقائعها بين القائد العباسي عبد الله بن علي أول القادة العباسيين وعمالها في بلاد الشام، وبين أبي الورد مجزأة بن كوثر بن زفر بن الحارث الكلابي[١٥]، وهو من قادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وكان النصر فيها حليفاً للعباسيين، مما ساعد على توطيد أقدامهم في بلاد الشام، وقد جرت وقائع المعركة في مرج الأخرم، وجاء على ذكرها كل من الطبري وابن الأثير، غير أن كليهما لم يُشر إلى سلمية لا من قريب ولا من بعيد[١٦]. إلا أن ياقوت الحموي ذكر أن مرج الأخرم يقع بنواحي سلمية أو حمص[١٧]. ويرجع أنه المرج المسمى حالياً

بالقريم في غربي سليمة، إذ لا يوجد في شمال الشام قاطبة مرج يقرب اسمه من الأخرم سوى الذي في سلمية، ويذكر أنه يعرف اليوم باسم "الخصيمية ويقع شمال سلمية".

وقد ورد ذكر هذه المعركة عند ابن الأثير، وتتلخص بخروج مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي. الذي كان عبد الله بن علي العباس، قد أقرّه على إمارته قنسرين، وقد أيّد أهالي قنسرين أميرهم بالخروج على السفاح (١٣٢–١٣٦هـ)/ (٧٥٠–٧٥٤م)، أول الخلفاء العباسيين، فلبسوا البياض، وانضم إليهم أهالي حمص، وبايعوا عبد الله بن يزيد بن معاوية بالخلافة، ويظهر أن "ابن الورد"، لم يكن راضياً عن الأساليب القاسية التي كان العباسيون يستخدمونها للحصول على الأموال والأراضي من أصحابها، فقرّر أن ينتقم منهم[١٩]. وتجمع لهؤلاء الثائرين قوة كبيرة زادت على الأربعين ألف مقاتل، عند نشبت المعركة قُتل من الطرفين ألوف، ودارت الدائرة على الثائرين، فهزموا وقتل ابن الورد، أما عبد الله بن يزيد فقد فرّ إلى الحجاز، وظل طريداً إلى أن قتل في أيام الخليفة المنصور (١٣٦–١٥٨هـ)/ (٧٥٤–٧٧٥م)[٢٠].

هذه الثورة المبكرة ليست بالأمر الفريد في تاريخ هذه المدينة المليء بالاضطرابات، وتشير إلى أهميتها، فلم تمنع هذه الحركات العباسيين أنفسهم من الاستقرار بها، فقد نزل بها عبد الله بن صالح ورهط من الهاشميين، وذكر اليعقوبي أن عبد الله بن صالح هذا ابتناها[٢١]، والحقيقة لا يعرف ما إن كانت البلدة خراباً فجاء عبد الله فأعاد إعمارها،أو ربما يقصد أنه زاد بها في البناء، مع أنه من غير المستبعد أن تكون البلدة قد تعرضت للدمار التام، على أثر المعركة الضارية التي دارت بالقرب منها، وكيفما كان الأمر فقد أصبحت منذ ذلك الحين بلدة عامرة يشكل بها الهاشميون الأغلبية، حيث ذكر أبو الفداء نقلاً عن ابن حوقل أن "سلمية" الغالب على سكانها بنو هاشم[٢٢]. وقد كان وجود الهاشميين في سلمية معروفاً، ولم يكن خافياً للعيان على أحد وشكّلوا بها

قوة مهابة، فقد ذكر الأصفهاني، أن أحد شعراء الدولة العباسية المعروفين، وهو عبد السلام بن رغبان المعروف" "بديك الجن" عندما اعتلّت حاله، قصد سلمية، وأقام عند أحمد بن علي الهاشمي[٢٣]، لمدة طويلة حتى تحسن حاله.

كما حظيت سلمية بزيارة الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ)/ (٧٧٥-٧٨٥م)، الذي مرّ بها في عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، عندما قصد الشام عاملاً على كسب مودة أهلها، فزار دمشق وبيت المقدس وحاول تسوية الخلافات القبلية المختلفة في بلاد الشام، ووزع عليهم الأموال وعندما كان في طريقه إلى بيت المقدس، نزل ضيفاً عند عبد الله بن صالح، وذكر الطبري أنه أعجب بما رأى من منزله بسلمية[٢٤]. وكان عبد الله بن صالح هذا يحظى بمكانة مميزة ومرموقة لدى الخلفاء العباسيين، لهذا فقد زوجه الخليفة المهدي من أخته. وعيّنه والياً على الجزيرة[٢٥]، ويعود لعبد الله بن صالح الفضل في استصلاح أرض البلدة، وإنشاء نظام للري فيها، يعتمد القنوات، فقد أجرى إليها نهراً، واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران[٢٦]، ويؤكد هذه الحقيقة أبو الفداء. ويلفت الانتباه إلى أهميتها الزراعية، فيقول عنها: "إنها بلدة نزهة ومياهها قنى، ولها بساتين كثيرة[٢٧]، كما ذكر نقلاً عن ابن حوقل أن سلمية "على طرف البادية الخصبة"[٢٨]، ونقلا عن العزيزي قوله إنها كثيرة المياه والثلج رخية خصبة"[٢٩].

تعرّضت سلمية في سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، إلى مأساة كبيرة شلت حركتها، وذلك نتيجة للخلاف الذي حدث بين الإمام المهدي وبعض دعاة الكوفة والقرامطة من آل زكورية ابن مهروية، وخروجهم على سلطة الإمام، وإعلانهم الثورة على العباسيين، دون موافقة الإمام، وهاجموا الشام، ودخلوا سلمية بعد رحيل المهدي عنها، ودخل الحسين ابن زكورية (صاحب الشامة) والمعروف بأبي مهزول سلمية، وأقدم على قتل جميع سكانها دون استثناء، فافتقرت للوافدين إليها من التجار والعلماء، وفقدت مكانتها، وغدت مرتعاً للغزاة وقطاع الطرق. ورحل أهلها عنها إلى أماكن آمنة ومستقرة.

ولم يمضِ الوقت طويلاً حتى استعادت سلمية عافيتها وأخذت دورها السياسي والحضاري وساهمت في أحداث الشام المهمة. وشهدت المنطقة الوسطى صراعات كبيرة بين القوى الطامعة في الشام والمتطلعة إلى النفوذ من إخشديين وحمدانيين وغيرهم من القادة المتعشقين للنفوذ والسلطة، وقادوا معارك عديدية على بطاحها ونالها منهم المتاعب.

وفي العصر الحمداني في الشام (٣٣٣-٣٩٤هـ)/ (٩٤٤-١٠٠٣م)، أصبحت سلمية مدينة مهمة لهم وجاءت مكانتها عندهم بعد حاضرتهم حلب، وأسهمت في درء الأخطار الاقتصادية، وتأمين المستلزمات العسكرية الكبيرة التي احتاج إليها الحمدانيون في صراعهم المرير ضد البيزنطيين معيناً قوياً حتى انهيار دولتهم حلب.

وعلى أثر التوسع الفاطمي في بلاد الشام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، أصبحت سلمية من المدن المحببة للفاطميين مسقط رؤوس أسلافهم، ودار هجرتهم ومنطلقهم إلى المغرب، ولهذا فإنه على الرغم من أن الحكم الفاطمي للشام لم يكن مستقراً ولم يكن الوئام قوياً بين الفاطميين ومعظم مدن الشام، غير أن سلمية لقيت عناية خاصة من الفاطميين، وشاركت في نشاطاتهم، وتأثرت بأحداثهم السياسية والعسكرية.

هذه التركيبة السكانية من أرستقراطية بني هاشم، إضافة لتطرف المدينة، ولموقعها المهم وأهميتها الاقتصادية، ولاسيّما الزراعية منها والتجارية، ومناخها الجيد وكل ذلك ظهر بشهادة رحّالة جغرافيين مشهود لهم بالخبرة، وصدق الكلمة، وبُعد الأفق، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه البلدة، كانت على قدر من الأهمية الاقتصادية والاجتماعية، وكل ذلك أهلها لأن تصبح مركزاً مهماً، ومعقلاً ملائماً للحركات السرية المناوئة للخلافة العباسية، وتبوأت مركز القيادة لحركة المعارضة، ولأهم وأوسع حركة فكرية عرفتها بلاد الشام، لا بل الأقاليم الإسلامية قاطبة طوال العصر العباسي، وعملت ضد العباسيين خلافتهم لفترة طويلة، وتمكنت من هزّ العرش العباسي، وهددته

بالسقوط، وبدأ كل ذلك باختيار الإمام عبد الله بن محمد لسلمية واتخاذها مقراً وسكناً له وغدت مركزاً له يقصده الدعاة وتأتيه الأموال والأخبار من كل الأمصار.

سلمية والإسماعيلية:

يرتبط اسم سلمية بالإسماعيلية(٣٠): وكلما أتى اسمها، يتبادر إلى الذهن الدعوة الإسماعيلية، ودور أئمتها المستورين المستقرين، منهم والمستودعين، ودعاتهم وحججهم، والحركات الفكرية والسياسية التي قادوها، والأفكار المستفيضة التي نشروها في جميع أنحاء العالم الإسلامي بوساطة دعاة ومؤدين ومريدين وجماعات مختلفة آمنت بفكرتهم عن قناعة أو غير قناعة.

ولا بدّ أن نذكر أيضاً المآثر التاريخية، التي عمّت مناطق شاسعة من العالم الإسلامي من مغربه إلى مشرقه، إلى قيام دول، وبناء حواضر. كانت نشأتها نتيجة جهود الإسماعيليين، الذين اتخذ أئمتهم من سلمية مقراً، ودار هجرة، مركزاً لوضع الخطط والعمل ضدّ الخلافة العباسية في بغداد للإطاحة بها.

وعلى الرغم من اختلاف الروايات وتباينها، وتناقضها الشديد عن هؤلاء الإسماعيليين، الذين أطلقوا على أنفسهم الفاطميين، وعرفوا كذلك بالعبيديين، والجدل الكبير الذي نشأ حول معتقداتهم، وآرائهم الفكرية والعقائدية، وكذلك أصولهم الاجتماعية، والرؤى المتباينة حيال انتسابهم إلى العلويين من أبناء علي وفاطمة الزهراء (رضي الله عنهما). أو اعتبارهم ميمونيين(٣١)، قداحين وغيرهم، لكن ذلك لا يمكن أن يطمس الحقيقة الواضحة، ولا يمكن تجاوز ما فاض عن مدينة سلمية حاضنة الإسماعيلية، ودعاتها وأفكارهم، وما حدث نتيجة لهذه الدعوة السرية المنظمة والدقيقة، حيث صارت لغزاً يصعب حله. حتى اعتبرتها الحركات الفكرية والسياسية منها التي ظهرت فيما بعد في أنحاء مختلفة من العالم مصدر إلهام لها، ونهلت من خططها وتنظيماتها، وستبقى النتائج التي أفرزتها الدعوة الإسماعيلية التي انطلقت من سلمية شاهداً أكيداً على أهمية هذه المدينة، وتوضح مدى فعالية هؤلاء القادة الموجهين الذين

خرجوا منها وما أدّوه من أعمال أدّت إلى قيام دول، ونشوء مدن، وتطور حضارات، وما رافق كل ذلك من أحداث سياسية وعسكرية، وكل ذلك يؤكد أهمية سلمية وأئمتها المستورين ومكانتها ودورها التاريخي عبر العصور العباسية، ومن هنا تأتي أهمية هذه البلدة باعتبارها أمّاً ومحوراً لنشوء المدن وولادة دول، فما المهدية الفاطمية، والمنصورية في المغرب العربي، ومن بعدهما القاهرة المعزية وغيرها من الحواضر المهمة إلا مدن مهمة شيدت بما فيها من معالم لتخدم دعوة انطلقت أساساً من هذه البلدة الصغيرة، تلك الدعوى التي نشأت سرية بمحمد بن إسماعيل بن جعفر، وظهرت بالإمام المهدي عبد الله أو (عبد الله) أول الخلفاء القائمين في المغرب العربي.

وإذا ما أردنا التحدث في أصول هؤلاء الإسماعيليين، ونسبهم، فإننا سنجد أنفسنا أمام أمواج متصارعة وتيارات متعارضة، وأهواء مختلفة لا يمكن التوفيق بينها، ويستحيل تعايشها أو التأكد منها، ولذلك كان علينا أن نتعرض بإيجاز لمجمل هذه الآراء، التي تأثرت بالسياسة، ونأخذ برأي مؤرخي هذه الجماعة، وبالدراسات الحديثة. ونحاول أن نركّز على أدوارهم الحضارية وهو المهم مبتعدين قدر الإمكان عن الآراء الفلسفية والعقائدية، قد لا تصيب الهدف الذي نصبو إليه، ولا تحلّ اللغز الإسماعيلي، بقدر ما تضفي عليه التعتيم والضبابية.

فالروايات المعارضة(٣٢) لهم وعلى رأسها ما جاء على لسان ابن النديم في الفهرست تربط ما بين الإسماعيلية والديصانية الثنوية(٣٣)، وتعيدهم إلى الميمونية القداحية الثنوية. وبعضهم ينسبهم إلى أصول يهودية(٣٤)، ويقول عنهم: إنهم مغرقون في يهوديتهم.

وعلى الرغم من أن المقريزي أورد تفصيلاً هذه الروايات في أخباره عن الإسماعيلية إلا أنه أكد أنه بريء منها، وذهب إلى التأكيد على صحة رأي معلمه ابن خلدون الذي أكد صحة النسب الفاطمي(٣٥)، التي ترى أن الإمام: من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه من بعده، والإمام بعد إسماعيل بن جعفر هو ابنه محمد، ويلقب

بالمكتوم(٣٦). وبعد المكتوم ابنه جعفر بن محمد بن إسماعيل، ويلقبون جعفر بالمصدق، وبعد جعفر المصدق ابنه محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، وقالوا فولد محمد الحبيب عبيد الله بن محمد بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن الإمام إسماعيل، وعبيد الله هذه هو القائم بالمغرب "الملقب بالمهدي" المنسوب إليه الخلفاء الفاطميون بالمغرب ومصر(٣٧).

مع اختلاف ظاهر الروايات الإسماعيلية التي تؤكد النسب الفاطمي، فهي تقول إن الإمام بعد جعفر الصادق إسماعيل، وقد نص عليه بالاتفاق من أولاده، إلا أنهم اختلفوا في موته في حياة أبيه، فمنهم من قال إنه لم يمت غير أنه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس، ومنهم من قال الموت صحيح، والإمام بعد إسماعيل، محمد بن إسماعيل وهؤلاء يقال لهم المباركية(٣٨)، ومنهم من وقف على محمد بن إسماعيل، وقال برجعته بعد غيبته، ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثم في الظاهرين القائمين بعدهم وهم الباطنية فبعد محمد استقر الإمام عبد الله الرضي بسلمية من أعمال حمص، ثم اضطر إلى الخروج منها إلى مازندران والأهواز مع ابنه أحمد ولي عهده في الإمامة، أثر تتبع العباسيين في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)/ (٨١٣-٨٣٤م) له، ثم عاد بعد مدة إلى سلمية، بعد أن غدت دار هجرة للأئمة الإسماعيليين. بعد موته تولى ابنه أحمد الإمامة، فاتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له، كما اتخذه أبوه من قبل، وغدت سلمية المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية، وخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم في البلاد الإسلامية، واستمر هذا الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، واستقر هذا في سلمية آمناً مطمئناً لكرمه وجوده، وتفانيه في إظهار محبته للهاشميين، وتفاني أصحابه في خدمته، ونصرته، وذاعت دعوته في سلمية وغيرها وحققت الدعوة الإسماعيلية انتصاراً كبيراً في اليمن على يد كل من علي فضل الجيشاني، وأبي القاسم الحسن بن فرح بن حوشب بن زادان النجار الكوفي ، الذي عرف بمنصور اليمن، منذ أن وصلا إليها في سنة ٢٦٨هـ/

٨٨١م،[٣٩]، وأرسل ابن حوشب من اليمن دعاة إلى اليمامة، وعمان، والبحرين، والسند، والهند، ومصر، والمغرب[٤٠]، وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلواني[٤١]، وطلب منهما نشر الدعوة الإسماعيلية، وأمرهما بالعمل، والتمهيد لظهور المهدي المنتظر وقيام دولته.

كان الإمام الحسين بن أحمد حريصاً على نشر دعوته في بلاد المغرب، لذلك أرسل أبا عبد الله الشيعي، وهو الحسين بن أحمد بن محمد زكريا "إلى اليمن سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩٢م، وأمره أن يدخل في طاعة ابن حوشب، والتعلم منه والاقتداء به. ثم يرحل بعد ذلك إلى المغرب لنشر الدعوة الإسماعيلية، فقدم هذا إلى اليمن، ومكث فيها عاماً كاملاً، ثم انطلق بأمر من ابن حوشب إلى المغرب بعد أن قال له: "إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادرْ فإنها موطأة، ممهدة ذلك"[٤٢]. واستمر أبو عبد الله موالياً للإمام بسلمية الحسين بن أحمد والمعروف باسم "محمد الحبيب" وتابع إرسال رسله وهداياه إلى سلمية، وقد كُتب لهذا الداعي الإسماعيلي أبو عبد الله الشيعي النشيط أن تقوم الدولة الفاطمية على يديه، وهو الذي استدعى الإمام من سلمية، للحضور إلى المغرب بعد أن تحققت له النجاحات الكبيرة هناك، لكي يستلم زمام الأمور، ولذلك فقد قال عنه المقريزي: "أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال"[٤٣].

أما مصادر الشيعة الإمامية (الاثني عشرية)، أو الموسوية فيفهم منها أن ميموناً وابنه عبد الله كانا محدثين، شيعيين، موثوقين، ولم يكونا ديصانيين ثنويين كما تنسبهما إلى مكة[٤٤]، وهناك من يرى أن القداح الإسماعيلي شخصية خيالية اختلقها الإسماعيليون أنفسهم لرغبتهم في إسباغ الاحترام على حركهم وذلك باقترانها بشخص معروف من أصحاب الأئمة العلويين أمثال الصادق وغيره. وقد ورد في كتابه "تبصرة العوام"، لمؤلف شيعي مجهول أن عبد الله كان من أصحاب جعفر الصادق، وابنه إسماعيل، ولما مات جعفر أغرى حفيده محمد بن إسماعيل وذهب معه إلى مصر حيث مات

محمد، وخلّف جارية حبلى فقتلها عبد الله، وجعل بدلها جارية له، ولدت له طفلاً ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل، ونال بذلك الإمامة(٤٥)، في حين يؤكد بعض الباحثين بأن ميمون القداح، وعبد الله بن ميمون القداح، هما ألقاب من الإمام محمد بن إسماعيل وابنه عبد الله بن محمد.

وهناك بعض المصادر الإسماعيلية توجد بها إشارات تجعل من ميمون القداح مستودعاً لمحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن ميمون كان حجة في زمن الستر، وهذا ما يساعد على اختلاط الروايات، وعدم وضوح الرؤيا، وتشابك الروايات، كما ذكر في كتب الدروز، وهي إحدى فرق الإسماعيلية بأن عبد الله هو ابن ميمون وأن ميموناً هو جد سعيد أي المهدي(٤٦) عبيد الفاطمي.

وكيفما كان الأمر فقد تمكّن المهدي من الخروج من سلمية، وأسّس الدولة الفاطمية في المغرب. ولاشك بأن قيامها كان مسبوقاً بجهود تكفل بها الدعاة الإسماعيليون الذين كانوا يوجهون من سلمية(٤٧).

سيبقى موضوع الإسماعيلية، ولاسيّما مرحلة الستر منها، وانتسابهم إلى الفاطميين لغزاً لا يحلّ، نظراً لاختلاف الآراء، وتنوع الروايات، والصعوبة في علاج مثل هذه المواضيع الباطنية السرية، التي تمور بالرموز والإشارات والمصطلحات المعقدة والمستعصية، والواجب العلمي يفرض علينا أن نبحث فيها ونعالجها بتجرد ونزاهة للوصول إلى الحقائق الصافية من الدرن والشوائب، في ضوء ما نصل إليه من أدلة ونصوص مقنعة، ومهما كانت المحاولات جادة ونشيطة فلن تصل إلى الحجج المقنعة لإظهار الإسماعيلية على حقيقتها في المرحلة الأولى، لأن الغموض فيها واسع، كما أن مبدأ الستر والتقية التي تبناه الإسماعيليون، وما نتج عنهما من نظام سري صارم، لم يسمح بالكشف عن أقل الأمور أهمية حتى البديهيات منها. وأدّى ذلك كله إلى التكتّم على تحركات الأئمة، وعدم الكشف عن أشخاصهم، لكل ذلك صار من غير الممكن تتبع حركة الفرقة الإسماعيلية وتطور أحداثها في ذلك الدور، ومما ساعد على

استمرار الغموض مدة طويلة وزاده تعقيداً المعتقدات الراسخة والمؤمنة بأن التحدث عن هذه المرحلة التي رغب الأئمة بسترها أمر مخلّ بالعقيدة، لذلك فقد حرصوا على عدم البوح بها، والتكتّم التام عليها لأن إظهارها يعدّ خروجاً على العقيدة. كما كان لاحتراق مكتبات الإسماعيلية في كل من القاهرة والموت وغرهما أكبر الأثر في ستر هذه المرحلة وبقاء معظم أحداثها في طي الكتمان، إضافة إلى أن الروايات والأخبار الإسماعيلية التي تسربت من هنا وهناك عن قصد أو غير قصد، شابها الخلاف في الرؤيا والتصوّر، وكان لاختفاء الأئمة وراء[٤٨] حججهم ودعاتهم وتسميتهم بأسماء متعددة، مما زاد في تضارب الأخبار والروايات، وساعد أعداء الإسماعيلية السياسيين من عباسيين وغيرهم، ومخالفيهم في التوجه العقائدي على النيل منهم وكيل التهم إليهم بما يتفق ورغباتهم السياسية والمذهبية، ولهذا كثيراً ما لجأ الخلفاء العباسيون لعقد المجالس المتعددة والحصول على اعترافات منها، وشهادات تتضمن القدح بالإسماعيليين والتشكيك بانتسابهم إلى الفاطميين والعلويين، ولعل أهمها سجل القضاة والعلماء ببغداد سنة اثنتين وأربعمائة في أيام الخليفة القادر (٣٨١-٤٢٢هـ/ / ٩٩١-١٠٣١م)، التي شهد عليه أعلام الناس في بغداد وغالبيتهم من شيعة بني العباس[٤٩]، وتعتمد هذه الوثيقة على ما كتبه ابن زرام وأخو محسن، كما كرّر الخليفة العباسي القائم ذلك وطلب من مجموعة من علماء عصره إصدار وثيقة تنفي انتساب الخلفاء الفاطميين إلى آل البيت وكلا المحضرين تسيطر عليهما الرغبات العباسية السلطوية.

سلمية مركز إلهام وإبداع:

غير أن الأمر الذي لا لبس فيه، والذي تؤكده المصادر والأحداث التاريخية، بأن مدينة سلمية كانت محوراً لتحرك هؤلاء الأئمة والدعاة في الروايات كلّها، كما كانت مقصداً لجمع كبير من الإسماعيليين، وجلّهم جاءها متخفياً على هيئة تاجر أو سائح أو طالب

علم، وقلة من أتاها بشكل علني وكانت تستقطبهم جميعاً لاسيّما بعد أن غدت دار هجرة للإسماعيليين وأئمتهم.

وقد حافظت الحركة الإسماعيلية في سلمية على نشاطها واستمرارها وساعدها على ذلك ما أبدعته الدعوة من أساليب معقدة وسرية، ومراتب دعوية(٥٠)، يقوم الإمام في سلمية على رأسها، وإرساله الدعاة إلى جزر(٥١) العالم الإسلامي، بحسب تقسيمات ابتكروها، وكان الدعاة يتثقفون ثقافة دينية حسب الأصول الإسماعيلية، ويتدربوا على أساليب الدعوة وفق قواعد أساسية بحيث لا يسلك هؤلاء مع جميع الناس مسلكاً واحداً، بل كانوا يخاطبون على قدر(٥٢) مداركهم وعقولهم.

وإلى سلمية كانت توجه الأموال، وضرائب الخمس والهدايا من الأتباع والدعاة والمؤمنين بالإسماعيلية، وكانت هذه الأموال تستخدم لصالح الدعوة الإسماعيلية الكبرى، وتأمين ما يلزمها من وسائل الدعاية والنجاح، ولقد شغلت هذه الأموال دوراً في تخطي المهدي للصعوبات الكبيرة، التي اعترضته في رحلته المشهورة من سلمية إلى سجلماسة وما أغدقه من أموال لتخطي المحن التي كانت تعترضه، ولذلك فقد فشلت كلّ المحاولات العباسية الرامية إلى إلقاء القبض عليه(٥٣).

وقد أشار لكل ذلك الكتّاب والنقّاد والمؤرخون، واتضح لهم أن هذا النجاح الذي رافق هذه الدعوة الإسماعيلية جاء نتيجة لسرية الدعوة، وتماسكها، ودقة تنظيمها، وكثرة أعوانها وأنصارها في معظم المدن الإسلامية المهمة. وهذا التنظيم الدقيق احتذت به حركات كثيرة جاءت بعدهم، واعتبرته دليل عمل لها، كما استفاد الإسماعيليون من تجارب الحركات المعاصرة لهم التي سبقتهم وحالوا تجاوز ما وقعت به من أخطاء أدّت إلى فشلها، وكان من أهم هذه الثورات ثورتا الزط في الأهواز، ووسط العراق سنة ٣٠٥هـ/ ٨١٤م، ثم ثورة الزنج في البصرة في سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٤م(٥٤).

وقد أثمرت الدعوات الإسماعيلية المنظمة التي كانت تتلقى الإشراف والتوجيه من سلمية بأشكال مختلفة، وحققت مكاسب ونجاحات سياسية وعسكرية كبيرة، في كل من

اليمن والعراق والبحرين ومصر والشام والحجاز، وفي مرحلة لاحقة فرض الفاطميون وجودهم وأقاموا دولتهم على منطقة واسعة امتدت من المغرب الأقصى حتى بغداد بما في ذلك الحجاز واليمن والشام، وتمكنت من تحقيق حماية الأماكن المقدسة في كل من الشام والحجاز، وانتزعها من الخلافة العباسية ونالت دعواتها بالخطابة لها منابرها المقدسة، كما أظهر الأمير البساسيري الدعوة الإسماعيلية في بغداد وخطب لهم على منابرها حولاً كاملاً[٥٥].

لم يقتصر نشاط أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب على العمل الدعوي، بل عمل عسكرياً على بسط نفوذ الفاطميين على المغرب[٥٦]، ثم أرسل إلى المهدي في سلمية رسلاً تطلب منه القدوم، ولما كان المهدي يعاني من ملاحقة السلطات العباسية له، وكذلك القرامطة أيضاً نتيجة للخلافات التي أدّت إلى انشقاق فرع من القرامطة عن أصل الدعوة في سلمية وقاد حركة عسكرية ضدهم[٥٧]، لهذا فقد فرّ عبد الله من سلمية، وتوجّه إلى المغرب، وقبض عليه في سجلماسة[٥٨]، غير أن أبا عبد الله الشيعي جنّد الجيوش وتمكّن من إخراج المهدي من سجنه، ودعا به أميراً للمؤمنين، بعد أن استطاع إزالة ملك بني الأغلب من إفريقية، وملك بني مدرار من سجلماسة وملك بني رستم من تاهرت[٥٩]، وذهبت جميع جهود الدولة العباسية في القضاء على هذه الدعوة أدراج الرياح[٦٠].

وقد واجه الفاطميون متاعب جمة خلال إقامتهم في بلاد المغرب بسبب كثرة الخارجين عليهم[٦١]، فرنوا بأنظارهم نحو بلاد أكثر استقراراً فكانت مصر التي استطاعوا امتلاكها سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، ونقلوا إليها حاضرة خلافتهم الفاطمية[٦٢]، ثم اقتضت الضرورات العسكرية الاستراتيجية العليا الفاطمية التوجه نحو الشام والعمل على ضمها وكان لهم ذلك وخطب لهم على منابرها قبل نهاية عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م[٦٣]، ثم بسطوا سلطانهم على الأراضي المقدسة فدعي للخليفة المعز الفاطمي في المسجد الحرام والمدينة المنورة[٦٤]، لكن الانتصار السياسي الأكبر للفاطميين ربما تجسد

بنجاح القائد التركي أرسلان البساسيري بالاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإقامته الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي بسائر أنحاء العراق[٦٥].

ولم يقتصر نجاح الفاطميين على الجانب السياسي والدعوة، بل كانت لهم مآثر حضارية كبيرة خلفتها آثارهم التي لا تزال باقية في الأماكن التي بسطوا سلطانهم عليها وتؤكدها مظاهر حضارية مختلفة، فقد حرص الفاطميون على تشجيع العلم والأدب وأدركوا أن نجاح الدولة باعتمادها على العلماء، ولهذا فقد عملوا منذ إقامة خلافتهم في المغرب، وبعدها في مصر، على الاعتماد على العلم والعلماء، ونهضوا بالمغرب نهضة أدبية وشعرية فاستحقوا أن يقال عنهم إن في عهدهم تمّ استكمال تعريب المغرب الإسلامي[٦٦].

ولا بدّ أن نشير إلى أن هذه الانتصارات التي تحققت على أيدي الإسماعيليين وأتباعهم لا تعود لأسباب دينية ومذهبية فحسب، وإنما لأنها اشتملت على فكر اقتصادي واجتماعي واضح ومميز، وهذا ما يفسر الإقبال على الدعوة وتوجه كثير من الناس ولاسيّما الفقراء والعامة، والمضطهدين اقتصادياً، نحو التعلق بما منّتهم الأفكار الإسماعيلية ووعدتهم به، ودعت لحياة يسودها نظام اجتماعي واقتصادي يحقق العدالة، ويطرح فكرة التعاون والمساواة، موضع التنفيذ وهذه الدعوات تتفق مع ما طرحه الفكر الشيعي بشكل عام، ودعوته لتحقيق العدالة على يد المهدي المنتظر، والذي يعدّ الأساس الفكري الذي قام عليه (نظام الألفة)، وهو ما قامت عليه وتبنته الدعوة القرمطية[٦٧]، إحدى الدعوات الإسماعيلية، وهذا ما يوضح كثرة أتباع هذه الدعوة في جنوب العراق وبادية الشام، وفي هذه المنطقة بالذات "المنطقة الوسطى السورية" ، وقد أشارت المصادر إلى ما يؤكد ذلك، وبينت اعتناق الكثرة من أهالي للأفكار الشيعية ومنها القرمطية، وزاد النشاط القرمطي في الشام قبل نهاية القرن الثالث الهجري وساهموا في إسقاط الحكم الطولوني ثم الإخشيدي[٦٨]، ولم يأتِ منتصف القرن الرابع الهجري حتى كان النفوذ القرمطي كبيراً في الشام ودفعت

أمهات مدنها الضرائب والإتاوة إلى القرامطة(٦٩)، وكان هذا النفوذ ولاسيّما المادي منه، وامتناع الفاطميين عن دفع هذه الإتاوات إلى القرامطة، وراء الصراع القرمطي الفاطمي وشكّل الأسباب الجوهرية في هذا الصراع الذي عمّق الخلاف الفاطمي القرمطي، وقطع معظم الروابط بينهم(٧٠).

كما يُظهر النشاط الفاطمي في الشام وغيرها من أقاليم الدولة الإسلامية أن النظام الاقتصادي الإسلامي الذي كان سائداً في تلك الفترة، لم يكن على ما يرام، وكان فيه ثغرات كبيرة استوجبت الإصلاح، وهذا ما يساعد على تقبّل هذه الدعوات القرمطية، التي دعت إلى التنازل عمّا يملكه الأعضاء المؤمنون والمنتسبون إليها، لكي يصبح ملكاً عاماً، ويعمل في هذا النظام كل فرد من جانبه على تنميته، ويأخذ منه فقط ما يحتاج إليه(٧١)، كما أدّى سوء الوضع السياسي والاقتصادي في العصر العباسي الثاني إلى تحول كبير في الوضع الاجتماعي، وساعد على اتساع المعارضة الفكرية الشيعية ونموها في بلاد الشام وغيرها.

وعلى هذا الأساس الاقتصادي والاجتماعي الذي يوفر الأمن الاجتماعي والاقتصادي شيّد الفاطميون أول حاضرة لهم في المغرب المهدية، وتم اختيارها بتأنٍ بعد عملية بحث هادفة استمرت فترة طويلة، وأُقيمت في أهم بقعة في المغرب العربي، وجعلت في مكان هيأها لتكون مركزاً مهماً وقاعدة عسكرية وبحرية متقدمة على المراكز الإسلامية الأخرى التي شيّدها المسلمون قبلهم كالقيروان وغيرها وقد ذكر البكري(٧٢): أن البحر كان يحيط بهذه المدينة من جهاتها الثلاث، وأن المهدي اتخذ لهذه المدينة بابين فقط من الحديد زنة كل باب منها ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً، وأقيم بها صهاريج المياه، وأجرى إليها القنوات، وأشاد بها داراً للصناعة يتسع لأكثر من مئتي سفينة، ولما فرغ من إحكام حاضرته سنة ٣٠٥هـ، قال: "اليوم أمنت على الفاطميات"، وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ، ولم يكن يقصد حماية بناته فقط، وإنما كان يهدف بأنها ستحقق للفاطميين تطلعاتهم العسكرية والبحرية في المتوسط، وأمّن دولتهم

وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقة فيما بعد فقد خاض الفاطميون معارك بحرية وفاق نشاطهم التجاري والعسكري جميع القوى الإسلامية البحرية كافة(٧٣). وكان يهدف لهذه المدينة دوراً مهماً وفعالاً في هذه الأحداث السياسية والعسكرية، التي حمت الدولة في أحلك الظروف وفي أشد المحن.

ثم كانت النقلة النوعية المهمة للفاطميين إلى مصر، وإنشاء القاهرة المعزية، لتكون العاصمة السياسية والعسكرية والفكرية في مصر الإسلامية الفاطمية ولترفع من الشأن الإسماعيلي في مصر وغيرها، فاتسعت دعوتهم، وأنشأ الفاطميون مدينتهم القاهرة معتقدين أنها ستقهر جميع أعدائها وأقاموا فيها المعاهد والجامعات لتدريس العلوم والمذهب الإسماعيلي، ويعدّ الجامع الأزهر الذي تم افتتاحه في سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م(٧٤)، على رأس هذه المراكز الفكرية.

وقد أباح الفاطميون العلم بين العامة وكانوا يهدفون من وراء ذلك نشر المذهب الإسماعيلي، فقد أوردت المصادر اهتمام الفاطميين منذ لحظات استقرارهم في مصر. بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية، بما فيها المذهبية المتصلة بالدعوة، والتي كانت تشكّل محور جهودهم الثقافية(٧٥)، واعتمد هؤلاء أساليب عديدة ومتنوعة ومتطورة في سبيل تحقيق ذلك، وكان على رأسها اهتمام الخلفاء والقضاة والوزراء بالناحية الثقافية ، وقيادتهم العلمية وإدارتها، وحضورهم المجالس العلمية، وتشجيعهم المناظرات الأدبية والعلمية المختلفة والدينية كذلك(٧٦).

وقد كان اهتمام الفاطميين بالمكتبات واقتناء الكتب، والتشجيع على اقتنائها، والبحث عنها، والحصول عليها بمختلف السبل وإيداعها في مكتبات القصور الخلافية بشكل لافت للانتباه، ويؤكد كل ذلك مدى الاهتمام الفاطمي بالعلم وتشجيعه وبطرق البحث ، وبالتالي استقطاب العلماء بمختلف الطرق وهذا وذاك أدّى إلى تقدم العلوم بمختلف أنواعها(٧٧).

أفاد المقريزي أن الحاكم بأمر الله أنشأ داراً للحكمة، وحمل إليها الكتب من سائر العلوم، ووقف عليها الأوقاف، وسمح لجميع الناس بارتيادها، كما شيّد داراً للعلم، أصبحت نادياً ومركزاً علمياً مهماً يؤمه العلماء بشتى تخصصاتهم، يمكن أن نقول عنها: أول جامعة أنشئت بالعالم(٧٨)، وكان الحاكم يحرص على الاجتماع بكل طائفة من العلماء على حدة ليتناظروا بين يديه.

ولا شك بأن هذه الأجواء ساعدت على ازدهار العلوم وتقدمها كما غدت مصر قِبلة العلماء الذين توافدوا عليها من شتى أنحاء العالم الإسلامي، ولعل أبرزهم العالم الرياضي الشهير الحسن بن الهيثم(٧٩)، والعالم الجغرافي ناصر خسرو، ثم الحسن الصباح الداعية الإسماعيلي، ومؤسس الدعوة الإسماعيلية الجديدة في بلاد فارس وقلعة آلموت(٨٠).

كما شهدت هذه النهضة العلمية في مصر الفاطمية ظهور علماء كثر في مختلف التخصصات الأدبية، ومن أشهرهم: "أبو الحسن طاهر بن أحمد"، الذي اعتبر إماماً للنحويين في عصره، وكذلك أبو عبد الله القضاعي، الذي صنّف كتاباً في الخطط كان عوناً للمقريزي في خططه(٨١)، وكذلك علي بن منتجب الصيرفي، الذي اشتهر صيته وعلا شأنه في البلاغة والشعر.

أما في مجال الطب والفلسفة، فقد حظيت مصر الفاطمية بتقدّم هذه العلوم الفلسفية، وكثرت فيها المناظرات بين الأطباء، والمجادلات والمراسلات أيضاً، وأدّى ذلك إلى ازدهار هذا النوع من العلوم واتساع أفقه وكثرة التأليف حوله، وقرب الفاطميون الأطباء، وأغدقوا عليهم الأموال والأعطيات والرواتب الدائمة، وقد وفد إلى مصر في عهد الخليفة المعز والعزيز الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، وهو من بيت المقدس، واشتهر هذا بمعرفة العقاقير الطبية وترطيبها، والتقى الأطباء في مصر وناظرهم، وتعلم منهم، وأفادهم من علمه(٨٢)، غير أن أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان، الطبيب المصري المولد والنشأة، الذي جعله الحاكم رئيساً

على سائر الأطباء، وذاع صيته في البلاد الإسلامية، وناظر الأطباء، وراسلوه وطلبوا ما عنده من علوم، ودرس على يديه مجموعة كبيرة من الطلاب، وكان له أثر كبير على الحياة العقلية والفلسفية في مصر[٨٣].

وهكذا فقد ازدهرت العلوم الفلسفية في مصر الفاطمية ازدهاراً لم نجد له مثيلاً في الأقطار الإسلامية الأخرى، ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون من غير الفاطميين يجنحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية وما يرافقها نوعاً من الإلحاد، معتبرين القائمين بها من العلماء زنادقة، كان الفاطميون أوسع أفقاً في تفكيرهم، وكان مذهبهم يعتمد على الفلسفة ولهذا جمعوا إليهم علماء وعقدوا مجالسهم ومناظراتهم تحت إشرافهم، بهدف الوصول إلى المعرفة الحقيقية، معتمدين بذلك على المنطق الإغريقي وفلسفة الأقدمين[٨٤]، وكان هذا التوجه حصيلة الفكر الإسماعيلي الذي بذر ونشأ وترعرع في بطاح سلمية ومن خلال مفكريها.

كما أن الكثرة من الفلاسفة الذي نبغوا في القرن الرابع الهجري وما بعده في العالم الإسلامي، كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من الفاطميين وعقائدهم وما فاض من آراء مفكرين ودعاة وأئمة إسماعيليين مستورين وحجج تعمل لنشر تعاليمهم ، فابن حوقل الجغرافي المشهور كان متشيعاً حتى قيل إنه من دعاتهم، كما اعتبر الفارابي الفيلسوف المشهور عندما كان يتحدث عن فلسفته، كاد يكون أحد دعاة الفاطميين ويشاركهم في الحديث عن التوحيد[٨٥]، وابن سينا قيل إنه إسماعيلي المذهب، حيث ولد من أبوين إسماعيليين، ودرس على أبيه، الذي كان رئيس الدعوة الإسماعيلية في فارس وعلى الداعي عبد الله الناتلي وتعرف منهم على أصول علم التأويل الباطني والمنطق والفلسفة، ولم يكن الناتلي إلا من كبار علماء الإسماعيليين وفلاسفتها[٨٦]، وهذا يدل على مدى نفوذ الإسماعيلية في شرق العالم الإسماعيلي، وكان لذلك أكبر الأثر على استمرارية الدعوة هناك حتى بعد انهيار الدولة الفاطمية.

كما يمكننا أن نذكر كذلك علماء كثيرين ممن عرفتهم الدعوة الإسماعيلية الذين أسهموا إسهاماً مهماً في تطور الفكر الإسماعيلي، واحتلوا مكانة مرموقة في إثراء الفكر الإسلامي والعلمي، وعلى رأسهم أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م)، والقاضي النعمان (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)، وأبو يعقوب السجستاني (ت ٣٣١هـ/ ٩٣٢م)، وحميد الدين الكرماني[٨٧] (ت ٤٤١هـ/ ١٠٢٠م)، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م)، وناصر خسرو (٤٨٠هـ/ ١٠٨٨م)، وأبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٨م)، وغيرهم كثر وهؤلاء شملت مؤلفاتهم جميع مناحي الثقافة في عصرهم، ويعتبرون أعلاماً في الفكر والعلوم وجيمع الأعمال التي تطرقوا لها، وكل منها يمكن أن يشكّل محور بحث مهم خاص به جدير بالدراسة.

ولعل أبرزهم جميعاً جماعة (إخوان الصفا)، وهؤلاء وضعوا المنهاج السياسي والفكري لعموم الحركة الإسماعيلية في رسائلهم الفلسفية، ووضعوها مجموعة من الدعاة الفلاسفة الذين أثروا بقاء أسمائهم طي الكتمان للمحافظة على الطابع السري. وإيماناً بمبدأ التقية الذي آمن به الإسماعيليون، وقد انتشرت رسائلهم في منتصف القرن الثالث الهجري في بغداد، ومنها إلى سائر الأمصار الإسلامية[٨٨]، وعلى رغم وجود من يشكك بصحة انتساب إخوان الصفا للإسماعيلية، إلا أنه من الملاحظ أن رسائلهم ضمت الآراء الإسماعيلية كلها[٨٩]، والإسماعيليون يؤكدون أنها جاءت على لسان أحد أئمتهم المستورين في المرحلة الإسماعيلية الأولى، وهو عبد الله بن محمد ابن إسماعيل، وهو الإمام الذي لوحق من العباسيين بعد أن علموا مكانه في سلمية، واضطر إلى الهرب وقصد مازندران والأهواز، وكان قد اتخذ من عبد الله بن ميمون القداح حجاباً عليه، ولهذا الرجل الفضل في وضع الترتيبات الحكيمة للدعوة الإسماعيلية وانتشارها ونجاحها، في حين ذكر أحدهم أن هذه الرسائل جاءت على لسان أحمد بن عبد الله. ومما لا شك فيه أن معظم أسماء من وصلتنا أخبارهم من علماء إخوان الصفا جاء معظمهم من الإسماعيليين، وممن عرفوا من علمائها[٩٠].

هذه الحضارة التي خلفها الفاطميون، والنفوذ الذي نعموا به لم يأتِ من فراغ، إنما جاء ثمرة لجهد دؤوب، وعمل مضنٍ بدأ في بلدة بدت كأنها مهملة لوقوعها على أطراف البادية، غير أن الواقع أثبت أنها قادرة على أن تنشئ دولاً، وتقيم مدناً وتنهي حضارات، وكادت في مرحلة أن تظفر بعرش الخلافة العباسية في بغداد، وأكدت أنها من بقعة جغرافية تعدّ من أهم مناطق العالم، قدرة على النهوض الحضاري وتحمّل المسؤولية القيادية في جميع الأحوال العامة السياسية العسكرية القتالية منها والحضارية.

وهكذا اتضح أن سلمية شغلت دوراً مهماً في التاريخ الفاطمي/ والعباسي، وعملت على دفع الأحداث، وفق مخططات أئمتها، وعمل دعاتها، وهي وإن لم ينصفها التاريخ أو المؤرخون فإن الصحوة الفكرية، والتجرد العلمي البعيد عن التعصب، لهي كفيلة لإظهار بعض الحقائق التي تنبئ بمستقبل جديد تضيء الطريق للنهوض بالحرية الفكرية، ويزيل الغموض عن الأحداث المهمة في تاريخنا العربي والإسلامي، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير الأمة والوطن والإسلام.

الهوامش

(١) **دائرة المعارف الإسلامية**، ج٢، ص ١١٣٠

(٢) أحمد وصفي زكريا، **جولة أثرية في بعض البلاد الإسلامية**، ص ٢٢٦، دمشق٠

(٣) عبد الله الحلو، **تحقيقات تاريخية لغوية**، ص ٣٢٢، بيروت٠

(٤) ياوقت الحموي، ص ٢٤٠، **معجم البلدان**، ج٠٣ ومحمود أمين، **سلمية في خمسين قرناً**، ص ٠٥٧

(٥) عبد الله الحلو، **المرجع السابق**، ص ٠٣٢٢

(٦) **المرجع السابق**، ص ٠٣٢٣ انظر عارف تامر، **القرامطة بين الالتزام والإنكار**، ص ٤٨-٤٩، دمشق ١٩٩٧م٠

(٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج٣، ص ٠٤٣٨ نبيه العاقل، وخماش، **تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى**، ص ١٤١، منشورات جامعة دمشق ٠١٩٩٨

(٨) **دائرة المعارف الإسلامية**، ج٢، ص ٠١١٣

(٩) البكري، **معجم ما استعجم**، ج٣، ص ٠٧٥١

(١٠) ياقوت الحموي، **المصدر السابق**، ج٣، ص ٠٢٤

(١١) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج٢، ص ٠٦٥

(١٢) أحمد وصفي زكريا، **المرجع السابق**، ص ٠٢٦٧

(١٣) خليفة، **تاريخه**، ص ٠٢٠٢

(١٤) وعن ثورة ابن الزبير، انظر: عبد الأمير عبد حسين دكسن، **الخلافة الأموية (٥٦-٨٦هـ)/ (٦٨٤-٧٠٥م)**، ص ٣١، ٣٧، ٢١٤، بغداد ١٩٧٣.

- محمد زيود/ **مجلة دراسات تاريخية**، العددان ٦١-٦٢، ص ١٣٥-١٣٨، سنة ١٩٩٧، نقلاً عن:
  - الطبري، **تاريخ الرسل**، ج٥، ص ٥٨٠-٥٨٣، وما بعدها.
  - البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٤، ص ٢٠-٢٤ وما بعدها، وج١، ص ٣٤٥.
  - المسعودي، **مروج الذهب**، ج٣، ص ١٠٤-١٠٧، التنبيه والإشراف، ص ٢٦٦. ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص ١٢٤-١٤٤.
  - ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص ٢٣٥-٣٣٤.
  - ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج١، ص ٥٤-٥٥.

(١٥) الطبري، **تاريخ**، ج٧، ص ٤٤٤.

(١٦) الطبري، **تاريخ**، ج٧، ص ٤٤٤. **الكامل**، ج٤، ص ٢٣٥. أحمد وصفي زكريا، **المرجع السابق**، ص ٢٦٨.

(١٧) ياقوت الحموي، **معجم**، ج٣، ص ٣٩٣. انظر: عارف تامر، **القرامطة بين الالتزام والإنكار**، ص ٤٩.

(١٨) أحمد وصفي زكريا، **المرجع السابق**، ص ٢٦٨.

(١٩) الطبري، **تاريخ**، ج٧، ص ٤٤٣. ابن العديم، **بغية**، ج٧، ص ٤٣، **وزبدة الحلب**، ج١، ص ٥٤-٥٥. **الكامل**، ج٤، ص ٣٣٤.

(٢٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٠، ص ٥٤.

(٢١) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٧٦.

(٢٢) أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص ٢٥٥.

(٢٣) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغـاني**، ج١٤، ص ٥٦. وانظـر ص ٤٩٢٩، طبعة دار الكتب المصرية حيث يذكر أن سلمية كانت من أعمال حماة.

(٢٤) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص ٥٦٨.

(٢٥) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص ٥٦٨. دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ١١٣.

(٢٦) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٨٦.

(٢٧) أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص ٨٦.

(٢٨) أبو الفداء، **المصدر السابق**، ص ٢٥٥.

(٢٩) **المصدر السابق**، ص ٢٥٥.

(٣٠) تعتقد الإسماعيلية بأن أدوار كل دور يشمل سبعة أئمة يتمتع الإمام السابع في كل دور بمكانة خاصة تؤهله إعادة النظر في تفسـير الشـريعة، وتأويلهـا ولذلك سميت الإسماعيلية بالسبعية أيضاً، واعتقدوا بأن محمد بن إسماعيل، هـو الإمام السابع فهم لا يعترفون بإمامة الحسن بن علي (ت ٤١هـ/ ٦٦١م)، والإمام المستقر: هو الإمام الذي يتمتع بكل امتيازات الإمامة كلها ولـه الحـق فـي أن يفوضـها لأخلافه. أما المستودع: هو ابن الإمام وأكبر أبنائه، إن كان له غيـره، والعارف بأسرار الإمامة كلها، وأعظم أهل زمانه ما دام قائماً بالأمر، إلا أنه لا حقّ له في تفويض الإمامة إلى ذريته الذين يكونون سادة ولا يكونون أئمة أبـداً. والإمام المستودع هو الذي تكون الإمامة عنده وديعة، وهي عقيدة معروفة عنـد الفرق الغالية قبل الإسماعيلية، فالتنظيم الإسماعيلي للمستودع والمستقر ما هـو إلى تنظيم لمبدأ كان مقراً ومعروفاً سابقاً. وما يتصل اتصالاً قريباً بعقيدة الإمـام المستودع ما يصح أن نطلق عليه الإمام الحفيظ في أثنـاء الظـروف الخطيـرة: "حيث أنه ينتحل بموجبها بعض الدعاة ألقاب الإمام ووظائفه أو يظل الإمام الحق

مستوراً ليدبروا الحركات ويخبروا اتجاه الرأي العام دون أن يتعرض الإمام المستقر إلى الخطر.

وينطبق على هذا ما نجده في كتب الإسماعيلية (الحمداني، **الرسائل**، مجلة الإسلام ٢٠/٢٩٢-٣) بأن الإمام أحمد، الذي ينسب إليه تأليف رسائل إخوان الصفا، إذن للداعي الترمذي أن يظهر بين الناس إماماً، ويتحمل الموت بهذه الصفة، وليتأكد الإمام من أن أمر ظهوره ملائم.

ولقد مثل أبناء الأئمة الروحانيين لاسيما القداحين منهم، مثلوا دور الإمام المستودع أو الإمام الحفيظ، ولهذا يمكن أن يكون سعيد (عبيد الله) وهو آخر الأئمة القداحين المستودعين. وخلفه بعد وفاته (أبو القاسم) (محمد القائم) ولم يكن ولده، ولكنه كان الإمام المستقر الذي كان يعمل من أجله سعيد (عبيد الله). انظر: برنارد لويس، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة، ص ٩٤/١٢٢/١٢٤.

(٣١) وميمون القداح، أظهر أتباع أبي الخطاب محمد بن ربيب الذي نسبت الخطابية إليه، وهي فرقة مغالية، ولم يختلف عبد الله بن ميمون القداح كثيراً عن والده فقد ادعى النبوة أول عهده ثم ترك موطنه وهو (قورج) بالقرب من مدينة الأهواز "ونزل عسكر مُكرم" (بلد من نواحي خوزستان)، وهناك هوجم وهدمت داره، فهرب إلى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب، فكبس هناك فهرب إلى سلمية وفيها نظم دعوته، واشترى ضياعاً، وأخذ بث الدعاة إلى الكوفة وكان أحدهم حمدان بن الأشعث الملقب "بقرمط**"، إليه تنسب الحركة القرمطية". "ولما مات عبد الله خلفه ابنه محمد، وعند مات قام سعيد بالدعوة كان القداحيون قد نجحوا في إقامة شبكة واسعة من الدعاة في كل من الري، وخراسان واليمن، والحسا، والقطيف، وفارس، وكانوا يدعون أنهم من ولد عقيل ابن أبي طالب ولما خرج سعيد إلى مصر ادعى أنه علي فاطمي وتسمى بعبيد الله". انظر: النديم، **الفهرست**، ج٢، ص ٣٩-٣٩، والمقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص

٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٢٦، وهناك من يقول: إن الميمونية ينتسبون إلى ميمون القداح وقد اختلفت الآراء اختلافاً كبيراً عند بيان حقيقته. فكتاب السنة من مؤرخين وفقهاء يذكرون انتساب الدولة الفاطمية إلى علي وفاطمة، ويقولون بنسبتها إلى ميمون القداح، ويضيفون أنه كان فارسياً مجوسياً من الأهواز وتظاهر بالإسلام والتشيع والدعوة لآل البيت فقبض عليه وأودع السجن في الكوفة في أواخر عهد المنصور، وبعد خروجه من السجن ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى أن نجحت الدعوة في عهد أولاده الخلفاء الفاطميين، انظر مثلاً الحمادي اليماني، **كشف أسرار الباطنية**، ص ١٦-٢٠، عبد القادر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٦٦-٢٧٨، وأما المصادر الإسماعيلية فترى أنه: لما آن لإسماعيل الأجل... أوصى والده الصادق الأمين أن يقيم لوده حجباً ومستودعاً، وكما أوصى هارون موسى أن يقيم لولده كفيلاً، فأقام له يوشع بن نون ستراً عليه وحجباً له، فسلمه الصادق أعنة مولانا محمد بن إسماعيل إلى ميمون القداح وهو ميمون بن غيلان بن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي -قدس الله روحه- فرباه وأخفى شخصيته وهو ابن ثلاث سنين مع ميمون القداح وهو كفيل له ومستودع أمره، وميمون من أولاد سلمان وسلمان من أولاد يعقوب أهل الاستيداع والقائمين بالبلاغ والإبلاغ. أي إن ميموناً وابنه عبد الله من بعده كانا حاجبين ومستودعين لأسرار أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق. انظر: زهر المعاني، ص ٤٧-٤٩، الذي نشره المستشرق Ivanov في كتابه **Ismaili Tadition Concerning the Rise of the Fatimid** وقد ناقش Ivanov في كتابه هذه، ص ١٣٣، ١٥٣، ٢٣٣، ١٢٦، جميع الآراء والأقوال حول شخصية القداح هذا ودافع عنه ووجد خلاصة قصة انتساب الإسماعيلية إلى ميمون، خرافة ولا يؤيدها المنطق، أو المراجع الإسماعيلية، أو الأحداث التاريخية. انظر: المقريزي **اتعاظ**، ج٢، ص ٢٤، الهامش، ويفهم من

ذلك بأن الميمونية تنسب إلى ميمون القداح، غير أن الشهرستاني ذكر في **الملل والنحل**، ج١، ص ٧٣، هم أصحاب ميمون بن خالد كان من العجاردة إلا أنه تفرد عنهم بإثبات أن القدر خيره وشره من العبد والقول إن الله يريد الخير دون الشر وليس له مشيئة في معاصي العباد، انظر الرازي: **اعتقاد فرق المسلمين والمشركين**، ص ٤٨، وأصحاب الادعاء الميموني يقولون: إن عبيد الله الملقب بالمهدي: هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوي وأصلهم من المجوس" ٠ المقريزي، **المصدر السابق**، ص ٢٨٠

(٣٢) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٢٢، ٣٥٠ **والخطط**، ج٢، ص ٢٣-٢٤٠

(٣٣) الثنوية: مذهب قديم كان أتباعه يعتقدون أن للعالم أصلين هما النور والظلمة، والثنوية أربع فرق:

١- المانوية: أتباع ماني، وكانوا يقولون إن النور والظلمة حيان٠

٢- والديصانية: أتباع ديصان، ويقولون إن النور حي والظلمة ميتة٠

٣- المرتونية: وهم يثبتون متوسطاً بين النور والظلمة ويسمونه المعدل٠

٤- المذدكية: أتباع مذدك بن نامدان٠

انظر تفاصيل الكلام عن هذه الفرق في الشهرستاني: **الممل والنحل**، ص ١٤٣، ١٤٧، ٢٦٨، ٢٧٨٠ والرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص ٨٨-٨٩٠

(٣٤) انظر: المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٤١-٤٢٠ (نقل المقريزي عن الأمير عبد العزيز بن شداد صاحب **تاريخ إفريقية والمغرب** قوله: إن عبيد الله مفرق في اليهودية بجده ميمون بن يصان، كان يظهر التشيع ليخفي مذهبه الباطن الذي كان لا يحرم شيئاً، وكان أصحابه يظهرون الزهد ليستميلوا العامة، وأنجب ميموناً "أبا عبد الله القداح"، فأطلعه على أسرار هذه النحلة فحذق بها، واستعان برجل من نواحي أصبهان يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بدندان، وكان يبغض العرب

فاستحسن قوله ومده بالأموال التي مكنته من بث الدعاة، ولما توفي ادعى ولده أحمد أنه من ولد عقيل بن أبي طالب، ثم توفي، وخلفه الحسين الذي سار إلى سلمية وادعى أنه الوصي، وتزوج من أرملة حداد يهودي كان له ابن كفله الحسين وأدبه وعلماً ولما لم يكن له ولد فقد عهد بالدعوة إلى ابن هذا اليهودي وهو عبيد الله المهدي. انظر: المقريزي، ص ٣٧،٤١، ٤٢، ٤٣.

(٣٥) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٤٤، ٥٢.

(٣٦) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٥٠.

(٣٧) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ١٦-١٧.

(٣٨) المباركية: سموا برئيس لهم يسمى المبارك مولى إسماعيل بن جعفر وهو كوفي. انظر: **فرق الشيعة**، ص ٦٩. **الملل والنحل** للشهرستاني، ص ١٧٠-١٧١.

(٣٩) القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص ٣٢، ٦٣، ١٤٨، ١٥٠. عماد الدين إدريس: **تاريخ الخلفاء الفاطميين**، ص ٥٩، ٧٨. محمد جمال الدين سرور، **النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب**، ص ٦٢-٦٣. أيمن فؤاد سيد، **الدولة الفاطمية تفسير جديد**، ص ٤٣.

(٤٠) ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ٦٢. المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٥٠-٥١. جمال سرور، **المرجع السابق**، ص ٦٢. **وتاريخ الدولة الفاطمية**، ص ٢٢.

(٤١) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٣٩، ٤٠-٤١.

هناك روايات تقول: إن أبا الخطاب محمد بن زينب مولى بني أسيد (وردت عند ابن الأثير بني أسد (انظر: تفاصيل الحديث عن أبي الخطاب والخطابية الكشي، **معرفة الرجال**، ص ١٨٧،١٩٩. والرازي، **اعتقادات المسلمين**، ص ٥٨. والنوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٤٢، ٩٦. والمقريزي، **الخطط**، ج٤، ص ١٧٤. وأبو شاكر ميمون بن

ديصان وغيرهما ألفوا **علم الباطن**، وأظهروا التشيع، ليستروا أمرهم لتدمير الإسلام، واستمالة العامة، وتفرقوا في البلدان، وكان منهم بنواحي أصبهان رجل يعرف بمحمد ابن الحسين، ويلقب بدندان، وكان فراسياً شعوبياً يكره العرب واجتمع وعبد الله بن ميمون القداح في سجن والي العراق، حيث أسسا مذهب الباطنية وتوفي القداح ودندان، فقام من بعد القداح ابنه أحمد، وتبعه ابن يقال به أبو القاسم رستم بن الحسين ابن فرح بن حوشب بن زادان النجار من أهل الكوفة، فلقنه مذهبه فقبله وسيره إلى اليمن، فدعا الناس إلى المهدي، وهؤلاء هم الذين أوفدوا إلى المغرب "الحلواني وأبا سفيان" في حين تذكر بعض الروايات أن الذي أرسل الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب الإمام الصادق، في سنة ١٤٥هـ، انظر: المقريزي، ج٢، ص ٤١، **اتعاظ** الهامش.

(٤٢) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٥٥. عارف تامر، **المرجع السابق**، ص ٣٧.

(٤٣) **المصدر السابق**، ص ٥٥، ٥٧. أيمن فؤاد سيد: **الدولة الفاطمية تفسير جديد**، ص ٤٤، نقلاً عن القاضي النعمان، افتتاح **الدعوة**، ص ٤١. وعماد الدين إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، ص ٧٢.

(٤٤) برنارد لويس، **أصول**، ص ١١٠-١١٣.

(٤٥) **المرجع السابق**، ص ١١٣-١١٤. انظر: عارف تامر، **القرامطة بين الالتزام والإنكار**، ص ٧٣-٧٤، حيث يقول: إنه من الجدير بالذكر أن أكثر المؤرخين والباحثين المعاصرين لم يتمكنوا من معرفة شخصيات أئمة دور الستر. وأساليبهم في التستر والإخفاء، لهذا جاءت أحاديثهم تدور حول شخصيات أسطورية خيالية، وأطلقوا عليها ميمون القداح، وقد نجد بعض الأعذار لهؤلاء المؤرخين فنقلوا الأسطورة دون تمحيص، كذلك ضاع بعض الباحثين والكتاب من الإسماعيليين الذين خفيت عنهم الحقيقة، وأوردوا الأحاديث الكثيرة عن ميمون القداح وأسرته، وعدوهم المؤسسين للدعوة القرامطة الإسماعيلية وخفي

عليهم أن ميمون القداح، وخفي عليهم أن ميمون القداح هو لقب الإمام محمد بن إسماعيل، وأنه هو الذي سمى نفسه بالقداح، أنه فارسي وأنه طبيب عيون وجاء بعده ابنه وولي عهده عبد الله إلى سلمية متخذاً اسم عبد الله بن ميمون القداح فاشتغل التجارة، وادعى أنه شيعي ومن دعاة لإمام مستور من ولد جعفر الصادق.

(٤٦) انظر: برنارد لويس، **المرجع السابق**، ص ١١٤-١١٥، وما سبق من هذا البحث.

(٤٧) انظر: **المراجع والمصادر السابقة**.

(٤٨) انظر: المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٢٢ وهامش رقم ٥٢. برنارد لويس، **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية**، ص ٨٩، ٩٣.

(٤٩) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٣١، ٤٧-٤٨. انظر: أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص ٧٥،٧٧، ١٦٦، ٢٢٩.

(٥٠) تتكون هذه المراتب من اثني عشر مرتبة على النحو التالي (الإمام، الحجة، داعي الدعاة (الباب)، داعي البلاغ، الداعي المطلق أو النقيب، الداعي المأذون، الداعي المحصور، النجاح الأيمن، الجناح الأيسر، المكاسر، المغالب، المستجيب. انظر: مصطفى غالب: **أعلام الإسماعيلية**، ص ٢٤-٢٥. وقد قسم الإسماعيليون العالم الإسلامي إلى اثنتي عشرة جزيرة وأرسلوا لكل جزيرة مجموعة من الدعاة.

(٥١) انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (ت ٥٠٥هـ/١١١٣م)، **فضائح الباطنية**، ص ٣٣. تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٦٤م. انظر: أيمن فؤاد السيد، **الدولة الفاطمية تفسير جديد**، ص ٤٢، الدار المصرية اللبنانية، سنة ١٩٩٢م.

(٥٢) الغزالي، **فضائح الباطنية**، ص ٣٣.

(٥٣) انظر: تفاصيل رحلته (**رحلة المهدي عبيد الله**)، من سلمية إلى المغرب في المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٦٠-٦١-٦٢. محمد جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ٢٥-٢٦.

(٥٤) وعن ثورتي الزط ولزنج:

انظر:

(٥٥) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان، الملقب بالمظفر، وهذا الاسم نسبة شاذة إلى المدينة الفارسية "نبسا" أو "رفسا". انظر ياقوت (**معجم البلدان**) وهو أحد القادة الأتراك العباسيين آخر أيام بني بوية وحدث خلاف بينه وبين ابن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله لأنه طلب مساعدة السلاجقة للتخلص من بني بوية، فلما دخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، اضطر البساسيري إلى الفرار، ثم كاتب الخليفة الفاطمي المستنصر، فأمده بالمال والسلاح، وأرسله مع أحد الدعاة المشهورين وهو وهبة هبة الله الشيرازي، وفي سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، دخل بغداد ظافراً، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي، وبعث له البشائر إلى مصر وفي سنة ٤٥١هـ تغلب عليه ثانية طغرل بك وقتله وأعاد الخليفة العباسي إلى كرسي الحكم كما أعاد الخطبة له.

انظر: تفاصيل هذه الثورة في: **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٥-١٢. وابن خلكان، **الوفيات**، ج١، ص ١٠٧. دائرة المعارف الإسلامية.

(٥٦) جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١-٤.

(٥٧) تشير الأخبار الحديثة إلى تفسير ما قام به بن زكرويه وخروجه على الإمام في سلمية" حيث تقول: إن الإسماعيلية الأولى، ومنهها الفرع القرمطي، كانوا يعتقدون أن محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع وصاحب الدور، وسوف يعود

مهدياً، والذين تولوا من بعده وأقاموا على أمور الدعوة كانوا حجة وممثلين لـــه، وأن رفع مقامهم إلى أئمة حصل التعديلات التي قام بها عبد الله المهدي، وادعى بموجبها الإمامة لنفسه ولأسلافه، هذا هو سبب الخلاف الذي حدث بـــين مركـــز الدعوة في سلمية والقرامطة وجعل ذلك الحسين بن زكروية يدعي الإمامة لنفسه ويهاجم سلمية، مقر الإمام عبيد الله الذي تولى الإمامة عـــام ٢٨٩هـــ/ ٩٠١م، وأقدم على تخريبها.

انظر: ميكال يان دي خويه: **القرامطة**، ص ٥١-٥١-٥٢. نقلاً عـــن الطبـــري، **تاريخ**، ج٣، ص ٢٢٢٣-٢٢٣٢. سلمان البدور، **الإسماعيلية في بلاد الشام في العصر العباســـي**، ص ٦ (بحث قدم لمؤتمر بلاد الشـــام)، الجامعـــة الأردنيـــة، ١٩٩٠م. والداعي إدريس عماد الدين، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، القسم الخاص من **كتاب عيون الأخبار**، تحقيق محمد الـــيعلاوي، ص ١٤٥، بيـــروت، ١٩٨٥.

(٥٨) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٦٢.

(٥٩) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦.

(٦٠) جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ٢٥.

(٦١) المقريزي، **اتعاظ**، ج٢، ص ٦٨. جمال سرور، ص ٣١.

(٦٢) ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص ٣٠٩.

(٦٣) **المصدر السابق**، ج٧، ص ٣١٠.

(٦٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١١، ص ٢٩٥.

(٦٥) **المصدر السابق**، ج١٢، ص ٨٣-٨٤.

(٦٦) محمد اليعلاوي، **الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي**، بيروت، ١٩٨٦، ص ٦-٧ وما بعدها.

- وانظر: **حوليات الجامعة التونسية**، المؤلف السابق، العددان ١٠، ١٧ للأعوام، ١٩٧٣، ١٩٧٩.
- وانظر: إبراهيم الدسوقي جاد الرب، في كتابه **شعر المغرب خلافة المعز الفاطمي**، القاهرة، ١٩٧٣.

(٦٧) انظر: محمد عبد الفتاح عليان، **قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين**، ص ٢٠٣، القاهرة. عارف تامر، **المرجع السابق**، ص ٥٦، ٦٢.

- سليمان البدور: **الإسماعيلية في بلاد الشام في العصر العباسي**، ص١٤.
- محمد زيود، **العلاقات بين مصر والشام في العهدين الطولوني والأخشيدي**، دمشق ١٩٨٩، ص ١٥٤. عارف تامر، **القرامطة، أصلهم نشأتهم ، تاريخهم، حروبهم**، ص ٦٢. حسن أحمد محمود: **حضارة مصر في العصر الطولوني**، ص ١٧٢.

(٦٨) انظر المقديسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص

- محمد زيود ، **المرجع السابق**، ص ١٥٢.
- حسن أحمد محمود، **مصر في العصر الطولوني**، ص ١٧١.

(٦٩) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ١، دمشق ١٩٨٣.

- خاشع المعاضيدي، **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي**، ص ٣٣، بغداد، ١٩٧٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٤، ص ٨٨، ٩٠.
- محمد عبد الفتاح عليان، **المرجع السابق**، ص ٢٠٣.

(٧٠) سلمان البدور، **المرجع السابق**، ص ١٤.

(٧١) انظر: محمد عبد الفتاح عليان، **المرجع السابق**، ص ٢٠٣. محسن الأمين، **خطط جبل عامل**، ص ٨٥ وما بعدها، ط١، بيروت، ١٩٨٣.

(٧٢) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص ٢٩، ٣١.

- جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ٢٨-٢٩.
- السيد عبد العزيز سالم، والعبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط** (البحرية الإسلامية في المغرب الإسلامي)، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص ١٣٦-١٣٧ وما بعدها.

(٧٣) **المصادر والمراجع السابقة.**

(٧٤) جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٥٤، ١٥٩ نقلاً عن:

- المقريزي، **اتعاظ**، ج١، ص ١٣٧. ج٢، ص ٦٧، ١٥٩. **والخطط**، ج٢، ص ٢٧٣. انظر: محمد عبد الله عنان، **تاريخ الجامع الأزهر**، ص ١٨-١٩.

(٧٥) انظر: جمال سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٥٤، ١٥٥ نقلاً عن:

- المقريزي، **المصدر السابق**، ج٢، ص ٣٤١. **اتعاظ**، ج١، ص ٢٢٧.
- حسن خضيري أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، ص ١٦٠-١٦١، القاهرة، مكتبة مدبولي.

(٧٦) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٤١. انظر: محمد كامل حسين، **الأدب في العصر الفاطمي**، ص ٨٩-٩٠-٩١ وما بعدها. جمال سرور: **المرجع السابق**، ص ١٥٤، ١٦٠. حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٣٧.

- حسن خضيري، **المرجع السابق**، ص ١٦١-١٦٢-١٦٣.

(٧٧) جمال سرور، **المرجع السابق**، ص ١٥٤، ١٥٨، ١٥-، ١٦٠. محمد كامل حسين، **في أدب مصر الفاطمية**، ص ٨٩-٩٠-٩٢-٩٣-٩٤.

(٧٨) المقريزي، **المواعظ**، ج١، ص ٤٥٨-٤٥٩. **اتعاظ**، ج٢، ص ٥٦. محمد عبد الله عنان، **تاريخ الجامع الأزهر**، ص ٥١،٥٣.

- انظر عارف تامر، **أربع رسائل إسماعيلية**، ص ٣٩، ط٢، بيروت، ١٩٧٨.

(٧٩) محمد كامل حسين، **في أدب مصر الفاطمية**، ص ١٠٢-١٠٣. حسن خضير أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، ص ١٦٩ وما بعدها، نقلاً عن القفطي، **تاريخ حكماء الإسلام**، ص ٥١، ١١٤-١١٥. وابن أبي أصيبعة، ج٢، ص ٩، ٩٠، ١٠٦.

(٨٠) خير الله سعيد، **عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي**، ص ٢٥١ وما بعدها، دمشق، ١٩٩٣.

(٨١) محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٥٨-١٥٩.

(٨٢) محمد كامل حسين، **المرجع السابق**، ص ١٠٩.

(٨٣) محمد كامل حسين، **في أدب مصر الفاطمية**، ص ١١٢-١١٣.

- جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٥٥-١٥٩.

(٨٤) محمد كامل حسين، **المرجع السابق**، ص ١١٣-١١٤.

(٨٥) محمد كامل حسين، **المرجع السابق**، ص ٩١-٩٢-٩٣.

(٨٦) مصطفى غالب، **ابن سينا**، ص ١٣، ١٧، ١٨، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م.

- وانظر: اقتباسات تيسير شيخ الأرض، **المدخل إلى فلسفة ابن سينا**، ص ٧٤-٧٥، بيروت، ١٩٦٧م.

(٨٧) المقريزي، **المواعظ**، ج١، ص ٤٥٨-٤٥٩. عارف تامر، **أربع رسائل**، ص ٣٩ وما بعدها.

- محمد كامل حسين، **في أدب مصر الفاطمية**، ص ١٠٢-١١٣ وما بعدها.
- محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص ١٥٨-١٥٩ وما بعدها.
- خير الله سعيد، **المرجع السابق**، ص ١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢.

(٨٨) خير الله سعيد، **المرجع السابق**، ص ١٨٢-١٨٣.

- انظر: مصطفى غالب، **إخوان الصفا**، ص ٢٠ وما بعدها.

(٨٩) انظر: مصطفى غالب، **إخوان الصفا**، ص ٢٠، ٢٨. في سبيل موسوعة فلسفية، دار الهلال، ١٩٧٩، حيث يورد أن المصادر الفاطمية تذكر أن الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل عندما جعل عدد رسائل إخوان الصفا اثنتين خمسين رسالة وضعها لحكمه وطبقها على عدد حروف اسمه بحساب الجمل، وهذا النوع من الحساب أول من استعمله في العهود الماضية الإسماعيليون وإليك المثال:

عبد الله بن محمد

ع ب د ا ل ا هـ ب ن م ح م د

- وجمعية إخوان الصفا فرقة سرية تأسست في البصرة، استقت آراءها من تعاليم أرسطو والأفلاطونية الحديثة والغنوصية المتأثرة

بتعاليم المسيحية فضلاً عن آراء المعتزلة والإسماعيلية وغيرهم، وكانوا يعتقدون أن الروح لها أصل سماوي مستمد من الله عز وجل، وبنوا آرائهم على أسس علمية وألّفوا ٥٢ رسالة منها ١٤ تبحث في الرياضيات والمنطق و١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس، و١٠ في الميتافيزيقيا، والبقية وهي ١١ رسالة في موضوعات متفرقة مثل التصوف والسحر والتنجيم وغيرها، وهذه الرسائل المحولة الأولى لتصنيف العلوم عند المسلمين، ومعظم العلماء المعروفين وممن دونوا هذه الموسوعة هم من الإسماعيليين.

- انظر: سعيد عاشور وزملاؤه، **تاريخ الحضارة الإسلامية العربية**، ص ٩٥-٩٦، الكويت، ط٢، ١٩٨٦.
- في حين يذكر عارف تامر: أن الإمام أحمد بن عبد الله، وليس عبد الله المولود في سلمية، سنة ١٩٨هـ، كان على جانب كبير من العلم وإليه ينسب موسوعة رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء.
- انظر: عارف تامر، **المرجع السابق**، ص ٣٦.

(٩٠) سعيد عاشور وزملاؤه، **المرجع السابق**، ص ٩٦.

قائمة المصادر والمراجع

١- إحسان إلهي ظهير: **الإسماعيلية تاريخ وعقائد**، لاهور باكستان، ١٩٨٦.

٢- إسماعيل المير علي: **القرامطة**، بيروت، ١٩٨٣.

٣- إدريس، عماد الدين: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، ١٩٨٥.

٤- أمينة بيطار: **تاريخ العصر العباسي**، ط٤، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٧.

٥- أيمن فؤاد سيد: **الدولة الفاطمية تفسير جديد**، ط١، القاهرة، ١٩٩٢.

- أبو الفداء (ت ٧٣٢): **تقويم البلدان**، طبع في مدينة باريس، سنة ١٨٥٠م.

٦- برنارد لويس: **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة**، مراجعة خليل أحمد خليل، ط٣، بيروت ١٩٩٣.

٧- حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب**، القاهرة، ١٩٥٨.

٨- حسن زنون: **القرامطة بين الدين والثورة**، بيروت، ١٩٨٨.

٩- خاشع المعضيدي: **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ٣٥٩-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م**، بغداد، ط١، ١٩٧٦.

١٠- خضر أحمد عطا الله: **علاقات الدولة الفاطمية بالدول الإسلامية والأجنبية**، بيروت، دار بن زيدون.

١١- خير الله سعيد: **عمل الدعاة الإسماعيليين في العصر العباسي**، دمشق، ط، ١٩٩٣.

١٢- ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر**، ج١، بولاق، ١٢٨٤هـ.

١٣- سعد زغلول عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي**، ج١، إلى ج٣، الاسكندرية، ١٩٩٠.

١٤- الشهرستاني: **الملل والنحل**، ج١- ج٣، تحقيق أحمد حمد فهمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥- عارف تامر: **معجم الفرق الإسلامية**، بيروت، ١٩٩٠.

- **أربع رسائل إسماعيلية**، تحقيق عارف تامر، بيروت، ١٩٧٨.
- **القرامطة بين الالتزام والإنكار**، دمشق.
- **تاريخ الإسماعيلية**، ج١ الدعوة والعقيدة"، لندن وقبرص، ١٩٩١.

١٦- عبد الفتاح مقلد الغنيمي: **موسوعة المغرب العربي**، القاهرة، ١٩٩٤.

١٧- عبد المنعم ماجد: **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها**، دار الفكر العربي، القاهرة.

- **نظم الفاطميين ورسومهم**، القاهرة، ١٩٧٣.

١٨- علي نوح: **الخطاب الإسماعيلي**، دمشق، ١٩٩٤.

١٩- عادل العبد الجادر: **الإسماعيليون (كشف الأسرار ونقد الأفكار)**، الكويت، ٢٠٠٢.

٢٠- القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقهي وزملائه، تونس، ١٩٧٨.

٢١- أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ج١، ١٦، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٢.

٢٢- محسن الأمين: **خطط جبل عامل**، ط١، بيروت، ١٩٨٣.

٢٣- محمد أحمد زيود: **العلاقات بين مصر والشام في العصرين الطولوني والأخشيدي**، دمشق ١٩٨٩.

٢٤- محمد جمال الدين سرور: **تاريخ الدولة الفاطمية**، القاهرة، ١٩٩٥.

- النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر، مصر، ١٩٥٧.

٢٥- محمد عبد الله عنان: **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة**، القاهرة، ١٩٨٣.

٢٦- محمد كامل حسين: **في أدب مصر الفاطمية**، دار الفكر العربي.

٢٧- محمد اليعلاوي: **الأدب بإفريقية في العصر الفاطمي**، بيروت، ١٩٨٦.

٢٨- مصطفى غالب: **في رحاب إخوان الصفا وخلان الوفاء**، بيروت، ١٩٦٩.

- **ابن سينا**، مكتبة الهلال، ١٩٩١.

٢٩- المقريزي: **اتعاظ الخلفاء**، ج٢، تحقيق الشيال، القاهرة، ١٩٦٧.

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (بولاق ١٢٧٠هـ).

٣٠- ميكال يان دي خويه: **القرامطة نشأتهم ودولتهم وعلاقتهم مع الفاطميين**، ترجمة وتحقيق حسين زينة، بيروت، ١٩٨٦.

الأمير الأرمني هِثون ومشروع حملته الصليبية على الشرق الإسلامي عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م

الدكتور عبد الرحمن محمد العبد الغني
قسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة الكويت

يُعد مصنف الأمير الأرمني هِثون Hethoun [١]، أو هايتون Hayton [٢] "زهرة تواريخ الشرق La Flor des Estoires de La Terre d'Orient " [٣] من أهم مصادر تاريخ وجغرافية شرقي آسية طوال قرن من الزمن يمتد من النصف الثاني من القرن الثالث عشر حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي [٤].

ومن الجدير بالذكر أن معلوماتنا عن هِثون من واقع المصادر المعاصرة له نادرة للغاية، وقد استقينا تلك المعلومات من حديثه عن نفسه، ولم يرد ذكر ترجمته في أي مصدر آخر حتى يتسنى لنا عقد دراسة مقارنة بينها و معرفة مدى دقة المعلومات

الواردة بداخلها [٥].

وقد ثار الخلاف حول تاريخ ميلاد هِثون وتاريخ وفاته، فيرى البعض أنه قد ولد فيما بين ١٢٣٠م و ١٢٤٥م [٦]، دون تحديد سنة بعينها، أما تاريخ وفاته فقد ذكر البعض أنه توفي عام ١٣٠٧م / ٧٠٧هـ [٧]، بينما يرى آخرون أن ذلك كان عام ١٣٠٨م / ٧٠٨هـ [٨]. وثمة فريق آخر يرى أن وفاته كانت في عام ١٣١٠م / ٧١٠هـ [٩]، أما الفريق الرابع فيدرج وفاته ضمن أحداث عام ١٣١٥م/ ٧١٥هـ [١٠]. ورغم هذا الخلاف الواضح والتضارب حول تحديد هذا التاريخ يؤكد المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه Rene Grousset أن وفاته كانت بعد عام ١٣١٤م/ ٧١٤هـ [١١]. وقد اقترب من رأيه العالم الألماني كوهلر Köhler حيث قال إنه من المحتمل أن وفاة هِثون كانت عام ١٣١٤م / ٧١٤هـ في مملكة أرمينية الصغرى التي عاد إليها بعد أن أقام فترة في أوروبا تمتد من أواخر عام ١٣٠٦م/ ٧٠٦هـ حتى بدايات عام ١٣٠٨م/ ٧٠٨هـ [١٢].

أما فيما يتعلق بالتاريخ الباكر لأسرة الأمير هِثون فمن الصعب تحديده بدقة وكلها معلومات مستمدة من مُصنفه حيث يخبرنا أنه ابن أوشين Oschin [١٣] أحد أشقاء هِثوم الأول (١٢٢٦-١٢٦٨م) Hethoum I ملك أرمينية الصغرى [١٤].

وقد تزوج هِثون من ايزابو Isabeau ابنة كل من جي ابلين Gui d'Ibelin وماري Marie ابنة عمه هِثوم الأول [١٥]. وقد أنجبت له أربعة ذكور وبنتاً واحدة. ومن المعتقد أن زواجه هذا قد تم في عام ١٢٨٠م / ٦٧٨هـ وكانت زوجته مازالت على قيد الحياة حتى عام ١٣٠٦م/ ٧٠٦هـ [١٦].

ولقد أمضى هِثون طفولته في بلاط عمه الملك هِثوم الأول علماً بأن مملكة أرمينية الصغرى [١٧] شهدت طوال عهده الذي استمر من عام ١٢٢٦م حتى عام ١٢٦٨م ازدهاراً واضحاً لم تشهده من قبل، ومن المعتقد أن هِثون استمد مادته التاريخية عن التتار Tartarius [١٨] عن رواية عمه الملك الأرمني [١٩]، الذي كان يسعد بسردها على

أولاده وأولاد أشقائه، بل كان أحيانا يمليها عليهم[٢٠]. وببلوغ هِثون سن الشباب شارك عن قرب في أحداث غرب آسية خاصة وأنه قام بزيارة الكثير من البلدان، ليس فقط المجاورة لمملكة أرمينية الصغرى، بل أيضاً تلك البعيدة عنها ويؤكد ذلك دقة المعلومات التي زَوَدَنا بها عن تلك البلدان في مواضع متفرقة من مصنفه[٢١].

كان أوشين والد هِثون أميراً على قلعة جوريجوس Gorigos [٢٢] وبوفاته عام ١٢٦٥م أصبح هِثون سيداً عليها[٢٣]، وبالتالي دس أنفه في الأمور السياسية لمملكة أرمينية الصغرى حيث نجده ينضم هو وشقيقه إلى صفوف الأمراء المعارضين لفكرة عودة هِثوم الثاني Hethoum II (١٢٨٩-١٢٩٣م) و (١٢٩٩-١٣٠١م) إلى عرش المملكة الأرمينية ثانية بعد انسحابه إلى أحد الأديرة[٢٤]، وبالتالي حدث جفاء بين الطرفين، إلا أن بطريرك الأرمن جريجوار السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) Gregoire VII نجح في عقد مصالحة بين هيثوم الثاني وباروناته[٢٥]. وحينئذ ارتبط هِثون أمير جوريجوس ارتباطاً وثيقاً بهايثوم الثاني فرافقه في رحلته إلى بلاط خان التتار غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤م/٦٩٤-٧٠٣هـ) وكان ذلك عام ١٢٩٥م/٦٩٤هـ [٢٦]، كما شارك هِثون في معركة حمص التي انتصر فيها غازان خان على مماليك مصر في ديسمبر عام ١٢٩٩م / ١٧ من ربيع الأول عام ٦٩٩هـ[٢٧] وكان شاهدا على سقوط دمشق[٢٨] وبعض الانتصارات الأخرى التي حققها التتار وتحدث عنها بفخر في مصدره [٢٩].

وقد صمد هِثون في مواجهة المماليك الذين حاولوا فتح مملكة أرمينية الصغرى عام ١٣٠٤م/٧٠٣هـ [٣٠]، وقد اضطر هِثون بسبب تقدم السن من ناحية وزهده في الحياة من ناحية أخرى إلى تسليم قلعة جوريجوس التي كان أميراً عليها إلى الملك الأرمني هيثوم الثاني تنفيذا لنذر كان قد قطعه على نفسه تعهد فيه بالانخراط في سلك الرهبنة وبالفعل التحق بدير نوتردام لبسكوبي Noter Dame de L'Episcopie التابع لهيئة بريمو ستريه Premostres للرهبان الكاثوليك في لابابيس Lapais في قبرص[٣١] واتخذ اسماً

دينيا إذ أصبح يعرف (الأخ أنطونيوس Frater Antonius)(٣٢). وبعد ذلك بفترة قليلة وبموافقة رهبان ديره انتقل إلى أوروبة حيث قام بزيارة روما وأفنيون Avignon، ثم عينه البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥- ١٣١٤م) Clement V(٣٣) رئيساً لأحد الأديرة في إقليم بروفانس Provence، وكلفه بإعداد مشروع حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين، وبالفعل أتمَّ مشروعه وقدمه إليه في شهر أغسطس من عام ١٣٠٧م / ربيع الأول لعام ٧٠٧هـ (٣٤).

والجدير بالذكر أن هثون في أثناء تواجده في بواتييه Poitiers أملى على نيقولا فلكون Nicolas Falcon مشروع حملته باللغة الفرنسية القديمة، ثم قام الأخير بترجمته إلى اللاتينية. وفى عام ١٣٥١م ، قام جان لو لون ديبر Jean le Long D'Ypres بترجمة النص اللاتيني لنيقولا فلكون إلى اللغة الفرنسية القديمة ثانية (٣٥).

هذا عن ترجمة المؤرخ الأرمني هثون، أما مصدره "زهرة تواريخ الشرق"، فقد ذكر أنه وجد من المفضل تقسيمه إلى أربعة كتب أو أقسام، ففي الكتاب الأول، تحدث هثون عن جغرافية وشعوب ومساحة أربعة عشر من الممالك والأقاليم الآسيوية(٣٦)، وقد أفرد فصلاً مستقلاً للحديث عن كل مملكة منها على سبيل المثال أرمينية(٣٧)، وجورجيا(٣٨)، وبلاد الشام(٣٩)، والهند(٤٠)، وخراسان(٤١)، وفارس (٤٢)، وتركستان(٤٣).

ولمذكرات هثون التي خلفها لنا عن هذه الممالك والأقاليم أهمية كبرى، ويعود سبب ذلك إلى أنه كان شاهد عيان عليها؛ كما قام بزيارة إلى الأماكن التي قام بوصفها في مصدره، وبالتالي زودنا بمادة علمية من الطراز الأول، لا يمكن بحال التقليل من شأنها.

أما الكتاب الثاني، الذي يحتوى على تسعة فصول، فقد تحدث فيه هثون بإيجاز شديد عن تاريخ الأباطرة والملوك والحكام في آسية ؛مع التركيز على تاريخ المسلمين والأتراك منذ ظهور الرسول عليه الصلاة والسلام حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي/ منتصف القرن السابع الهجري. ولم يفته ذكر الأصول الأولى لتلك الشعوب

،والرسائل التي تبادلوها مع غيرهم من حكام الشرق. وقد خصص الفصل الثاني من هذا الكتاب للحديث عن المسلمين والقرآن الكريم وذلك تحت عنوان:
" De La Nation des Sarazins , e de La Loi de Mahomet " (٤٤) .

وقد تناول هثون في الكتاب الثالث الذي يحتوي على تسعة وأربعين فصلاً تاريخ أباطرة التتار من عصر جنكيز خان (١٢٠٦-١٢٢٧م) أي منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الرابع عشر الميلادي. وقد تحدث فيه على وجه الخصوص عن غزواتهم لغربي آسية وأوروبة، وعن حملة هولاكو على بغداد وبلاد الشام وموقعة عين جالوت ، وكذلك أسهب في الحديث عن علاقة التتار بمملكة أرمينية الصغرى، ويعتبر الكتاب الثالث أضخم وأهم من الكتابين الأول والثاني(٤٥).

ومن المعتقد أن الكتب الثلاثة تعد مقدمة للكتاب الربع الذي تحدث فيه عن "اجتياز ما وراء البحار" Passage d'Outre –Mer وبذلك يصبح لدينا مصنفين متلاحمين متصلين: الأول ويشمل الكتب من الأول إلى الثالث. والثاني وقد تشكل من الكتاب الرابع بمفرده.

والكتاب الرابع وهو الذي يهم دراستنا ويعد الأهم على الإطلاق وأكثرهم إفاضة وقد أفرده هثون للحديث عن مشروع خطة أعدها لاستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين والوسائل الكفيلة لضمان نجاح تلك الخطوة . ويحمل هذا الكتاب عنوان:
" De Passagio Terrae Sanctae et Quae Conside Randa Sunt Antequam Guerra Inchaetur " (46) .

ويتكون مشروع الحملة الصليبية لاستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين الذي أفرد له هثون الكتاب الرابع من مصنفه "زهرة تواريخ الشرق" من ثمانية وعشرين فصلاً، وينقسم إلى قسمين متميزين لم يُظهرهما المصنف؛ ويشمل القسم الأول الفصول العشرة الأولى (٤٧) وقد تناول في تلك الفصول أحوال مصر السياسية والإدارية(٤٨)، وأحوال الجيش المملوكي في مصر والشام(٤٩)، وإشارات جغرافية

موجزة عن سلطنة المماليك والشعوب الخاضعة لها[٥٠]، ولمحات سريعة عن تاريخ سلاطين المماليك منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي[٥١].

ومقدمة للقسم الثاني من الكتاب الرابع، أشار هثون إلى بعض الأحداث العارضة عن الصليبيين، والمعارك التي دارت بين المسلمين[٥٢] – وبين ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية. ويشمل هذا القسم الفصول من الحادي عشر إلى الثامن والعشرين.فيه يستعرض هِثون السبل والوسائل والمخططات التي "من وجهة نظره" إذا نُفذت وظهرت للنور ستضمن للصليبيين استعادة الأراضي المقدسة من المسلمين[٥٣].

وقد ذكر هِثون في القسم الأول من الكتاب الرابع أن قتال المسلمين حلال، ولا يتعارض مع العقيدة المسيحية[٥٤]. وفي هذا القول مغالطة كبرى، فالحرب حرمتها المسيحية تحريماً باتاً، فقد جاء في انجيل متى: "...أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مُبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ،لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات..."[٥٥] إلا أنه برر ذلك بقوله إن المسلمين يحتفظون ويسيطرون على ما ورثه المسيحيون عن آبائهم[٥٦]. ويقصد بذلك الأراضي المقدسة التي ولد وعاش وبشر فيها المسيح برسالته. و ينتقل هِثون بعد ذلك للحديث عن مدى قوة البابوية، فيتساءل قائلاً: كيف نشك في قدرات الكنيسة الكاثوليكية، سيدة العالم؟ أليس باستطاعتها، بفضل مساعدة الملوك والأمراء الكاثوليك في غرب أوروبة، تخليص الأراضي المقدسة الخاضعة للسيادة الإسلامية ؟ [٥٧] .

ويُبدي هِثون رأيه قائلاً: إنه ينبغي دراسة أحوال المسلمين بعناية بالغة. وعلى الصليبيين أن يضعوا نصب أعينهم موارد المسلمين الهائلة، وتحديد اللحظة المواتية لقتالهم؛ وشبه ذلك الوضع بالطبيب الذي يسعى – لكي يحسن علاج مريضه – إلى معرفة أسباب المرض وآثاره، كذلك يكون حال قائد الجيش الصليبي إذ عليه أن يعرف بالتمام والكمال. أحوال عدوه الذي يستعد لقتاله. وقد أخذ هِثون يتحدث عن

أحوال مصر وأحوال جيش السلطان المملوكي مسلّطاً الأضواء على قدراتها القتالية[٥٨].

ولقد أورد في هذا الصدد أن سلطان مصر والشام يُدعى الملك الناصر محمد بن قلاوون[٥٩]، وذكر أن أحوال بلاده مضطربة بسبب الثورات التي اندلعت ضده. أما جيشه – أي الجيش المملوكي[٦٠] فيتكون من أجناس من بلدان مختلفة، وأورد أن المصريين لا يُجندون في كتائب الفرسان والمشاة ولا ينخرطون في القوات البحرية ولا البرية إذ لا يصلحون لذلك على حد قوله[٦١]، وأن هذا قاصر على المماليك دون سواهم . وقد لاحظ هِثون بعين الفاحص المدقق قلة أعداد الجيش المملوكي من المشاة وكثرة أعداد الفرسان، وأن الجيش يتكون أساساً من المماليك. وكان الغرب الأوروبي قد سبق أن باع هؤلاء بوصفهم رقيقاً مقابل مبالغ طائلة دفعها المصريون إليهم. وقد لاحظ بعين الفاحص المدقق أيضا أن المماليك يُخلصون بشدة لسلطانهم وأستاذهم[٦٢].

وقدر هِثون تعداد الجيش المملوكي آنذاك بنحو عشرين ألف من الفرسان، يدخل البعض منهم في عداد المقاتلين الممتازين المتمرسين على فنون الحرب والقتال، بينما لا يخشى بأس الغالبية العظمى منهم على حد قوله[٦٣]. وأورد أن المماليك يمتطون خيولا ممتازة لكن ينقصها التدريب الجيد على فنون الحرب والقتال[٦٤]. ويلتف جند المماليك حول سلطانهم في مدينة القاهرة ويسميها " قاهرة بابيلون Kayre de Babylone ". وقد تحدث هِثون بعد ذلك عن نظم جند المماليك قائلا إنه يتم رعايتهم على النحو التالي: (يتقاضى كل فارس راتبا سنويا – أي الجامكية في المصطلح المملوكي – لا يتجاوز مائة وعشرين فلورين Florins[٦٥] مقابل أن يكون في حوزته ثلاثة خيول وجمل واحد[٦٦]. وفي حال وقوع حرب خارج الحدود المصرية يصرف للجند المشاركين فيها زيادة في الراتب ويترأس جند المماليك فئة من كبار الشخصيات يطلق عليهم اسم "أمراء" يسميهم أموراتي Amurati ويتم تعيينهم من قبل السلطان

المملوكي· وهؤلاء الأمراء لهم الحق في راتب مساو لراتب عدد الفرسان الذين يترأسونهم، وبالتالي يزداد راتب القائد كلما زاد عدد فرسانه، ويقل كلما قل هذا العدد، ونتيجة لذلك حدثت بعض التجاوزات، إذ كثيرا ما يقوم الأمراء –على حد قول هِثون– باستبدال الفرسان الحقيقيين بأقنان الأرض الذين لا يتقاضون راتباً، بينما يتحصلون من السلطان على رواتب هؤلاء الأقنان على أنهم فرسان· ونتج عن هذا الانحلال، أي إحلال القن مكان الفارس، قلة عدد الفرسان المسلحين والمهرة في فنون الحرب والقتال في صفوف الجيش المصري آنذاك(٦٧)·

أما عن الجيش المملوكي في بلاد الشام، فقد بلغ عدد الجيش السلطاني خمسة آلاف فارس، ينفق عليهم من دخل الأراضي المقطعة· ويضاف إلى العدد السابق جموع كثيرة من البدو(٦٨) والأتراك، ويكلف هؤلاء بحصار القلاع والمواضع الحصينة· ولا يتحصلون على راتب· ومع ذلك يقومون بالخدمة العسكرية آملين الفوز بغنائم طائلة تعوضهم عن رواتبهم· وكذلك ضم جيش السلطان المملوكي جنداً من المشاة يتم تجنيدهم من المنطقة الواقعة بالقرب من جبل لبنان، ومن الأراضي الخاضعة لطائفة الإسماعيلية الحشيشية· وكان هؤلاء المشاة ينضمون إلى طائفة التركمان والبدو· ولقد ساد التفاهم بين الطوائف السالفة الذكر وكلف هؤلاء جميعا بحصار القلاع والحصون كما سبق القول(٦٩)·

وبعد حديثه عن الجيش المملوكي في مصر والشام، انغمس هِثون في سرد الثورات التي تعرضت لها سلطنة المماليك في مصر، والتي علق عليها قائلا إنها كانت كثيرة ومتعاقبة، وكان من نتائجها أن عم الاضطراب ربوع البلاد، وبالتالي صعب على المماليك إلحاق الهزيمة بالجيوش الصليبية(٧٠)؛ ولذا فإن الفرصة سانحة لبذل محاولة أخيرة لاستعادة بلاد الشام والأراضي المقدسة من المسلمين، خاصة بعد أن ساد السلام بين أمراء وملوك الغرب الأوروبي(٧١)، هذا بينما عم الضعف بشكل غريب وملحوظ صفوف المسلمين، وأرجع ذلك الضعف إلى غزوات التتار من ناحية، وانعدام بصيرة

السلطان المملوكي الحالي أي الناصر محمد بن قلاوون – من ناحية ثانية، بالإضافة إلى امتناع معظم البلدان الخاضعة لسلطته عن دفع الجزية المفروضة عليها، وبالتالي أصبحت الخزانة خاوية واستثنى هثون من ذلك حاكم ماردين Meredin (٧٢)؛ إلا أن التتار كانوا قد اجتاحوا بلاده، وسلبوا أمواله، واحتفظوا به أسيراً(٧٣).

ويذكر هثون أن التتار كانوا آنذاك على أتم الاستعداد لمساعدة الصليبيين ومناصرتهم في حربهم ضد المماليك، وأن خان التتار أولجايتو(١٣٠٤–١٣١٦) (٧٤) –الذي يسميه هثون كربودا Carbauda– أرسل إليهم مبعوثيه ليخبرهم أنه سينهج نفس سياسة شقيقه غازان (١٢٩٥–١٣٠٤) (٧٥) – ويسميه كاسان Cassan – وأنه موافق على المساهمة في القضاء على المسلمين. وبالتالي كان ينبغي على الصليبيين حينئذ الاستفادة دون تأخير من تلك الفرصة المواتية. ولا سمح الله حسب قول هثون إذا توفى أولجاتيو، فربما يسلك خلفه سياسة مغايرة تماماً، وتكون مشاعره عكسية تجاه مماليك مصر؛ فإذا تحالف معهم، فسيصبح من الاستحالة استعادة الأراضي المقدسة، ذلك الهدف النبيل الذي من السهل تحقيقه اليوم قبل الغد بحسب قوله(٧٦).

وتوجه هثون بحديثه إلى الحبر الأعظم – أي بابا روما – قائلاً: "لقد أمرتني بإبداء وجهة نظري فيما يتعلق بكيفية استعادة الأراضي المقدسة؛ فكوني مسيحياً، لا أتردد في تنفيذ مطلبكم"(٧٧)، ويسترسل هثون قائلاً: "ينبغي أولاً على الصليبيين اختيار الأوقات العصيبة التي تجتازها سلطنة المماليك، وانتهاز حالة الضعف والتمزق التي تعيشها، للقيام بحملة صليبية. لكن ينبغي التخلي عن ذلك إذا كانت أحوال هذه السلطنة حسنة وطيبة؛ ويحدث ذلك عادة عندما يكون السلطان المملوكي الحاكم حكيماً، فطناً، وحازماً، وأنه لا يخشى من ثورة رعاياه ولا من إغارات جيرانه. كذلك عندما يكون المماليك في مأمن من أعدائهم بسبب ضعفهم وتمزقهم وبالتالي لا يخشونهم، وتكون أحوالهم في ازدهار بسبب وفرة القمح والغلال، وليسوا في حاجة للاستيراد من

الخارج لسد الاحتياجات العادية والضرورية للحياة؛ وأخيراً عندما يكون بإمكان المماليك الاعتماد على خدمة وطاعة التركمان والبدو في كل من مصر وبلاد الشام هذه هى الأحوال والظروف التي تكون فيها سلطنة المماليك في مركز القوة، وبالتالي ينبغي التخلي عن فكرة القيام بحملة صليبية، لأنها ستواجه بقوة وحزم وتتعرض للفشل والهزيمة(٧٨).

بعد ذلك يتطرق هِثون للظروف غير المواتية لسلطنة المماليك التي ينبغي على الغرب الأوروبي استغلالها لانطلاق حملته الصليبية، فيستهل ذلك بطرح سؤال: ما هي الظروف غير المواتية لسلطنة المماليك؟ ويجيب قائلاً:

أولاً: عدم استقرار عرش السلطان المملوكي نتيجة اندلاع ثورات لخلعه أو قتله. فمنذ أقل من عقدين، تم قتل أربعة سلاطين، ودس السم لاثنين، وأطيح باثنين. أما الذي يحكم الآن ، فهو السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ذلك السلطان الذي ظل أسيراً لمدة طويلة في حصن الكرك Crac، وهو معرض الآن لمحاولات تهدف لاغتياله(٧٩).

ثانياً: انخفاض مياه النيل أو شحها. فارتفاعها وزيادتها يقابله خصوبة وازدهار الأراضي الزراعية وبالتالي وفرة المحاصيل ورخصها. أما عكس ذلك فسيؤدى إلى كارثة تتمثل في مجاعة عامة وشدة عظمى سيتعرض لها الشعب وستصبح خزانة السلطنة خاوية بحيث لا يستطيع دفع رواتب جنده ولا تغذيتهم، وبالتالي سيعجزون عن الدفاع عن البلاد والملاحظ أن السلطان إذا أراد الانتقال من مصر إلى بلاد الشام، سيتطلب ذلك اجتياز الصحراء الشرقية لمدة ثمانية أيام، فإذا لم يعمم الرخاء في المعسكرات فستموت الخيول وسيضطر الجند للتوقف عن اجتياز الصحراء لمواجهة الحملة الصليبية على بلاد الشام(٨٠).

ثالثاً: على الصليبيين أيضاً في ظل الظروف والأحول السابقة ـــ احتلال المواني البحرية، لحرمان المماليك من استيراد حاجاتهم، أي استيراد السلع الاستراتيجية كالأخشاب والقار والحديد، تلك السلع الضرورية لصناعة السفن الحربية والأسلحة.

وفي رأي هثون فإن مصيبة واحدة من المصائب السابقة كافية للحيلولة دون تمكن المماليك من الصمود في مواجهة الصليبيين. وبالتالي سيتمكن الصليبيون بسهولة بالغة من استعادة بيت المقدس وكذلك جميع البلاد والقلاع والحصون الشامية، وطرد المصريين إلى أعماق الصحراء بحسب أحلام الراهب الأرمني هثون(٨١).

أما الأفكار الرئيسية التي وردت في مشروع حملة هثون الصليبية والواردة في الجزء الثاني من الكتاب الرابع الذي يشمل الفصول من الحادي عشر إلى الثامن والعشرين(٨٢)، فهي كالآتي: من المفضل أن يقوم الجيش الصليبي، قبل الانطلاق في حملته، بإرسال كتيبة استطلاعية Parvum Passagium، مهمتها تمهيد وتجهيز وتسهيل الطريق للجيش الصليبي بكاملة. واكتفى بأن تتكون تلك الكتيبة من ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة وعشر شواني(٨٣). على أن يتم إعداد كل ذلك بسرعة ودقة ونظام، ويتولى قيادتها المندوب البابوي وقائد عسكري محنك متمرس على فنون الحرب والقتال. وعلى الصليبيين التوجه إلى جزيرة قبرص أو مملكة أرمينية الصغرى. وبناء علي نصائح الملك الأرمني، سيقوم الصليبيون بإرسال مبعوثيهم إلى أولجايتو خان التتار، لكي يوافق على موضوعين: الأول: قطع جميع أشكال العلاقات والصفقات التجارية مع المسلمين؛ والثاني وهو إرسال كتائب تتارية إلى حلب(٨٤).

ويرى هثون أن الكتيبة الصليبية الاستطلاعية سالفة الذكر ستتمكن بفضل مساندة ودعم مسيحيي الشرق وتتار فارس من بث القلق والاضطراب في المدن الساحلية المصرية. وفي هذه الحالة، سيضطر السلطان إلى تعبئة وحشد قواته لحماية الساحل والقلاع والمواضع الحصينة، كما سيجد من الضروري أيضا أن يدافع عن العديد من المواضع المهددة بالسقوط في قبضة الصليبيين في آن واحد، وبالتالي تتشتت قواته وتضعف وينتج عن ذلك عدم مقدرته على صد الهجوم الأكبر الذي سيتكفل به الجيش الصليبي بكاملة(٨٥).

ولكي يتمكن السلطان المملوكي من مواجهة هذه الهجمات المتزامنة ينبغي عليه أن ينتقل من مصر إلى بلاد الشام، إلا أن تنفيذ ذلك في تلك الفترة سيشكل خطراً عليه وعلى حياته. وسيخرج منه منهوك القوى وسيؤدي به إلى الهلاك، ويرجع هِثون سبب خطورة القيام برحلة كهذه إلى إمكانية غدر الأمراء المحيطين به، وقيامهم بثورة تنتهي بالإطاحة به. أما سبب مشقة الانتقال فيعود إلى أن السلطان سيكون معرضاً لمضايقات مستمرة من قبل رعاياه من المسيحيين، إضافة إلى استنفاد جميع موارد السلطان المالية لأنه لا يمكن تخيل الكم الهائل من المبالغ المالية التي تتطلبها كل رحلة يقوم بها السلطان المملوكي خارج مصر.

أما بخصوص الشواني العشر فستكون مهمتها قاصرة على السيطرة على المواني المصرية وفرض الحصار البحري عليها للحيلولة دون تزويد المماليك بالسلع الاستراتيجية الهامة المستوردة من الخارج كالحديد والقار والخشب، إضافة إلى الرقيق عصب سلطنة المماليك وسبب قوتها(٨٦).

وإذا لم يتمكن السلطان المملوكي من إرسال جيشه خارج الحدود المصرية، يرى هِثون أن مسيحيي بلاد الشام سيقدمون العون للكتيبة الصليبية الاستكشافية وبالتالي – بفضل تلك المساعدة الفعالة – تتمكن تلك الكتيبة من القضاء على دفاعات وتحصينات مدينة طرابلس. ففي جبل لبنان يوجد ما يقرب من أربعين ألف ماروني – على حد قول هِثون – وجميعهم من رماة السهام المهرة وسوف يسرعون بتلبية الدعوة لمساعدة الصليبيين، وبمجرد الاستيلاء على طرابلس تتمكن الكتيبة الصليبية الأولى والمكلفة بمهمة استكشافية من الاحتفاظ بها حتى قدوم الجيش الصليبي الأكبر، وستكون طرابلس بالغة الأهمية للجيوش الصليبية خاصة بسبب مينائها الاستراتيجي. وهكذا ستتحول إلى قاعدة عسكرية حيوية للجيوش الصليبية ونقطة ارتكاز لانطلاق الصليبيين لاحتلال ربوع بلاد الشام(٨٧).

والجدير بالذكر أن الموارنة كانوا لا يركنون ولا يرغبون في تأييد سيادة الأجنبي فيهم، ولذلك لم يذعنوا للمسلمين الفاتحين وظلوا على حريتهم في جبالهم المنيعة، لذلك سموا "مردة"· ومنذ الحملة الصليبية الأولى انضم الموارنة إلى صفوف الصليبيين فتوثقت الروابط مع الغزاة الجدد، بل ساعدوا القائد الصليبي ريمون دي سان جيل Raymond de Saint Giles في حصاره لمدينة طرابلس، كما رحبوا ترحيباً بالغاً بلويس التاسع عشر Louis IX ملك فرنسا عند وصوله إلى عكا، ففي عام ١٢٥٠م / ٦٨٤هـ أرسل أمير الموارنة ابنه الأمير سمعان على رأس خمسة وعشرين ألفاً من أفضل فرسانه لنجدة القديس لويس، وعندما اشتدت وطأة سلطنة المماليك على الصليبيين وقف موارنة طرابلس وكسروان إلى جانب الغزاة ضد المماليك خاصة في أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون الألفي لطرابلس عام ١٢٨٩م/٦٨٩هـ، كما أوقعوا الهزيمة بجيش المماليك عام ١٢٩١م/ ٦٩١هـ، كما انتهزوا فرصة هزيمة السلطان محمد بن قلاوون على أيدي التتار عام ١٣٠٠م/ ٦٩٩هـ ليعلنوا خروجهم على طاعته ويثيروا البلبلة في صفوفه ويعملوا على تحريض رعاياه وتمزيق الجبهة الداخلية وكان ذلك لصالح الصليبيين·

هكذا كان هثون عارفاً ببواطن الأمور ودارسا لعناصر السكان المقيمين في بلاد الشام، ولقد أدرك أهمية التحالف الصليبي الماروني لاستعادة الأراضي المقدسة التي أعد مشروعا من أجلها؛ وكان ملما أيضا بالعلاقات الطيبة القائمة بين الطرفين التي تعود إلى الحملة الصليبية الأولى كما أوضحنا، لذلك أراد توظيف تلك العلاقة لصالح قضيته ومشروعه·

ويرى هثون أنه في حالة سقوط بلاد الشام في أول الأمر في أيدي التتار فلا ينبغي أن يفزع الصليبيون، لأن التتار سيكونون على أتم الاستعداد لإعادة المدن التي سيستولون عليها للجيش الصليبي، ويؤكد أنه على معرفة تامة بعادات وتقاليد وتصرفات ونوايا

الشعوب التي تريد أن تؤكد للصليبيين أنهم سوف لا يتخلون أبدا عن مناصرتهم؛ إضافة إلى أن التتار لا يتحملون الإقامة في مناطق يسودها المناخ الحار، كذلك فإنهم لا يقاتلون السلطان المملوكي للاستيلاء على أرضه لأن بسط هيمنتهم على آسية كافية لهم تماماً. ويذكر هِثون أن التتار لا هدف لهم من قتال السلطان المملوكي ويُقدمون على ذلك فقط بدافع الانتقام والثأر من المصريين الذين ينظرون إليهم على أنهم أعداء لا يهدؤون، بل ويمقتونهم[٨٨]. ومن المؤكد أن سبب ذلك يعود إلى سحق المصريين لهم في معركة عين جالوت في ٣ سبتمبر لعام ١٢٦٠م / ٢٥ من رمضان لعام ٦٥٨هـ وما أعقب ذلك من معارك متلاحقة بين الطرفين حتى بعد اعتناق تتار فارس الإسلام.

ثم يذكر هِثون المزايا الأخرى لعبور الكتيبة الاستطلاعية، فعندما يستقر أفرادها في الأراضي المقدسة سوف يتمكنون من إدراك حقيقة أحوال البلاد ومدى قوة العدو الذي سيواجه الجيش الصليبي الكبير، وكذلك طريقته في القتال، وبذلك سيجني الجيش الصليبي في حملته الكبرى ثمار تجارب الكتيبة الاستطلاعية الصغرى، وإذا تبدلت الاحتمالات السابقة ولم يتمكن التتار من مساعدة الصليبيين وتمكن السلطان المملوكي من الصمود غير المتوقع عندئذ يكون باستطاعة البابا القيام بالعبور الأعظم للجيش الصليبي أو العدول عن تلك الفكرة[٨٩].

وعقب ذلك يطلب هثون من البابا أن يسمح له بعدة أشياء **أولاً:** بالكتابة إلى ملك جورجيا "الكُرج"[٩٠] الذي يدين بالمسيحية ويذكر أن شعب جورجيا يبدي على الدوام حماسا بالغا للحج إلى الأراضي المقدسة، وأن الجورجيين يتسمون بالقوة والشجاعة في الحروب ويجاورون مملكة أرمينية الصغرى[٩١].

ثانياً: أن يتكرم قداسته بكتابة رسائل باسمة إلى ملك النوبيين، وأن باستطاعة ملك أرمينية ترجمة تلك الرسائل وإرسالها إلى من كتبت إليه في عقر داره دون أي عائق. وقد ذكر هِثون أن ملك النوبيين سبق أن اعتنق المسيحية على يد القديس توماس

St. Thomas وأنه سيوافق بترحيب بالغ على المشاركة جنباً إلى جنب مع الجيش الصليبي في حربه ضد سلطان مصر(٩٢).

ثم يتطرق هثون بعد ذلك إلى كيفية اجتياز الجيش الصليبي لطريقه ويذكر أن ذلك سوف يتم على النحو التالي :

الطريق الأول: اجتياز طريق أفريقية، ويعتذر عن وصف هذا الطريق لعدم علمه به ويقول أنه يترك الحديث عنه للذين يعرفون أحوال تلك المناطق جيداً، ونستخلص من قوله هذا صدقه البالغ وعدم الإفتاء فيما لا يعرفه.

الطريق الثاني: اجتياز طريق القسطنطينية وهو الطريق الذي سلكه جودفري دوبويون من قبل(٩٣). ومن الممكن بالنسبة للجيوش الصليبية – وفق تقديرات هثون – اجتيازه في أمان تام، إلا أن الصعوبة تكمن في مواصلة السير من القسطنطينية إلى مملكة أرمينية الصغرى، لأن الجيوش الصليبية ستواجه مشكلة اجتياز أراضٍ يسيطر عليها الأتراك، وبالتالي سيكون الطريق محفوفاً بالمخاطر، ومع ذلك فقد وجد هثون حلاً لهذه المشكلة فالتتار بإمكانهم تزويد الصليبيين بالمؤن اللازمة وبأسعار معقولة، وبالتالي سيصبحون خير منقذ لهم من تلك الضائقة(٩٤).

أما **الطريق الثالث** فهو الطريق البحري ذلك الطريق الذي يعرفه الجميع – كما يقول هثون – الذي اشترط في حال اتخاذه أن تكون السفن والمراكب تحت تصرف الجيوش الصليبية المشاركة في الحملة وذلك في جميع الموانئ البحرية واشترط كذلك ضرورة تحديد يوم إبحار الأسطول الصليبي بعد ضمان استعداد جميع المشاركين في الحملة الصليبية للالتزام به بدقة واقترح على الصليبيين أن يتوجهوا أولا نحو قبرص حيث يمكن لهم الاسترخاء قليلا هم وخيولهم حتى شهر سبتمبر بسبب مشقة السفر. وإذا علم هؤلاء أن الحملة الاستكشافية التي سبقتهم قد تمكنت من بسط سيادتها على إحدى المدن الحصينة في بلاد الشام، وفي تلك الحالة يمكن للجيش الصليبي الأكبر أن ينتقل

إلى تلك المدينة ويستقر بها ويتخذها قاعدة لعملياته العسكرية· وإذا حدث عكس ما توقع وخطط له، يجب على الصليبيين التوجه إلى مملكة أرمينية الصغرى وذلك بعد انقضاء عيد القديس ميشيل St. Michel – أي بعد ٢٩ سبتمبر – لكي يتجنبوا فصل الشتاء ببرده القارس · وبوصولهم إلى أرمينية الصغرى سيجدون فيها كل ما يلزمهم من حاجياتهم ومنها يمكنهم الانطلاق في اتجاه طرسوس Tarse(٩٥) حيث سينعمون بموارد هائلة بسبب وفرة المياه والكلأ في تلك المدينة(٩٦) ·

وبقدوم الربيع، يكون على الجيش الصليبي أن يتقدم في اتجاه أنطاكية التي تبعد يوما واحدا عن مملكة أرمينية الصغرى، وينبغي على الأسطول الصليبي أن يحتل ميناء السويدية آنذاك(٩٧)· والقريب من أنطاكية، وفي الوقت نفسه تقوم القوات البرية الصليبية بالاقتراب من أسوار أنطاكية لفرض الحصار عليها·

وبعد إحكام الحصار حول أنطاكية سيكون من السهل إسقاطها والاستيلاء عليها، وبعد دخولها يتمكن الصليبيون من الإقامة فيها لعدة أيام، وفي غضون ذلك عليهم التسلل إلى أراضي المسلمين حتى يكونوا على بينه فيما يتعلق بنواياهم واستعداداتهم وقواتهم· وقد سلط هثون الضوء على أهمية الموارنة لترجيح كفة الصليبيين وإلحاق الهزيمة بالمسلمين، إذ قال أنهم من رعايا المسلمين وأن أعدادهم كبيرة في جبل لبنان ويُعدون من الرماة المهرة، وقد أكد دون شك أنهم سوف يسارعون لتقديم العون والمساعدة للجيوش الصليبية(٩٨) ·

وانطلاقاً من أنطاكية يتمكن الصليبيون من الزحف إلى اللاذقية Laodicee القريبة منها (٩٩) · وقد نبه هثون إلى أنه يوجد بالقرب من حصن المرقب Margat(١٠٠) على شاطئ البحر ممر بالغ الصعوبة، إذ يشكل اجتيازه صعوبة بالغة على جيش كبير كجيش الصليبيين؛ وإذا كان المسلمون يبسطون سيطرتهم على ذلك الممر واستقروا فيه واستعدوا لقتال الجيش الصليبي، في هذه الحالة اقترح هثون عليهم ضرورة العودة ثانية إلي أنطاكية؛ واجتياز الطريق البرى في اتجاه قيسارية cesaree(١٠١)؛ وسيجدون

عند اجتيازهم هذا الطريق مياها غزيرة وأراضي خصبة عامرة بالزاد والفواكه وجميع الخيرات التي ستكون خير غنيمة للصليبيين. وهكذا، سيكون من السهل عليهم الوصول حتى حماه تلك المدينة الشهيرة بثرواتها التي من السهل الاستيلاء عليها من وجهة نظر هثون. وإذا استعد السلطان للدفاع عنها، فسوف لا يواجه الجيش الصليبي صعوبة تذكر لقتال الجيش الإسلامي في الوديان المجاورة للمدينة. وفي حالة تمكن الصليبيين من إحراز النصر، ستخضع لهم المدينة بكاملها، وحينئذ سيسهل عليهم اتخاذ طريق مباشر للوصول إلي العاصمة الكبرى دمشق التي ستكون على استعداد تام للاستسلام للجيش الصليبي مقابل شروط حسنة . وسيحدث ذلك عندما يعلم أهالي دمشق أن السلطان المملوكي مُني بهزيمة، وبالتالي ستضعف روحهم المعنوية، وسيتخلون عن الصمود في وجه القوات الصليبية، وسيستسلمون كما استسلموا من قبل لهولاكو Holaon وغازان Cassan.

وبثاقب بصره وبصيرته، أدرك هثون أن سقوط دمشق سيجعل من السهل على الجيش الصليبي احتلال بلاد الشام بكاملها. وإذا أصر السلطان المملوكي على الصمود والاعتماد على قواته لخوض غمار معركة شرسة ضد الصليبيين، يمكنهم آنذاك تغيير خط سيرهم، والتوجه إلى طرابلس التي سيصلون إليها بعد ثلاثة أو أربعة أيام، وسوف يساعدهم في ذلك الأسطول الصليبي الذي سيتكفل بحراستهم ومراقبة تحركاتهم . وعلى الصليبيين الشروع في إصلاح أسوار المدينة ودفاعاتها، وسيساعدهم المسيحيون في إتمام تلك المهمة – أي الموارنة – القاطنون في جبل لبنان. وبعد أن تتخلص مدينة طرابلس من أطلالها وما لحق بها من دمار سيكون من السهل على الصليبيين أن يصبحوا أسيادا على مملكة بيت المقدس(١٠٢).

وقد ركز هثون حديثه حول ضرورة تحالف الصليبيين مع التتار، وقال إن التتار سيزودون الصليبيين بكتيبة قوامها عشرة آلاف مقاتل، وبذلك يصبحون خير عون لهم،

أما البدو والتركمان[١٠٣] فسوف يخشون الاقتراب من الجيش الصليبي خوفاً من التتار، وكذلك سيقوم التتار بتزويد الجيش الصليبي بالمؤن آملين في الانتصار المؤكد على جيش المماليك وفي تلك الحالة سيجني التتار ثمار ذلك النصر. وبالإضافة إلى ما تقدم فإن التتار سوف يخبرون الجيش الصليبي بأحوال المسلمين أول بأول لأنهم يتميزون بمهارة في الركض، وعلى علم تام بكلّ الطرق، ويذهبون ويجيئون بحمية وحماس بالغ. وقد أصروا على أن يواجهوا المسلمين في معركة وسط الحقول، أو القيام بعملية حصار المدن أو القلاع الإسلامية، لكن إذا حاول اولجايتو أو أي قائد آخر من قادتهم إخضاع مصر للسيادة التتارية ينبغي على الصليبيين أن يوافقوه على ذلك دون مزاحمة، فإن هذا القائد التتاري بدلا من أن يتشاور مع الصليبيين لاستطلاع رأيهم يسعى على الدوام لإخضاعهم لإرادته وفرض رأيه وكلمته عليهم. ولا ينبغي على الصليبيين أن ينسوا أن الجيش التتاري جيش قائم على الفرسان، وينطلق بسرعة وخفة وحيوية بينما يضم الجيش الصليبي المشاة والفرسان وبالتالي على الفرسان انتظار المشاة ليسيروا معا جنبا إلى جنب ومن ثم يستحيل على الجيش الصليبي اللحاق بفرسان التتار أو السير معهم[١٠٤].

وقد لاحظ هِثون أن التتار إذ كانوا ضعفاء يجنحون إلى التواضع والوداعة. لكن إذا اختلف الأمر وأصبحوا أقوياء، حينئذ تغمرهم الغطرسة والصلف والتسلط، وبالتالي يمكن أن تحدث مجابهة مع الصليبيين وتكون النتيجة لصالح التتار، وسينتج عن ذلك نزاع متواصل بين الطرفين بين حين وآخر. ولتحاشي هذا المحظور وتلك المجابهة، ينبغي على التتار اتخاذ طريق دمشق، وبسط سيادتهم على عاصمة بلاد الشام دون مزاحمة صليبية ؛ هذا بينما يتخذ الصليبيون الطريق إلى بيت المقدس. وبذلك يمكن الاستفادة من التتار وتجنب مخاطر التحالف معهم[١٠٥].

عقب ذلك، توجه هِثون بحديثه إلى البابا كليمنت الخامس قائلاً: "ليسمح لي قداستكم أن أذكركم هنا عن مدى أهمية عدم معرفة الأعداء بأخبار تحركات الجيش الصليبي

واستعداداته الحربية وعملياته القتالية· ولقد سبق؟ أن ندم الصليبيون والتتار حين علم المسلمون بنواياهم العدوانية وأسرارهم المريبة ؛ فلم يقلل من أهمية الانتصارات الساحقة للتتار إلا قلة اهتمامهم بكتمان مشاريع توسعاتهم؛ هذا بينما استفاد المسلمون خير استفادة بسبب كتمان أسرار عملياتهم العسكرية" (١٠٦).

ها هو مشروع الحملة الصليبية الذي عُرض على بابا روما وملك فرنسة في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، لكي يجعلهما يصممان على القيام بتجربة استعادة الأراضي المقدسة الخاضعة للسيادة الإسلامية· فجميع الظروف التي بإمكانها تسهيل تحقيق هذا الهدف أدرجها هِثون وسردها في مشروعه هذا·

ومع ذلك يندهش المرء حين يلاحظ صمت هِثون عن ذكر أهمية اختيار قائد ماهر ومحنك، خبير بفنون قتال المسلمين، وذكر الصفات الواجب توافرها فيه لتنفيذ مخططاته، وإبداء مقترحاته وتوجيهاته للقادة الخاضعين لسيادته·

والملاحظ أيضا ثقة هِثون المفرطة في نوايا التتار ومساعداتهم، إذ يؤخذ عليه المبالغة في ذلك· وقد نسي تماما أن أحوال إيلخانية تتار فارس في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ أواخر القرن السابع الهجري لم تكن تسمح لها بواصلة سياسة الغزو والإغارة على العالم الإسلامي آنذاك، وذلك لأسباب منها الصراع الداخلي على العرش لأن "كيخايتو" خان التتار الذي خلف أخاه "أرغون" عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ أنفق الأموال الكثيرة على ملذاته مما أدى إلى ضعف دولته تتار فارس، وقد خرج عليه "بيدو" ودار قتال عنيف بينهما انتهى بمقتل "كيخايتو" عام ١٢٩٤م /٦٩٣هـ واستقل "بيدو" بالحكم ولكن لم تهدأ الأمور "لبيدو" بعد ذلك إذ خرج عليه نائب خراسان "غازان ابن أرغون" وتمكن من قتل "بيدو" وأخذ العرش منه بعد حرب شرسة قرب همذان (١٠٧).

ومن الإنصاف أن نذكر أن مشاكل التتار لم تكن وليدة هذا التاريخ فقط بل تمتد إلى ما

قبل ذلك بنحو ثلاثة عقود من الزمن حيث إن وفاة هولاكو عام ١٢٦٥م قد أدّت إلى إضعاف مركزهم، إلى جانب أن زوجته قطز "خاتون" قد تُوفيت بعد ذلك بفترة قصيرة وهي التي كان لها دور مهم في انحياز التتار وتحالفهم مع المسيحيين، الأرمن والفرنج. هذا بالإضافة إلى تهديدات تتار القفجاق لأملاك تتار فارس، ولاشك أن كل هذه التغيرات قد أدت إلى إضعاف محاولات التحالف التتاري مع الصليبيين ضد المسلمين[١٠٨].

بالإضافة إلى ذلك لا يمكن إنكار أثر تحالف تتار القفجاق في جنوب روسية مع المماليك في مصر والشام ردا على تحالف تتار فارس مع الصليبيين، وقد نجح هذا التحالف المملوكي التتاري في إجبار بيزنطة على تغيير سياستها تجاه التحالف الصليبي التتاري والارتماء في أحضان التحالف المعادي فوطدت بيزنطة علاقاتها مع القفجاق والمماليك وتم تبادل السفارات بينهما، وقد تم ذلك في إطار رغبة المماليك و القفجاق في تأمين طرق الاتصال بينهما عبر المضايق البيزنطية[١٠٩].

كذلك نستخلص من آراء هِثون أن لديه بعض الخبرة والتجربة للوسائل التي يمكن استخدامها لتسهيل إثارة انتفاضة جديدة يحمل فيها الصليبيون السلاح وبصحبتهم التتار لاستعادة الأراضي المقدسة من السيادة الإسلامية.

ولا ينبغي أن ننسى أن هِثون كان قد سبق أن حمل السلاح للدفاع عن الممرات الجبلية في مملكة أرمينية الصغرى، كما اشترك في حملة تحت قيادة التتار في أثناء اجتياحهم العالم الإسلامي كما سبق أن ذكرنا، وهكذا كان بإمكانه أن يوضح للبابا ولملوك أوروبا الأخطاء التي عجلت بفقدان الأراضي المقدسة وعن أفضل الطرق والوسائل لاستعادتها.

وعلى أية حال فهذا المشروع العجيب يبدو أنه أثار ضجة كبيرة في أوروبة ولاسيّما فرنسة في وقت فترت فيه الحماسة للحروب الصليبية فكان بمثابة تدليك لقلب واقع في

غيبوبة تامة، فضلاً عن ذلك فإن مشروعه وما ورد فيه من أفكار أثر تأثيراً بالغاً على المشاريع الصليبية التي كتبت بعده فاقتبس أصحابها بعض أفكاره.

والجدير بالملاحظة أن كلمنت الخامس، اجتمع بالأمير الأرمني هِثون في العام نفسه الذي حصل فيه مبعوثان فرنسيان من الرحالة ألبندقي ماركو بولو Marco Polo على نسخة من روايته الأصلية عن رحلاته في آسية الوسطى، لهذا فإن الاطلاع على مصنف هِثون كان مفيدا لدراسة كتاب الرحالة ألبندقي العظيم ماركو بولو وترجع فائدته إلى أنه يمكن أن يرفع الظلام عن بعض الأحداث ويفسرها لنا .

وقبل طي صفحات هذا البحث وجدنا أنه من المفيد حقاً استخلاص ما به من أفكار سبق تداولها ومعرفتها، إضافة إلى تسليط الضوء على أفكاره ومخططاته الجديدة. ففيما يتعلق بوجهة نظر هِثون الهادفة إلى ضمان الحملة الصليبية المرتقبة، نلاحظ أن فكرته المتعلقة بالتحالف مع التتار ليست بجديدة إذ برز مشروع التحالف معهم منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وعلى وجه الدقة منذ عهد لويس التاسع وقبيل حملته على مصر عام ١٢٤٨م/٦٤٦هـ، وكذلك برز ثانية في عهد البابا نيقولا الرابع Nicolas IV (١٢٨٨ -١٢٩٢م)[١١٠]. و قد سار شوطا بعيدا حتى بلغ مداه في أوائل القرن الرابع الميلادي. وقد أورد فكرة التحالف تلك ريمون لول Raymond Lull فكان سباقا في ذلك[١١١].

كذلك فإن اقتراح هِثون على الصليبيين بضرورة التزامهم الطريق البحري ليس جديداً أيضاً، فمنذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي اتخذت الغالبية العظمى من الحملات الصليبية الطريق البحري إلا أن فشل تلك الحملات جعل الصليبيين يتشككون في جدوى الطريق البحري حتى بلغ الأمر مداه في القرن الرابع عشر الميلادي حين فكر الصليبيون في اتخاذ الطريق البري بدلاً من الطريق البحري. ومن الملاحظ أن الدعاة الذين فضلوا الطريق البحري مثل فيدنس دو بادوا Fidence de Padoue [١١٢] وهِثون

وماريتو سانودو Marino Sanudo من المحتمل أنهم لم يصروا على اتخاذ هذا الطريق دون غيره (١١٣).

أما الجديد في مشرع هيثون الذي لم يرد في مشاريع السابقين عليه فهو فكرة العبور العام المتقدم Parvum Passagium أي الحملة الاستطلاعية السابقة للحملة والتي سيتلوها إبحار الجيش الصليبي الأكبر إلى أرمينية الصغرى ، فمن المعتقد أن تلك الفكرة أثرت تأثيرا مباشرا على البابا كلمنت الخامس واقتنع بها ، وزيادة في الاقتناع استطلع رأي رئيس فرسان الداوية جاك دو مولاي Jacques de Molay الذي أعلن أن تلك النصيحة منافية للمنطق وبالغة الخطورة على الجيش الصليبي ، إلا أن البابا قبل بنصيحة هيثون وأخذ برأيه معتقدا أن تلك الفكرة ستخدم بحيوية عملية استعادة الأراضي المقدسة ، أو أنه كان يبحث عن حجة لإرجاء وتأجيل الحملة الصليبية العامة والكبرى لذلك وافق على اقتراح هيثون · ومن هذا المنطلق ركز البابا استعداداته للحملة الصليبية الاستطلاعية خلال الأعوام ١٣٠٨، ١٣٠٩م ، بل امتدت الاستعدادات والتجهيزات حتى انعقاد مجمع فيينا Vienne عام ١٣١١م (١١٤) · وقد يؤكد ذلك تلك الرسائل العديدة التي كتبها آنذاك والمتعلقة باستعادة الأراضي المقدسة · وهكذا كلف البابا اسبتارية عكا بتجهيز حملة استطلاعية Passagium Peculaire تتكون من ألف فارس وأربعة آلاف من المشاة كما حث المسيحيين الغربيين على تقديم العون اللازم لهم ·

والجدير بالملاحظة أن فكرة الحملة الاستطلاعية قد ظهرت ثانية فيما بعد ولكن بشكل مختلف قليلا وذلك بواسطة مارينو سانودو ١٢٧٤-١٣٤٣م Marino Sanudo في مشروعه " أسرار المؤمنين بالصليب Secreta Fidelium Crusis" · وقد أخذ بتلك الفكرة أيضا الملك هنري الثاني Henri II (١٢٨٥-١٣٢٤م) ملك قبرص في مذكراته التي أعدها كمشروع لاستعادة الأراضي المقدسة والتي نشرها ماس لاتري de Mas Latrie في كتابه " تاريخ قبرص "(١١٥).

وقد ركز هِثون في مشروعه على مزايا إبحار الصليبيين إلى أرمينية وأخذ في إبـراز مزايا ذلك، إلا أن نصيحته تلك عارضها معاصروه بشدة، وبرزت تلك المعارضة في مشاريعهم، بل ركزوا على مخاطر الإقدام على خطوة كهذه· ووصل بهم الأمر إلـى حد القول باستحالة تنفيذ ذلك · ولقد عارض تلك الفكرة بشدة أناس على دراية كاملـة بأحوال الشرق آنذاك أمثال جاك مولاي، وهنري الثاني ملك قبرص ومارينو سانودو، ومع ذلك فقد اقترح مارينو سانودو على الصليبيين أن يرسلوا جيشـاً صـغيراً لكـي يحول دون فتح المماليك لمملكة أرمينية الصغرى·

وختام القول قد ظهرت في الغرب الأوروبي عديد من المشـاريع الداعيـة لاسـتعادة الأراضي المقدسة سبقت زمنيا المشروع الذي أعده الراهب الأرمنـي هِثـون· وقـد ظهرت تلك المشاريع بعد سقوط مملكة عكا الصليبية في يد الأشرف خليل بن قلاوون في ١٨ مايو لعام ١٢٩١م، ومنها مشاريع كل من بييـر دبـوا Pierre Dubios(١١٦)، وريمون لول Raimond Lull(١١٧)، وجلفانو دو ليفانتو Gaivano de Levanto(١١٨)، ومع ذلك فإن مشروع هِثون كان الأكثر واقعية والأكثر قابلية للتنفيذ من المشاريع السـابقة الذكر، ونظراً لأهميته البالغة اعتمدت عليه وأخذت منه العديد من مشـاريع النصـف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ·

الحواشي

(١) يُعرف هذا الأمير الأرمني باسم هِثون Hethoun في اللغــة الأرمينيــة، أمــا المصـادر الغربية فقد حرفت هذا الاسم فأصبح هايتون Hayton أو Haiton أو أيتون Ayton أو Aiton و إيكون Aycone .

.Hayton, "La Flor des Estoires de La Terre d'Orient", in, **R.H.C ,Doc. Arm.**, II (Paris , 1869-1906) p. XXIV .

(٢) زودنا المؤرخ الفرنسي بولان باري Paulin Paris بترجمة وافية عن هِثــون، انظر:

Paris , P., Hayton, **Prince d'Armenie , Historien , Extrait de l'histoire litteraire de La France,** (Paris, 1885) XXV , pp. 479-507 .

أما كوهلر Köhler فقد زودنا بمقدمة بالغة الأهمية عن هِثون ومصنفه، انظر:

R.H.C., DOC. Arm., II, (Paris, 1906) pp. XXIII-LV; De Laville le roulx, J., **La France en Orient au XIV Siecle** , 2 vols. (Paris , 1886), I, pp. 64-5; Vermeylen, A., " Le Liver de la fleur des histoires de la Terre d'Orient e la probleme des influences Orientales au Moyen Age" , in , A.C.H. (Paris, 1921), (presses Universitaires de France , 1923) , I , pp. 331 sqq ; Cordier, H., **Hisoire generale de la Chine et de ses relation avec les pays etrangers** , 2 toms (Pais , 1920) II , p. 410 .

(٣) هناك نسختان للمصدر وكانت الأولى باللغة الفرنسية القديمــة ونشــرت داخــل مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية – المؤرخون الأرمن، الجزء الثاني،

R.H.C. , Doc. Arm. , II , pp. 113-253.

أما الثانية فكانت باللغة اللاتينية ونشرت داخل المجموعة نفسها،

R.H.C. , Doc. Arm. , II, pp. 255-363 .

وعن نسخ المخطوطة الفرنسية للمصدر انظر:

R.H.C. , Doc. Arm. , II, pp. LXXXV-XCIV .

وعن نسخ المخطوطة اللاتينية للمصدر انظر:

R.H.C., **Doc. Arm.**, II, pp. CXVI-CXIX .

وللدراسة المقارنة بينهما انظر :

R.H.C., Doc. Arm., II, pp. LVII-LXVII .

(٤) Paris , **Histoire Litteraire**, XXV , p. 1 .

(٥) **R.H.C., Doc. Arm.** , II, pp. XXIII .

(٦) .**R.H.C., Doc. Arm.**, II, pp. XXVIII; III, ch. 45, p. 213; Grousset, R **L'Empire du Levant, Histoire de la question d'orjent** (Paris, 1946)p. 412.

(٧) Paris , **Histoire Litteraire** , XXV , p. 480 .

(٨) **R.H.C. , Doc. Arm.** , II , pp. XXVIII ; Omont , H. , **Notices et exrais des manuscris** , XXXVIII (Paris , 1911) p. 238 ; Paris , **Histoire Litteraire** , XXV , p.2 .

(٩). **R.H.C., Doc. Arm.** , II , pp. XXVIII

(١٠) **R.H.C., Doc. Arm.** , I , pp. CXVIII ; II, XXVIII-XXIX .

(١١) Grousset, **Levant,** pp. 412-413 .

(١٢) **R.H.C., Doc. Arm.** , I , p. XXIX .

(١٣). **R.H.C., Doc. Arm.** , I , pp. LX, CXIX , 429, 651-692 ;

(١٤) صار هثوم بن قسطنطين البابيروني أول ملك من أسرة بابيرونيان، فالملك ليون الثاني البابيروني مؤسس مملكة أرمينية الصغرى لم ينجب ولداً ذكراً ليخلفه ولكنه أنجب بنتا وهي ايزابيل فتزوجها هثوم ابن الأمير قسطنطين – الوصي على العرش– رغماً عنها، وبذلك انتقل تاج أسرة روبينيان إلى أسرة بابيرونيان وتوج هثوم الأول ملكاً في ١٤ يونيو ١٢٢٦م/ ٢٧ جمادى الآخرة لعام ٦٢٤هـ.
Sempad, "Le Connétable, Chronique du Royaume de La Petite Armenie", in, **R.H.C., Doc. Arm.**, I (Paris, 1869) pp. 647-9; Rothelin,"

Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261)", in , **R.H.C. H.Occ.** , II (Paris , 1859) pp. 489-639.

(١٥) "**جي دبلن**" هو ابن بدوان دبلن Baudouin d'Ibelin رئيس بلاط قبرص.
R.H.C. Lois, II , p. 449 .

(١٦) **R.H.C. , Doc. Arm.** , II, p. XXVIII .

(١٧) قامت مملكة أرمينية الصغرى في المنطقة التي عرفت قديما باسم قليقيا La Cilicie، وتقع تلك المملكة في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى، وتكاد تكون حدودها طبيعية لأن جبال الأمانوس Amanous تحدها من الشرق، وفي الشمال والشرق تقع جبال طوروس، أما في الجنوب فيحدها البحر المتوسط حيث تمتد سواحله من مدينة طرسوس إلى جنوب الإسكندرونة. وقد بلغت مساحتها في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي نحو أربعين ألف كيلومتر مربع، بطول ٤٠٠ كم من الشرق إلى الغرب، وعرض ١٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب. وقد أطلقت المصادر الإسلامية على مملكة أرمينية الصغرى اسم "إقليم الدروب" وقد لقب ابن الأثير أمير أرمينية الصغرى باسم "صاحب أرض الدروب".
R.H.C. , Doc. Arm. , I , pp. II-III , XVIII-XIX ; Tournebize , F. , Histoire **politique et religieuse de l'Armenie** (Paris, 1910) , p. 6 ; Iorga , N. , **Breve Histoire de la Petite Armenie** (Paris , 1930) , pp. 9-10 .

ابن الأثير الجزري: **الكامل في التاريخ**، ١٢ جزء (القاهرة ١٢٩٠هـ)، ج١، ص١٤٥؛ ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة ١٩٦٣م)، ص٣٠٧؛ ياقوت الرومي الحموي: **معجم البلدان**، ١٠ أجزاء (بيروت د ت)، ج١، ص١٦٠.

أطلق المسلمون على الملك الأرمني هِثوم اسم "متملك سيس" لأن الأرمن استولوا على أرمينية الصغرى قهراً من المسلمين أصحاب السيادة عليها وعليهم، ويقول القلقشندي في ذلك" ... وإنما يقال له متملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم

وثب عليها رئيس الأرمن المتقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين." القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ١٤ جزء (القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠م/١٣٣١-١٣٣٨هـ)، ج ، ص ٣٢.

أما شهاب الدين بن العمري فقد ذكر عن الأرمن قائلاً "وكانت طاعتهم آخرا لبقية الملوك السلاجقة الروم، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاني على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة (السلجوقية) وسكنت شق تلك الصولة... فطمع هذا اللعين، صاحب أرمينية الصغرى.... واستولى على هذه البلاد وتملكه، وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها".

العمري: **التعريف بالمصطلح الشريف** (مصر ١٣١٢هـ)، ص ٥٥-٥٦.

ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون على ملك الأرمن منها ابن لاون، وليفون، وصاحب سيس، وتكفور. ابن عبد الظاهر: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر (الرياض ١٩٧٦م)، ص ٢٦٩-٣٢٩؛ العمري: **التعريف بالمصطلح**، ص ٥ ؛ القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٨، ص٣١ .

(١٨) يتوارد ذكر التتار Tartarius أو المغول Mongols كثيراً في المراجع التاريخية بمعنى واحد، إلا أن المصادر الإسلامية من أمثال مؤلفات ابن الأثير وأبي الفدا والعيني والمقريزي فضلوا إطلاق كلمة التتار على غزواتهم التي اجتاحت العالم في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. ويقال أن كلمة التتار مشتقة من اسم زعيم ظهر بين تلك القبائل في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وتشير إليهم المصادر اللاتينية المعاصرة وكذلك مصنف هثون "زهرة تواريخ الشرق" باسم التتار Tartarius. على سبيل المثال انظر:
Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 227 , 237-239 .

(١٩) ترجع معرفة هِثوم بالتتار إلى أنه كان من أكبر حلفاء المغول وكانت البعثة التي أرسلها بقيادة شقيقه المؤرخ سمباد إلى خان التتار (كيوك، أو بيوك) عام ١٢٤٨م من أجل التحالف معهم من أكثر المحاولات نجاحاً وقد تغرقت هذه البعثة الفترة مابين ١٢٤٧-١٢٥٠م، وقد فاق هذا المبعوث غيره في إدراك أهمية التحالف مع المغول بالنسبة للمسيحيين، وقد استقبله الخان بالترحاب ومنحه براءة تكفل الحماية والمحبة للملك هِثوم الأول ٠

ويبدو أن نجاح هذه البعثة كان دافعاً وراء زيارة الملك هِثوم بنفسه إلى بلاط الخان عام ١٢٥٤م وقد استقبله الخان بحفاوة بالغة ووعده بعدم تحصيل الضرائب من الكنائس والأديرة الأرمينية الواقعة داخل أملاك المغول٠ وقد ظل الملك هِثوم الأول على ولائه للمغول حيث تردد كثيراً على بلاط الخان وقدم لهم المساعدة كلما طلب منه ذلك وشاركت جنود الأرمن جنباً إلى جنب مع قوات التتار في آسية الصغرى وبلاد الشام، وقد تطورت العلاقة حتى أن الملك الأرمني حضر مجلس الحكماء الذي انعقد في بلاط الخان هولاكو بالقرب من تبريز في يوليو عام ١٢٦٤م٠

ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** (بيروت ١٩٥٨م)، ٢٩٨ - ٤٩٩؛ محمد محمد مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار** (الإسكندرية ٢٠٠٣م)، ص ٣٨٤-٣٩٢؛ السيد الباز العريني: **المغول** (بيروت ١٩٨٦م) ، ص ١٩١؛ عبد السلام فهمي: **تاريخ الدولة المغولية في إيران** (القاهرة ١٩٨١) ، ١٠٨ ؛ حسين محمد عطية: **إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون** (١١٧١-١٢٦٨م/٥٦٧-٦٦٦هـ)، رسالة دكتوراه منشورة، ط١ (الإسكندرية ١٩٨٩م)، ٤٣٠ ٠

(٢٠) **R.H.C., Doc. Arm.** , II , Ch. 45 , pp. 213-4 .

(٢١) **R.H.C., Doc. Arm.**, II, Ch. 10, pp. 129- 30 , 268-9 .

(٢٢) قلعة جوريجوس Gorigos او كوريكوس Korikos ويسميها أبو الفدا "قلعة الكرك" بكافين الاولى مفتوحة وبينهما راء مهملة ساكنه وهي قلعة بالقرب من البحر في أطراف بلد سيس Sis جهة الغرب والشمال وهي تتاخم بلاد ابن قرمان.

أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، ٤ أجزاء (الأستانة ١٢٨٦هـ)، ج٤، ص ٩٩.

كانت تسمى جوريجوس قديما باسم "كوريكوس القليقية" Corycus، وتقع في شمال شرق سيلوقية Seleucie .

R.H.C.,Doc. Arm., I, p. LXXXVI ; Mas Latrie, L., Histoire de l'ile de Chypre, 3 toms (Paris, 1852-1861), II, p. 75; Saint-Martin, J., **Memoires historiques et geographiques sur l'Armenie** (Paris , 1818), I, pp. 203-4.

وقد وردت في مصنف هثون على شكل قورشي Curchi تارة وكورك Corc تارة أخرى.

Paris, **Histoire Litteraire**, p.1; **R.H.C., Doc. Arm.**, II, Ch. 43-44, p. 113, 252 .

(٢٣) Atiya A. S., **The Crusade in The Later Middle Ages** (London , 1938), p. 62 ; Atiya , A. S. , **The Crusade of Nicopolis** (London , 1934) , pp. 20-3 ; De Laville le roulx , J. , La **France en Orient Au XIV Siecle** , 2 toms (Paris, 1886) , I , pp. 64-70 ; Paris , **Histoire Litteraire** , p. 1.

(٢٤) اعتلى **هثوم الثاني** Hehoum II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعد أبيه ليون الثالث Leon III عام ١٢٨٩م ٦٨٨هـ، إلا أنه تنازل عنه عام ١٢٩٣م ٦٩٢هـ لأخيه ثوروس Thoros، ودخل أحد الأديرة الفرنسسكان مع ذلك ظل ثوروس وكبار البارونات يذهبون إليه في الدير لاستشارته في الأمور الهامة، وبفضل إلحاحهم عليه نجحوا في إجباره على العودة ثانية لعرش المملكة عام ١٢٩٥م/ ٦٩هـ ، وفي عام ١٢٩٧م ٦٩٦هـ توجه هثوم الثاني إلى القسطنطينية بصحبته ثوروس وترك أخاه الآخر سمباد Sempad لإدارة شؤون

المملكة فما كان من سمباد إلا أن اغتصب العرش لنفسه، بعد أن سبب الكثير من المتاعب الداخلية لشقيقه هثوم الثاني، لكن البارونات الأرمن اضطروا هثوم الثاني بعد تحسن حالته إلى اعتلاء عرش المملكة للمرة الثالثة عام ١٢٩٩م/ ٦٩٨هـ.

"Le Roi Héthoum II, Poéme Hisorique", in, **R.H.C., Doc. Arm.**, I (Paris, 1869-1906) pp. 541-5; Sempad, **Chronique du Royaume**, pp. 655-7; Mardiros de Crimee, "list Rimee des Souverains de La Petite Armenie " , in , **R.H.C., Doc. Arm.**, I (Paris, 1869) p.685; Tournebize , **Histoire Politique**, pp. 220-8 .

من مرسي الشيخ: **التتار وأوروبة**، ص ٣٩٦.

(٢٥) **R.H.C. , Doc. Arm.** , I , p. 469 .

كان **هثوم الثاني** قد تعرض للكثير من المتاعب في بلاده على يد شقيقه الذي تمكن من اغتصاب السلطة في أرمينية الصغرى لنفسه واستمر الأمر هكذا لعدة سنوات حتى عاد هثوم إلى عرشه عام ٢٩٩ .

من مرسي الشيخ: **التتار وأوروبة**، ٣٩٦.

Morgan , D. , **The Mongols in Syria** (1985) , p. 185 .

يسمى بطريرك الأرمن **كاثوليكوس Catholicos** وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمن، ويطلق الأرمن عليه لقب الكاتاغيكوس، أما المصادر الإسلامية فتارة تسميه بترك الأرمن، وتارة أخرى تسميه بطرك الأرمن، وتارة ثالثة تسميه كيتاغيكوس أخذا عن الأرمن. وتارة رابعة باسم الكاغيكوس، وأخرى كيناغيلوس، أو خليفة الأرمن.

المقريزي: **السلوك**، ج ، ق ١٣، ص ٧٧٨؛ ابن الفرات: **تاريخ الدول**، ج٨، ص ١٣؛ النويري: **نهاية الأرب**، ج ٢٩، ١٠١؛ ابن أيبك: **زبدة الفكرة**، ص ٢٦٨؛ مؤلف مجهول: **تاريخ سلاطين المماليك**، ص ١٥، ١٧؛ ابن شداد: **النوادر السلطانية**، ص

١٢٤-١٢٥؛ ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج٢، ٣٢٠؛ أبو الفدا: **المختصر**، ج٤، ص٢٧؛ مؤلف مجهول: **سلاطين المماليك**، ص ١٧.

(٢٦) Paris , **Histoire Litteraire** , p. 2 ; Grousset, **Levant**, p. 400 .

أطلق التتار لقب "خان" على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من إمبراطوريتهم، و"خاقان" على الرئيس الأعلى لإمبراطوريتهم ومعناه "الخان الأعظم" ومن باب الرغبة في الاختصار استعمل التتار لقب الخان بمعنى خاقان.

ابن أبي الفضائل: **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، تحقيق بلوشيه (باريس ١٩١١-١٩٣٢م)، ص٧٣؛ المقريزي: **السلوك**، ج١، ص ٣٠٧.

Gesta des Chiprois, in., **R.H.C. Doc. Arm.**, II (Paris, 1869, 1906) p. 841 .

من الجدير بالذكر أن "غازان خان" رغم إسلامه سار على سياسة أسلافه الوثنيين منذ عهد هولاكو والتي ترمي إلى التعاون مع الغرب الأوروبي ضد المماليك، وقد أرسل سفارات عديدة إلى البابوية لإعداد حملة صليبية ضد المسلمين وذلك بتحريض من الملك الأرمني هثوم الثاني والبطريرك النسطوري "ماريهابلاها".

"Vie de Mar Yahballaha", trans. Chabot, in, **R. O. L.** (Paris, 1894) pp. 239-65; Iorga, **Histoire**, pp. 91-2 .

(٢٧) تقدم التتار مرارا داخل بلاد الشام لتأييد الأرمن ضد المسلمين، إلا أنهم تراجعوا في النهاية وتمكن المسلمون من إنزال هزائم منكرة بالتتار وحلفائهم من الأرمن عامي ١٣٠٢، ١٣٠٤م ودفع الأرمن ثمن التحالف معهم ضد المسلمين حيث تم تدمير بلادهم على يد المماليك.

العريني: **المغول**، ٣١٩-٣٢٠؛ من مرسي الشيخ: **التتار وأوروبة**، ٩٦.

مدح هثون في مؤلفه زهرة تواريخ الشرق خان التتار "غازان" وأبرز دوره في إحراز النصر على جيش المماليك وقال إنه فعل العجائب.

Hayton, **Flor des Estoires**, p. 193 .

وللتفاصيل عن تلك المعركة انظر:

ميرخوند: **كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا**، نشر جاب بنجم (لكهنو ١٣٣٢هـ/١٩١٥م)، ٥٥، ص١٣٧-١٣٨؛ خواندامير: **حبيب السير في أخبار أشراف البشر**، نشر محمد سين كاشاني (بمباي ١٢٧٣هـ/١٨٥٨م)، ٣/١، ص ٨٨؛ المقريزي: **السلوك**،١/٣ ، ص ٨٨٦-٨٨٨ ؛ أبو المحاسن : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٢ جزء (القاهرة ١٣٤٨-١٣٦١هـ/١٩٢٦-١٩٥٦م)، ج٩، ص١٢٢؛ ابن القوطي: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة** (بغداد ١٣٥١هـ)، ص٥٠١ -٥٠٣؛ بيبرس الدوادار: **زبدة الفكرة وتاريخ الهجرة**، ج٩، تحقيق زبيدة محمد عطا (الرياض ١٩٨٦م)، ج٩، ص٢٠٥ ب، ٢٠٧ ب؛ مؤلف مجهول: **سلاطين المماليك**، ص ٥٨-٦٠؛ أبو الفدا: **المختصر**، ص٤٤-٤٥؛ ابن حبيب: **درة الأسلاك في دولة الأتراك** (دار الكتب المصرية، رقم ٦١٧٠ تاريخ)، ورقة ٢٧٧ أ - ٢٨٨ب.

Sempad, **Chronique du Royaume**,pp. 657-8; Hayton, **Flor des_Estoires,** pp. 191-4; Grousset, **Levant,** p. 400; Cahun, L.,**Introducion a L'Histoire de L'Asie** (Paris 1896) p. 435.

(28) عن تفاصيل سقوط بلا الشام وخاصة دمشق انظر:

بيبرس الدوادار: **زبدة الفكرة**، ج٩، ٢٠٨أ، ٢٠٨ب، ٢١٤أ - ٢١٦أ، ٢١٨أ - ٢١٨ب؛ مؤلف مجهول : **سلاطين المماليك**، ص ٦-٦٧، ٧٠-٧١، ٧٥؛ المقريزي: **السلوك**، ج١/٣، ص ٨٩٠؛ أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة**، ج٨، ص١٢٥-١٢٧؛ ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٦٦م)، ج٣، ص٢٤٢؛ النويري الكندي: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٥٥ مجلد، دار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف

عامة، نشره السيد ألباز ألعريني وآخرون، ٢٩، ص٣٢٦؛ ابن كثير: **البداية_النهاية في التاريخ**، ١٤ جزء (القاهرة ١٣٥١-١٣٥٨هـ) ، ج١٤، ص٨.

Sempad, **Chronique du Royaume** , pp. 656-7; Hayton, **Flor des Estoires,** pp. 193-5; Paris , **Histoire Litteraire** , p. 2 ; Howorth , H. H. , **History of_The Mongols,** 5 vols. (London , 1876-1888) , III , p. 446 ; D'Ohson , M. , **Histoire des Mongols** , 2 vols. (Amsterdam , 1834-1835) IV , p. 260 .

(٢٩) Hayton, **Flor des Estoires,** pp. 198-9; **Gesta des Chiprois** ,pp. 88-9; Sanudo, Marino., "Liber Secretorum fidelium Crucis",ed. Bongars, J., in, **G. D. F.,** II (Hanover , 1911) pp. 241-2; Paris, **Histoire Litteraire** , p. 2 .

(٣٠) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 210 .

(٣١) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 206 .

(٣٢) Hayton , **Flor des Estoires,** p. XXXV .

(٣٣) أفينون أو صخرة أبينون في المصادر الإسلامية مدينة على الضفة الشرقية لنهر الرون Rhone في فرنسا على مسافة ٦٨٧كم جنوب شرق باريس.

Bouillet , M. N. , **Dictionnaire Universel d'Histoire et de Geographie** (Paris , 1871) , p. 151 .

يعود السبب في اتجاه هثون إلى افينون إلى انتقال البابوية من روما إليها عام ١٣٠٥م عندما تم اختيار كلمنت الخامس لمنصب البابا ١٣٠٥-١٣١٤م وهو رجل من أصل فرنسي وبدلاً من الإقامة في روما أرسل في استدعاء الكرادلة من روما وتم تتويجه في ليون وفضل البقاء في أفينون وأصبح يتصدر قائمة تضم ست من البابوات اتخذوا من أفينون مقراً لهم هروباً من الفوضى والاضطرابات التي سادت شوارع روما في ذلك الوقت وخاصة عند اختيار البابا.

واستمرت البابوية على هذا الحال حتى عادت إلى روما بعد ذلك بنحو ٧٠ عاماً عندما غادر البابا جريجوري الحادي عشر Gregory XI ١٣٧٣-١٣٧٧م مدينة أفينون في زيارة إلى روما ومات بها عام ١٣٧٧م وعندئذ سارع الكرادلة الإيطاليون باختيار أحد الإيطاليين لمنصب البابوية وحمل لقب اوربان السادس Urban VI ١٣٧٧-١٣٨٩م. وقد رفض الكرادلة الفرنسيون ذلك الاختيار، وسارعوا باختيار أخر فرنسيا للمنصب البابوي وحمل لقب كلمنت السابع Clement VII ١٣٧٨-١٣٩٤م الذي أقام في أفينون وأعلنوا أن انتخاب اوربان السادس غير شرعي وعندئذ بدأت فترة الانشقاق داخل الكنيسة الغربية حيث وجود اثنين من البابوات أحدهما في روما والآخر في أفينون.

Gill , S. J., **The Council of Florence** (Campridge , 1959),pp. 16-7; Barraclough, G., **The Mideival Papcy** , (London , 1966) . pp. 164-5 ; Vasiliev , A., **History of Byzantine Empire 324-1453**, II, (Madison , 1971) , p. 672 ; Painter, S., **A History of The Middle Ages** (New York, 1954) , p. 405 .

سعيد عاشور: **أوروبا في العصور الوسطى** (القاهرة ١٩٧٢م) ، ج١، ص ٤٩٩؛ نورمان ف.كانتور: **التاريخ الوسيط** ، قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة وتعليق د/ قاسم عبده قاسم، دار المعارف، ط٢ ١٩٨٤، ج٢، ط٢ (دار المعارف ١٩٨٦م) ج٢، ص٦٤٤؛ السيد محمد المتولي: **الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنصورة، ١٩٩٩م، ص٩٠-٩١؛ شارل أومان: **الإمبراطورية البيزنطية**، ترجمة مصطفى طه بدر (القاهرة د ت)، ص ٢٦٠.

(٣٤) **R.H.C., Doc. Arm.** , II , p. XXIV, 113 , 252 -3 .

(٣٥) **R.H.C., Doc. Arm.** , II , pp.252-3.

(٣٦) Hayton , **Flor des Estoires,** pp. 121-35.

(٣٧) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 128 .

(٣٨) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 129 .

(٣٩) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 134-5 .

(٤٠) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 125-6.

(٤١) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 123 .

(٤٢) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 126-7 .

(٤٣) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 128 .

(٤٤) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 136-7 .

للتفاصيل حول نشاط المغول في بلاد الشام ودخول بغداد، ثم الصدام مع المسلمين ومعركة عين جالوت انظ :

حسين عطية: **أنطاكية والمسلمون**، ٤١٤-٤٤٧؛ من مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار**، ٣٨٦-٤٠٣؛ سعيد عاشور: **العصور الوسطى**، ج١، ص ٦٠٤-٦٠٦.

(٤٥) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 147-219 .

(٤٦) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 220-53 .

(٤٧) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 220-34 .

(٤٨) Hayton , **Terre d'Orient**, pp. 220-23 .

(٤٩) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 222-24 .

(٥٠) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 232-34 .

(٥١) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 225-31 .

(٥٢) أطلق مؤرخو الأرمن على المسلمين والشعوب التي اعتنقت الإسلام أسماء عديدة منها سارازان Sarazins ، انظر:

Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 220-1, 225, 227, 231, 234-252; Ghevod, **Hisoire des Guerres e des Conquetes des Arabes en Armenie** , trans. Chahnazarian G. V. (Paris, 1856), p. 2 .

وهذه التسمية مستخدمة في المراجع الأجنبية الحديثة، ويرى المؤرخ الفرنسي فيليب سوناك أنها مشتقة من الكلمة العربية مشرقي، انظر:

Senac, Ph., **Musulmans et Sarrasins au sud de La France** (Paris, 1980), p. 63 .

يقال أيضاً أن تلك التسمية قد أطلقها البيزنطيون على المسلمين، وإن الأصل اليوناني للكلمة هو "سارة قينوس Sarrakinus" وتعني عبيد سارة، وأن الرومان أطلقوا اسم Sarracenus على القبائل الرحل المستقرة على شواطئ نهري دجلة والفرات.

اسمت محمود غنيم: **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** (الإسكندرية ١٩٨٧م)، ص ٨٤.

أما التسمية الثانية وهي تادجيك Tadjics وربما تكون الكلمة مشتقة من "بني طيئ"، انظر:

Arisda Gues de Lasdiverd, **Histoire d' Armenie** , trans. Prud' Homme E. (Paris, 1864), p. 43; Matthieu d'Edesse, **Chronique**, trrans. ed. Dulaurier, M.E, (Paris, 1858), pp. 367-8; Ghevod , **Hisoire**, p. 122 .

وهناك تسمية رابعة وقد أطلق المؤرخون الأرمن على المسلمين وهى اسم الإسماعيلية Ismaelites نسبة إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، انظر:

Ghevod, **Hisoire**, pp. 6, 13, 17-9, 31, 114; Sébéos, **Histoir D'Eraclius**, trans. Macler F. (Paris, 1904), p. 95 .

وفي تسمية رابعة أطلقوا عليهم اسم الهجريين Agariens نسبة إلى هاجر زوج إبراهيم عليه السلام ووالدة ولده إسماعيل، انظر:

Ghevod, **Hisoire**, p. 11 .

وتارة خامسة يعرفونهم باسم المدينيين "مدين يانيت" Madianites نسبة إلى المدينة المنورة، انظر:

Matthieu d'Edesse, **Chronique**, pp. 367-8; Ghevod, **Hisoire** , p. 11 .

(٥٣) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 225-3 .

(٥٤) في هذا المعنى أورد هثون في الفصل الأول من الكتاب الرابع قائلاً:
... Les Crestiens ont Juste Raison e Occasion de Movoir Guerre et La Pute Lignee de Mahomet .... Hayton, **Flor des Estoires**, pp. 220 .

(٥٥) **انجيل متى** : الإصحاح ٥، ٤٣-٤٤.

عند التعرض لفكرة الحرب المقدسة نجد أننا في مواجهة تطور غريب ومتناقض حيث الانتقال من الرفض التام لفكرة الحرب في المسيحية الباكرة إلى فكرة الحرب المقدسة التي جعلت من الحرب أمرا من الرب يشنه بنفسه وينفذه من خلال المسيحيين الذين هم جنود المسيح ، وقد ورد في الإنجيل ما يكشف بوضوح أن المسيحيين مأمورون بعدم اللجوء إلى العنف أو الحرب ولكن عليه أن يواجه كل ذلك بالحب والخير فمثلاً كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون"، كما يرفض الإنجيل مقابلة الشر بالشر والعنف بالعنف "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحياء.... لا يغلبنك الشر، بل أغلب الشر بالخير"، كما ورد أيضا في هذا الصدد "سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً." ولا شك أن كل هذا وهو ماورد في الإنجيل يشير بوضوح إلى رفض المسيحية الحقيقية لفكرة الحرب بأنواعها.

قاسم عبده قاسم (دكتور): الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م (دار المعارف ١٩٨٣م) ، ص١٣-١٤، ٦٤ ؛ **انجيل متى**، الإصحاح ٢٦، ٤٧-٥٢.

(٥٦) جاء في هذا التبرير ما يلي:
"Car il ont Occupei Leur Heritage, Ce est La Terre Sainte Laquel Dieu a Promise as Crestiens; e Tienent Le Saint Sepulcre de Notre Seigneur Jhesu Crist Qui est Comencement de La Foi Crestiene .."

Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 220

(٥٧) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 220-1 .

(٥٨) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 221 .

(٥٩) كان **الناصر محمد** في التاسعة من عمره حين تم أخياره لتولي السلطنة عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، ولم تدم سلطنته غير سنة واحدة استأثر خلالها بالسلطان الفعلي عدد من كبار الأمراء وانتهى الأمر بخلعه. وفي عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م استدعى الناصر محمد من سجنه بالكرك ليلي السلطنة المملوكية للمرة الثانية، إلا أنه في عام في عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م زهد في الحكم نتيجة الأخطار الخارجية والداخلية فتظاهر بأنه خارج للحج وأقام ثانية في الكرك رافضا العودة ثانية إلى عرش سلطنته بالقاهرة . وفي جمادى الآخرة عام ٧٠٨هـ/١٣٠٩م عاد للمرة الثالثة إلى عرشه حيث استطاع بحنكة أن يسير أمور البلاد بطريقة آمنة وفرت الرخاء والازدهار في جميع الميادين واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٧٤١هـ/١٣٤١م. للمزيد انظر:

المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج ١، ٢، "ستة أقسام" إلى عام ٧٤١هـ، نشره وعلق عليه محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٥٨)، ج ٣، ٤، "ستة أقسام" تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٧٠–١٩٧٢ م)، ج١، ص٨٠٦؛ أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٢جزء (القاهرة ١٣٤٨–١٣٦١هـ/١٩٢٦–١٩٥٦م)، ج٨، ص٥٥؛ مؤلف مجهول: **سلاطين المماليك**، نشر زترستين (لندن ١٩١٩م)، ص٣٦؛ ابن حبيب: **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، نشر وتحقيق، محمد محمد أمين (القاهرة ١٩٧٦م)، ج١، ص ١٧٥.

(٦٠) للتفاصيل عن الجيش المملوكي انظر:

أنطوان خليل ضومط: **الدولة المملوكية : التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري** (بيروت ١٩٨٢م) ، ص١٦–٨٢ .

(٦١) ذكر هثون في هذا المعنى قائلاً:
"... La Gent du Pais ne Valent Riens en Fait d' Armes, ne a Pie, ne a Cheval, ne par Mer, ne par Terre ..."Hayton , **Flor des Estoires,** pp. 222 .

(٦٢) Hayton , **Flor des Estoires,** pp. 222 .

الجدير بالذكر أن المماليك ارتبطوا برابطتين، الأولى وهي رابطة الأستاذية أي الأستاذ الذي اشترى المملوك وتعهده بالتربية ثم اعتقه، لذلك يكن له كل احترام وتقدير ويضحي بنفسه من أجله؛ والثانية الخشداشية وهي رابطة الزمالة والأخوة أو الحزب الواحد الذي يجمع بين المماليك الذين تربوا في طباق واحد، إلا أنه بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٤١م وما صاحبه من سرعة تخريج المماليك انعكس على قلة ولائهم ففقدت رابطة الخشداشية جوهرها حتى غدت أحزابا سياسية منقسمة على نفسها ، وانعدمت العلاقة بين المملوك الصغير والمملوك الكبير، وقل ولاء المملوك لأستاذه فضعفت سلطنة المماليك. للمزيد انظر:

المقريزي: **السلوك**، ج١، ص٣٨٨؛ أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص١٨٠ .

(٦٣). Hayton , **Flor des Estoires,** pp. 222-3

وقد ورد في المقريزي قائمة بعدد الأجناد علي اختلاف طوائفهم ورتبهم في مصر دون تأريخ هذا التعداد، وورد في مصدره أن مجموع جند مصر بلغ ٢٤٦٥١ وهو رقم يقارب ما أورده هثون .

المقريزي: **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، ٢ جزء (القاهرة ١٢٧٠م)، ج٣، ٣٦٤ .

أما في مصدره الثاني "السلوك" فقد تحدث عن الجيش المملوكي في عهد السلطان الظاهر بيبرس بقوله (وكانت عدة عسكره اثني عشر ألفا ثلثها بمصر وثلثها بدمشق وثلثها بحلب، وكان هؤلاء خاصته، فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش

الزحف، فإن اجتاح استدعى أربعة أخرى، فإن اشتد به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة...). السلوك ، ج١/٢، ص٦٣٨ .

(٦٤). Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 223 .

(٦٥) سكت فلورنسا Florence عام ١٢٥٢م عملة ذهبية عرفت بالفلورين Florin نسبة إليها، وكان الفلورين يزن آنذاك ٣،٥٣ جراما من الذهب الخالص.
Balard , M. , **Le Moen Age en Occident** (Paris , 1999) , p. 146 .

(٦٦) للتفاصيل انظر : القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج٤ ، ص ٥٦ . وقد أورد هثون في هذا الصدد قائلا
"Chascun Home d' Armes Ha Ses Soldees Ordonnees , ne Montent Plus de Cxx Florins . e Est Tenuz L'Ome a Cheval de Tenir III Chevaus , e un Chamail por Somer .... " Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 223 .

(٦٧). Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 223 .

(٦٨) من عشائر البدو المنتشرة في بلاد الشام "آل مهنا وآل فضل"، وكانوا من أبرز من جلبوا للسلطان محمد الخيول من بلاد الشام فأصبحوا من أصحاب الحظوة لديه وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب.
القلقشندي : **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٠٣-٢٠٨؛ المقريزي: **الخطط**: ج٢، ص٢٢٤؛ المقريزي: **السلوك**، ج٢، ص٥٢٦-٥٢٧؛ حلمي محمد سالم: **اقتصاد مصر الداخلي وأنظمته في العهد المماليكي** (الإسكندرية ١٩٧٧)، ص٢٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام** (القاهرة ١٩٦٥م) ، ص٢٠٦

(٦٩) . Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 224 .

يرجع أصل هذه الفرقة **الإسماعيلية** إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت١٤٥هـ)، والذي نجح أتباعه في إقامة الدولة الفاطمية. ولكن هذه الفرقة الإسماعيلية تصدعت بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ، وقد عرفت هذه الفرقة فيما

بعد باسم النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر. وقد عرفت الإسماعيلية بالباطنية لأنهم كانوا يؤمنون بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً وهو الأمر الذي أدى إلى تأويل أحكام الشريعة مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية. وكان هناك تنظيم دقيق لهذه الطائفة يضم شيخ الجبل، وكبار الدعاة، والدعاة، والرفاق والفدائيين. وكان الفئة الأخيرة هي المسؤولة عن تنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحملات الصليبية التي راح ضحيتها الكثير من الصليبيين والمسلمين السنة على السواء.

وكان يتم اختيار هؤلاء الفدائيين وتدريبهم بعناية فائقة، حيث ورد أن شيخ الجبل قد أنشأ قرب قلعته حديقة وحرص أن يجعل بها جميع صفات الجنة من العسل والخمر واللبن والفواكه وحور العين، وكان يتحدث مع هؤلاء عن أوصاف الجنة ثم يعطيهم شيئاً مخدراً، قد يكون من نبات الحشيش، وهو ما جعلهم يعرفون باسم "**الحشيشية**" ثم يحملهم بعد أن يفقدوا الوعي إلى الحديقة السابقة حتى إذا أفاقوا ظنوا أنها الجنة . ثم يعمد إلى تخديرهم ثانية وإخراجهم منها إلى قلعة الشيخ الذي يسألهم بعد أن يفيقوا ماذا رأوا فيقطعون أنهم رأوا الجنة بعينها وأوصافها فيعدهم بدخولها إذا قتلوا هذا وذاك. وكان ذلك هو دافعهم الأساسي وراء الاغتيالات التي يرتكبوها في كل مكان. وقد استمرت هذه الطائفة قائمة حتى تمكن المغول من القضاء عليها على يد هولاكو في ديسمبر عام ١٢٥٦م/ ٦٥٣هـ .

سعيد عاشور: **الحركة الصليبية**، ج١، ص٥٥٠-٥٦٠؛ من مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار**، ص ٢٦٨-٢٦٩؛ حسين عطية: **أنطاكية والمسلمون**، ص٤١٠-٤١١ .

(٧٠) ؛ Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 228-31

عن حالة الاضطراب التي عانت منها دولة المماليك والصراع الدائم بين طوائف المماليك ي ذلك الوقت، انظر: حكيم أمين عبد السيد: **قيام دولة المماليك الثانية**، (القاهرة ١٩٦٧م) ص١٤-٢٥ .

(٧١) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 235-6 .

(٧٢) المقصود هنا هو "الملك المنصور نجم الدين" أمير ماردين من أسرة الأراتقة، وكان قد خلف شقيقه "شمس الدين" في حكم تلك المدينة.

Hayton , **Flor des Estoires**, p. 237 .

وعن ترجمة "الملك المنصور نجم الدين" انظر: أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢٤٤.

وتعتبر "**ماردين**" حصن منيع مبني على قمة جبل شاهق، فيه من العدة والسلاح ما لا يمكن حصره على حد قول ابن حوقل. ابن حوقل: **كتاب صورة الأرض** (بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م)، ص ١٥٢.

وقال ياقوت: "إنها قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة الفراتية مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة، وذكر أن دورها كالدرج كل دار فوق الأخرى، وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدروب ليس دون سطحها مانع والماء عندهم قليل وأكثر شربهم من صهاريج معدة في بيوتهم. وذكر ابن بطوطة في رحلته إليها عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م "هي مدينة عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأحسنها وأتقنها أسواقا، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع كانت تسمى بالشهباء".

ياقوت الرومي الحموي: **معجم البلدان**، ١٠أجزاء (بيروت د ت)، ج٧، ص٣٦١؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، جزءان، (باريس ١٨٧٧م)، ج٢ ، ص ١٤٢-١٤٣.

(٧٣) Hayton , **Flor des Estoires**, p. 237 .

(٧٤) عندما أصبح خانا للتتار تسمى باسم "أولجايتو محمد خدا بندا" وقد ورد على شكل كربودا Carbauda، ويطلق العامة عليه اسم "خربندا" ومعناها بالعربية عبد الله. انظر:

ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٣، ص ٤٦٨.

(٧٥) سار **غازان**، رغم إسلامه على سياسة أسلافه الوثنيين منذ عهد هولاكو التي كانت ترمي إلى التعاون مع الغرب الأوروبي ضد المماليك المسلمين، وقد أرسل إلى البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤-١٣٠٣م) يخبره أنه على استعداد للتحالف مع ملوك أوروبا ضد سلاطين المماليك، وأنه موافق على إعطاء بيت المقدس بعد سقوطه إلى المسيحيين ، وهذا ما شجع البابا وأعلن الدعوة إلى حرب صليبية عام ١٣٠٠م أي في عهد الخان الأسبق.

Iorga , N. , **Les Tartars et Le Saint Siege** (Paris , 1915) , pp. 91-2 .

يبدو أن هثوم اعتقد أن التتار لديهم الرغبة القوية في إزالة أثر الهزائم التي حلت بهم على أيدي المماليك في عامي ١٣٠٢، ١٣٠٤م ، الأمر الذي دفعة لتعليق آمالا كبيرة على مساعدتهم للصليبيين في حربهم المنتظرة ضد المسلمين. من مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار**، ج ٦ ٣٩٦.

(٧٦) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 237-8 .

(٧٧) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 238 .

(٧٨) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 239-40 .

(٧٩) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 240 .

حكيم أمين: **دولة المماليك**، ص١٤-٢٥.

يعتبر "**حصن الكرك**" قلعة حصينة من طرف الشام من نواحي البلقاء وتقع على سن جبل عال تحيط بها الأودية من جميع الجهات عدا جهة الربض. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٤، ص٢٦٣؛ البغدادي: **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ٣ أجزاء، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة ١٩٥٤م)، ج٣، ص١١٥٩؛ أبو

طالب الأنصاري: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر** (سان بطرسبرج١٨٦٦م)، ٢١٣.

(٨٠) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 241 .

(٨١) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 241 -2 .

(٨٢). on , **Flor des Estoires,** p. 235-53

(٨٣) **شيني** "جمعها شواني وهى أكبر أنواع السفن الحربية، وكان يجدف بمائة وأربعين مجدافاً، ويركب فيه المقاتلة والجدافون.

المقريزي: **الخطط**، ج٢، ص ١٩٤-١٩٥؛ ابن مماتي: **قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، ص ٣٣٩-٣٤٠٠؛ المقريزي: **الخطط** ، ج٢ ، ص١٩٤-١٩٥.

(٨٤) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 242-3 .

(٨٥) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 243 .

(٨٦) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 244 .

(٨٧) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 245 .

(٨٨) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 245-6 .

(٨٩) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 246 .

(٩٠) كان **الكُرج** يسكنون في جبل القبق وقد قويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس.

ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول** (بيروت ١٩٥٨م)، ص٣٥٠.

وتقع "بلاد الكرج" على السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، فحدودها الشمالية تتاخم بلاد داغستان وسهول أذربيجان، وتحدها جنوباً أرمينية ومقاطعة قرص Kars، أما حدودها الغربية فتطل على البحر الأسود للمزيد انظر:

فايز نجيب إسكندر: **الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج** (القاهرة ١٩٨٨م)، ص ٧-٢٨؛ فايز نجيب إسكندر: "الكرج والأتراك السلاجقة في عهد داوود الثاني"، **مجلة المؤرخ العربي**، الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب (مارس ١٩٩٣م) ، ص ٢٥٢-٢٥٣

(٩١) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 246-7 .

(٩٢) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 247 .

(٩٣) انطلق جودفري بويون Godefroi de Bouillon من اللورين وأمضى بضعة أسابيع في المسير عبر نهر الراين والوصول إلى نهر الدانوب إلى أن وصل إلى الحدود المجرية عند لايثا Leitha، ثم اجتاز بلاد المجر ووصل إلى مانجولوز Mangjeloz قرب الحدود البيزنطية، وبعدها بلغ سملين Semlin الواقعة على الحدود المجرية البيزنطية، ثم وصل الجيش الصليبي إلى فيليبوبولي Philippopoli وواصل سيره حتى وصل إلى أدرنة وتوقف الجيش الصليبي بعد ذلك في سليمبريا Selymbria على شاطئ بحر مرمرة ثم بلغ القسطنطينية .

Albert d'Aix, Liber, "Historia Hierosolomitana", **R.H.C., H. Occ.**, (Paris, 1879) IV, II, pp. 1-7; Chalandon F. , **Hisoire de la Premiére Croisade** (Paris, 1925) pp. 112-9 ; Grousset, R, **Hisroire des Croisades** (Paris , 1948) , I , pp. 14-15 .

(٩٤) Hayton , **Flor des Estoires,** p. 248 .

(٩٥) تعتبر **طرسوس Tarse** من المدن القديمة وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد حيث مات بموضع يعرف باسم اليذنون بالقرب من طرسوس عام ٢١٨هـ .

ابن عبد الظاهر: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر (الرياض، ١٩٧٦م)، ص٤٣٨ – ٤٣٩؛ النويري: **نهاية الأرب في فنون**

الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٩ معارف عامة، ج٣، ١٠٧؛ ابن أبي الفضائل: **النهج السديد**، ص ٣٩٢.

وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط بالقرب من حلب باتجاه الغرب، وهي مدينة مسورة في غاية الخصب بناها الرشيد عام ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وأكملها بعد ذلك بعامين، ولها خمسة أبواب هي باب الجهاد وباب الصفصاف، وباب الشام، وباب البحر، والباب المسدود، والنهر – أي نهر سيمون – يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد، وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين. البغدادي: **مراصد الإطلاع**، ج٣، ص٨٨٣ ؛ القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٤، ص ١٣٣.

R.H.C. , **Doc. Arm.** , I , p. XL .

(٩٦) Hayton , **Flor des Estoires**, p. 248 .

(٩٧) ميناء **السويدية** أو ميناء القديس سمعان St. Simeon وقد سمي كذلك تخليداً لهذا الناسك، وتقع مدينة السويدية الساحلية عند مصب نهر العاصي على مسافة قريبة من أنطاكية وفي غربها، وبينها وبن أنطاكية نحو ١٤ ميلاً.

بطرس توديبود: **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس** ، ترجمة حسين محمد عطية (القاهرة ١٩٨٨م)، ص١٧١؛ ريمون داجيل: **تاريخ الفرنجة في بيت المقدس**، ترجمة د/ حسين محمد عطية (الإسكندرية ١٩٩٨ م)، ص ٩٤–٩٥.

(٩٨) Hayton , **Flor des Estoires**, p. 249 .

(٩٩) تعتبر **اللازقية** مدينة ساحلية وتقع شمال مرقلية، وقد قال عنها القلقشندي: إنها "أجل مدينة بالساحل منعة وعمارة ولها ميناء حسنة، ومنها إلى أنطاكية ثمانية وأربعين ميلاً".

القلقشندي : **صبح الأعشى**، ج٤ ، ص ١٤٥ .

(١٠٠) حصن **المرقب** عند هثِون يعادل حصن **الأكراد** في الأهمية والحصانة، بل وفاقه لوقوعه على ساحل البحر المتوسط بالقرب من بانياس، وبينه وبين طرسوس نحو اثني عشر ميلاً ٠

ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٤، ص ٥٠٠؛ القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٤، ص١٤٥-١٤٦٠

ويذكر المؤرخ الفرنسي كلود كاهن Claud Cahen أنه إذا تمكن المسلمون من بسط سيادتهم على حصن المرقب فسوف يشكلون خطورة بالغة على الوجود الصليبي في تلك المنطقة ، وقد سبقه إلى ذلك الراهب الأرمني هثِون مما يؤكد إلمامه التام بالمنطقة التي يكتب عنها ٠

Cahen , Cl., **La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades** (Paris, 1940) , p. 519 .

(١٠١) **قيسارية** Cesaree مدينة تطل على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين الرملة ٣٢ميلاً، وبينها وبين عكا ٣٦ ميلاً ٠ انظر:

أبو الفدا: **تقويم البلدان**، نشر رينو و ديسلان (باريس١٨٤٠م)، ص٢٣٩ ٠

(١٠٢) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 249-50 .

(١٠٣) كان "**التركمان**" ينتشرون في معظم أنحاء بلاد الشام وخاصة مناطق الفرات، ولقد عدد القلقشندي عشر طوائف من تركمان بلاد الشام.

القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٣، ص١٩٠، ٢٨٢؛ ابن شاهين: **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، نشر وتصحيح بولس راويس (باريس١٩٨٤م)، ص١٠٤-١٠٥ ٠

وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان لحماية أطرافها من الأعداء المتاخمين لها وهم الصليبيون والتتار، بالإضافة إلى إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت تغير على السلطنة·

القرماني: **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ** (بيروت ١٩٦٩)، ص٣٣٩-٣٤٠ ·

(١٠٤) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 250-1.

(١٠٥) Hayton , **Flor des Estoires**, pp. 251-2 .

(١٠٦) Hayton , **Flor des Estoires,** pp. 252 .

(١٠٧) للتفاصيل انظر:

المقريزي: **السلوك**، ج١، ص ٨١٠؛ ابن الوردي: **تتمة المختصر في أخبار البشر**، جزءان (القاهرة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) ، ج٢ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ·

D'Ohson , **Mongols** , IV , pp. 101-6 , 132, 141 ; Chabot , " Relation du Roi Argoun avic L'Occident " , in , **R.O.L.** , (1894) pp. 127-8 ; Howorth , **The Mongols** , III , pp. 387-8 ; Barthold , " Gaikhatu " , in , **Enc. Isl.** , II , p. 135 .

(١٠٨) مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار**، ص ٤٠٢؛ العريني: **المغول**، ص٢٧٩؛ عبد السلام: **الدولة المغولية**، ص ١٤٩ ·

(١٠٩) العريني: **المغول**، ص ٢٨٠؛ مرسي الشيخ: **أوروبة والتتار**، ص ٤٠٣ ·

(١١٠) اعتلى نيقولا الرابع Nicolas IV الكرسي البابوي في ٢٠ فبراير عام ١٢٨٨م وكان سلفه هو هونوريوس الرابع Honorius IV قد توفي في ٣ أبريل عام ١٢٨٧م فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة من ٣ أبريل ١٢٨٧ حتى ٢٠ فبراير ١٢٨٨م ·

Grousset, **Histoire** , III , P. 716 .

(١١١) Andre , M. , **Lè Rienheureux Raymond Lulle (1232-1315)** (Paris , 1900) , pp. 195-6 ; Perroquet , A. , **Apologie de La Vie de**

Raymond Lulle (Paris , 1667) , pp. 1-390 ; Paris , **Histoire Litteraire** , pp, 1-385 .

(١١٢) **فيدنس بادوا** Fidence de Padoue راهب فرنسيسكاني عاش فترة طويلة في بيت المقدس وشهد استعادة بيبرس البندقداري لمدينة صفد عام ١٢٦٦م وأنطاكية عام ١٢٦٨م من الغزاة الصليبيين، وفي عام ١٢٧٤م كلفه البابا جريجوار العاشر ١٢٧١-١٢٧٦م Gregoire X بإعداد مشروع حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة، لذا قام بزيارة مصر وبلاد الشام وقبرص ومملكة أرمينية الصغرى وبلاد فارس، وفي عام ١٢٩١م سلم مشروع صليبيه إلى البابا الجديد نيقولا الرابع ١٢٨٨-١٢٩٢م Nicolas IV . وكان أهم ما تضمنه هذا المشروع فرض حصار اقتصادي على المسلمين وتحويل تجارة الهند إلى البحر الأحمر ومصر إلى بلاد فارس ومملكة أرمينية الصغرى، وتحريم تجارة العبيد لإضعاف دولة المماليك وكان ذلك أهم ما تضمنه كتابه المعروف باسم "كتاب تحرير بيت المقدس" Liber Recuperationis Terre Sancte .

Atiya, **Crusade** , pp. 36-44; De Laville le roulx , **La France,** I, pp. 19-25.

(١١٣) ولد **مارينو سانودو** Marino Sanudo في مدينة البندقية حوالي عام ١٢٦٠م ومات عام ١٣٤٣م . وقد أعد مشروعاً لإعداد حملة صليبية بعنوان "كتاب أسرار المؤمنين بالصليب لاسترداد الأراضي المقدسة والاحتفاظ بها Liber Secretorum Fidelium Crusis Super Terre Sanctae Recuperatione et Conservation " وقد ركز سانودو في مشروع حملته على ضرورة العمل على إضعاف مصر وإفقارها اقتصادياً على أن تقوم الأساطيل الأوروبية بفرض حصار بحري على كل من دمياط ورشيد والإسكندرية ومنع تجارة الرقيق من التدفق على الأسواق المصرية والتحالف مع الحبشة لغزو مصر

من الجنوب، ومنع الغرب الأوروبي من استيراد السلع المصرية، ونقل تجارة الشرق الأقصى من مصر إلى بلاد فارس ومملكة أرمينية الصغرى تماماً، أما عن المرحلة الثالثة والأخيرة فقد حلم سانودو بالاحتلال الصليبي للأراضي المقدسة. لمزيد من التفاصيل انظر:
Atiya, **Crusade** , pp. 114- 27 .

(١١٤) للتفاصيل عن مجمع فيينا انظر:
Dvornik, F. **Hisoire des Conciles** (Paris, 1962), pp. 97-102 ; Atiya , **Crusade** , pp. 85-7.

(١١٥) Housley, N., **Documents on The Latter Crusades 1274-1580** (New York, 1996), p. 42; Mas Latrie, L., **Histoire de L'Ile de Chypre**, (Paris , 1852-1861), II , pp. 118-25 .

(١١٦) يعتبر **بيير دبوا** Pierre Dubois من رجال القانون الفرنسيين وقد قدم مشروعاً لحملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة وعنوانه "استعادة الأراضي المقدسة De Recuperatione Terre Sanctae" وقدمه إلى الملك الفرنسي لويس الرابع وطال فيه أوروبة بالاشتراك في حملة صليبية بزعامة الملك الفرنسي، وقد حرص على معالجة مشكلة تمويل تلك الحملة، كما دعا إلى سحق الداوية ومصادرة أملاكهم وفرض ضريبة تركات على رجال الدين مع السماح لهم بالزواج، للمزيد من التفاصيل انظر:
Dubois , **Pierre de Recuperatione Terre Sancte** , ed. Langlois (Paris , 1891) , pp. 1-110 ; Atiya , **Crusade**, pp. 48-52 .

(١١٧) ولد " **ريمون لول** Raymond Lull" الكتالوني عام ١٢٣٢م وأعدم رجماً بالحجارة في بجاية (بالجزائر حالياً) عام ١٣١٥م. وكان أول شاعر وفيلسوف وألف مئات من الكتب بطريقة جديدة في الفلسفة مبنية على اتحاد المعرفة، وأوضح ذلك في كتابه الذي يحمل عنوان "شجرة العلوم Arbor Scientiae" وكان من بين أقدم المستشرقين الذين أتقنوا اللغة العربية حتى إنه كان

باستطاعته نظم الشعر العربي، وقد تبنى في كتابه "التحرير النهائي Liber Fine" فكرة جديدة لاستعادة الأراضي المقدسة، إذ اقترح هذا الراهب الفرنسيسكاني أن يتسلح الصليبيون بسلاح المحبة والسماحة بدلاً من تعاملهم مع المسلمين بالسيف والرمح، أي أنه أراد إقناع المسلمين باعتناق المسيحية، ومن هذا المنطلق بدأ بالتبشير بالمسيحية في الشمال الأفريقي ولاسيّما في تونس التي تسلل إليها ثلاث مرات إلى أن انتهى الأمر بإعدامه رجماً بالحجارة كما سبق القول.

Andre **, Raymond** , pp. 1-198 ; Atiya , **Crusade** , pp. 72-94 .

(١١٨) تأثر " **جلفانو دو ليفانتو** " Galvano de Levanto الجنوي بما كتبه ثاديو نابولي Thaddeo de Naples فنقل عنه الكثير. وقد مارس مهنة الطب، ثم اعتزلها لينخرط في إحدى الهيئات الدينية. وقد أعد كتاباً أهداه للملك الفرنسي فيليبى الجميل ١٢٨٥-١٣١٤م Philippe Le Bel وكان بعنوان " كتاب العبور المقدس للصليبيين لقتال المسلمين واستعادة الأراضي المقدسة Liber Sancti Passagii Christicolarum Terre Sancte". وقد استعرض فيه مقترحاته على أمراء الغرب الأوروبي لاستعادة الأراضي المقدسة واقترح على الملك الفرنسي تولي القيادة العامة للجيوش الصليبية، ومن المعتقد أنه كتب هذا المشروع فيما بين عامي ١٢٩١و ١٢٩٦م . وللمزيد من التفاصيل انظر:

Kohler, Ch., "Traite de Recouvrement de La Terre Sainte" in, **R.O.L.**, VI, (Paris, 1898), pp. 344-354; Housley, N., **The Later Crusades_from Lyons to Alcazar 1272-1580** (Oxford, 1992), pp. 23-4 ; Atiya, **Crusade**, pp. 71-2 .

الجواري في العصر المملوكي

الدكتور سعود محمد العصفور

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة الكويت

Abstract

Odalisque During Mameluke Era

Mameluke sultans and amirs have competed in purchasing odalisques and getting the beautiful ones. They were keen on having odalisques for marriage, or as means of amusement and servicing, etc; and therefore, representing an essential part of the Mameluke society.

This research however is an attempt to highlight the roles taken by odalisques and the life they led during Mameluke era.

Historical studies have not paid much of attention to this class of people that is why this is research aims at bringing to light one of the elements of Mameluke era.

ملخص البحث

تنافس سلاطين وأمراء المماليك على شراء الجواري واقتناء الحسان منهن، للنكاح، والأنس، والخدمة، وغير ذلك، حتى غدين جزءاً أساساً في المجتمع المملوكي.

وفي البحث محاولة للوقوف على أحوال الجواري في المجتمع المملوكي، والأدوار التي قمن بها في ذاك العصر.

ولما كانت حياة تلك الفئة غالباً لا تجد عناية مناسبة في الدراسات التاريخية، فإن البحث في محتواه يكون مواتياً، وحسبه أن يلفت النظر إلى حياة أحد عناصر المجتمع المملوكي.

ليس مستغرباً أن يكون للجواري في العصر المملوكي تلك الأدوار المختلفة وذاك الاهتمام، فأساس الدولة المتمثل في الطبقة الحاكمة كانت من المماليك، ولعل اللافت في الأمر أن أولئك الحكام أدّوا دور الأسياد بعد أن كانوا عبيداً أرقاء، وتنافسوا في اقتناء الرقيق بنوعيه الأبيض، والأسود، وكانت الجواري الحسان أحد مظاهر هذا التنافس·

ومن خلال ما تجمع من مادة بحثية، فإن البحث يمكن تقسيمه إلى· مصادر جلب الجواري، وأماكن بيعهن في السلطنة المملوكية، والأصول المرعية في عملية البيع والشراء، ثم نعرض حياتهن في قصور السلاطين، وبيوت الأمراء، والأعمال التي تسند إليهن، والمعاملة التي يتلقينها·

أولاً· مصادر وأماكن جلب الجواري:

عرفت الأمم الرق منذ أقدم العصور، وكانت الحروب مصدراً أساساً له، وتمثل في الأسر أو كجزء من الضريبة المفروضة على الخاسرين بعد أن أدرك المنتصرون أن الإبقاء على الأسرى أفضل من قتلهم، ولم تكن الحروب وحدها المصدر الأوحد لجلب الجواري ، فقد دفع الفقر البعض إلي بيع أولادهم أو بيع أنفسهم تخلصاً من الفقر وللحصول على لقمة العيش، وقد فطن البعض إلى ما يحققه الاسترقاق من قيمة اقتصادية فأقبلوا على خطف الصغار والكبار رجالاً ونساءً، ثم باعوهم في أسواق الرقيق، فأضحى البيع مصدراً رديفاً، وبذا اتسع الاسترقاق·

وبلاد النوبة من الأماكن الرئيسة التي يجلب منها الرقيق الأسود في زمن المماليك وقبله، وأهلها يتاجرون مع المسلمين عن طريق مبادلة الرقيق بالمواشي والحبال والحديد والحبوب[1]· فقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشه إلى بلاد النوبة في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م لقتال ملكها الذي دخل مدينة أسوان، ونهب ما فيها وأحرقها، فسار جيش الظاهر إليه، وتقاتل معه، وانتهى الأمر إلى إلحاق الهزيمة بجيش النوبة،

وهروب ملكها، وقتل من عسكره ما لا يحصى، وأسر أخوه وأولاده وأقاربه، وغنموا من جيش النوبة غنائم كثيرة من عبيد، وجواري، وخيول، وغير ذلك(٢).

وكرر ملك النوبة فعلته في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، حيث هجم على مدينة أسوان، ونهب ما فيها، وأحرق جرونها، فلما بلغ السلطان المنصور قلاوون ذلك، أرسل الأمير أيبك الأفرم مع جماعة من العسكر، فلما وصلوا إلى هناك هرب منهم ملك النوبة، فتتبعوه إلى آخر النوبة، وهزموه شر هزيمة، وغنموا منه أشياء كثيرة، من بينها الجواري والعبيد والخيول والجمال، وغير ذلك، ورجعوا بكل ذلك إلى مصر(٣).

وحضر ملك النوبة إلى الأبواب السلطانية(٤) سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م، وصحبته هدية عظيمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، منها: ألف رأس رقيق من العبيد والجواري، فأكرمه السلطان وأخلع عليه(٥).

وبلاد القفجاق أحد المصادر الأخرى لجلب الجواري، ومن ذلك: أن ملكها طقطاي أرسل هدية وتحفاً وجواري كثيرة في سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م، منهن للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومنهن للبيع، إلا أن معظم الجواري غرقن في البحر، وبقى منهن القليل، ولما حضر رسول طقطاي قدم بعضهن للسلطان الناصر، وباع الباقي(٦).

وكان لشغف السلاطين بجمع الجواري الحسان أثره في ازدياد الجواري في العصر المملوكي، فمعرفة مستوفي الدولة شرف الدين عبد الوهاب الشهير بالنشو(٧) بشغف السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالجواري الملاح، جعله يستعين بأشرار الناس ليدلوه في سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م على الجواري المولدات التي يحتفظ بهن أهل الوجه القبلي، وأهل الوجه البحري، وأجبر أربابهن على حمل بعضهن إليه بزعم رغبة السلطان فيهن(٨).

وبلاد الأرمن وقاعدتها سيس[٩] يجلب منها الجواري البيض، ومن ذلك: إرسال تكفور[١٠] ملك سيس هدية قيمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م تتضمن الأبكار من الجواري[١١].

كما تعد بلاد الحبشة أحد المصادر الرئيسة للرقيق الأسود، ومن ذلك: قدوم رسول الحطي[١٢] داود بن سيف أرعد ملك الحبشة بكتاب في شهر ذي الحجة من سنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٧٦ م للسلطان الظاهر برقوق، وصحبته هدية عظيمة، منها الحبشيات من الجواري[١٣].

ولما مات الحطي ملك الحبشة إسحاق بن داود جمع سعد الدين المسلم عسكره سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م وأغار على بلاد أمحرة، فقتل وأسر وسبى خلقاً كثيراً، واستسلم منهم أمم عظيمة، وأقر كل من أسلم ببلاده، وولى عليهم من يحكمهم من قبله، فاتسع نطاق ملكه، وقويت عساكره، وكثرت أموالهم، وأرسل بالسبي إلى الآفاق البعيدة، قال الخطيب الصيرفي: " فكثر الرقيق من العبيد والإماء ببلاد اليمن والهند والحجاز ومصر والشام والروم "[١٤].

.وما حل بمدينة أسوان يعد أيضاً سبباً في زيادة الرقيق، فيذكر المقريزي أن أولاد الكنز من بعد سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م استولوا على أسوان بعد عدة حروب مع ولاة الصعيد، ثم زالت سيطرة المماليك بالكلية منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، حيث خرب إقليم الصعيد، ولم يبق للسلطان الناصر فرج بن برقوق في مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين إلى أن زحفت قبيلة هوارة في المحرم من سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م على أسوان، وحاربت أولاد الكنز، وانتصر رجال هوارة على أولاد الكنز، وهزموهم، وقتلوا كثيراً من الناس، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد، واسترقوا الجميع، ومضوا بالسبي بعد أن هدموا أسوار مدينة أسوان وتركوها خراباً يباباً[١٥].

ويذكر ابن إياس أن زيادة النيل أدت إلى زيادة بيع الجواري، فبعد زيادة النيل في شهر جمادى الأولى من سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م غلت البزور، فبلغ القدح من بزر

القرع، وبزر الجزر، وبزر البصل، مائة درهم ونيف، وتوقفت كثير من الأراضي عن الزراعة للزيادة المفرطة في ماء النيل، وعجز الفلاحون عن بذر الحبوب ولاسيّما في أراضي الصعيد، قال ابن إياس: " فإن أهلها بادوا بالجوع والبرد، وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان، فاسترق منهم بالقاهرة خلائق، ونقل الناس منهم إلى البلاد ما لا يعد، فبيعوا في أقطار الأرض كما يباع السبي، ووطئ الجواري بملك اليمين" [١٦].

كما يجلب الرقيق الأبيض من بلاد الآص التي تقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة القرم، بالقرب من ثغر كافا، الذي كان من أكبر أسواق الرقيق الأبيض في العصور الوسطى [١٧].

ويذكر أن السلطان المنصور قلاوون كان يمتلك من المماليك الآص والجركس نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة، جعلهم في أبراج القلعة، وسماهم البرجية [١٨].

ومهما يكن من أمر، فإن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، بل من أجناس متنوعة، فمنهم التركي، والجركسي، والمغولي، والصيني، والأسباني، والألماني، واليوناني، والسلافي، وغير ذلك[١٩]، وهذا الحال انعكس أيضاً على مصادر جلب هؤلاء، إذ يظن أن تلك المناطق بعينها أو معظمها يجلب منها بيض الجواري.

ثانياً: أماكن بيع الجواري في السطنة المملوكية:

ذكرت المصادر المتاحة بعض الأماكن التي يتم فيها بيع الجواري ضمن نطاق السلطنة المملوكية، فهناك خان مسرور الذي يقع على يمين السالك من سوق باب الزهومة[٢٠] إلى الجامع الأزهر، إذ كان ساحة يباع فيها الرقيق بعدما كان موضعه المدرسة الكاملية[٢١].

وهناك سوق الرقيق الذي يقع تجاه المدرسة الحسامية التي بناها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري، ويسلك منها إلى درب العداس وإلى حارة الوزيرية[٢٢].

والجواري السود يتم بيعهن في أسواق أسيوط، والقاهرة التي كان بها وكالة خاصة لجلب هذا النوع من الجواري ، ويستطيع الفرد أن يشتري منهن ما شاء ، والسوق والوكالة كانتا بالقرب من جامع السلطان الأشرف قايتباى [٢٣].

واختصت وكالة كشك، وخان جعفر ببيع البيض من الجواري[٢٤]، بالإضافة إلى خان مسرور المتقدم.

وأنشأ السلطان الأشرف قانصوه الغوري في شهر شوال من سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م سوقاً بالقرب من خان الخليلي يباع فيه الرقيق، وأبطل السوق القديم الذي كان يباع فيه الرقيق، وصار العمل على هذا السوق من يومئذ [٢٥].

أما عن أسواق الجواري والرقيق في دمشق فهي ثلاثة: سوق برا أو وسوق المارستان، وسوق الشيخي، وخان الدكة أو التكة: فالجواري فائقات الحسن كن يبعن في سوق الشيخي، ومن دونهن كن يبعن في خان الدكة، حيث كانت تعرض الجواري على الدكة، وهذا الخان يقع مقابل جامع سيدي هشام في حارة الفسقار، وقد بني في حدود سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م [٢٦]. ويجري البيع في هذه الأسواق في يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، ومعظم الرواد هم من المماليك والأثرياء من أهل دمشق [٢٧].

ثالثاً: الأصول المرعية في بيع وشراء الجواري:

حددت المصادر الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى بيع الجواري، كما حددت الأصول المرعية في بيع وشراء الجواري: فالنخاس هو بائع الرقيق، ومنهن الجواري، وعمله يقتصر على الدلالة على الجارية التي يطلب إليه بيعها [٢٨]، ويشترط أن يكون أميناً، عادلاً، مشهوراً بالعفة والصيانة، لأنه يتسلم جواري الناس، وربما اختلى بهن في منزله [٢٩].

ومن الأصول المرعية لهذه الوظيفة، فإن على النخاس ألا يبيع لأحد جارية حتى يعرف البائع، أو يأتي إليه بمن يعرفه، ويثبت اسمه وصفته في دفتره لئلا تكون الجارية المراد بيعها حرة، أو مسروقة [٣٠]، وعليه أن يتفقد الشروط التي قد تكون بين المولى وجاريته ليعلم المشتري بذلك [٣١]، كما لا يخفي عيباً إن كان في الجارية [٣٢].

ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فإن طلب استعراضها في منزله والخلوة بها فلا يمكنه النخاس من ذلك، إلا في حضرة نساء عنده، فينظرون جميع بدنها، هذا كله قبل العقد، وأما بعده فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية [٣٣].

ولا يجوز التفريق بين الجارية وولدها[٣٤] قبل سبع سنين [٣٥]؛ كما لا يجوز بيع الجارية إذا كانت مسلمة لأحد من أهل الذمة [٣٦] ومن ذلك: أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في شهر رجب من سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م جمع النصارى واليهود وألزمهم بالشروط التي اشترطها عليهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمنه، ومن بينها أن يمنعوا من شراء الرقيق المسلم [٣٧].

وقد تكرر ذلك في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م فقد ألزم السلطان الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد بن قلاوون النصارى واليهود بذات الشروط بعد عادوا إلى اقتناء الجواري الجميلات من الأتراك والمولدات ولم يفرقوا بين المسلمات وغير المسلمات[٣٨].

ويبدو أن من أسباب منع النصارى من شراء الجواري المسلمات، أنهم كانوا يسعون إلى تنصيرهن، ودليل ذلك: أن شرف الدين موسى التتائي الأنصاري ناظر الجوالي طلب في يوم الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الأول من سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م نصارى القاهرة لأنه بلغه أنهم يشترون الجواري المسلمات وينصرونهن، فأمرهم بإحضار ما عندهم من الجواري لينظر في أمرهن ؛ فإن وجد الجارية في أصلها كانت مسلمة، أو كان الذي سباها من بلادها مسلماً ردها إلى الإسلام، وأمر صاحبها ببيعها، وقد ذكر المصدر أن شرف الدين استصفى لنفسه منهن [٣٩].

وفي بعض الأحايين يضيق على النصارى في شراء الجواري عموماً، ولو كان ذلك الاقتناء بهدف الخدمة، ومن ذلك: أن السلطان الأشرف قانصوه الغوري ألزم النصارى في شهر المحرم من سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م بمبلغ عشرين ألف دينار، وذلك بسبب أنهم يشترى لهم الجواري اللاتي يخدمنهن، وقد اشتكى بعض النصارى من فعل السلطان، فحنق منهم السلطان وضيق عليهم وصادرهم [٤٠].

ويحرم بيع الجارية لمن يتخذها للغناء[٤١] واستشهد ابن الإخوة بقوله تعالى: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث" [٤٢]، وبحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تبيعوا القينات والمغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام"[٤٣].

ومتى علم النخاس أن بالمبيع عيباً وجب عليه بيانه للمشتري، لذا يستلزم الأمر أن يكون النخاس بصيراً بالعيوب، خبيراً بابتداء العلل والأمراض [٤٤].

رابعاً: الجواري في قصور السلاطين:

تنافس السلاطين في اقتناء الجواري في العصر المملوكي، ومن مظاهر ذلك:

١ – أن بعض السلاطين كانت أمهاتهم في الأصل من الجواري، من ذلك: أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤٧ هـ/١٣٤٦م) كانت أمه جارية رومية[٤٥]. وكانت أم السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون (ت ٧٦٢ هـ /١٣٦٠ م) أم ولد[٤٦]. والسلطان الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق (ت ٨٥٧ هـ /١٤٥٣ م) أمه رومية[٤٧]. أما السلطان الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي (ت ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) فقد كانت أمه جركسية تسمى أصل باي من مشتروات أبيه [٤٨].

٢ – الهدايا التي يتلقاها السلاطين من غيرهم من الحكام والأمراء:

ذكرنا فيما سبق بعض الهدايا التي تلقاها سلاطين المماليك في معرض حديثنا عن مصادر وأماكن جلب الجواري، وهنا نذكر أمثلة أخرى تعزز كون الجواري من الهديا القيمة التي يحرص الحكام والأمراء على تبادلها. فقد حضر نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز إلى الأبواب الشريفة في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م ليزور السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأحضر للسلطان هدية من بينها بيض الجواري، فسر الناصر بذلك وأكرمه، وأخلع عليه (٤٩).

ولما أفرج السلطان الناصر حسن عن الملك المجاهد صاحب اليمن سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م، أهدى إلى السلطان هدية قيمة، من بينها الجواري (٥٠).

وتواصلت عطايا الملك المجاهد صاحب اليمن للملك الناصر حسن، فقد قدم قاصده في المحرم من سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م يحمل هدية قيمة فيها الجواري الحسان (٥١).

وإرسال الأمير بيدمر نائب الشام في شهر صفر من سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م هدية عظيمة للسلطان المنصور علي بن الأشرف شعبان على يد الأمير خضر بك، منها عشرون جارية جركسية (٥٢).

وحرص ملوك اليمن على شراء ود سلاطين المماليك، ومن ذلك الهدية العظيمة التي أهداها الملك الأشرف ممهد الدين إسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد علي بن داود في شهر ربيع الأول من سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م للسلطان الظاهر برقوق، وقد جاءت صحبة التاجر برهان الدين إبراهيم المحلي والطواشي (٥٣) افتخار الدين فاخر، ومن بينها ست جواري (٥٤).

وقدوم هدية الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة للسلطان الظاهر جقمق في شهر شوال من سنة ٨٤٢ هـ / ١٣٤١ م، ومن جملتها جاريتان (٥٥).

٣- الهديا التي يقدمها السلاطين للحكام الآخرين وللأمراء.

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالجواري، وتقديرهم لأهميتهن بالنسبة لمن ماثلهم من الحكام، ومن دخل تحت حكمهم من الأمراء، قاموا بإهدائهن إليهم، ومن ذلك: أن السلطان المظفر قطز أنعم على الأمير بيبرس البندقداري في سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م بجارية مليحة من سبايا التتار (٥٦).

وتقديم السلطان الظاهر برقوق في شهر المحرم من سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م للقان أحمد بن أويس صاحب بغداد عندما جاءه إلى مصر عشرين جارية جركسية من الأبكار (٥٧).

وإنعام السلطان الظاهر جقمق في شهر ربيع الأول من سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م على الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي قبل أن يسجنه ببرج الإسكندرية بعشر جوار (٥٨).

٤- جمع سلاطين المماليك للجواري:

كان سلاطين المماليك يحبون جمع الجواري، ومن ذلك: أن السلطان الظاهر بيبرس كانت لديه في سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م مائتا جارية، لكل جارية حلي فاخرة ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص (٥٩).

وتعلق قلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحب الجواري، فكتب إلى أعمال مصر ببيع الجواري المولدات، وحملن إليه، حيث بلغ عددهن في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م عنده نحو ألف ومائتي وصيفة، وأنشأ لهن سبع قاعات التي تشرف على الميدان وباب القرافة، وأسكنهن فيها (٦٠).

وعقد السلطان المنصور أبوبكر بن الناصر محمد بن قلاوون نكاحه في سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م على جاريتين من المولدات اللاتي في بيته، وكتب صداقهما علاء الدين كاتب السر، فأنعم عليه السلطان بعشرة آلاف درهم، وأمر جمال الدين ناظر الخواص (٦١) أن يجهزهما بمائة ألف دينار (٦٢).

وكان السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون يميل إلى حب الجواري الحبش، والمولدات، والسود، وكان يحب من يمدح له السمر، والسود، فكان الشعراء يكثرون له من مدحهن، فمن ذلك قول زين الدين بن الوردي:

لو كان يرضى بحكمي في الناس بيض وسود
لقلت للبيض بيضوا وقلت للسود سودوا

وقال ابن نباتة:

يكون الخال في خد قبيح فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام مشغوف على من يراه كله في العين خالا

وقال آخر:

سمراء تسبي الورى بشرط كخنجر هم بالرقيب
أقامه عشقها طريقاً يسير فيه إلى القلوب (٦٣)

وزاد الصالح إسماعيل أيضاً من حبه وتعلق قلبه بجاريته نسيم حتى نظم الشعراء فيها الشعر الكثير، من ذلك قال أحدهم:

إذا زار الحبيب باشتياق فقد زال العنا وقت الصباح
وإن وافتك خمراً مع نسيم فقد دام السرور بانشراحي

وقال آخر:

بدا السعد لي حين زار الحبيب وجاء الهنا ودام السرور
وجاءت نسيم بتفاحة مباركة من غزال نفور (٦٤)

وعرضت جواري السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م فبلغ عددهن خمسمائة جارية (٦٥).

وشغف الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بجواريه شغفاً زائداً، حتى اشتهر في أمرهن (٦٦).

وافتتن الأشرف برسباي في سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م بحب جاريته الجركسية جلبان، وتزوجها، وكانت بارعة الجمال، وامتحن بحبها الزائد (٦٧).

وكان للسلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م من الجواري مائة وستون جارية يخدمنه، وسبع عشرة جارية من المحظيات (٦٨).

ولما سجن السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي في بعض دور القلعة في سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م لم يستغن عند خدمه وجواريه، فقد كانت معه دادته سر النديم، الحبشية، وعدة من جواريه ما بين سراري وخدم (٦٩).

وأنعم السلطان الظاهر جقمق على ولده عثمان بجارية وصيفة في شهر ذي الحجة من سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م، فبنى بها عثمان، وبُشِّر السلطان بذلك، فأنعم على من بشّره بمائتي دينار فرحاً بولده عثمان (٧٠).

وكان السطان الظاهر جقمق (ت ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) كثير النكاح، له عدة سراري (٧١).

خامساً: الجواري في بيوت الأمراء:

حاكى أمراء المماليك أسيادهم من السلاطين في جمع الجواري والشغف بهن، والأمثلة في هذا السياق كثيرة، ويلاحظ أن أولئك الأمراء إذا ما تعرضوا لسخط السلاطين ومصادرة ما يملكونه، فإنه يظهر ما لديهم من أعداد مذهلة من الجواري، ومن ذلك: أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما قبض على الأمير سلار، وسجنه وصادره

في سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م، وجد للأمير من المماليك والخدام والعبيد والجواري، نحو ثلاثة آلاف رأس [٧٢].

ولما قام مستوفي الدولة شرف الدين عبد الوهاب الشهير بالنشو، بمصادرة أمير العرب شهاب الدين أحمد بن زعازع في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م، وجد عنده نحو مائتي وعشرين جارية [٧٣].

وعندما قبض على الأمير تنكز نائب الشام بأمر من السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م، "ظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم بمائتي ألف دينار، هذا خارجاً عن الخيول، والبغال، والجمال، والغلال، والمماليك، والعبيد، والجواري، وحلي نسائه" [٧٤].

ووجد عند الوزير علم الدين بن زنبور، لما قبض عليه بأمر السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م من الجواري والعبيد سبعمائة رأس، منهن مائتا سرية بيض، وحبش، وعثر عند نسائه وجواريه من الحلي والفصوص واللؤلؤ والقماش الفاخر ما لا يحصر [٧٥].

ونافس الأتابكي [٧٦] الأمير يلبغا (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) في ثرائه الفاحش السلاطين، فقد كان الوزير فخر الدين بن قزوينه يحمل إليه في كل يوم من اللحم ألف رطل، وكان مصروف سماطه كل يوم ألف دينار، هو وعياله ونساؤه وسراريه وأولاده ومماليكه [٧٧].

وتقاسم الأمراء بعد موت السلطان الملك الأشرف شعبان في سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م جواريه، وهن من المستولدات [٧٨].

ولما نفي الأمير بركة الجوباني، احتاط الأتابكي برقوق في ربيع الأول من سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م على ما يملك، فظهر له أشياء كثيرة منها الجواري [٧٩].

وتوجه الأمير منطاش إلى الشام بأمر السلطان الظاهر برقوق في شهر رمضان من سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م للقبض على الأمير بيدمر الخوارزمي نائب الشام، وكلف بمصادرة جميع ممتلكاته بما فيها من الجواري، وكن كثيرات (٨٠).

وقبض السلطان الظاهر برقوق في شهر صفر من سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م على نساء وسراري الأمير جمال الدين الأستادار (٨١)، وصادر أمواله، ومن بين ذلك أنه وجد عند جارية سوداء له زير كبير فيه مائة ألف دينار، كما تم مصادرة الحلي الخاصة بنسائه وجواريه (٨٢).

وكثر انشغال أتابك العساكر الأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي (ت ٨٠١ هـ/١٣٩٨ م) بجمع الجواري، والإقبال على الملذات (٨٣).

وأصدر السلطان الناصر فرج بن برقوق أمره في سنة ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م بإلقاء القبض على الأمير جمال الدين يوسف ألبيري لمساعدته غريم السلطان الأمير شيخ المحمودي، فقبض عليه، واحتيط على جميع ما يملكه بما في ذلك جواريه وحريمه وأثاث بيته، فظهر له ما لا يحصر (٨٤).

وأفرج عن الوزير تاج الخطير في آخر شهر ربيع الآخر من سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م، بعدما عوقب، وأخذت خيوله وجواريه، وظهر له من ذلك العدد الكبير (٨٥).

وأمر السلطان الظاهر جقمق في شهر رمضان من سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م بالقبض على أبي الخير النحاس وكيل بيت المال، فقبض عليه وضرب على سائر جسده خمسمائة عصاة، وأخذ جميع ما معه من المماليك والجواري (٨٦).

سادساً: الأعمال التي تسند إلى الجواري:

يسند للجواري الكثير من الأعمال في المجتمع المملوكي، فهن متعة السلاطين والأمراء وكبار الأثرياء، فمنهن المحظيات اللواتي شغف السلاطين بحبهن حتى صارت لهن المكانة الرفيعة، ومنهن المغنيات اللواتي يحضرن مجالس اللهو

والشراب، يضاف إلى ذلك ما يقمن به من أعمال متعلقة بالخدمة وغير ذلك، وقد جاء ذلك منثوراً في مصادر العصر المملوكي، ويمكن عرض ذلك على النحو الآتي:

١ - مكانة جواري السلاطين والأمراء:

كان لجواري السلاطين والأمراء مكانتهن المرموقة داخل القصور، كما كان لهن الكلمة المسموعة عندهم بفضل أسرهن للقلوب والعقول، ومن أمثلة ذلك: تخصيص السلطان الناصر محمد بن قلاوون لجواريه سبع قاعات، أسكنهن فيها - كما سبق بيانه - رفعة لقدرهن، (٨٧)، وبلغت جاريته حدق القهرمانية من المكانة العالية عنده ما لم تبلغه سواها من جواريه، حيث جعل كل أمور نسائه لها، فتحكمت في داره تحكماً عظيماً حتى صار لا يقال لها إلا الست حدق، ولعذوبة كلامها، وتذللها له، جعلته يلاطفها في كل حين، ويطيب خاطرها في كل موقف (٨٨).

وشفعت حظية السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في سادس شهر ربيع الأول من سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م للأمير يلبغا الخاصكي (٨٩)، وأنقذته من عقوبة السلطان ؛ وكان السلطان الناصر بلّغه أن الأمير يلبغا يريد قتله، وأنه اعتاد الدخول عليه في سلاحه الذي كان يخفيه تحت ثيابه، فاستدعاه، ثم أمر بنزع ثيابه كلها، وكتفت يداه للبدء في عقابه، فشفعت فيه إحدى حظايا السلطان، حتى خلى سبيله (٩٠).

واستودع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون جواريه أوراقه التي كتبها بخطه، واحتوت أماكن أمواله وتفصيلها، لكن الطواشي مثقال الجمالي لما تعرض للعقوبة أقر بالخبر فألزمهن ذلك بالكشف عن الأموال وأماكنها في السابع من شهر صفر سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩م (٩١).

ولما ولد للأمير الكبير برقوق ولد من جاريته أردو سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م سماه محمداً، ونظراً للمكانة العالية التي كانت تتمع بها هذه الجارية عنده، أمر بإقامة حفل عظيم بهذه المناسبة السعيدة (٩٢).

وبلغت سراري السلطان الناصر فرج بن برقوق غاية العظمة لما خرجن صحبته إلى الشام في شهر ذي الحجة من سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م، فقد حملن على محفات زركش (٩٣).

والحفل البهيج الذي عمله الأمير فخر الدين لما أعرس ببعض جواري السلطان المؤيد شيخ، في الثالث من شهر المحرم سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م، فقد ذبح فيه ثمانية وعشرين فرساً، وأغناماً، بلغ زنة لحمها عشرة آلاف رطل، ومن الدجاج ألفين ومائة دجاجة، ومن الأوز ثلاثة آلاف أوزة، ومن الدقيق ستة وخمسين قنطاراً، ومن الزبيب خمسين قنطاراً (٩٤).

وسورباي الجركسية، إحدى سراري السلطان الظاهر جقمق، كانت ناشطة اجتماعياً، ووضعت يدها في العمل الخيري، فهي صاحبة الحمام الذي يقع بالقرب من قناطر السباع، كما أنشأت سبيلاً ببولاق، ولما ماتت سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م، كانت جنازتها مشهودة من الأمراء وكبار الأعيان (٩٥).

وكان السلطان الظاهر خشقدم، متيماً بحب سريته سورباي، محباً لذريته منها، فقد توفيت للسلطان في شهر ذي الحجة من سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م ابنة عمرها ست سنين من سريته سورباي، فحزن عليها حزناً شديداً، حتى أنه أوقف الخدمة في القصر السلطاني في يوم وفاتها (٩٦).

وعظم حزن السلطان الأشرف قايتباي على ابنته الشابة الجميلة المتأهلة للزواج ؛ وكان قد فرح بولادتها وأسماها ست الجراكسة، وكانت أمها إحدى سراريه، فلما كان شهر رجب من سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ماتت البنت وأمها في يوم واحد، وتقدم نعش الأم على بنتها، وكانت الجنازة مشهودة من كبار الأعيان (٩٧).

وكانت الخوند (٩٨) أصل باي، زوجة الأشرف جانبلاط، وهي أم الناصر محمد بن قايتباي، وسرية الأشرف قايتباي، وأخت قانصوه الأشرفي صاحبة مكانة عظيمة وجاه، ومن ذلك، أنه لما أرادت الصعود إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء مستهل شهر

المحرم من سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م كان صعودها يوماً مشهوداً " فشقت من الصليبة وهي على محفة زركش، وحولها الخدام من أعيان الطواشية، وقدامها أعيان المباشرين، وجماعة من الخاصكية نحو خمسين إنساناً، وهم بالشاش والقماش، وجماعة من المماليك نحو مائة إنسان، وهم بالكوافي القندس والملاليط (٩٩)، وبأيديهم العصي يفسحون الناس" (١٠٠).

٢- الجواري المغنيات:

أدّت الجواري المغنيات دوراً بارزاً في المجتمع المملوكي، وأضفن عليه جواً من البهجة والسعادة وخاصة عند أصحاب الثراء من السلاطين والأمراء وكبار الأعيان، وافتتن بهن الكثير من أولئك، وقاموا باستدعائهن لمجالسهم، بل حرصوا على اقتنائهن، وبذل كل نفيس لهن، والأمثلة في ذلك كثيرة: فجوق (١٠١) المغاني، من جواري السلاطين والأمراء يبرزن في الأعراس الخاصة، ويحيين لياليها الملاح، ففي عرس الأمير علي بن أرغون النائب على ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في يوم الإثنين الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م، كان فيه ثماني جوق من مغاني القاهرة، وعشرون جوقة من جواري السلطان والأمراء، وقد نالت كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار، ومائة وخمسون تفصيلة (١٠٢) حرير، أما ما نالته جواري السلطان فلا يتسعه الحصر كثرة (١٠٣).

وهام الأمير آنوك بن الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤٠ هـ/١٣٣٩م) عشقاً بالمغنية زهرة، فعمر لها داراً ببركة الحبش يلتقيها فيها، ولما علم والده بذلك أمر بمنعها عنه، فمرض آنوك حزناً عليها، ومازال كذلك إلى أن أتته سراً فتلهى بها عن زوجتة ابنة الأمير بكتمر الساقي، وساعدته أمه في وصله لزهرة إشفاقاً عليه، لكن آنوك خاف من والده عندما جاء يضربه، فحمته أمه منه، إلا أنه قد حصلت له رجفة كانت سبباً في ضعفه ثم موته (١٠٤).

ولم يقف السلطان المنصور أبوبكر بن الناصر محمد بن قلاوون عن لهوه وعبثه، فمن الأسباب التي دعت إلى خلعه من السلطنة في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م انشغاله بالفتيات والمغاني وشربه للخمر، وكان يطلب غلمانه في الليل ويبعثهم لإحضار المغاني، فيطلعون إليه رجالاً ونساء، ويتعاقرون الخمر معه ويتهتكون باللعب واللهو، الأمر الذي لم يرق الأمراء الكبار، فطلبوا من الأمير طقزدمر النائب، أن يكلمه للكف عن إتيان ذلك لما في الأمر من مهانة لمقام السلطنة، فكلمه، إلا أن لومه زاده عناداً، فجاهر باللهو حتى تحدث بأمره عامة الأمراء وغيرهم (١٠٥).

وعندما وصل الأمير ملكتمر الحجازي، إلى القاهرة في يوم الأربعاء السابع من شهر شعبان سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م قادماً من سجن الإسكندرية، تلقته زوجته بجواريها وخدامها، ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات (١٠٦) فرحاً به (١٠٧).

وشغف السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون بالجواري السود، وأفرط في الجارية العوادة اتفاق، وأسرف في العطاء لها، وقرب إليه أهل الملاهي، وأركب حظاياه الخيول العربية، وجعلهن يتسابقن، ويلعبن الكرة (١٠٨).

وبعد إعلان نبأ وفاة السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في الرابع من شهر ربيع الآخر من سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م دارت الجواري بالملاهي يضربن الدفوف، والمخدرات حواسر يبكينه ويلطمن الخدود لموته (١٠٩).

كما عكف السلطان الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون على معاقرة الخمر، وسماع الأغاني، والإقبال على النساء، وافتتن بحب العوادة اتفاق، حتى نالت منه السعادة، ومن ذلك أنه عمل لها بعد أن ولدت منه، دائر بيت طوله اثنان وأربعون ذراعاً، وعرضه ستة أذرع، تكلف خمسة وتسعين ألف دينار مصرية، والمخاد والمساند وغير ذلك، وكان لها أربعون بدلة مرصعة بالجوهر، وست عشرة بدلة دائرها زركش، وثمانون مقنعة تكلفت عشرين ألف درهم، وغير ذلك (١١٠).

والسلطان المظفر زين الدين حاجي افتتن أيضاً بمحبة العوادة اتفاق وشغلته عن سواها، حتى تزوجها خفية ونثر عليها الذهب واللؤلؤ، وطلب معلمها عبد علي العواد إلى القلعة ليقوم بالغناء له، ثم أجزل له العطاء، وأنعم على محظياته سلمى، والكركية، وكيدا، بالعطاء الجزيل (١١١).

وانشغل السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بسماع آلات الطرب، وحب القيان من النساء الملاح، وكان يقرب إليه المغنين وأرباب الفن، ويصطحبهم في أسفاره، ويطرب لسماع المغنين أمثال· دنيا الأقباعية الدمشقية، وعطعط، والدخان المشبب (١١٢).

والجارية المغنية خوبي كانت فائقة في ضرب العود، اشتراها الأمير بكتمر الساقي بعشرة آلاف دينار مصرية، حتى يقال إنه لم يدخل مصر لها نظير، وقد أحبت سيدها، ولما بلغها موته كسرت عودها، فاشتراها الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، ثم باعها للأمير بشتاك بستة آلاف دينار، ومكثت عنده، ويقال إنه زوجها ببعض مماليكه سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م (١١٣).

وكان للسلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي جوقة مغاني يزفونه بالطارات عند الصباح، وعند المساء، ولما مات المنصور استمرت جواريه يقمن الأفراح للناس، ويعرفن بجوقة المنصور (١١٤).

وشغلت الجارية المغنية المشهورة دينا بنت الأقباعي عند السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون مقاماً رفيعاً، وافتتن بغنجها وغنائها، أما آمنة بنت عبد الله امرأة بن المتولي، فقد كانت ملاذه الآمن، ومكمن سره، فقد تخفى في بيتها خلال صراعه مع خصومه لفرط محبته لها، وثقته فيها (١١٥).

ومن الجواري المغنيات اللائي أطربن السلطان الأشرف قايتباي المغنية خديجة الرحبانية، وكانت جميلة، عذبة الغناء، افتتن الناس فيها، وتغنى الشعراء بها حتى قال أحدهم:

رحبانية تخفي الشموس جمالها لها حسن إنشاد تزين مقالها
وقد خايلت بالبدر ليلة تمه فما زال من عينى وقلبي خيالها [١١٦]

وطلب الأمير أحمد ابن السلطان الأشرف إينال من مقدم المماليك السلطانية الأمير لؤلؤ (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) جارية له كانت تضرب بالجنك، فلما امتنع عن إجابته لما طلب، أضمرها الأمير في نفسه وعزله [١١٧].

٣- خدمة الجواري في القصور والبيوت:

ومن الأعمال التي لا تخرج عن صميم عمل الجواري، عملهن في خدمة قصور السلاطين وبيوت الأمراء وغيرهم من الناس، وهذا الأمر قلما تتحدث عنه المصادر، لكن نجد بعض الإشارات الدالة عليه، منها: أن الوزير فخر الدين ماجد بن خصيب كان عنده جاريتان تحسنان فنون الطبخ، تعرف كل واحدة منهما صنع ثمانين لوناً من التقالي، سوى بقية ألوان الطعام [١١٨].

وفتك الطاعون في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م بمائة وستين جارية تخدم في قصر السلطان الأشرف برسباي [١١٩].

وأمر السلطان الظاهر جقمق بفك قيد الأمير أينال، ونقله من سجنه بصفد إلى موضع أوسع منه في سنة ٨٤٣ هـ/١٤٣٩ م، وأن يتوجه إليه من جواريه من تخدمه [١٢٠].

٤- أعمال أخرى للجواري:

وهناك من الأعمال والمهام يمكن تسجيلها للجواري، لكنها في الغالب محددة، وناشئة عن ظرف معين، ومن ذلك:

أ- تكليفهن في مهمة محددة: فالأمير علي بن المعز أيبك لما قبض على شجر الدر ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م سلمها إلى أمه، فأمرت جواريها أن يقتلوها بالقباقيب والنعال، فضربوها حتى ماتت (١٢١).

ب - قضاء حوائج سيداتهن: فعندما منع المحتسب الأمير دولات خجا بأمر من السلطان الأشرف برسباي في سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م النساء من الخروج إلى الأسواق، سمح للإماء أن يخرجن لقضاء حوائج للحرائر ؛ وكان سبب المنع ازدياد موت الناس بالطاعون، ووصية بعض العلماء للسلطان لرفع هذا الوباء أن يمنع النساء من ارتياد الأسواق نظراً لتبرجهن وتهتكهن في اللباس (١٢٢).

وقد تكرر هذا الدور في يوم الإثنين السادس من شهر جمادى الأولى سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م لما منعت النساء من الخروج إلى الشوارع والأسواق إلا العجائز والجواري، فامتنعن، ثم نودي بخروج النساء من غير تبرج بزينة (١٢٣).

ج- إنقاذ أسيادهن من المكروه: فلما أراد السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي الهروب من الدار التي حبس فيها بعد عزله في يوم الإثنين رمضان من سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م، استطاعت جواريه نقب موضع من الدار بمساعدة الطباخ من الخارج، حتى تهيأ ذلك، وخرج العزيز (١٢٤).

سابعاً: معاملة الجواري في العصر المملوكي:

تمثل الجواري في العصر المملوكي طبقة مهمة من النسيج الاجتماعي، وذلك لتعدد الأدوار التي يقمن بها، فهن قريبات إلى لمعظم فئات المجتمع لدخولهن القصور والبيوت، واطلاعهن على أسرارها، لذا تطلب الأمر أن يعاملن معاملة إنسانية لائقة ليتم الوئام بينهن وبين فئات المجتمع، وإذا لم يتحقق ذلك صدرت عنهن سلوكيات تخرجهن عن السلوك السوي إلى ركوب الشر ونوازعه، وبيان ذلك في الآتي:

١- الإحسان إلى الجواري في عصر المماليك:

لعل أثمن شيء تتمناه كل جارية من سيدها هو أن يعتقها لتكون حرة الإرادة في نفسها وجميع شؤونها، ولقد أدرك الناس في العصر المملوكي هذا المعنى، والأمثلة، وإن لم تسعفنا المصادر في جمعها فالظن يبقى فيها حقيقة مسلمة عند أصحاب القلوب الرحيمة والأنفس التي تتصف بالنبل والشهامة، ومن ذلك. فقد كان نائب قلعة دمشق[١٢٥] الأمير الكبير، المجاهد، المرابط، علم الدين أرجواش بن عبدالله المنصوري (ت ٧٠١ هـ/١٣٠١م). "ذا همة، وشهامة، وقصد صالح... ولم يخلف غير أربع بنات، ووجد له من تركته من الذهب خمسة عشر ألف دينار، ومن الفضة خمسين الف درهم، وأوصى بعتق مماليكه وجواريه، وأوقف عليهم وقفاً " [١٢٦].

وفي عزة وإباء وإقدام، وتذكر وتدبر لما يسفر عنه حال الزوجات والجواري العزيزات، قال الأمير سيف الدين أسندمر الكرجي نائب طرابلس قبل لقاء المماليك للمغول عند القريتين[١٢٧] في سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م. "كل زوجة لي طالق، وكل جارية، وكل مملوك حر إن وليت ظهري حتى أبلغ قصدي"، فلما مات كن جواريه حرائر طليقات[١٢٨].

وفي موقف لافت تتجلى فيه الرحمة ونبل الأخلاق الإنسانية، أن السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون لما أعرس أحد الطواشية على إحدى سراريه في شهر ذي القعدة من سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م، عمل السلطان لهما حفلاً بهذه المناسبة حضره جميع جواري بيت السلطان، وجليت العروس على الطواشي، ونثر السلطان عليها الذهب بيده [١٢٩].

وفي خطوة محسوبة لها الدلالة الأكيدة على الوفاء لمن يعوله، أوصى السلطان الظاهر برقوق قبل وفاته في شهر شوال من سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م بمائتي وعشرين ألف دينار لزوجاته، وسراريه، وخدامه [١٣٠].

وكان الأتابكي قرقماس أميراً جليلاً، أعتق جميع جواريه وعبيده قبل وفاته، وعندما مات في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م كانت جنازته مشهودة من جميع فئات المجتمع بالقاهرة [١٣١].

واستشعاراً بالرحمة والرأفة، أرسل الأمير نوروز في شهر صفر من سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ولده وسراريه إلى نحو جبل الطور خوفاً عليهم من الطاعون الذي عم انتشاره في مدن مصر [١٣٢].

٢- الإساءة إلى الجواري في عصر المماليك:

الظلم لا يقبل به عاقل، وهذا الظلم إذا وقع على فئة مغلوبة على أمرها زاد من خروج صاحبها عن مألوف البشر وعن مبادئهم الفطرية المحبة للسلام، وقد تفنن البعض في الإساءة للجواري، ومن ذلك: أمر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م الوزير سنجر الشجاعي أن يحتاط على ممتلكات الأمير طرنطاي، فذهب الشجاعي إلى بيت طرنطاي واحتجز على مباشرينه، وعياله، ونسائه، وسراريه، وحاشيته، وأحضر لهم المعاصير [١٣٣]، وعصر جماعة منهم ليقروا على ما لديه من أموال وذخائر، فاضطروا إلى بيان ذلك من شدة ما قاسوا من العذاب [١٣٤].

وتهديد جواري السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون بالتوسيط [١٣٥] في سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م إن لم يفصحن عن مكانه الذي اختفى فيه، فأقررن بمكانه في بيت الأزيار ؛ فهجموا عليه، فوجدوه قد دخل في الزير، وابتلت أثوابه بالماء، فقبضوا عليه من الزير [١٣٦].

وإلقاء القبض على جواري السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي، ومنهن سر النديم دادة العزيز، ومرضعته، وجواري والده الأشرف واخضاعهن للتهديد والوعيد للتحقق من مكان اختفائه، كما ضربت جارية مسكينة كانت تتكسب بكشف

الطالع، اتهمت بأنها أخبرت أحد الطواشية بأن العزيز سوف يعود للحكم ثانية، وكان ذلك في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م[١٣٧].

وفي سبيل الاستدلال على مكان اختفاء الظاهر قانصوه ألقي القبض على جواريه في شهر ذي الحجة من سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م، ثم حضر الوالي وعاقبهن، فلم يقررن بشيء[١٣٨].

ورافع أحد المفسدين يقال له محمد بن طاهر (ت ٩١٩ هـ/١٥١٣م) جارية بيضاء يقال لها زوجة أينال باي، وكانت ساكنة في درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر، وادعى عليها زوراً بأن عندها وديعة لأحد الأمراء، فلم تردها إليه، فلما سمع السلطان الأشرف قانصوه الغوري بالأمر أمر بالقبض عليها، فقبض عليها وألزمت بدفع عشرة آلاف دينار، فباعت جميع ما تملكه وسددت بعض المبلغ، فلما رأت أنها لم تقدر على سداد بقية المبلغ وصارت حبيسة شنقت نفسها بيدها تحت جنح الليل، قال ابن إياس: "ووقعتها مشهورة بين الناس، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر" وكلام ابن إياس يدل على أنها كانت بريئة مما نسب إليها[١٣٩].

٣- سوء بعض الجواري في عصر المماليك:

الجزاء من جنس العمل، فكل إساءة تلحق بهذه الفئة المغلوبة على أمرها يتولد عنها تلك الأفعال التي قد تخرجها عن نطاق الرحمة والسلوك الإنساني، وقد تكون الإساءة من غير مقابل، ويتوقف الأمر على عوامل أخرى قد تكون تربوية، أو حب الشر المتأصل في بعض النفوس المريضة أو الساخطة على أحوال المجتمع أو غير ذلك، والجواري وهن إحدى فئات المجتمع قد يصدر عنهن الأذى، شأنهن شأن بنات جنسهن من الأحرار، ومن ذلك: دس جواري قاضي قضاة الحنفية زين الدين عبد الرحمن بن علي التفهني السم له، وموته بسبب ذلك في شهر شوال من سنة ٨٣٥ هـ /١٤٣١م[١٤٠].

وقذف جارية لولد سيدتها البالغ من العمر ست سنين في النيل في شهر صفر من سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م، فغرق ومات، ولما عرضت الجارية على السلطان الأشرف برسباي، أرسلها إلى قاضي المالكية شمس الدين البساطي، فحكم بتغريقها في ذات المكان الذي أغرقت فيه الولد، ونفذ ذلك بحضور الجم الغفير من الناس (١٤٢).

واتهام الخوند سورباي وسراري الظاهر خشقدم بسرقة عشرين ألف دينار من خزانة السلطان الأشرف قايتباي في شهر رمضان من سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م، فاحتيط على سورباي، ومكثت تحت الملاحظة مدة حتى رضي السلطان عنها (١٤٢).

وقتل جارية لسيدها بعد أتفقت سراً مع غلام على أخذ ماله والهرب سوياً، ولما قتلاه دفناه في الإسطبل، فظهر أمرهما وقبض عليهما، ولما علم السلطان الأشرف برسباي بالخبر أمر بشنقهما، فشنقا في شهر شوال من سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م (١٤٣).

وصلت جارية سوداء على باب زويلة في شهر رمضان من سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م، بعد قتلها لسيدتها (١٤٤).

وشنق جارية بيضاء جركسية على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة بالقرب من الأحواض التي بطريق مصر العتيقة في شهر شوال من سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ؛ وكانت الجارية قد حملت سفاحاً من أحد المماليك الجلبان للسلطان الأشرف برسباي، فلما وضعت، قتلت طفلها من فرط خوفها، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية، وأغرق المملوك، وقيل في رواية أخرى أنه أخصاه ونفاه إلى الشام (١٤٥).

وقتل جارية سوداء لسيدتها، وولد سيدتها، وشقيق سيدتها في شهر صفر من سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م، فلما عرضت على السلطان الأشرف قانصوه الغوري أمر بقطع يدها، وشهرت في شوارع القاهرة، ثم كلبت بالكلاليب وعلقت في المكان الذي قتلت فيه سيدتها إلى أن ماتت (١٤٦).

وتزوج إبراهيم بن علي الموصلي، العاتكي، الشهير بابن الملاح بجارية حبشية متهمة في شهر شعبان من سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م، فدفن في مكان من داره ألف دينار، ولما أراد السفر أسر لها بمكان المال، لكنها سرقت ذلك المال وأحرقت ذاك المكان، وادعت أن اللصوص أخذوا المال، واحرقوا المكان، فتبين الأمر بعد ذلك أنها هي التي أخذته(١٤٧).

وأمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري في شهر ذي القعدة من ذات السنة بشنق ثلاث جواري وغلام قد قتلوا سيدتهم أم الأمير كسباي الدوادار(١٤٨)، فشنقوا على باب سيدتهم في نفس المكان الذي قتلوها فيه(١٤٩).

كما أمرالسلطان نفسه في التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م بشنق أربعة أشخاص، منهم جارية بيضاء رومية، وجارية حبشية، وسبب ذلك أنهم قتلوا سيد الجاريتين وألقوه في مستراح، وأخذوا ما في بيته، وسافروا إلى إطفيح، وبعد خمسة أشهر كشفت جارية صغيرة أمرهم، فقبض عليهم أحد مشايخ إطفيح وأرسلهم إلى السلطان الأشرف، فقررهم فاعترفوا بفعلتهم، وأرسل للكشف عن الرجل في المستراح فوجدوه وقد تقدد جلده، فأخرجوه، وأمر السلطان بدفنه، وشنق أولئك القتلة، فشنقوا في نفس المكان الذي قتلوا فيه الرجل(١٥٠).

وبعد، فإن الجواري، وما يقمن به من أدوار مختلفة يستحقن الاهتمام في الدراسات الحضارية، لكونهن يقعن ضمن النسيج الاجتماعي، وحسب البحث أن ينجح في إبراز بعض عطائهن.

الهوامش

(١) المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** المعروف بالخطط المقريزية، طبعة دار صادر، بيروت د· ت، ج ١ ص ١٩١·

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الأولى،القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ م، ج ١ ق ١ ص ٣٣٥·

(٣) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٣٥٩·

(٤) الأبواب السلطانية: هي مقام السلطان وحضرته، ويصدر عنها المكاتبات والمراسيم· انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣ م، ج ٧ ص ٦١، ١٥٦ وج ٨ ص ١٣·

(٥) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٤٤١· أخلع· والاسم خلعة، أي أسبغ عليه خلعة، وترجمها·
Dozy(R.):Dictionnaire de'taille' des ve'tements chez les Arabes.Amsterdam 1845 ,p.279."Ve'tement d'honneur".

(٦) العيني، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة المصرية، نسخة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ج ٤ ص ٣٤٦·

(٧) عبد الوهاب بن فضل الله، القاضي شرف الدين، القبطي الأصل، ناظر الخاص في دولة الناصر، محمد بن قلاوون، وقد وثق به السلطان، فقربه، فكثر أعداؤه، ووشوا به للسلطان، فقبض عليه وعلى أهل بيته في الثاني من شهر صفر سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م، حيث تم مصادرتهم، ثم ماتوا تحت العقاب انظر· ابن

الوردي، **تتمة المختصر في أخبار بني البشر**، النجف ١٩٦٩ م، ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٤ ؛ الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر** محمد بن قلاوون الصالحي، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨ م، ج ١ ص ٩١ ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٣٤- ١٩٧٣م، ج ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧٢ م ج ٩ ص ١٣١ - ١٤٣ ؛

Zettersteen (K.V.).Beitrag Zur Geschichte der Mamluken-sultan.Brill,Leinden 1919,p.203-204.

(٨) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الظاهر، دارسة وتحقيق أحمد حطيط، طبعة عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦ م، ص ١٣١ ؛ ج ٢ ص ٣٦١.

(٩) سيس. بلدة في آسيا الصغرى، وهي قاعدة بلاد الأرمن. انظر.

Encyclopedie de l'Islam,Ancienne edition(EI). -Buchner (V.F.).art."SIS",IV,P.453b-455b.

(١٠) تكفور: لقب يطلق على متملك بلاد الأرمن. انظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ

والوثائق، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨ م، ص ٢٣٣ ؛

Tournebize (Fr.):Histoire politique et religieuse de l'Armenie.Paris1900,p.231-235.

(١١) اليوسفي، المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(١٢) الحطي: لقب عام لملوك الحبشة استحدث في العصر المملوكي، وكان يذكر في المكاتبات إليهم عن السلطان في مصر. انظر: صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥ ص ٤٨٥ وج ٨ ص ٣٩، ٤٠.

(١٣) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٣٧٩.

(١٤) الخطيب الصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان**، تحقيق حسن حبشي، نشر مركز تحقيق التراث بوزارة الثقافة في جمهورية مصر العربية، نسخة مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٣ م، ج ٣، ص ٢٠٤.

(١٥) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج ١ ص ١٩٨ – ١٩٩.

(١٦) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٦٩٧.

(١٧) القلقشندي، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥؛
Heyd. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age .Leipzig. 1885.II.P.556.

(١٨) المقريزي، **السلوك**، ج ١ ص ٧٥٦.

(١٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**، الطبعة الثانية، نشر دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦ م، ص ٣٢٠.

(٢٠) سوق باب الزهومة: من أجل أسواق القاهرة وأفخرها بحسن المآكل وطيبها، والزهومة كان في أيام الدولة الفاطمية من أبواب القصر، وكان موضع السوق بالقرب من الصيارف، ويقابله سوق السيوفيين أما في زمن المماليك فصار سوق السيوفيين جوار سوق الصاغة إلى درب السلسلة، وسمي بالزهومة لأن اللحوم وحوائج الطعام التي كانت تدخل مطبخ القصر إنما تدخل من هذا الباب، فقيل له باب الزهومة يعني باب الزفر. الخطط المقريزية، ج١ ص ٤٣٥ وج ٢ ص٩٧.

(٢١) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج ٢ ص ٩٢٠

(٢٢) أما درب العداس فيقع فيما بين دار الديباج والوزيرية، عرف بعلي بن عمر العداس صاحب سقيفة العداس، وأما حارة الوزيرية فهي تنسب إلى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر، وكانت أولاً تعرف بحارة بستان المصمودي، وعرفت أيضاً بحارة الأكراد، والوزيرية منسوبة إلى الوزير الفاطمي يعقوب بن يوسف بن كلس، كان يهودياً من أهل بغداد فخرج منها إلى بلاد الشام ونزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلاً للتجار بها، فصار عليه بعض الأموال التي عجز عن سدادها ففر إلى مصر في أيام كافور الإخشيدي، فخدم كافور. **المصدر السابق**، ص ٥، ٤٢، ص ٣٨٦.

(٢٣) نعيم زكي، طرق **التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى**، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٢٤.

(٢٤) **المرجع السابق**، ص٢٢٤.

(٢٥) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٤٠٣ – ٤٠٥.

(٢٦) أكرم حسن العلبي، **خطط دمشق**، نسخة دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٨٩ م، ص ٤٧٣.

(٢٧) **المرجع السابق**، ص ٤٤٧، ٤٥٢.

(٢٨) الصعيدي وموسى، **الإفصاح في فقه اللغة**، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ م، ص ٥٧٦.

(٢٩) ابن الإخوة، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٧٦ م، ص ٢٣٨ ؛ الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق السيد الباز العريني. الطبعة الثانية، طبع دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ص ٨٤.

(٣٠) الشيزري، **المصدر السابق**، ص ٨٤ ؛ ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨.

(٣١) ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨.

(٣٢) الشيزري، **المصدر السابق**، ص ٨٤ ؛ ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨.

(٣٣) انظر **المصدرين السابقين**.

(٣٤) انظر **المصدرين السابقين**.

(٣٥) الشيزري، **المصدر السابق**، ص ٨٤.

(٣٦) ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨ ؛ الشيزري، **المصدر السابق**، ٨٤.

(٣٧) المقريزي، **السلوك**، ج ١ ص ٩١٠ – ٩١١، وحاشية رقم ١.

(٣٨) **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٩٢٢، ٩٢٣.

(٣٩) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع وزارة الأوقاف في جمهورية مصر العربية، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ج ١ ص ٢٩٨.

(٤٠) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٢٩٧.

(٤١) ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص ٢٣٨.

(٤٢) سورة لقمان، آية رقم ٦.

(٤٣) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، نشر أ·ي· ونسنك و ي·ب· منسنج و ي· برخمان، مطبعة بريل، برلين ١٩٦٥، ج ٥ ص ٥٠٦.

(٤٤) ابن الإخوة، **المصدر السابق**، ص٢٣٨ – ٢٣٩ ؛ الشيزري، **المصدر السابق** ص ٨٤.

(٤٥) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥١٢.

(٤٦) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، نشر مركز تحقيق التراث، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨، ج ٥ ص ١٢٦، ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥٧٧.

(٤٧) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٣٠١.

(٤٨) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ١٩٧، ٣٣٤.

(٤٩) **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٤٦١.

(٥٠) **المصدر السابق**، ص ٥٣٧.

(٥١) **المصدر السابق**، ص ٥٧٢.

(٥٢) **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٢٥٤.

(٥٣) الطواشي: والجمع طواشية، وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه: محمد أحمد دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، نشر دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م، ص ١٠٩.

(٥٤) ابن إياس، **المصدر السابق** ، ج ١ ق ٢ ص ٤٨٧.

(٥٥) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١١٢٥.

(٥٦) ابن إياس، **المصدر السابق** ، ج ١ ق ١ ص٣٠٧.

(٥٧) **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥.

(٥٨) **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٢٢٠.

(٥٩) **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٣٣٧.

(٦٠) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٥٤٦، و**الخطط المقريزية** للمؤلف نفسه، ج ٢ ص ٢١٢.

(٦١) ناظر الخاص. هو الذي ينظر في خاص أموال السلطان. انظر. القلقشندي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٦٥ ؛ محمد أحمد دهمان، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٦٢) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٥٦٦.

(٦٣) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥٠٥.

(٦٤) **المصدر السابق**، ص ٥٠٦.

(٦٥) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٧١٥.

(٦٦) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٦٢.

(٦٧) الخطيب الصيرفي، **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٢٨٤.

(٦٨) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٤١٣.

(٦٩) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١٠٨٧.

(٧٠) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج ١ ص ١٧٤.

(٧١) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٣٠٠.

(٧٢) **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٤٣٨.

(٧٣) اليوسفي، **المصدر السابق**، ص ٣٤٥.

(٧٤) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٤٧٨.

(٧٥) **المصدر السابق**، ص ٥٤٥، ٥٤٦.

(٦٧) الأتابكي· يطلق على مقدم العساكر، أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل· انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ١٨ ؛ محمد أحمد دهمان، المرجع السابق ن ص ١١·

(٧٧) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٥١·

(٧٨) المصدر السابق، ص ١٩٤·

(٧٩) المصدر السابق، ص ٢٦٣·

(٨٠) ابن طولون، رسائله، نسخة كبيرة متفرقة المحتوى بمكتبة أحمد الثالث في تركيا برقم ١٣١٦، ق ٤٧ ؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١ ق ٢ ص ٣٧٥·

(٨١) الأستادار· هو المتحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان، ويحكم في غلمانه وباب داره، وإليه أمر الجاشنكيرية، وله مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم· انظر· القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٠·

(٨٢) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٤٧٨، ٤٨٠·

(٨٣) الخطيب الصيرفي، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٢٦ – ٢٧·

(٨٤) ابن طولون، رسائله، ق ٥٢ ؛ الخطيب الصيرفي، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٢٥٤ – ٢٥٥·

(٨٥) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١٠٩٩ ؛ ابن طولون، رسائله، ق ٦٤·

(٨٦) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج ١ ص ٢٤١·

(٨٧) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج ٢ ص ٢١٢·

(٨٨) اليوسفي، **المصدر السابق**، ص ١٥٨ – ١٥٩·

(٨٩) الخاصكية: جماعة من المماليك السلطانية ممن دخلوا في خدمة السلطان صغاراً، يدخلون عليه بدون استئذان ويلازمونه في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ويتعينون بكوامل الكفال، ويتوجهون في المهمات الشريفة، ويركبون لركوب السلطان ليلاً ونهاراً، وكان عدتهم أيام الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً: ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥ – ١١٦ ؛
Quatreme're:Histoire des Sultans Mamlouks. Paris 1969. I,2, P.158,n.3

(٩٠) المقريزي، **السلوك**، ج ٣ ص ٦٠.

(٩١) **المصدر السابق**، ص ٣٥٤.

(٩٢) **المصدر السابق**، ص ٣٨٠.

(٩٣) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٨١٦. والمحفة: هي الهودج، وزركش الثوب صبغه ولونه، والمعنى هودج ملون: انظر: القلقشندي، **المصدر السابق**، ج ٥ ص ٨٣، ٤٧٠.

(٩٤) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ٤٣٤.

(٩٥) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج ١ ص ١٢٥ ؛ إياس، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٢٦٣.

(٩٦) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٢ ص ٤٤٠.

(٩٧) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٢٨٨.

(٩٨) الخوند: لقب يستعمل في مخاطبة زوجات السلطان أو أقاربه: انظر: القلقشندي، **المصدر السابق**، ج ٧ ص ١٦٦.

(٩٩) الملاليط: ومفردها ملوطة، وهي ثوب واسع يلبس فوق غيره من الملابس، أو ملبوس واسع الأكمام.

انظر· محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣ م، ص ٣٢٨.

(١٠٠) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٤٤٤ – ٤٤٥.

(١٠١) جوق· ومفردها جوقة، مجموعة من المطربين إذا اجتمعوا، وقد تطلق أيضاً على آلات الطرب إذا عزفت سوياً· انظر· محمد قنديل البقلي، **المرجع السابق**، ص ٣٥٣.

(١٠٢) تفصيلة· هي الثوب الجديد المفصل لمن يلبسه، يكون غالي الثمن· انظر· أحمد محمد دهمان، **المرجع السابق**، ص ٤٦.

(١٠٣) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٢٤٩.

(١٠٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ؛ نشر دار الجيل، بيروت د·ت، ج ١ ص ٤١٨ ؛ المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٤٩٢.

(١٠٥) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، طبعة، فيسبادن ١٩٧٨ م، ص ١٣٥ ؛ المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٥٦٧ ؛ ابن تغري بردي، **النجوم** الزاهرة، ج ١٠ ص ١٢.

(١٠٦) الشبابات· مفردها شبابة وهي الآلة المتخذة من القصب المجوف، يقال لها أيضاً· " اليراع " باسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعني القصب، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي· فيها سبعة أنجاش – حسب الكواكب السيارة – بسدادات، وضعت وضعاً متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيها وتتصل كذلك متناسبة، فيتلذذ فيها السمع· انظر· المشهدي، **كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب** ، نسخة ميكروفيلمية مصورة عن المخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٨ ت موسيقى، ق ١٢٤ أ ؛ سعود

العصفور، **الألعاب ووسائل التسلية في العصر المملوكي**، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد ١٧، يناير ٢٠٠٥م، ج ١ ص ٩٩٨.

(١٠٧) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٥٩٥.

(١٠٨) **السلوك**، ج ٢ ص ٦٧٨ - ٦٧٩ لعب الكرة، ويراد هنا اللعبة المعروفة الآن باسم Polo وهي رياضة درج على ممارستها الملوك والسلاطين زمن الأيوبيين والمماليك. انظر: القلقشندي، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٤٧ ؛
Ahsan(M.M):Social Life under the Abbasids. London, Newyourk ,Beirut. 1979, P.252-254.

(١٠٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٠ ص ٩٨.

(١١٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٠ ص ١٥٠؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢ ص ٦٨٣، ٧١٣، ٧١٥ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت، ج ٦ ص ١٥٠ - ١٥١.

(١١١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٠ ص ١٥٣ - ١٥٤؛ المقريزي، **السلوك**، ج ٢، ص ٧٢١؛ النعيمي، **العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان**، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث بتركيا برقم ٤٥٦ - تاريخ، ورقة ٣٥.

(١١٢) المقريزي، **السلوك**، ج ٣ ص ٦٢ ؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٠ ص ٣١٥ ؛ ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأنباء العصر**، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩١٩م، ج ١، ص ١٦٣- ١٦٤ ؛ ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥٧٩.

(١١٣) ابن قاضي شهبة، تاريخه، تحقيق عدنان درويش، نشر المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، طباعة مشتركة بين المعهد المذكور، والجفان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٩٤م، مج ٢ ،ج ١ ص ٦٥٨.

(١١٤) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٦٩٣ وج ١ ق ٢ ص ٥١١.

(١١٥) ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج ١ ص ١٢٩ – ١٣٠، ١٦٣ – ١٦٤ ؛ ابن قاضي شهبة، **المصدر السابق**، مج ٣ ج ٢ ص ٥٦١.

(١١٦) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. ج ١٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٣ ص ١٨٥.

(١١٧) الخطيب الصيرفي، **إنباء العصر بأنباء العصر**، تحقيق حسن حبشي، طباعة ونشر دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٠ م، ص ٩١.

(١١٨) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥٧٤.

(١١٩) الخطيب الصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان**، ج ٣ ص ٨١٤.

(١٢٠) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١١٨٩.

(١٢١) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٢٩٤.

(١٢٢) الخطيب الصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان**، ج ٣ ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

(١٢٣) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١٢٠٩.

(١٢٤) **المصدر السابق**، ص ١١١٧.

(١٢٥) قلعة دمشق. قلعة حصينة تقع في غرب مدينة دمشق، بناها تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م، وجعلها دار إمارة، وسكنها وزاد فيها خلفاؤه. انظر.
Demombynes,(G.M.),La Syrie a' l'e'poque des Mamlouks d'apre's les auteurs arabes.Paris 1923,35-37.

(١٢٦) العيني، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٢٠٤.

(١٢٧) قرية من أعمال حمص تدعى أيضاً حوارين. انظر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م، ج ٢ ص ٣١٥ – ٣١٦.

(١٢٨) العيني، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٢٢١.

(١٢٩) المقريزي، **السلوك**، ج ٢ ص ٦٩٦.

(١٣٠) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥.

(١٣١) **المصدر السابق**، ج ٤ ص ١٩٧ - ١٩٨.

(١٣٢) **المصدر السابق**، ص ٢٩٩.

(١٣٣) المعاصير. الآلة التي تستخدم تسمى معصرة، وهي مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما، يوضع العضوالمراد عصره من المذنب، ثم تشد الخشبتان شداً وثيقاً، وكلما زاد الشد زاد الألم، وكثيراً ما أدى ذلك إلى كسر عظم المعصور أو تلف العضو المعصور. انظر. ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٥١ ؛ المقريزي، السلوك، ج ١ ص ٧٤٠، حاشية رقم ٣ ؛ سعود العصفور، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، حوليات آداب عين شمس، مج ٣١، يناير — مارس ٢٠٠٣، ص ٨٧.

(١٣٤) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٣٦٦.

(١٣٥) التوسيط. تعرية جسم المحكوم عليه بالموت من ثيابه، ثم ضربه بالسيف ضربة قوية تحت السرة تقسم جسمه نصفين فتندلق أمعاؤه إلى الأرض، ويعد التوسيط وسيلة شائعة في العصر المملوكي، وهي أشد من قطع الرقبة. انظر. المقريزي، **السلوك**، ج١ ص ٤٠٤، حاشية رقم٤؛ سعود العصفور،**المرجع السابق**، ص٨٣ - ٨٤.

(١٣٦) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ١ ق ١ ص ٥١١.

(١٣٧) المقريزي، **السلوك**، ج ٤ ص ١١٣٠ - ١١٣١.

(١٣٨) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٤٤١.

(١٣٩) **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٣١٢ - ٣١٣.

(١٤٠) **المصدر السابق**، ج ٢ ص ١٤٢.

(١٤١) **المصدر السابق**، ص ١٦٠.

(١٤٢) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ١١.

(١٤٣) **المصدر السابق**، ص ٧٠.

(١٤٤) **المصدر السابق**، ج ٣ ص ٨٣.

(١٤٥) **المصدر السابق**، ص ١٠٥.

(١٤٦) ابن طولون، رسائله، ق ٦ ؛ ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٩٦.

(١٤٧) ابن طولون **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، تحقيق محمد مصطفى، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢م، ق ١ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

(١٤٨) الدوادار. لقب يطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرها، وهو اسم فارسي مركب من لفظين أحدهما عربي وهو الدواة، والثاني دار بمعنى ممسك. والدوادار من مهامه تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغه عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، وتقديم البريد إليه هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ خط السلطان على عامة المناشير والتواقيع والكتب، وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب، وإذا جاء الكتاب أخذه الدوادار فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله السلطان فيفتحه، ويجلس كاتب السر فيقرؤه عليه، ويأمر السلطان فيه بأمره. انظر.المقريزي، المصدر السابق، ج ٢ ص٢٢٢ ؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩ و ج ٥ ص٤٦٢ ؛ ابن طولون، نقد الطالب، ص ٥٩.
Dozy. supplement aux Dictionaires Arabes 2vols,Leden,1881, I, p.469.

(١٤٩) ابن إياس، **المصدر السابق**، ج ٤ ص ٢٠٢.

(١٥٠) **المصدر السابق**، ص ٤٦١.

قراءة في إنجازات عصر المماليك العلمية
العلوم التطبيقية أنموذجاً
٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م

الدكتور عمار النهار
قسم التاريخ
جامعة دمشق

يقول ابن خلدون أحد أشهر علماء عصر المماليك: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلوم والصنائع"(١).

تقديم وتقويم:

شهد عصر المماليك في مصر والشام (ولاسيّما عصر المماليك البحرية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م- ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م)، حياة علمية مزدهرة، على الرغم مما شهده ذلك العصر من حروب طويلة وثورات واضطرابات وفتن، فالباحث في هذا المجال يجد بسهولة المئات من المؤلفات التي تتكلم على العلماء الذين صبغوا العصر بفكرهم،

وملؤوه بمؤلفاتهم التي احتوت من الإبداعات والإنجازات، التي ما زالت إلى يومنا هذا تملأ مكتبات العالم في الشرق والغرب.

والذي يثير الاستغراب إطلاق عدد من المشتغلين باللغة والآداب العربية عبارة (عصر الانحطاط) على الحضارة العربية الإسلامية في عصر المماليك، ويعنون بذلك أن هذا العصر لم يكن عصر أصالة وإبداع في العلوم عامة، كما أنه لم يوجد فيه من الشعراء والأدباء والمحدثين والفقهاء والفلاسفة والأطباء والكيميائيين والمؤرخين من يضاهي أمثالهم من القرون الثلاثة الأولى وهي العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية.

ثم جاء بعض المستشرقين فأطلقوا هذه العبارة على كل نواحي الحياة في عصر المماليك، بدافع من الجهل، أو الحقد، أو كليهما، ثم تبعهم كالعادة بعض المؤرخين والعلماء المحسوبين على العروبة، ورددوا هذه المقالة حتى وسموا عصر المماليك كله بالتخلف والانحطاط والهجين والفوضى والانحلال، وبطبيعة الحال فقد انتقلوا بهذه التسمية إلى العصر العثماني، وكانت وطأتهم عليه أشد وأدهى.

فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك[٢]، إلا أن المستشرق الفرنسي جاستون فييت يعدّه من الدرجة الثانية، ويقول عن ذلك: "ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد، وقرطبة، كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين / الثامن والتاسع الهجريين، مركزاً للسياسة والإدارة وخاصة للتجارة العالمية، ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية"[٣].

ويصف بروكلمان هذا الإنتاج بأنه "إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية"[٤].

وإذا ما تحولنا إلى جوزيف بورلو، فسيلفت انتباهنا وسيدهشنا وصفه الثقافة العربية في عصر المماليك أنها كانت "تعيش على نفسها مع تنازلها عن مكانتها إلى الثقافات الفارسية والتركية"(٥).

والواقع أن هذا الرأي الذي يؤيده عدد من المستشرقين، كما تتشدق به غالبية (المستغربين) من أهل المشرق، ينطلق من حقد الغربيين على المماليك الذين دمّروا الصليبيين وأجلوهم عن الشام، كما دمّروا حلفائهم المغول، وحفظوا لبلاد الشام الأماكن المقدسة فيها، والحجاز استقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية.

فمن أقوال الباحثين العرب والمسلمين الذي انساقوا وراء آراء المستشرقين، وأصيبوا بداء الإعجاب بهم، قول أحدهم: "يمكننا أن نقول إنّ مدينة هذا العصر كثيرة المتناقضات، لذلك وُصفت هذه الفترة بأنها عصر الظلام، أو عصر الفوضى، أو العصور المظلمة... وفي هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التي عاشتها أوروبة في القرون الوسطى"(٦).

ولكن الحرج كل الحرج أن تصدر أحكاماً غير دقيقة وبعيدة عن الحقيقة من باحثين مشهورين ويعتدّ بهم، وأضرب مثالاً هنا قول فيليب حتي عن عصر المماليك بأنه: "عصر تجميع وتقليد أكثر منه عصر توليد وإبداع"(٧).

وإذا سلمنا جدلاً بصحة هذه المقالة فهذا لا يعني أن عصر المماليك كان عصر انحطاط.

فكما استعرضنا في هذا البحث، لم يكن عصر المماليك بحال من الأحوال عصر انحطاط، بل هو العصر الذي ظهرت فيه حضارة عظيمة في مختلف نواحي الحياة.

فمثلاً كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في العمارة الإسلامية، وهذا يبدو اليوم بوضوح تام في القاهرة التي سميت بمدينة الألف مئذنة، والتي تنتشر فيها الآثار

المملوكية الهائلة بدءاً من البيمارستان المنصوري إلى جامع السلطان حسن، وخانقاه بيبرس الجاشنكير، ومسجد الأمير أيبك، ومسجد الغوري، وغير ذلك(٨).

أما الذين لم يزوروا القاهرة، فبإمكانهم مشاهدة الآثار المملوكية في دمشق، مثل المدرسة الظاهرية، والجقمقية التي بجوارها، وبين هذه وتلك يمكنهم مشاهدة نموذج رائع من نماذج العمارة المملوكية، وهو المئذنة الغربية من مآذن الجامع الأموي التي أمر ببنائها السلطان قايتباي بعد حريق الجامع الأموي سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، وتم ذلك في بضعة شهور.

وفي ميدان الفكر فقد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات الكبرى في الأدب والتاريخ والحديث والتفسير والفقه وغيرها، ففي علوم الدين والفقه والحديث نجد الموسوعات الضخمة للإمام القووي وابن تيمية، وابن رجب، والبدر العيني، وابن حجر، وفي التاريخ اليونيني، وابن كثير، وابن خلدون، وابن تغري بردي، والنويري. وفي الموسوعات العلمية نجد مسالك الأبصار، وصبح الأعشى، وخطط المقريزي وغيرها.

وهؤلاء وأمثالهم حفظوا لنا التراث العربي الإسلامي بالدرجة الأولى ثم زادوا عليه حتى أصبحنا اليوم نعرف أدق التفاصيل عن القاهرة في عصر المماليك.

وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكية لم يلتفت إليه الكثيرون ونعني به الجانب العسكري، ذلك أن الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك على برابرة الشرق والغرب على المغول والصليبيين في غضون أربعة وأربعين عاماً فقط من سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، إلى سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، لم تتحقق بسبب الشجاعة والعقيدة فقط، بل تحققت نتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم بالصناعات الهندسية والعسكرية، التي مكّنت المسلمين من تحرير قلعة عكا في فلسطين، وهو الفتح الذي لم يكن يقل في أهميته عن فتح القسطنطينية فيما بعد، بشهادة المؤرخين الغربيين أنفسهم.

وأخيراً، فإني سأركّز في هذا البحث على جانب مهم يكاد يكون مهملاً، وهو جانب إنجازات علماء عصر المماليك في العلوم التطبيقية، ولا تقل شأناً وتأثيراً وفائدة عن مثيلاتها في العصور السابقة لعصر المماليك.

الإنجازات الطبية:

شهد العصر المملوكي تقدماً ملموساً وتطوراً كبيراً في هذا العلم، فظهر فيه علماء لا يعلى عليهم، قدّموا أبحاثاً أحدثت ثورة في العلوم الطبية، ويعلّق الطبيب ألبير زكي اسكندر على روعة ذلك العصر بقوله: "وإذا كان مؤرخو الطب قد أطلقوا اسم (العصر الذهبي) على زمان أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، حق لنا بكل فخر واعتزاز أن نطلق على زمان ابن النفيس (العصر الماسي) للطب العربي"(٩).

إذاً فالفضل الأول في تطور طب ذلك العصر يعود إلى ابن النفيس، مع ظهور أقران له تابعوا مسيرته كابن الأكفاني مثلاً، ويلاحظ أيضاً أن طب ذلك العصر قد اعتمد على عدد من علماء أهل الذمّة الذين بلغوا منزلة سامية لدى الحكّام والأمراء، على أنّ هؤلاء وإن تميّزوا فإن جلّهم تلقى الطب على يد ابن النفيس.

١- ابن النفيس:

اتخذت مسيرة الدراسات الطبية منذ بداية عصر المماليك أبعاداً جديدة على يد علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، المعروف باسم ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، الذي بدأ الاشتغال بالطب أولاً في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة واستقرّ فيها، وترأس البيمارستان المنصوري بها، وبات شيخ الطب في الديار المصرية، وقد قال عنه معاصروه ومن بعدهم إنه لم يأتِ بعد ابن سينا مثله، وقالوا أيضاً: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا، ولقّبوه بابن سينا الثاني.

سكن ابن النفيس المدرسة المنصورية بالقاهرة، وفيها صنّف تصانيفه المشهورة في الطب والفقه والعربية، ولشدة ذكائه كان يملي تصانيفه من حفظه لتبّحره في العلوم، وفي أواخر أيامه أهدى مكتبته العامرة بشتى أنواع العلوم للبيمارستان المنصوري(١٠).

وتكمن قيمة معارف ابن النفيس في إبداعاته الطبية، واعتماده التجربة والطب السريري، فلم يقلّد غيره أو ينقل دون تمحيص أو وعي أو تجربة أو تشريح، فاعتمد في دراسة الطب وتدريسه على تجاربه ومعرفة خواص أعضاء الجسم من واقع ما شاهده في أثناء التجربة، ولم يكن يتقبّل كلام العلماء السابقين من اليونانيين والمسلمين إلا بعد بحث وتجربة، في وقت كان لا يجرؤ فيه أحد من العلماء على نقد جالينوس أو الرئيس ابن سينا، بل كان الجميع يأخذون آراء هذين العالمين الكبيرين على أنها ثوابت لا يمكن مناقشتها، ولا يتسرّب الشك إليها، ولذلك توقّف الطب عن التقدّم بعدهما، إلى أن جاء ابن النفيس ووقف على أخطاء جالينوس بعد تجارب طويلة واستقصاء دقيق، فهاجمه وغضّ الطرف عن كثير من آرائه وفضّل عليه أبقراط(١١)، فعني بدراسة مؤلفاته وشرح كثير من كتبه.

لقد أسدى ابن النفيس للإنسانية في علم الطب كثيراً من الجهود الموفقة والإنجازات العلمية العظيمة والأصيلة، ومن أهمها:

- اكتشاف الدورة الدموية الصغرى المعروفة بالدورة الدموية الرئوية، وخالف في ذلك آراء جالنيوس ومن تبعه من الأطباء وخاصة ابن سينا، وقد عني بشرح هذا الاكتشاف العلمي الكبير في كتابه "شرح تشريح ابن سينا".
- كان الأطباء قبل ابن النفيس يرون أن قلب الإنسان له ثلاثة بطون، وأن فيه – كما يقول جالينوس – أقساماً دقيقة يخرج الدم بواسطتها من تجويف القلب الأيسر، فنقض ابن النفيس هذه النظرية، وأثبت أن قلب الإنسان ليس له إلا بطينان، وأنه لا يوجد أية أقسام يخرج منها الدم من التجويف الأيمن إلى التجويف الأيسر.

- كان ابن النفيس أول من قال إن الدم يُنقّى في الرئتين، وقد سبق بذلك (سرفيتس) بثلاثة قرون، وشرح ذلك في كتابه "شرح تشريح القانون".
- نقض ابن النفيس النظرية التي تقول إن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن، وقال: إن القلب يتغذى من العروق المارّة فيه.
- شرح ابن النفيس بطريقة علمية وظيفة أعضاء جسم الإنسان، وكيف يؤدي كل عضو منها وظيفته، وقد شرح من بين ما شرح وظيفة القلب والرئتين، وبيّن كيف تعمل هذه الأجهزة بانتظام دقيق وتعاون مستمر.
- قدّم ابن النفيس خدمة جليلة أخرى لتيسير مداواة المرضى وتطوير طرائق العلاج، فقد هدته تجاربه في أثناء ممارسته العلاج إلى أن تنظيم غذاء المرضى أكثر فائدة للإنسان من الاعتماد على الأدوية وحدها، فكان لا يصف لمرضاه دواء ما استطاع إن وجد الغذاء، وكان يفضّل وصف أدوية مفردة على الأدوية المركبة، وقد عني بشرح ذلك في كتابه "موجز القانون في الطب".
- صنّف الأدوية بأسمائها ومصادرها وفعاليتها وكمياتها، ووصف الأمراض بالأعراض التي تصيبها، وحدّد الأمراض المختلفة، ووصف الحميات ومضاعفاتها وعلاماتها، ووصف أنواع الجروح والإصابات وأنواع الأورام ووسائل علاجها.
- هو أول من وجّه النظر إلى ارتباط المرض بالفصول وتغيرات الجو والبيئة، وكذلك وصف تطور ظواهر المرض وأنواعه باختلاف الأماكن، وارتباط كل ذلك بأسلوب الحياة والنشاط والنوم والراحة والحالة النفسية والغذاء وأنواعه وجودته وخلوّه من الغش.

- وضع قواعد التداوي بالدواء من اختيار الأضداد لمقاومة المرض وتحديد الكميات المناسبة لحجم المريض وسنه وقوته واحتمال وتحديد وقت العلاج المناسب لمرحلة المرض.
- أول من أشار إلى الاعتدال في تناول الملح، وقدّم أدق التفاصيل لأخطار الملح وأثره في ارتفاع الضغط.
- أبدع في تشريح الحنجرة وجهاز التنفس والشرايين ووظائفها(١٢).

وأضيف إلى إنجازات واكتشافات وأسبقيات ابن النفيس هذه مثيلاتها في أمراض وعلاج العيون، فقد أضاف إلى علم الكحالة سريرياً وجراحياً إضافات مهمة وحاسمة، فاحتوى كتابه "المهذب في الكحل المجرب" على إبداعات وأسبقيات لا تقل أهمية عن إبداعاته الأخرى، وسأسرد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

- ابن النفيس أول من شرح فكرة البعد الثالث (Third Dimension) أي عندما تنظر العينان معاً تريان البعد الثالث.
- وأول من عزا الكمنة –Hypsion– (أن يحس المريض بشيء من الرمل بعينه) إلى التهاب القزحية والجسم الهدبي (وهو المسؤول عن تروية العين ويقع بالقسم الأمامي للمقلة).
- ذكر لأول مرة في التاريخ عملية مص المدة الكامنة في البيت الأمامي بالمهت المجوف.
- ذكر لأول مرة أن الماء (الساد) يقع خلف العينية (القزحية) وليس أمامها كما كان سائداً في عصر وعصر من سبقه.
- أول من نصح بمص الرطوبة البيضية (الخلط المائي) بواسطة المهت المجوف لردّ تفتق القزحية.

- أول من وصف الساد الجزئي (أي تكثف جزء من العدسة) ووصف انخلاع العدسة الجزئي، ووصف ازدواج الرؤية في العين الواحدة.
- أول من وصف حسر البصر الناجم عن الساد غير الناضج.
- أول من نصح باستعمال الريشة دليلاً قبل إدخال المقدح إلى العين وذلك تحاشياً لإدخال الأدوات الجراحية مراراً واحتمال حدوث التلوث.
- وصف لأول مرة طريقة استخراج الساد بالضغط والشطف، وحذّر من ضياع السائل المائي الذي قد يؤدي إلى انخساف العين.
- ذكر لأول مرة انعدام تأثير بعض الأدوية في الالتهابات داخل العين.
- كما وصف لأول مرة وذمة القرنية وكثافتها (تسمك بالطبقة المتوسطة أو الظاهرة).
- وصف ولأول مرة معالجة كسل العين (الغطش Amblyspia) بتغطية العين السليمة بالتبرير العلمي.
- أول من وصف تفاوت التشنج (Anisokonis) ورؤية الأشياء أصغر مما هي عليه في المرضى المتوسعة حدقاتهم.
- وصف توسع الحدقة وعدم ارتكاسها للنور في هجمة الزرق الحادة (أي ارتفاع ضغط العين المفاجئ).
- وصف (تسطح القرنية) الناجم عن نقص الضغط داخل العين (Hypotony)، والذي قد يشاهد في حالات التجفف الشديد الحاد والمزمن، كما في حالات الإسهالات والسبات السكري والإقياء المزمن.
- نصح بمعالجة الزرق الحاد بالاستفراغ، ولعله كان رائداً في معالجة الزرق قبل استعمال الـ Osmoglyn والـ Glycerin لطرح كمية كبيرة من السوائل وتخفيض ضغط العين.

- أصرّ على ضرورة رؤية العين للشمس أو السراج قبل القدح، وإلا أصبح القدح عديم الفائدة وإن انتقل الماء واستقر.
- حذّر من انخفاض ضغط العين المزمن الناجم عن عدم التئام الجرح وما قد يؤدي إلى انكماش العين.
- حذّر بشدة من إجراء عملية الساد في العينين في آن واحد خشية التلوث.
- نصح بعدم تخريش الأنسجة السرطانية خشية انتقالها الموضّع والبعيد.
- ذكر بكل ثقة أو الحول الخلقي لا شفاء له إلا في زمن الطفولة.
- ذكر أنه إذا أصابت الرأس ضربة شديدة جحظت العين أولاً ثم غارت(١٣).

وقد خلّف ابن النفيس وراءه ثروة هائلة من المؤلفات الثمينة، وظلّت أوروبة تعتمد عليها حتى وقت قريب، ومنها كتابه "الشامل"، وهو كتاب موسوعي في الطب، وتقول المصادر إنه في (٣٠٠) مجلد، بيّض منها ابن النفيس ثمانين، وذكر ابن فضل الله العمري أن هذه المجلدات الثمانين كانت في البيمارستان المنصوري في القاهرة آنذاك(١٤).

ومن مؤلفاته "شرح تشريح القانون" و"تعليق كتاب الأدوية لأبقراط" و"شرح تشريح جالينوس" و"شرح تقديمات المعرفة" وهو تعليق عل تكهنات جالينوس، و"شرح مسائل حنين بن اسحق" و"شرح القانون" و"شرح مفردات القانون" و"موجز القانون" و"المختار من الأغذية" و"تفاسير العلل وأسباب الأغذية" و"شرح الإرشادات لابن سينا"(١٥).

ويعدُّ كتابه "شرح تشريح القانون" مفخرة الطب العربي حيث استمر تدريسه في أوروبة حتى القرن الثامن عشر الميلادي /الثاني عشر الهجري، وفي هذا الكتاب هاجم ابن النفيس بجرأة القيود التقليدية، التي كانت تشلّ نشاط المشتغلين بالعلم، وتحرّر من سيطرة جالينوس وابن سينا، وأنكر ما لم تره عينه، يقول في مقدمة هذا الكتاب: "بعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله فإن قصدنا الآن إيراد ما تيسّر لنا

من المباحث على كلام الشيخ أبي علي الحسين بن علي بن سينا البخاري رحمه الله في التشريح من جملة كتاب القانون، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً، وقد صدّنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك رأينا أن نعتمد في تعريف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر، خاصة الفاضل جالينوس، إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن، مع أنه اطلع على كثير من العضلات التي لم يُسبق مشاهدتها، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعريف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله، إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها أغاليط النسّاخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد، وأما منافع كل واحد من الأعضاء، فإنا نعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق، البحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه"(١٦).

ويقول بول غليونجي عن هذا الكتاب: "أهمية هذا الكتاب عائدة إلى أنه يحتوي معلومات جديدة ومهمة قد تُحدِث ضجة في عالم مؤرخي الطب قد لا تقل عن الضجة التي حدثت حينما اكتشف محي الدين الططاوي عن الجزء المتعلق منها بتشريح القلب، ووصف الدورة الدموية الصغرى... وكتاب تعليق ونقد أفكار جالينوس، وللأفكار التي وردت في قانون ابن سينا"(١٧).

ويبدو من خلال هذا الكتاب أن ابن النفيس قد مارس عملية تشريح جثث البشر،أو بعض الحيوانات سراً،لأن المجتمع في ذلك الوقت لم يكن يقرّ بممارسة مثل هذه الأعمال لأسباب دينية، وكذلك كان الحال في أوروبة ، وإن مارسه أحد ففي السر والكتمان والخفاء، والذي يجعلنا نقف موقفاً موضوعياً عن ممارسة ابن النفيس للتشريح قوله المتكرر في أماكن كثير من كتبه: "والتشريح يكذّب ما قالوه"، وقوله عن تشريح الشريان الرئوي الذي سماه الوريد الشرياني: "إن هذا العرق شبيه بالأوردة

وشبيه بالشريان، أن شبهه بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأن جرمه نحيف وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو" وغير ذلك من هذه الأقوال الدالة على ممارسة العملية للتشريح"[١٨].

وفي كتابه "موجز القانون"، أو "الموجز في الطب" جرّب ابن النفيس ما احتواه كتاب "القانون" لابن سينا، فضمّنه آراءه[١٩]. وقد كتبه بطريقة دقيقة مبنية على تجاربه وملاحظاته في أثناء ممارسته الطبّ، وعني بصياغته بأسلوب يُيسّر على الأطباء الانتفاع بما جاء بطريقة علمية تجمع بين ما اعتقد بصلاحيته ومن آراء الرئيس ابن سينا، وما صحّ عنده من آراء، وما وصلت إليه في أثناء العمل في مزاولة الطب وتجاربه في علاج المرضى، وعني كذلك بوصف ما رآه صالحاً من الأدوية لكثير من الحالات، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى لغات كثيرة، وتعددت التعليقات عليه[٢٠] وقال عنه حاجي خليفة: "موجز في الصورة لكنه كامل في الصناعة"[٢١].

وشرح ابن النفيس فصول أبقراط في كتابه "شرح فصول أبقراط" وكتاب "فصول أبقراط" أشهر ما كتبه أبقراط على الإطلاق، وهو حكم طبية موجزة، أودع فيها خلاصة خبراته وملاحظاته الطبية، وصاحب هذه الفصول الأبقراطية أكبر عدد من الشروح في تاريخ الطب الإنساني، فقد اعتنى بها الأطباء في كل العصور عناية لا مثيل لها، وتتألف فصول أبقراط من سبع مقالات، تحتوي كل مقالة على عدة فصول أو حكم موجزة، وقد وضع ابن النفيس هذا الشرح على الفصول، فلم يُغفل شرح واحد منها، مما يعني أنه كان على دراية واسعة بهذا المؤلف الأبقراطي، ولا يخلو شرح الفصول من وقفات نقدية من ابن النفيس لأبقرط[٢٢].

٢- الكركي:

أبو الفرج بن يعقوب بن اسحق بن القف الكركي المسيحي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، ولد عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م، في مدينة الكرك بالأردن، وتعلّم الطب أولاً في صرخد في حوران بإشراف الطبيب المؤرخ أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، الذي سنأتي على

ذكره لاحقاً ، ثم انتقل إلى دمشق وأكمل دراسته فيها، وترك لنا من آثاره في الكتب التالية: "الشافي" في أربعة مجلدات، و"شرح كتاب من كتب القانون لابن سينا" في ستة مجلدات و"شرح الفصول لأبقراط" في مجلدين، و"جامع الغرض" و"العمدة في صناعة الجراحة"(٢٣).

وتعكس مؤلفات الكركي الطبية البراعة، التي يمتلكها في هذا العلم، وخاصة الجراحة، حيث عدّ من خلال كتابه "العمدة في صناعة الجراحة" أعظم جراحّي العرب بعد الزهراوي أبي القاسم خلف ابن العباس (ت ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، وكتابه المذكور هو أشهر كتاب مستقل في التشريح في العربية حتى عصر المؤلف، وهو كتاب فريد من نوعه، ولاسيما أنه يعطي تعريفاً دقيقاً لصناعة الجراحة وتفسير معانيها، وشرح فيه الأخلاط والأمزجة وتشريح الأعضاء في البدن الإنساني، وتكلم على أنواع المرض وتقسيمه، والأورام، والمعالجة الجزئية كالفصد والحجامة والكي، وعلاج الخلع وتسكين الألم، وذكر المقدرات التي يحتاج إليها الجراح، وأتبع ذلك شرحاً لعلاج الجدري والحصبة والسرطان والجذام، وداء الثعلب والجمرة ولدغ الهوام، وعلاج الكسور وعلاج البواسير والخراجات والدمامل والخوانيق وحقن المثانة وإخراج الحصى من الكلى، ثم أتبع ذلك كله بحثاً عن تركيب الأدوية والمستحضرات الصيدلانية(٢٤).

ولخّص ابن أبي أصيبعة أهمية هذا الكتاب بقوله: "علم وعمل يذكر فيه جميع ما يحتاج إليه الجرائحي بحيث لا يحتاج إلى غيره"(٢٥).

٣- ابن الأكفاني:

محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، مصري الدار والوفاة، فقد كان من أئمة الطب في عصره، تميز في العلاج، وعمل طبيباً بالبيمارستان المنصوري، ولشدة الثقة بطبه كان لا يدخل شيء مشترى للبيمارستان المنصوري إلا بعد عرضه عليه، وكان هو من يركّب الترياق فيه كل عام، وهذا يدل على أنه عمل

طبيباً وصيدلانياً في الوقت نفسه، وتشير تصانيفه إلى شيء من هذا، ومنها: "كشف الرين في أحوال العين" و"غنية اللبيب عند غيبة الطبيب" ويتناول فيه الأدوية المنزلية، و"نهاية القصد في صناعة الفصد"(٢٦).

ويوازي كتابه "كشف الزين في أمراض العين" بأهميته أهمية كتاب ابن النفيس "المهذب في الكحل المجرب"، وقال في مقدمته: "فإني جامع هذا الكتاب في صناعة الكحل ومرتبه على ثلاث مقالات: الأولى في كليات الأحوال العين، الثانية في أحوالها الجزئية، الثالثة في أدويتها المشتركة، وسميته "كشف الزين في أحوال العين"(٢٧).

وتضمن كتاب ابن الأكفاني "كشف الزين" أسبقيات رائعة في أمراض العيون تسجّل لابن الأكفاني، ومنها أنه:

- أول مؤلف يذكر (النار الفارسية) كمرض من أمراض الجفن، أو الحمى الفارسية؛ وهي الحرارة التي تنجم عن إصابة المريض بما يسمى بالجمرة الخبيثة.
- أول مؤلف يذكر العقدة (رطوبة متحجرة غليظة تحت جلد الجفن الأعلى) بوصفه مرضاً من أمراض الجفن.
- أول من وصف الظفرة (زيادة عصبية من أحد الماقين أو منهما) تشريحياً ونسيجياً، وذكر أنها مؤلفة من ظهارة وبطانة.
- أول مؤلف يذكر الوردينج (ورم يحدث في الجفن عن مادة دموية أو مخالطة للصفراء) ضمن أمراض الشبكية.
- أول مؤلف يذكر الشقيقة العينية (ألم في العين عصبي المنشأ) بوصفه مرضاً مستقلاً.
- أول مؤلف يذكر مرض الخفش (وهو ضعف البصر الناتج عن رقة الأهداب أو قلتها)(٢٨).

٤- ابن أبي أصيبعة:

ونبغ في الطب أيضاً الطبيب المؤرخ أحمد بن القاسم بن خليفة الحكيم المعروف بابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، ولد في دمشق، وكان والده من أمهر أطباء العيون، وبعد أن أتقن العلوم اللسانية على علماء عصره، انصرف إلى تلقي علوم الطب عن والده، ثم درس العلوم التي تبحث في أمراض العيون على كل من يحسنها، وسافر إلى القاهرة والتحق بالبيمارستان الناصري الذي أنشأ صلاح الدين بالقاهرة، وعمل فيه ليلاً نهاراً يحصّل العلم، فاشتهر بحسن مداواته لمرضى العيون، وتوفي بصرخد إحدى مدن جبل حوران، ومن تصانيفه الطبية: "حكايات الأطباء في علاجات الأدواء" و"التجارب والفوائد"(٢٩).

وذكر في مصنفه التاريخي الطبي "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" فوائد طبية كثيرة من خلال تراجم أعيان الطب، وعُدّ من خلاله أول من أشار إلى أسبقية المسلمين في استخدام القرود للتشريح لشبهها بالإنسان منذ حكم الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٨هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م)(٣٠).

٥- عائلة أبي حليقة:

ومنهم ابراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)، الذي عُيّن رئيساً للأطباء بمصر والشام، ثم أسلم بعد أن كان نصرانياً، ولازم الظاهر بيبرس لمرضٍ ألمّ به واستطاع علاجه، فأثابه بيبرس على ذلك، ومن إبداعاته في العلاج تركيبه لشراب الورد الطري، ولم يعهد ذلك قبله على مرور الأيام(٣١).

وظهر في ذلك العصر الطبيب رشيد الدين أبو الوحش بن أبي الخير بن أبي سليمان ابن داود المعروف بأبي حليقة (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، وقد عمل بالطب بالديار المصرية وبرع فيه، حتى وصفه ابن أبي أصيبعة بأوحد زمانه فيه، وأشار إلى أنه كان حسن المعالجة ولطيف المداواة، واجتمع به مرات عدة، ورأى براعته بأم عينه،

وقد نفع أبو حليقة بطبه العصرين الأيوبي والمملوكي، فخدم الملك الكامل الأيوبي، ثم الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، ثم خدم بيبرس في عصر المماليك.

ومن إبداعاته، نجاحه في صنع ترياق يسرّع شفاء المريض، وكان لهذا الترياق أثره في علاج المفلوجين، وتقويم الأيدي المقوسة، وتفتيت الحصى، ولم يكتفِ بممارسة الطب والصيدلة، بل توجّه للبحث فيهما، فترك لنا الكتب التالية: "مقالة في حفظ الصحة" و"مقالة في أن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية" وكتاب الأدوية المفردة سمّاه "المختار في الألف عقار" و"مقالة ضرورة الموت" وكتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة التي أظهرت التجربة نجاحها(٣٢).

٦- البيطرة:

برز في ذلك الوقت أبو بكر بن المنذر بدر الدين البيطار (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، بيطار(٣٣)، الناصر محمد بن قلاوون(٣٤)، فقد عمل في إسطبل خيوله، وكتب في علمي الحيوان والنبات كتابه "كاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل"، ويُعرف أيضاً باسمين آخرين هما: "كامل الصناعتين" و"الناصري"(٣٥)، وهو كتاب نادر في موضوع البيطرة، جمع فيه فضائل الخيل وأنسابها وألوانها وأعمارها وأخلاقها وعاداتها وأعلافها وكسوتها وتربيتها وأمراضها وكل ما يتعلق بها، مع بعض الأبواب في علم الفلاحة، ويتألف الكتاب من عشر مقالات مطولة ومبوبة(٣٦).

٧- الطب النبوي:

وكان من اهتمام العلماء بسيرة الرسول ﷺ أنهم استخلصوا ما ورد عنه من معارف طبية، فتخصص عدد منهم بذكر ذلك في مؤلفات خاصة؛ عُرفت بالطب النبوي، فلم تظفر مؤلفات هذا الفن بالشهرة والانتشار مثلما نالت مؤلفات العصر الذي نبحث فيه من قبول وانتشار.

فممن ألّف في ذلك الإمام الذهبي محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، والحافظ والمحدث والمؤرخ، الذي رحل في طلب العلم إلى الحجاز ومصر والاسكندرية، وصنفت تصانيف كثيرة مشهورة ونافعة(٣٧). الذي ضمّن كتابه "الطب النبوي" ما ورد عن الرسول ﷺ في الأمراض البدنية والأمراض النفسية، وذكر في مقدمته: "وقد استخرت الله تعالى في جمع شيء من الأحاديث النبوية الطبية والآثار الحكيمة، وما الحاجة إليه ضرورية في حفظ الصحة الموجودة وردّ المفقودة"(٣٨).

وللإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، كتاب في هذا الفن يحمل الاسم نفسه "الطب النبوي"، وهو من الكتب القيّمة لما تضمنه من فوائد وإرشادات ثمينة، وقد بدأه بقوله: "الطب النبوي فصول نافعة في هديه ﷺ في الطب الذي تطبب به ووصفه لغيره، ونبيّن ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكثر الأطباء عن الوصول إليها، وإن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم"، فتضمن هذا الكتاب الأمراض بنوعيها: أمراض القلوب وأمراض الأبدان، فهو في الطب النفسي إلى جانب الطب البدني(٣٩).

وكان التيفاشي أحمد بن يوسف (ت ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، الأديب الذي توفي بالقاهرة وأصله من تيفاش إحدى قرى مدينة قفصة التونسية(٤٠)، وقد سبق الذهبي وابن قيم في هذا المضمار، عندما ألّف كتاباً سمّاه "الشفا في الطب المسند عن السيد المصطفى"، وهو فيما ورد من الطب عن رسول الله ﷺ وقسّمه إلى سبع مقالات، تلكم في الأولى على فضل تعلم الطب وأهميته، وتعرض في الثانية لبعض علوم التشريح، وتحدث في الثالثة عن أنواع العلل والهموم والأحزان، وخصص الرابعة لتعريف العقاقير ومنافعها، وتكلم في الخامسة على حفظ المريض بالصحة وحفظ الأبدان، وخصص السادسة للحديث عن الفواكه وفوائدها، والسابعة للحوم وأنواعها المختلفة(٤١).

وقبل أن نختم حديثنا عن الطب لا بدّ من الوقوف على رأي لابن خلدون حول الطب النبوي يشير فيه إلى أن النبي ﷺ بُعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب؛

يقول: "فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقيدة والإيمان"(٤٢).

ولا أوافق ابن خلدون على هذا الرأي، ولاسيما قوله إن الطب النبوي للتبرك فقط، فقد أثبتت الدراسات العلمية حقائق كثيرة عن الطب النبوي، ولاسيما ما يتعلق منها بالمواد الغذائية، أو العلاج النفسي المثمر الذي لم يصل إلى درجته أي علم من العلوم الحديثة، ويكفي أن أشير إلى ما يثار اليوم من قضايا إيجابية حول الحجامة التي نصح بها رسول الله ﷺ، وما يثار حول العودة إلى العلاج الطبيعي الذي مارسه رسول الله ﷺ أيضاً(٤٣).

الإنجازات في الفلك والهندسة:

١- ابن الشاطر:

ابن الشاطر علي بن ابراهيم بن محمد الدمشقي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)، عالم الفلك والرياضيات والهندسة، مات أبوه وله ستة أعوام، فكلفه جدّه وأسلمه لزوج خالته وابن عم أبيه، فعلّمه صنعة تطعيم العاج، ولكن ابن الشاطر رحل بعد ذلك إلى مصر والاسكندرية لطلب العلم، فتعلم هناك علوم الفلك والحساب والهندسة، وبرع فيها كثيراً حتى لُقِّبَ بألقاب تدل على ذلك، فعُرف بأوحد زمانه، وفريد الزمان، المطعم الفلكي، وأعجوبة الدهر(٤٤).

أبدع ابن الشاطر آلة لضبط أوقات الصلاة وسمّاها "البسيط"، وكانت موضوعة في إحدى مآذن الجامع الأموي بدمشق، حيث كان يعمل مؤقتاً فيه(٤٥). وأبدع إسطرلاباً قدّمه لأحد المشايخ، وهو محفوظ في مكتبة باريس الوطنية، ودرس ابن الشاطر حركة الأجرام السماوية بكل دقة، وأثبت أن زاوية انحراف دائرة البروج تساوي (٢٣ درجة

و٣١ دقيقة)، علماً بأن القيمة المضبوطة التي توصل إليها علماء القرن العشرين بوساطة الآلات الحاسبة هي (٢٣ درجة و٣١ دقيقة و١٩،٠٨ ثانية).

وكما أتقن ابن الشاطر علمي الفلك والرياضيات أتقن الهندسة، وكان مبدعاً في علم الساعات، وذكر النعيمي (ت ٩٢٧هـ/ ١٢٥٠م)، نقلاً عن صلاح الدين الصفدي في ترجمته لابن الشاطر ما يلي: "هو الإمام فريد الزمان المحقق المتقن، دخلت منزله في شهر رمضان عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، لرؤية الإسطرلاب الذي أبدع وضعه، فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله... وصورة الإسطرلاب المذكور قنطرة مقدار نصف أو ثلث ذراع تقريباً، يدور أبداً على الدوام في اليوم والليلة من غير رحى ولا ماء على حركات الفلك، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منه الساعات المستوية والساعات الزمانية"(٤٦). ويرى المختصون أن ما يقصده الصفدي ليس الإسطرلاب الذي هو ميزان الشمس، لأن اختراعه كان قبل زمنه بمئات السنين، ولكنه يقصد الآلة المسماة في زماننا بالساعة(٤٧).

وعلى كل حال فإن ابن الشاطر هو أول من أبدع ساعة ميكانيكية، فأخرجها من دائرة الماء إلى دائرة الميكانيك، ومن دائرة الخشب إلى دائرة المعدن، وجعلها صغيرة بعد أن كانت تبلغ عدة أمتار، فصارت بمقدار ثلاثين سنتيمتراً، وأدخل في الآلات المعدنية، مستغنياً عن الماء وآلاته الخشبية الطويلة العريضة(٤٨).

٢- الطوسي:

محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، ولد بطوس وبنى في بلدة مراغة مرصده الشهير. كان صاحب مكانة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه في المشورة، ويضع الأموال تحت تصرفه، ويقول عنه الصفدي: "كان رأساً في علم الأوائل ولاسيما في الأرصاد المجسطي فإنه فاق الكبار".

اتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة، اجتمع فيها نحو ٤٠٠ ألف مجلد.

ومن أوائله العلمية:

- هو أول من فصل علم المثلثات عن الفلك.
- وهو أول من استخدم الحالات الست في المثلث الكروي القائم الزاوية في كتابه "شكل القطاع".
- وأول من درس المسلّمة الخامسة ومسلمة التوازن من أصول إقليدس في محاولة فريدة لتقديم ما يسمى بالهندسة الإقليدية.
- وأول من أثبت أن مجموع عددين كل منهما فردي لا يكون عدداً مربعاً، مما دفع علماء الرياضيات إلى تحليل المتواليات العددية الهندسية.

له كتب كثيرة، وكتابه "تحرير أصول إقليدس" أول كتاب بالرياضيات طُبع في أوروبة بالحرف العربي سنة ١٥٩٤م/ ١٠٠٣هـ، على آلات مطبعة ميدتشي في روما، واستصدر تاجران إيطاليان من أجله فرماناً من السلطان مراد الثالث مؤرخ سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م، يسمح لهما بتصدير السلع والكتب إلى الأسواق العثمانية، ولعله أول فرمان بهذا الموضوع، ونشر في آخر الكتاب المذكور[٤٩].

٣- الأسفوني:

من مهندسي عصر المماليك قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الأسفوني (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٤١م)، الذي تعلم في مصر على عدد من العلماء، واشتغل بالرياضيات، وتولى نظر دواوين القاهرة، ثم أقام في حماة فأقبل عليه حاكمها وأحسن إليه، وولاه تدريس مدرسة فيها، وقد مهر الأسفوني في الهندسة المكانيكية بحسب تعبير عصرنا، ومن إنجازاته أن نصب طاحوناً على نهر العاصي، وبنى أبراجاً وتحيّل فيها بحيل هندسية[٥٠]، ونقش عليه صورة أسد بارز القسمات، وحجز المياه

بحواجز كي يُعلم أصحاب الطواحين إلى كيفية تدوير طواحينهم في حالة فيضان النهر، فعندما تغمر مياه العاصي في وقت الفيضان صورة الأسد يجب إيقاف دوران الطواحين، وعندما تنحسر المياه عن صورة الأسد تكون الطواحين في حالة تستطيع فيها الدوران. ومن إنجازات الأسفوني أيضاً إنشاؤه بعض القلاع والنواعير على نهر العاصي[٥١].

٤- البهنسي:

أحمد بن ادريس بن عبد الرحمن البهنسي القرافي المصري (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الفقيه المالكي، نشأ بمصر وتوفي فيها، ودرس على يد الشيخ عز الدين بن عبيد السلام[٥٢]، وقد برع أحمد هذا بصناعة الآلات الفلكية[٥٣].

وكان بارعاً في الهندسة الميكانيكية وصنع الساعات والتماثيل المتحركة والآلات الفلكية[٥٤]، وابتكر البهنسي تماثيل متحركة في آلات فلكية على صورة شمعدان (منارة) يتغير فيه لون الشمعة في كل ساعة، وصوّر به تمثال أسد تتغير عيناه كل ساعة إلى لون، وتمثال رجل إصبعه في أذنه يظهر وقت طلوع الفجر مشيراً إلى الأذان، وورد كل ذلك في كتاب "التصوير عند العرب"، نقلاً عن مخطوط البهنسي قال فيه: "بلغني أن الملك وُضع له شمعدان، كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منها، وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر ساعات طلع الشخص في أعلى الشمعدان، وقال: صبّح الله السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر قد طلع. قال: وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه أن الشمعة يتغير لونها كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعة لها لون، فإذا طلع الفجر طلع شخص على أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه يشير إلى الأذان، غير أني عجزت عن صنعة الكلام"[٥٥].

ونُقل عن البهنسي أيضاً خبر شجرة من فضة كانت عند سلطان تلمسان، عليها تماثيل لأصناف كثير من الطير تحاكي صفير سائر هذه الأصناف بصناعة هندسية، وقد ظُن

أن ذلك كوراً من الأرض إذا نُفخ فيه وجرت الريح في المواضيع المتصلة بأفواه تلك الطيور صاح كل طير بلغته وصارت لها أجنحة عظيمة(٥٦).

الإنجازات الكيميائية:

لم تكن الكيمياء تُدرَّس إلا بقدر محدود، وليس ذلك لتعصب فكري أو ديني، وإنما لضعف الفكرة العامة عنها، وعدم الثقة في غاياتها ووسائلها، فقد كانت الكيمياء في تلك العصور ترمي إلى محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وكان المشتغلون بها يرون كما يقول ابن خلدون: "إن صورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء"(٥٧)، فكانت هذه الفكرة نوعاً من أنواع المخاطرة يشوبها الشك والارتياب، حتى إن ابن خلدون يجعل ممارستها من عمل العاجزين عن معاشهم الذين يرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب(٥٨).

فلقيت الكيمياء محاربة بعض أولي الأمر وتنكيلهم، مما أدّى إلى تستّر المشتغلين بها، وقد وصف ابن خلدون كلام الكيميائيين بقوله: "هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعاني اصطلاحاتهم"، و"كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم"(٥٩)، وقد حرم بعض الفقهاء العمل بها مثل تقي الدين ابن تيمية وصنفت كتاباً أسماه "إبطال الكيمياء وتحريمها ولو صحت لو راجت"(٦٠)، وابن قيم الجوزية في كتابه "بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً"(٦١).

والحق أن علم الكيمياء الذي نعرفه اليوم، والذي مارسه عدد من علماء عصر المماليك لا يتعلق بشيء مما ذكره ابن خلدون، ولعل ابن خلدون وهؤلاء العلماء قد تأثروا بما علق بالكيمياء آنذاك في بعض جوانبها من دعاوي السحر والشعوذة والدجل كادعاء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، إذن الكيمياء شيء والسحر والشعوذة شيء آخر؛ والدليل على ذلك وجود أنواع من الكيمياء موثوق بها كما مرّ معنا في الصناعة الطبية أو الصيدلة، وصناعة العقاقير والأدوية.

- **الجلدكي:**

ومن أبرز علماء الكيمياء في عصر المماليك أيدمر بن علي الجلدكي، والذي كاد أن يكون ضحية للجهل بهذا العلم آنذاك، ولولا ما خلّفه لنا من ثروة علمية متمثلة بمؤلفاته لما عرفنا عنه شيئاً، فالمعلومات عن حياته قد عُرفت من خلال مؤلفاته، وأدى ذلك إلى الاختلاف حتى في اسمه، وتحديد تاريخ وفاته، فذهب بعضهم إلى أن اسمه آيدمر بن علي، وقيل إن اسمه علي بن آيدمر، وقد تنقل الجلدكي بين دمشق والقاهرة، ثم استوطن القاهرة، وتوفي فيها عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، وقيل ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، وقيل ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، وقيل ٧٥٠هـ/ ١٣٦٠م، ولُقب بالجلدكي نسبة إلى جلدك وهي قرية من قرى خراسان، وتدل منجزاته الكثيرة عليه، ومن أهمها:

- توصل الجلدكي إلى قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي، وقرر بذلك أن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان متعددة ومحددة، وهو إبداع لم يسبقه إليه أحد.
- توصّل إلى فصل الذهب عن الفضة باستخدام حمض النتريك الذي يذيب الفضة تاركاً الذهب الخالص، وهذه الطريقة ما تزال تستعمل إلى يومنا هذا.
- هو أول من أبدع فكرة استخدام الكمامات في مخابر الكيمياء لاتقاء خطر استنشاق الغازات الناتجة عن التفاعلات الكيميائية، فأوصى بوضع قطعة من قطن أو قماش في الأنف.
- طوّر طريقة التقطير.
- هو أول من قال إن المادة تعطي لوناً خاصاً بها عند احتراقها.
- أبدع في تعريف التمويج، حيث عرّفه بما يلي: "ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء وهواء واحد بعينه، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم، وسكون بعد سكون".

- قدّم بعض التحسينات على طريقة صناعة الصابون المعروفة آنذاك، وذلك بإضافة المواد الكيميائية التي تقلّل من مفعول الصودا الكاوية التي تحرق الغسيل.
- كان أميناً بالنقل، حيث كان يذكر المصدر وصاحبه[٦٢].
- لفقد أغرت إبداعات الجلدكي بعض العلماء الغربيين، حتى نسب أحدهم لنفسه بعضها؛ كاكتشاف الجلدكي لقانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي، الذي نسبه الكيميائي الفرنسي (لويس بروست: ت ١٨٢٦م/ ١٢٤٢هـ) إلى نفسه، وكشف هذا الالتباس العالم الكيميائي الأمريكي برنارد جافي، فقال: "وظل بروست ثمانية أعوام يغري العالم الكيميائي بتصديق ما يقول؛ بتصديق أن العناصر عندما تتحد تتحد بنسب في الوزن واحدة، وتلك نظرية قديمة جاء بها في القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري الجلدكي، وهو كيميائي قاهري قديم"[٦٣].

وللجلدكي إنجاز مهم آخر، فمن الباحثين من أقسم أن الجلدكي هو مكتشف الذرة، انظر إلى قول الدكتور عزة مريدن عميد كلية الطب بجامعة دمشق، وعضو المجلس الأعلى للعلم عام ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ، في معرض حديثه عن إبداعات المسلمين، يقول: "ومنهم الجلدكي العجيب، الذي ما قرأت قصيدته مرة إلا أقسمت غير حانث إن هذا هو مكتشف الذرة، وواضع أسس الصواريخ... فلنصغ إليه بإمعان حين يصف كنه الذرة في المعادن والعناصر الكيماوية، ويشبهها بالمجموعة الشمسية كما يفعل علماء الذرة اليوم، حينما يبحثون في البروتون والنترون المركزين، والإلكترون الذي يحيط بهما"، ثم يذكر القصيدة (الدليل) على اكتشاف الجلدكي للذرة، يقول الجلدكي:

فشتان بين اثنين هذا مكوكب ... يدور وهذا مركز للمراكز
وإنهما عند الحكيم لواحد ... لأنهما من واحدٍ متمايز
فهذا على هذا يدور وهذه ... لها مركز رأس بقدرة راكز

وبينهما ضدان عال وسافل بقاؤهما فردين ليس بجائز
وبينهما جسم مُشف كأنه من اللطف فيما بينهما غير حاجز
فأعجب بها من أربعٍ حال بعضها إلى بعضها عن نسبة في الغرائز(٦٤)

وتمثل مؤلفاته ثروة علمية قيمة، وهي كثيرة؛ ومنها "التقريب في أسرار التركيب"، وهو موسوعة علمية تشتمل على المبادئ والنظريات ووصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتصعيد والتكليس، "وغناء الملهوف في أسرار التركيب"· و"المصباح في أسرار علم المفتاح"· ويشتمل على خلاصة خمسة كتب مهمة في الكيمياء(٦٥)، و"بغية الخبير في قانون طلب الإكسير"(٥٧)، و"الشمس والمنير في تحقيق الإكسير"، و"نهاية الطلب في شرح المكتسب في زراعة الذهب"، و"ميزان الذهب"، و"البرهان في أسرار الميزان"، و"الدرة المعنبة في شرح مخمس الماء والأرض النجمية"، و"الرحمة في الكيمياء"(٦٧).

الإنجازات الجغرافية:

نمت وترعرعت في عصر المماليك جميع الأنماط الجغرافية المعروفة لنا تقريباً، ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذي بلغ أوجه في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كما وتطورت الجغرافية الإقليمية الإدارية في أوساط عمال دولة المماليك، وقدمت الجغرافية الإقليمية تنمط (الخطط)، الذي بلغ ذروته في مصنف المقريزي الشهير(٦٨).

١- ابن عبد الظاهر:

محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، والملقب بشيخ أهل الترسل، وهذه الموهبة هي التي أهّلته ليتسلم رئاسة ديوان الإنشاء في عهود ثلاثة من سلاطين المماليك: الظاهر بيبرس، الملك المنصور قلاوون، والملك الأشرف خليل،

وظهرت هذه الموهبة كثيراً في كتبه التاريخية، كما ظهرت في أنواع الرسائل التي كان ينشئها في ديوان الإنشاء، ويذكر القلقشندي له كتاباً أدبياً سمّاه "تمائم الحمائم"(٦٩).

وهو أول مؤرخ كتب في خطط القاهرة، وكتابه في ذلك غاية في الأهمية، فهو الأول بعد خراب القاهرة في أواخر عصر الدولة الفاطمية جرّاء الحروب، والحريق الذي أصابها، والوباء الذي عاث فيها فساداً في خاتمة القرن السادس وفاتحة القرن السابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين(٧٠)، وعُرف هذا الكتاب باسم "الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة"(٧١)، واشتمل على ذكر خطط القاهرة وأبوابها وأسوارها ومساجدها ومدارسها ومشاهدها وحماماتها ودورها وبساتينها وما شابه ذلك(٧٢).

واهتم كل من ألّف قبله في الخطط بذكر خطط مصر الفسطاط فقط(٧٣)، وتتوضح الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب في اعتماد كل من ألّف في الخطط عليه والاقتباس منه، كما فعل كل من المقريزي(٧٤)، والقلقشندي(٧٥).

وأشار المقريزي إلى أهمية الكتاب عندما قال: "وكتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ففتح فيه باباً كانت الحاجة داعية إليه"(٧٦).

٢- أبو الفداء:

أبو الفداء اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المؤرخ الجغرافي، ولد بدمشق وحكم في حماة، وهو من أسرة الأمراء الأيوبيين الذين حكموا مصر والشام أكثر من ثمانين عاماً.

ترجع شهرته إلى كتابه الجغرافي الذي بدأ تأليفه سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، وأتم مسودته بعد أربع سنوات، وأطلق عليه اسم "تقويم البلدان"، وهو معجم جغرافي مقسم إلى قسمين، الأول يضم معلومات عامة عن الأرض والأقاليم السبعة، ووصف البحار

والبحيرات والمحيطات والأنهار، والقسم الثاني تناول فيه المناطق الجغرافية وهو مقسم إلى ٢٨ قسماً على جدول تضم المعلومات الجغرافية المختلفة، ومن خلاله يكون أبو الفداء أول من نظم المعلومات الجغرافية وعرضها على هيئة جداول[٧٧].

٣- ابن ماجد:

أحمد بن ماجد السعدي المعقلي النجدي، ولد ظناً عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، واختلف في وفاته، ويرجح أنها كانت عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

كان ابن ماجد على اطلاع واسع على علوم البحر وتقويم البلدان والفلك والأنواء والجغرافية والحساب، وأتقن إلى جانب اللغة العربية الفارسية والسنسكريتية ولغة أهل جاوة والتامليلية، وكثيراً ما كان يستعمل الأسماء الفارسية لبعض الكواكب والنجوم، ويقابلها بالأسماء العربية لها.

وابن ماجد هو من أشهر الملاحين العرب والمسلمين في الإبداع، وقد كثرت إنجازاته العلمية والملاحية، ونذكر هنا أبرزها:

- طوّر ابن ماجد البوصلة، أو بيت الإبرة، التي كانت تتألف من قطعة معدنية رقيقة ممغنطة تغرس في نبتة البيلسان، وتوضع في الماء وتدور فيه لتدل على جهة الشمال والجنوب بعد استقرارها، فطورها ابن ماجد إلى إبرة ممغنطة توضع فوق السن في وسطها، بحيث تتحرك فوق قرص رسمت عليه أجزاء الإبرة.
- أبدع طريقة لتحديد القبلة على قبضة اليد والذراع الممدودة في حال غياب البوصلة وضع خرائط لجميع الطرق المؤدية إلى الهند، وكان أعلم أهل عصره بالبحار وطرقها فيما بين الهند وجزيرة العرب وإفريقية.
- قسّم وردة الرياح إلى ٣٢ قسماً، وهي آلة تستخدم لمعرفة اتجاه الرياح سواء بالليل أم بالنهار ومن أين تهب، وتسمى دائرة الأفق.

- وضع دستوراً للتجارة وللعمل الملاحي يتلاءم مع كل زمان ومكان، وعلى كل ربان أن يلّم بقواعده حتى يكون ناجحاً، وهذه القواعد هي:
  - الإلمام بالعلوم الرياضية والفلكية.
  - الإلمام بآلات الرصد ومعرفة القياس بها، وطرق استعمالها وصيانتها.
  - معرفة خواص المياه والأحياء والطيور التي يستدل بها على قرب الساحل، وطبيعة القاع، وسبر الأغوار.
  - مواصلة الدراسة المستمرة، والتدريب على فنون البحر والملاحة.
  - أن يتحلى الربان بصفات إنسانية ومستوى أخلاقي رفيع.
  - معرفة حال البحر والأنواء والرياح، وأن يكون عارفاً بالأرصاد الجوية والبحرية(٧٨).

وفي نهاية حديثنا هذا عن ابن ماجد نثبت أهم إنجازاته العلمية من بين إنجازاته المتقدمة، إذ أطلق الأوربيون على السحائب الجنوبية الكبرى والصغرى اسم (سحائب ماجلان) نسبة إلى البحار البرتغالي ماجلان الذي اهتدى بهذه السحب أثناء محاولته الدوران حول العالم عام ١٥١٩م، ٩٢٦هـ.

وقد استفاض الأستاذ عبد الرحمن بشرح هذه القضية، ومما ذكره أن آخر بحث نشره الأستاذ لويس ماسينيون قبل وفاته هو عن اكتشاف العرب الغيوم التي اهتدى بها ماجلان في رحلته حول العالم، وهو أمر يشهد للعرب بالتقدم الهائل في الملاحة البحرية، فضلاً عن علم الفلك.

وهذه الغيوم التي اهتدى بها الملاحون العرب في تجوالهم في بحر العرب والمحيط الهندي، هي التي اهتدى بها ماجلان في عصر النهضة حين دخل المحيط الهادي من أجل إتمام دورة حول الأرض في سنة ١٥٢٢م/ ٩٢٩هـ.

ويغفل غالبيتنا أن ذاكرة تراثنا تراث الحضارة الإسلامية تحتفظ بذكر فريق من علماء المسلمين قد عرفوا هذه السحب أو الغيوم، وأما إذا أتينا إلى ملاحنا ابن ماجد فسنجد أنه أول من وضع وصفاً واضحاً لهذه السحب بطريقة لا تدع أي مجال للشك، فيكون الأوروبيون قد اغتصبوا بذلك حقاً علمياً حضارياً من حقوق العرب والمسلمين(٧٩).

وفي النهاية، نجمل القول: إن عصر المماليك قدّم أعلاماً أفذاذاً، قدموا بدوره للبشرية إبداعات وإنجازات لا زالت مسطورة في العقول.

ونشير أيضاً إلى أن قسماً كبيراً من المخطوطات التي جاءتنا من ذلك العصر ما زال مخطوطاً ينتظر من يخرجه إلى النور، وهذه دعوة توجه إلى المختصين للتوجه نحو خدمة تراث أمتنا، وفاءً لأولئك العلماء الذي ما بخلوا بأوقاتهم في سبيل البحث والاكتشاف العلمي.

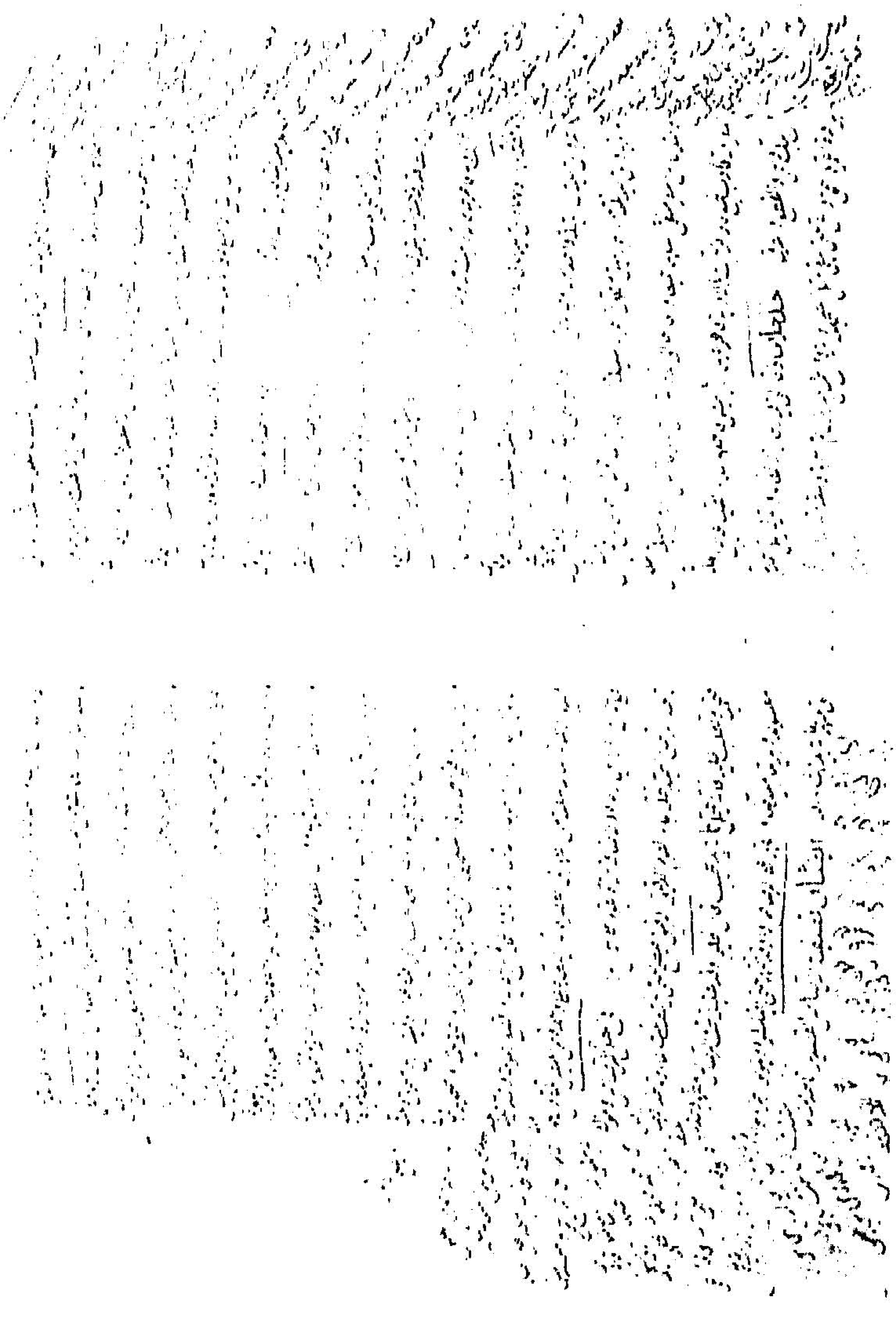

مخطوط في الكيمياء للجلدكي

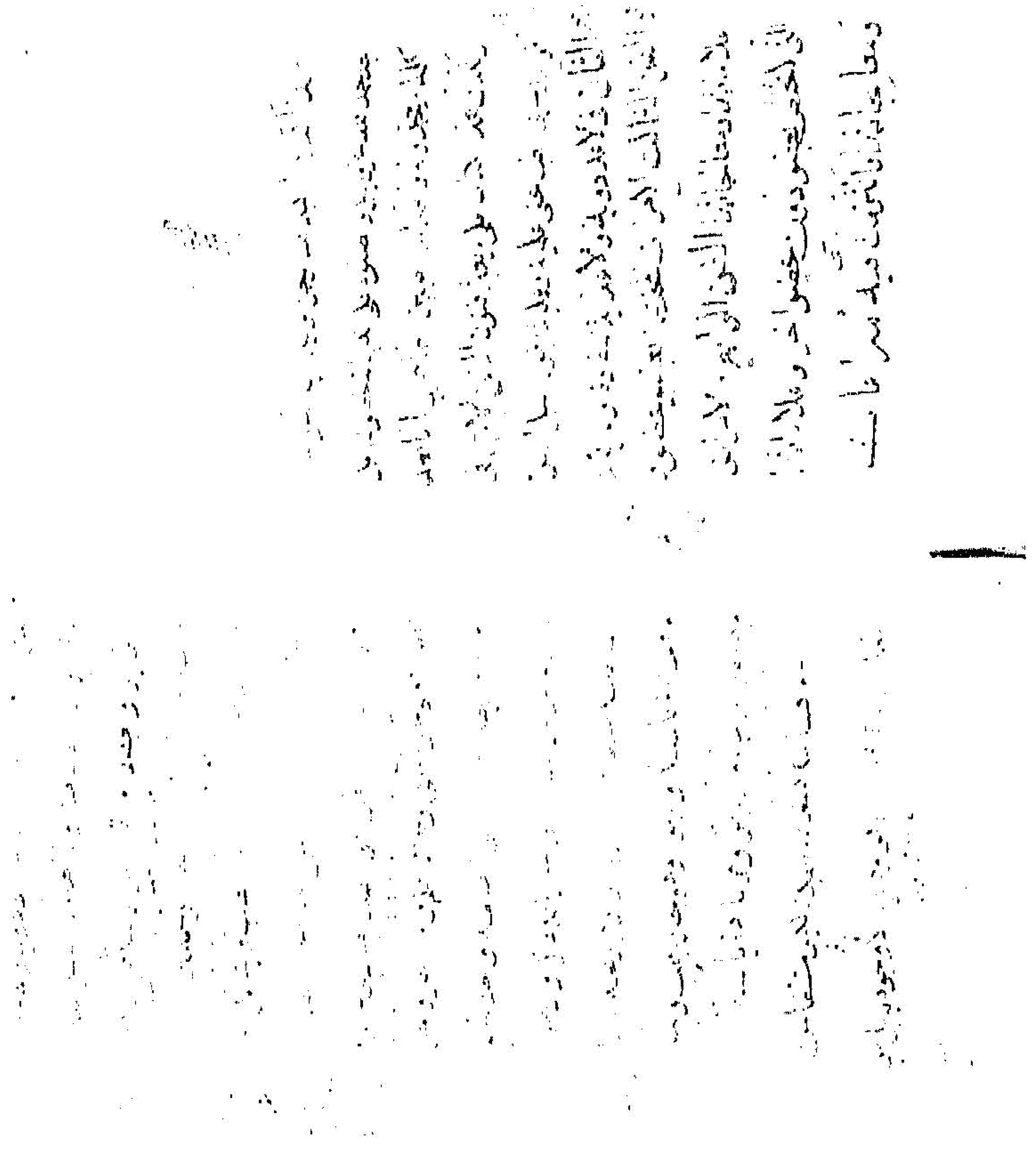

مخطوط في الطب لابن النفيس

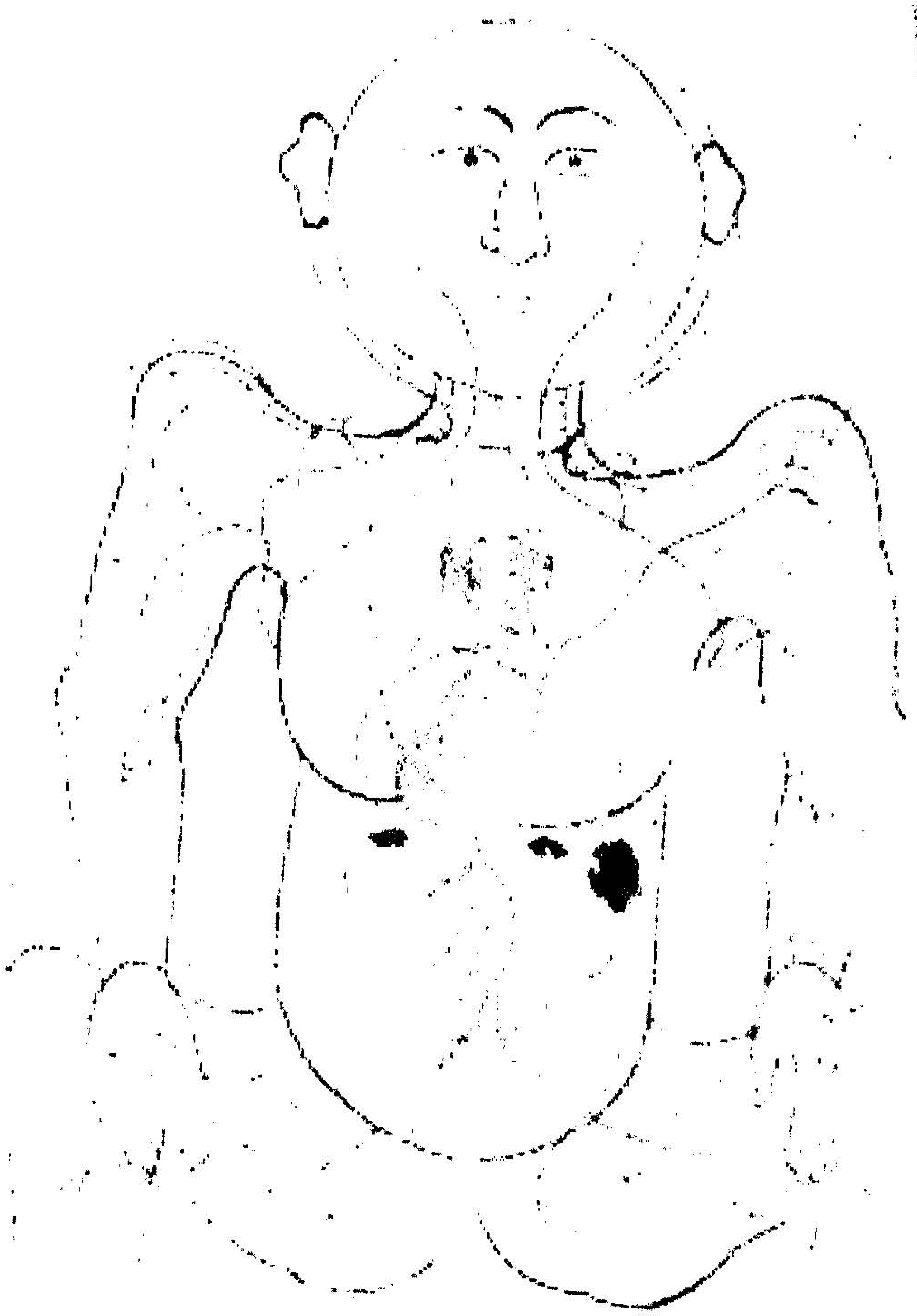

الدورة الدموية لابن النفيس من مخطوط

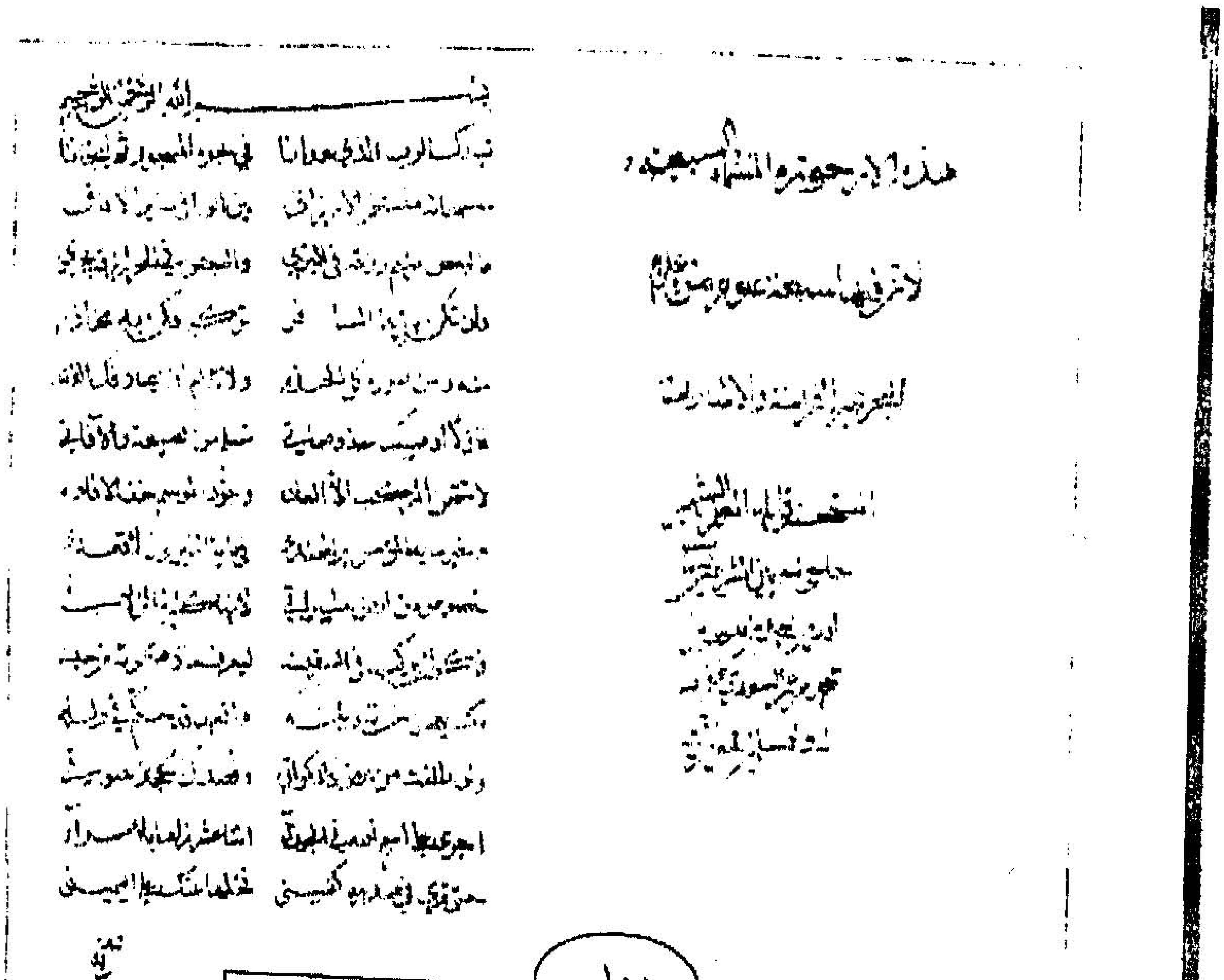
بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٠

الأرجوزة السبعية لأحمد بن ماجد

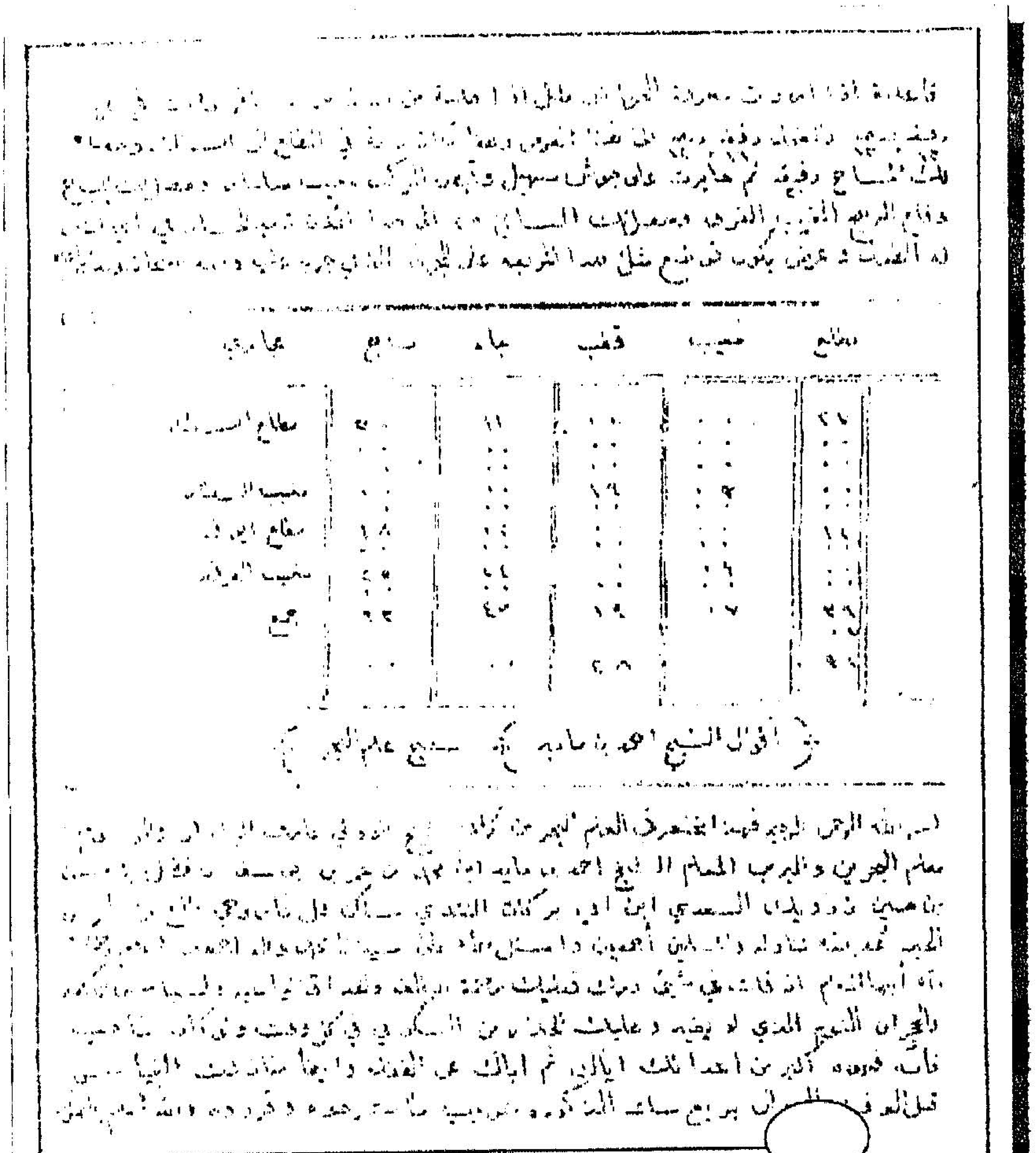

قاعدة لمعرفة المطلع و المغيب مع شيء من أقوال و نصائح الربان الكبير أحمد بن ماجد

الهوامش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن): **تاريخ ابن خلدون مع المقدمة**، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م، ص: ٧٤٩.

(٢) انظر في ذلك عاشور (سعيد)، **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٩م، ص٢٩٣.

(٣) فييت (جاستون): **القاهرة مدينة الفن والتجارة**، تر: مصطفى العبادي، بيروت، نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص١٠٦، ١٠٧.

(٤) بروكلمان (كارل): **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه فارس، منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٨م، ص ٣٧١.

(٥) بورلو (جوزيف): **الحضارة الإسلامية**، تر: ريمة الفوال، دمشق، دار الكتاب العربي، ٢٠٠١م، ص: ٢٤٠، ٢٤٢.

(٦) زقلمة (أنور): **المماليك في مصر**، القاهرة، مطبعة المحلة، ص ١٤.

(٧) حتي (فيليب): **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، تر: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م، ج٢، ص: ١٩.

(٨) انظر **مساجد مصر**- جزءان مصوران- مصلحة المساحة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م.

(٩) محاضرات **مؤتمر الصوفي وابن النفيس**، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩١م، ص: ٦٢.

(١٠) انظر عن ابن النفيس العمري (أحمد بن يحيى): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، مخطوط، آيا صوفيا، استنبول، مكتبة السليمانية، نشرة فؤاد سزكين التصويرية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية. ج٩، ص: ٣٤٩- ٣٥٣، وفيه أوسع ترجمة وجدتها لابن النفيس بين المصادر المملوكية، ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر

في أخبار البشر، تح: أحمد البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٩٧٠م، ج٢، ص: ٣٣٤، النعيمي (عبد القادر بن محمد): **الدارس في تاريخ المدارس**، إعداد إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص: ١٠٣، الأسنوي (عبد الرحيم بن الحسن): **طبقات الشافعية**، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص: ٢٨٤، السبكي: (عبد الوهاب بن علي): **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط٢، ١٩٩٢م، ج٨، ص: ٣٠٥، ٣٠٦، السيوطي (عبد الرحمن): حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، مج١، ص: ٤٤٤، ابن العماد (عبد الحي أحمد): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م، مج٧، ص: ٧٠٢،٧٠١.

(١١) طبيب يوناني، ترجع مكانته إلى أنه أول من دون علم الطب، فهو بذلك صاحب أقدم مؤلفات طبية في التاريخ الإنساني، بغض النظر عن البرديات الفرعونية، عاش خمسة وتسعين عاماً، انظر عنه: ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص٤٣ وما بعد، ديورانت (ول): قصة الحضارة، تر: علي أبو درة، بيروت، دار الجيل، ج٢، ص: ١٨٤، ١٩٤.

(١٢) الدفاع (علي عبد الله): **أعلام العرب والمسلمين في الطب**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣م، ص: ٢٠١- ٢١٣، غاليونجي (بول): ابن النفيس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص: ١٠٠- ١٠٤، هونكة (زيغريد): شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط٩، ٢٠٠٠م، ص: ٢٦٢- ٢٦٨، عيسى (أحمد): معجم الأطباء، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٩٤٢م، ص: ٢٩٢- ٢٩٦، حميدان (زهير):

أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ج٤، ص: ٩٤- ١٠٥، محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس: ص ٦٢- ١٥٢، مقدمة كتب ابن النفيس التي ستأتي في الأسطر القادمة، الموجز في الطب، والمهذب في الكحل المجرب.

(١٣) ابن النفيس (علي بن أبي الحزم): **المهذب في الكحل المجرب**، تح: محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعه جي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط١، ١٩٨٨م، المقدمة ص: ١٣- ١٩، وانظر الكتاب، ومحاضرات مؤتمر الصوفي وبن النفيس، ص١٠٤- ١٠٨.

(١٤) العمري: **مسالك الأبصار**، نشرة سزكين، ج٩، ص: ٣٤٩- ٣٥٣، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص: ٣٠٥، ٣٠٦، ابن العماد: شذارت الذهب، مج٧، ص: ٧٠١- ٧٠٢.

(١٥) انظر مصادر ومراجع ترجمة ابن النفيس في الحواشي المتقدمة.

(١٦) ابن النفيس، **شرح تشريح القانون**، تح: سليمان قطاية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص: ١٨.

(١٧) **مقدمة كتاب شرح تشريح القانون**، ص: ٥، ٦.

(١٨) انظر مؤتمر الصوفي وابن النفيس، ص: ١٤١- ١٤٣.

(١٩) عدا ما كان منها خاصاً بالتشريح ووظائف الأعضاء، فقد شرحها في كتاب «**شرح تشريح ابن سينا**».

(٢٠) ابن النفيس: **الموجز في الطب**، تح: محسن عقيل، بيروت، دار المحبة البيضاء، ط١، ٢٠٠٢م، المقدمة، ص: ١٢، ٣٧، ٤٠. وانظر الكتاب.

(٢١) حاجي خليفة (مصطفى القسطنطني): **كشف الظنون**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م، ج٢، ص: ١٩٠٠.

(٢٢) ابن النفيس: **شرح فصول أبقراط**، تح: ماهر محمد علي، يوسف زيدان، بيروت، دار العلوم العربية، ط١، ١٩٨٨م، **المقدمة**، ص: ٢٦، ٦٢، ٦٣. وانظر الكتاب.

(٢٣) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص: ٧٦٧، ٧٦٨، اليونيني (موسى بن محمد): **ذيل مرآة الزمان**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م، ج٤، ص: ٣١٢، ٣١٤.

(٢٤) ابن القف الكركي (أبو الفرج بن يعقوب): **العمدة في صناعة الجراحة**، تح: سامي خلف العمارنة، عمان، الأردن، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م، المقدمة، ص: ٢١، ٢٢، وانظر الكتاب.

(٢٥) ابن أبي أصيبعة: **المصدر المتقدم**، ص: ٧٦٨.

(٢٦) الصفدي (خليل بن أبيك): **أعيان العصر وأعوان النصر**، تح: علي أبو زيد وآخرين، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص: ٢٢٥، ٢٣١، الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ج٣، ص: ٢٥- ٢٦، ابن حجر (أحمد بن علي): الدرر **الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م، ج٣، ص: ٣٦٦- ٣٦٧، ولا يذكر كتاب كشف الرين. الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تح: حسين العمري، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ص: ٥٩٨، حميدان: **المرجع المتقدم**، مج٤، ص: ١٨٩- ١٩١، بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، تر: عبد الحليم نجار وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ج٦، ص: ٥٦٩؛ وحميدان وبروكلمان هما الوحيدان اللذان ذكرا كتاب «**نهاية القصد في صناعة الفصد**»، والفصد يعني شق العرق لاستخراج الدم، انظر ابن منظور (جمال الدين محمد): **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٧م، مج٣، مادة فصد، ص: ٣٣٦.

(٢٧) ابن الأكفاني (محمد بن إبراهيم): **كشف الزين في أحوال العين**، تـح: محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعه جي، الرياض، **مركز الملك فيصل**، ط١، ١٩٩٣م، ص: ٠٣

(٢٨) المصدر نفسه، **المقدمة**، ص: ٢٩، ٣٠، وانظر الكتاب.

(٢٩) ابن كثير (إسماعيل): **البداية والنهاية**، تح: حامد الطاهر، القاهرة، دار الفجر، ط١، ٢٠٠٣م، ج١٣، ص: ٢٦٦، اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج٢، ص: ٤٣٧، حاجي خليفة: المصدر المتقدم، ج٥، ص: ٩٦، الزركلي (خير الدين): **الأعلام، بيروت**، دار العلم للملايين، ط١٢، ١٩٩٧م، ج١، ص: ١٩٧، مقدمة كتاب **عيون الأنباء** لابن أبي أصيبعة، ص:٥.

(٣٠) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص: ٢٥٠، (أباظة) نزار وغيره: **موسوعة الأوائل والمبدعين**، دار المنبر، ج٥، ص: ٨١٦، ٨١٧.

(٣١) الصفدي: **أعيان العصر**، ج١، ص: ١٣٤، ١٣٥، الصقاعي (عبد الله): **تالي كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان**، تح: جاكلين سوبلة، دمشق، ١٩٧٤م، ص: ٤٦، بدوي (أحمد): **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية**، القاهرة، دار نهضة مصر، ص: ٤٦، ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج١، ص: ٧٧، المقريزي (أحمد بن علي): **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨م، ج٢، ق١، ص: ٥٠.

(٣٢) ابن أبي أصيبعة: **المصدر المتقدم**، ص: ٥٩٠- ٥٩٧، الصقاعي: **تالي كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان**، ص: ٣٢١.

(٣٣) البيطرة علم يبحث في أحوال الحيوان وخاصة الخيل من جهة حفظ صحته وإزالة مرضه، انظر طاش كبري زاده (أحمد): **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، تح: علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص: ٢٧٥.

(٣٤) عُرف عن الناصر محمد بن قلاوون شغفه بالخيل، حتى أصبح أول من اتخذ من ملوك مصر ديواناً للإصطبل، يقول ابن تغري بردي في ذلك: «وكان مشغوفاً أيضاً بالخيل، فجُلبت له من البلاد، ولاسيما خيول العرب، وكان له في كل طائفة من طوائف العرب عين يدله على ما عندهم من الخيل، وكان له معرفة تامة بالخيل وأنسابها، وهو أول من اتخذ من ملوك مصر ديواناً للإسطبل السلطاني»، انظر ابن تغري بردي (يوسف): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ج٩، ص: ١٢٨، ١٢٩.

(٣٥) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، مج٢، ص: ١٣٨٠، ١٣٨١- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ج٦، ص: ٥٦٨، حميدان: **المرجع المتقدم**، مج٣، ص: ١٨٠، كحالة (عمر): **العلوم البحتة في العصور الإسلامية**، دمشق، المكتبة العربية، ١٩٧٢م، ص: ٥٨.

(٣٦) البيطار (أبو بكر بن المنذر): كاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل، تح: عبد الرحمن الدقاق، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩١م، ص: ٦٩- ٣٦٧، وانظر حميدان: المرجع المتقدم، مج٣، ص: ١٨٠.

(٣٧) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص: ١٦٣ وما بعد، الأسنوي: **طبقات الشافعية**، ج١، ص: ٢٧٣، ٢٧٤.

(٣٨) الذهبي (محمد بن أحمد): **الطب النبوي**، مصر، مطبعة البابي، ط١، ١٩٦١م، ص: ٣.

(٣٩) ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر): **الطب النبوي**، مراجعة وتعليق عبد الغني عبد الخالق، دمشق، دار كرم، ص: ٣.

(٤٠) ابن فرحون (إبراهيم): **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تح: محمد الأحمدي، القاهرة، دار التراث، ج١، ص: ٤٤٨.

(٤١) التيفاشي (أحمد بن يوسف): **الشفا في الطب المسند عن السيد المصطفى**، تح: عبد المعطي قلعجي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٩٨٨م، الكتاب.

(٤٢) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: ٦٥١.

(٤٣) يمكن الوقوف على حقائق طبية كثيرة من خلال كتب الطب النبوي المتقدمة.

(٤٤) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، ص: ٢٩٨، ٢٩٩، ابن حجر: **إنباء الغمر بأنباء العمر**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦م، ج١، ص: ١٧٢، ١٧٣، ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٣، ص: ٧٧، ابن العماد: **شذرات الذهب**، مج٨، ص: ٤٣٥.

(٤٥) علم المواقيت: هو علمٌ تُعرف منه أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصل إليها، ومنفعته في معرفة أوقات العبادات والطوالع والمطالع من أجزاء البروج والكواكب الثابتة التي فيها منازل القمر ومقادير الأظلال والارتفاعات وانحراف بعضها عن بعض وسموتها. انظر القنوجي (صديق): أبجد العلوم، أعده للطبع ووضع فهارسه عبد الجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٨م، ج٢، ق٢، ص: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٤٦) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، ص: ٢٩٨، ٢٩٩.

(٤٧) غانم (عماد): **ابن الشاطر**، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨٤م، ص: ١٣، مقدمة كتاب الساعاتي (رضوان): **علم الساعات والعمل بها**، تح: محمد أحمد دهمان، ص: ٥٢.

(٤٨) حميدان: **المرجع المتقدم**، مج٤، ص: ٨٢، **مقدمة كتاب الساعاتي**، المرجع المتقدم، ص: ٥١.

(٤٩) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج١، ص١٧٩- ١٨٣. الكتبي (محمد بن شاكر): **فوات الوفيات**، تح: إحسان عباس، بيرون، دار صادر، ج٣، ص٢٤٦- ٢٥٢. أباظه: **موسوعة الأوائل** ج٥، ص٨٢٣- ٨٢٥.

(٥٠) الأدفوي (جعفر بن ثعلب): **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**، تح: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص: ٤٦٩- ٤٧١، المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص: ٣٨٢، السيوطي: **حسن المحاضرة**، مج١، ص: ٤٤٤.

(٥١) حميدان: **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، مج٤، ص: ١٧٨، ١٧٩- أباظة: **موسوعة الأوائل والمبدعين**، ج٤، ص: ٧٩١.

(٥٢) ابن فرحون: **الديباج المذهب**، ج١، ص: ٢٣٦، ٢٣٧.

(٥٣) حميدان: **المرجع المتقدم**، مج٣، ص ٢٩.

(٥٤) حميدان: **المرجع المتقدم**، مج٣، ص: ٢٩، **مقدمة كتاب الساعاتي**: علم الساعات والعمل بها، ص: ٦٥.

(٥٥) باشا (أحمد تيمور): **التصوير عند العرب**، أخرجه زكي حسن، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٤٢م، ص: ٧٩.

(٥٦) المرجع **المتقدم نفسه**، ص: ٧٩، ٨٠.

(٥٧) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: ٦٩٦.

(٥٨) المصدر **المتقدم نفسه**، ص: ٧١٩. وانظر غنيمة (محمد عبد الرحيم): **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، تطوان، دار الطباعة المغربية، ١٩٥٣م، ص: ١١٧، ١٧٢.

(٥٩) ابن خلدون: **المصدر المتقدم**، ص: ٦٩٦.

(٦٠) الصفدي: **أعيان العصر**، ج١، ص: ٢٤٦.

(٦١) ابن العماد: **شذرات الذهب**، مج٨، ص: ٢٩٠.

(٦٢) حميدان: **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، مج٣، ص: ١٦٠- ١٧٠، الدفاع (علي): **إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣م، ص: ٢٨٠- ٢٩٤، الشكيل (علي): الكيمياء في الحضارة

الإسلامية، صنعاء، اليمن، مكتبة الجيل الجديد، ص: ٩٠- ٩٢، كحالة: العلوم البحتة، ص: ٥٩، ٢٦٨، ٢٦٩، الأمين (محسن): **أعيان الشيعة**، تح: حسن الأمين، بيروت، دار التعارف، ١٩٨٣م، ج١٢، ص: ١٧، ١٨، الطهراني (اقابزرك): **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، بيروت، دار الأضواء، ج٣، ص: ٨٩. وانظر حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٥، ص: ٧٢٣، ٧٢٤.

(٦٣) جافي (برنارد): **بواتق وأنابيق**، تر: أحمد زكي، مؤسسة فرانكلين: ١٥٣، ١٥٤. وانظر نوفل (عبد الرزاق): **المسلمون والعلم الحديث**، دار الكتاب العربي، بيرون، ٥٦.

(٦٤) مريدن (عزة): **فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية**، المجلس الأعلى للعلوم، ١٩٦١: ١٠،٩.

(٦٥) انظر الجلدكي (أيدمر): **المصباح في أسرار علم المفتاح**، مخطوط نُسخ بالقاهرة عام ١٣٠٢هـ= ١٤٨٤م، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، المخطوطات النادرة، رقم ص ١٠٦٦٧٤ن، ص: ١ وما بعدها.

(٦٦) الإكسير اسم يطلق قديماً على الأدوية التي كانت تحضر بالأصول المستخرجة مع غاية الاعتناء من جسم أو جملة أجسام دوائية منتجة، أما الآن فيطلق على جميع المستحضرات الطبية المركبة من الكحول والأصول الدوائية، ويزعم قدامى الكيميائيين أن الإكسير إذا ما ألقي على الفضة حولها إلى ذهب خالص، وكانوا يسمونه حجر الفلاسفة، ولكن الامتحان أثبت بطلان زعمهم. انظر دائرة المعارف: دار المعرفة، بيروت، ج٤، ص ١٣٩.

(٦٧) انظر عن الجلدكي وإبداعاته ومؤلفاته حميدان: **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**: ج٣، ص ١٦٠- ١٧٠. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء: ص: ٢٨٠- ٢٩٤. الشكيل: **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**: ص ٩٠- ٩٢، كحالة: **العلوم البحتة في العصور الإسلامية**: ص ٥٩، ٢٦٨، ٢٦٩،

الأمين: أعيان الشيعة، ج١٢، ص ١٧، ١٨، الطهراني: **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**: ج٣، ص٨٩. وانظر كشف الظنون: ج٥، ص٧٢٣، ٧٢٤.

(٦٨) انظر كراتشكوفسكي (إغناطيوس): **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر: صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م: **المرجع المتقدم**، ص: ٥٠٧.

(٦٩) ابن عبد الظاهر (محيي الدين): **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تح: مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط١، ١٩٦١م، المقدمة، ص: ١٠ وما بعد، الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص: ١٧٩- ١٩١، ابن حبيب (الحسن بن عمر): **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تح: محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م، ج١، ص: ١٦٤، القلقشندي (أحمد بن علي): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص: ٩٨.

(٧٠) عنان (محمد عبد الله): **نهاية الأندلس**، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٨٧م، ص: ٥١.

(٧١) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، مج١، ص: ٩٢٥.

(٧٢) انظر ابن عبد الظاهر (محيي الدين): **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، تح: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، مكتبة الدار العربية، ط١، ١٩٩٦م، الكتاب.

(٧٣) **مقدمة المصدر** المتقدم نفسه، ص: ٢.

(٧٤) انظر عن اقتباسات المقريزي من الروضة البهية المقريزي (أحمد بن علي): **الخطط المقريزية**، بيروت، دار صادر: ج١، ص: ٣٨٤، ٤٠٤، ٤٠٨، ٤٦٢، ٤٧٠، ٤٨١، ج٢، ص: ١٦، ٢٥، ١٠٢، ١١٤، ١٤٤، ٣٦٨، ٤٦٣.

(٧٥) انظر عن اقتباسات القلقشندي من **الروضة البهية صبح الأعشى**، ج٣، ص: ٣٣٢، ٣٨٦، ٣٩٤، ٤٠٠، ٤٠٤، ٦٠٢، ج٦، ص: ٢٩٨، ج١٠، ص: ٥٠

(٧٦) المقريزي: المصدر المتقدم، ج١، ص: ٥٠

(٧٧) ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج١، ص ٣٩٦- ٣٩٩٩. السبكي: **طبقات الشافعية**: ج٩، ص ٤٠٣ وما بعد. ابن قاضي شهبه (أبو بكر بن أحمد): **طبقات الشافعية**، تح: عبد العليم خان، بيروت، دار الندوة، ١٩٨٧م، ج٢، ص ١٠٩- ١١١. أباظة: موسوعة الأوائل ج٥، ص٨٥٩- ٨٦٠. **الموسوعة العربية العالمية**: الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ج١٧، ص ٢٤١. كحالة (عمر): **معجم المؤلفين**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص ٣٧٢.

(٧٨) حميدان: **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**: ج٣، ص ٧٢. أباظة: **موسوعة الأوائل والمبدعين**: ج٥، ص ٩٣٢- ٩٣٤. محمد سالم (خالد): ربابنة الخليج العربي، الكويت، ط١، ١٩٨٢م، ص: ٨١- ٨٥.

(٧٩) انظر دور العرب لبدوي: ص ٢٢٥- ٢٢٩. مقبل (فهمي): **دور العرب في اكتشاف العالم الجديد**: دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م، ص: ٩٨. أباظة: **موسوعة الأوائل والمبدعين**: ج٥، ص ٩٣٢. الحموي (ياقوت): **معجم البلدان**، تح: فريد الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية: ج١، ص ٤٠٨.